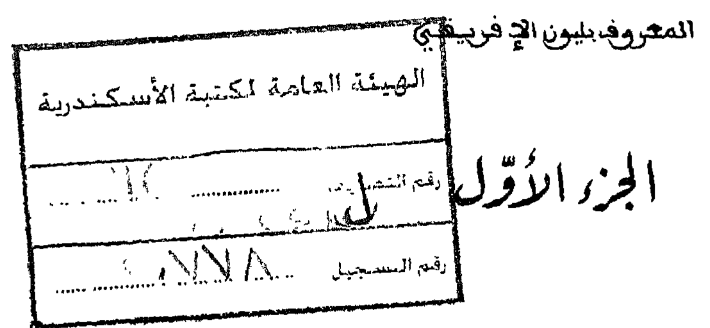
منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

وَصْف إفريقيَا

للحسن بن محمد الوزان الفاسي

المعروف بليون الإفريقي



الجزء الأول

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي

دكتور دولة من جامعة السربون

محمد الأخضر

دكتور دولة من جامعة السربون

الطبعة الثانية



طبعة ثانية 1983

دار الغرب الإسلامي

ص. ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نفاد طبعة كتاب علمي في أقل من سنتين ظاهرة جديدة في المغرب تبشر بالخير، وتنبيء نبأ يقين بأن طبقة القراء في تزايد وتكاثر، وأن غد هذه البلاد السعيدة في ميدان الفكر خير من يومها.

لقد كتب الأستاذ محمد بن العربي من مراكش تعليقا مطولا في العلم الثقافي (6 مارس 1981) على الجزء الأول من ترجمتنا لكتاب **وصف إفريقيا**، دلت على روحه العلمية، وسعةاطلاعه على المصادر العربية والأجنبية، واستفدنا من ملاحظاته القيمة في هذه الطبعة الثانية لا سيما في البيبليوغرافيا. وأشار الناقد المحترم، بشيء غير قليل من الالحاح والاستعجال، إلى ترجمة أخرى لـ **وصف افريقيا** صدرت في المشرق بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الاسلامي بالرياض سنة 1979 مستغرباً سكوتنا المطبق عنها. وقد ضربنا فعلا عنها صفحاً لأمرين: أولهما أن الجزء الأول من ترجمتنا كان قد قدم إلى المطبعة قبل انعقاد المؤتمر الجغرافي؛ والثاني أن جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض التي استدعتنا لحضور المؤتمر، بعد أن اطلعت على الفصل المنشور من ترجمتنا لوصف افريقيا بالمجلة التاريخية المغربية الصادرة بتونس (العدد 12، يوليوز 1978، ص 202-206) ألحت ــ في مراسلات متعددة ــ على ان تطبع ترجمتنا (أنا والأستاذ الأخضر) لـ **وصف إفريقيا** بمناسبة انعقاد المؤتمر، لكننا اعتذرنا بضرورة التريث والتمهل في نشر ترجمة نص في غاية الصعوبة والتعقيد. ولما لم تجد الجامعة منا استجابة لطلبها كلفت الدكتور عبد الرحمان حميدة بترجمة الكتاب وطبعه في

بضعة أشهر! وفوجئت في المؤتمر بالكتاب، فأقبلت على قراءته، وتعرفت منذ الصفحات الأولى على حالته المفجعة، ــ بتراً وخلطاً وقلباً ــ وعوضاً عن البحث الذي هيأته عن الوزان ووزع على اعضاء المؤتمر خصصت تدخلي في الجلسة العلنية لانتقاد هذه الترجمة انتقاداً لاذعاً ومهذباً بحضور الدكتور عبد الرحمان حميدة. وما كان غرضي التعرض إلى هذا الموضوع، ولو ترك القطا لنام.

الرباط في فاتح ربيع الثاني 1402 / 27 يناير 1982

محمد حجي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الأولى

(أ) ترجمة المؤلف(*):

الحسن بن محمد الوزان الفاسي شخصية عربية إسلامية فـذة، اجتمع له من الخصال العلمية والإنسانية ماجعل الغربيين المسيحيين

(*) مصادرترجمة الحسن الوزان الفاسي (مرتبة ترتيباً زمنياً):

1 ــ الحسن الوزان نفسه في كتابه وصف افريقيا، في مواضع متعددة.
2 ــ المعلم بطرس البستاني، دائرة المعارف، 28:4. سنة 1876.
3 ــ سليم أفندي ميخايل شحادة، في الجغرافية وجغرافيي الاسلام، مجلة المقتطف، سنة 1883، ج 7، ص 713.
4 ــ شفير، مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب وصف افريقيا سنة 1896 ص 38.
5 ــ ل. ماسينون، المغرب في السنوات الأولى من القرن السادس عشر، سنة 1906، ص 32 وما بعدها.
6 ــ ل. ماسينون، دائرة المعارف الاسلامية، 3:22-32.
7 ــ مترجمو ليون الافريقي، هيسبريس، سنة 1930.
8 ــ محمد المهدي الحجوي، حياة الحسن الوزان وآثاره، سنة 1933.
9 ــ سعيد حجي، سلسلة مقالات في مجلة المغرب، ديسمبر 1934،يناير ــ ابريل 1935.
10 ــ ج. كولان، تعليق على كتاب حياةالحسن الوزان وآثاره، هيسبريس، 1935، ص 94-98.
11 ــ ك. بروكلمان، ملحق، سنة 1937، 2:710 (وذكر بعض مراجع ترجمته).
12 ــ ريمون موني، الأسفار العظيمة لليون الافريقي، هيسبريس جزء 41، سنة 1945، ص 379-394.
13 ــ ايبولار مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب وصف افريقيا، سنة 1956، ص 5-11.
14 ــ اغناطيسون كرا تيدكوفسكي، الأدب الجغرافي عند العرب، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، سنة 1957 القسم الأول ص 450-455.
15 ــ محمد داود، تاريخ تطوان، 1:87، هامش 1. سنة 1957.

يقدرونه حق قدره ويستفيدون من تأليفه الجغرافي في عصر النهضة، بل يعتمدونه كمصدر أساسي عن افريقيا طوال العصر الحديث. أما العرب المسلمون فلم يعرفوا عالمهم الوزان ولم يعرفوا به وأغفلوا كتابه القيم في زوايا النسيان.

☐ في البيئة الإسلامية:

ينتسب الحسن بن محمد الوزان إلى قبيلة بني زيات الزناتية، الواقع موطنها في أقصى غرب بلاد غمارة من سلسلة جبال الريف المغربية، بين ساحل البحر المتوسط ومجرى وادي لاو القريب من مدينتي شفشاون

= 16 ــ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، 292:3. سنة 1957.

17 ــ أحمد أبو سعيد، كتاب أدب الرحلات، سنة 1961.

18 ــ الدوميلي، **العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي**، ترجمة عبد الحليم النجار وآخر، سنة 1962، ص 531-532 و 537-539.

19 ــ محمد عبد الله عنان، **الحسن الوزان أوليون الافريقي**، مجلة العربي سنة 1962، عدد 43.

20 ــ نجيب العقيقي، **المستشرقون**، 136:1-137، سنة 1964.

21 ــ محمد المختار السوسي، **إيليغ قديماً وحديثاً**، ص 210، هامش 443، سنة 1966.

22 ــ محمد عبد الله عنان، **شخصية الحسن الوزان الغرناطي**، محاضرة بالفرنسية في جنيف سنة 1967. (جريدة العلم الرباطية، 21 أبريل 1967).

23 ــ بوفيل، **الممالك الاسلامية في غرب افريقيا**، ترجمة د. زاهر رياض ص 157-171. القاهرة 1968.

24 ــ عبد القادر زمامة، **ليون الافريقي**، مجلة اللقاء، العدد 10، ص 115-117، يناير 1969.

25 ــ مصطفى مسعود، **الحسن بن محمد الوزان**، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، سنة 1970.

26 ــ شوكت الشطي، **نظرات الى ثقافة العرب الطبية في الحضارة الأندلسية**، سنة 1972.

27 ــ جمال زكريا قاسم، **الحسن الوزان رحالة عربي ومصنف فرنجي**، مجلة العربي، يونية 1972.

28 ــ عبد الهادي التازي، **جامعة القرويين**، 507:2. سنة 1973.

29 ــ شوقي عطا الله الجمل، محمد الحسن الوزان، **مجلة المناهل**، مارس 1975.

30 ــ محمد حجي، **الحياة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، سنة 1977. 23:1-26 و 348:2-349.

31 ــ محمد أحمد زوام، الحسن الوزان ــ رسالة ماجستير ــ مخطوط بمعهد الدراسات الافريقية بالقاهرة، 1398.

وتطوان. عاشت أسرته حقباً من الزمن في الفردوس المفقود، وولد هو بمدينة غرناطة قبيل سقوطها في يد الاسبانيين. ويختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته، فيجعلها بعضهم عام 1495/901، وبعضهم عام 1500/906، أخذا من تاريخين وردا في كتاب **وصف افريقيا** استطرد المؤلف بعدهما ذكر سنه عن طريق الربط والمقارنة. ولا يستقيم كلا التقديرين عادة، لأنه يلزم منهما أن الحسن الوزان دخل الحياة العامة عدلاً وسفيراً في سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة، لذلك نرجح ما ذهب إليه غير واحد من أن الوزان ولد حوالي عام 888/ 1483 أي قبل سقوط غرناطة بنحو عشر سنوات، وانتقل مع أسرته صغيراً إلى فاس حيث درس على أعلام القرويين الكثيرين وعلى رأسهم آنذاك الإمام محمد بن غازي المكناسي الذي يفترض أن الوزان قرأ عليه بعض الكتب التي اشتمل عليها فهرسه المعنون بـ **التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد**، هذا الفهرس الذي كان ابن غازي يجيز به تلاميذه، ويحتوي على علوم اللغة وآدابها، والعقائد والفقه والتصوف، والتفسير والقراءات والحديث والسير والحساب والفلك والمنطق ربما إلى ذلك من العلوم المعروفة عند المسلمين. ويؤكد هذا الافتراض ما نقف عليه استطراداً في كتاب **وصف افريقيا**، إذ نجد المؤلف يستهل حياته العلمية بالانتصاب للشهادة مع عدول فاس الرسميين، ثم نجده يجالس الفقهاء والقضاة في المدن والقرى التي يزورها خلال رحلاته العديدة، يناظرهم ويناقشهم في نوازل فقهية وفتاوي دقيقة. وهو إلى ذلك كاتب شاعر يحبر الرسائل وينظم القصائد فيكون محط اعجاب الرؤساء وينال من عطاياهم، وحيسوبي ماهر يستخلص واجبات بيت المال من القبائل.

هذا النبوغ المبكر للحسن الوزان لفت إليه نظر سلطان فاس محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي فقربه إليه ونظمه في سلك رجال بلاطه، وأسند إليه ــ على حداثة سنه ــ مهام سياسية خطيرة في ظرف كان المغرب خلاله يشكو علة التقسيم إلى مملكتين في الشمال والجنوب، وإمارات

مستقلة في الجهات النائية، واحتلال برتغالي ــ اسباني لعدد من الثغور المغربية على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطيقي.

هذه المهام السياسية المسندة إلى الحسن الوزان، بالاضافة إلى النشاط الديبلوماسي والتجاري لأسرته، هي التي دفعته إلى القيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه وتسجيل مشاهداته في مذكرات شبه يوميات غدت على مايظهر أساس كتابه الجغرافي الذي سنتحدث عنه فيما بعد. أشار الوزان إشارة عابرة إلى رحلات صحب فيها وهو صغير أباه إلى اقليم جبال الريف والأطلس المتوسط، وكان أبوه مكلفاً من قبل السلطان بجمع ضرائب هذه المنطقة. كما أشار إلى رحلة أخرى طويلة زار أثناءها بلاد مصر والجزيرة العربية والعراق وفارس وأرمينيا والتتار. قائلاً عنها: تلك البلاد التي رأيتها وقطعتها في صغري.

أما الرحلات التي فصل القول فيها في **وصف افريقيا** وكانت مادة هذا الكتاب فهي تسع:

1 ــ **رحلة إلى الشواطىء الغربية القريبة من فاس**، حيث حضر محاصرة الوطاسيين لمدينة أصيلا المحتلة من طرف البرتغاليين، عام 1508/914، ثم زار منطقة سلا في آخر السنة نفسها.

2 ــ **رحلة إلى وسط المغرب**، حيث زار منطقة تادلا، ومدينة تفزا بعد أن خضعت لحكم الوطاسيين. وتعرف في هذه الرحلة على الشريف السعدي محمد القائم بأمر الله الذي بويع في الجنوب أميراً للجهاد، عام 1509/915. وكانت العلاقات آنذاك طيبة بين مملكة فاس وإمارة السعديين الناشئة، لاتحاد وجهة نظرهما في ضرورة التعاون لمناهضة المسيحيين المحتلين، لا سيما في المناطق النائية عن فاس التي لا تصل إليها كتائب الجهاد الوطاسية. وسيتردد الحسن الوزان على هذه المنطقة الحساسة أكثر من مرة ليقوم بأدوار سياسية باسم كل من الملك الوطاسي والأمير السعدي في محاولة لاسترجاع أحد الرؤساء المحليين المنحرفين، وهو يحيى بن تعففت الذي انبسط نفوذه على بلاد عبدة

ودكالة وطرف من تادلا تحت حماية البرتغاليين الذين كانوا يزودونه بالمال والعتاد، وأصبحوا من ورائه يهددون داخل البلاد حتى وصل فرسانهم إلى أسوار مراكش، بعد أن كان الاحتلال المسيحي لا يتجاوز سيف البحر. وإذا كان اتصال الحسن الوزان بيحيى ابن تعففت لم يسفر عن نتيجة ايجابية، ولم يحقق صرف هذا القائد الضال عن محالفة العدو المسيحي، فإنها كانت فرصة لصاحبنا أن يجوس خلال الديار المحتلة ويتعرف على ناحية أسفي وعبدة. وسيقضي السعديون بعد سنوات على يحيى وحلفائه في معركة فاصلة.

3 ـ **رحلة إلى بلاد السودان**، صحب فيها عمه الذي كان مكلفاً عام 1511/917 بسفارة بين ملك فاس محمد الوطاسي البرتغالي وملك سنغاي محمد أسكيا الكبير، وقد سلكوا في الذهاب الطريق الغربي عبر مراكش ودرعة، وأخذوا في الرجوع طريق سجلماسة ـ فاس.

4 ـ **رحلة إلى الأطلس الكبير**، حين كلف عام 918/12-1513 بمهمة سياسية لدى القبائل الساكنة في جبال دادس وما حواليها. فتجول في هذه المنطقة سبعة أشهر ولم يرجع إلى فاس إلا في أواخر السنة.

5 ـ **رحلة أخرى إلى بلاد حاحا في السنة التالية**، 1514/919 كلف أثناءها بالاتصال بالأمير السعدي محمد القائم بأمر الله الذي بايعته آنذاك قبائل المنطقة وأخذ سلطانه يشمل حتى سفوح الأطلس الغربية والشمالية. ويبدو أن الوزان وفق في مهمته السياسية هذه فثبت الود والتعاون بين الامارتين أو المملكتين في الشمال والجنوب، وتمكن من زيارة منطقة أخرى لم يكن يعرفها، إذ كان لقاؤه بالشريف السعدي في مدينة تسكدلت، وصحبه من هناك إلى مدينة تكاووست في وسط سوس ثم تركه ورجع عن طريق دكالة، فحضر معركة بولعوان بين المغاربة والبرتغاليين قبل أن يلتحق بمراكش.

6 ـ **رحلة من مراكش إلى سوس عبر ممر أمزميز عام 1515/920**، حيث اخترق جبال الأطلس ليلتقي بالشريف السعدي. ولعل زيارة مراكش

هذه كانت بايعاز من الشريف لربط الصلات مع الأمير الناصر الهنتاني الذي كان مستبداً بمنطقة مراكش سهلاً وجبلاً. وإذا صح هذا الافتراض فإن رحلة الوزان كانت أيضاً موفقة سياسياً لأنه لن تمضي سنوات حتى تنضم مراكش إلى السعديين، مثلما كانت موفقة علمياً حيث اطلع على جغرافية المنطقة وتعرف على جبالها وقراها وسكانها.

7 ــ **رحلة إلى الحجاز في أواخر عام 1516/921**، سلك فيها مع ركب الحجاج الفاسيين الطريق الشمالية عبر مدن تازا فدبدو فتلمسان فتونس.

8 ــ **رحلة إلى الآستانة**، خرج إليها بعد أداء فريضة الحج للقاء السلطان سليم الأول سفيراً لديه من قبل ملك فاس محمد الوطاسي البرتغالي. غير أن سليمًا كان قد خرج في حركته العسكرية الكبرى للاستيلاء على بلاد الشام ومصر، فلحق به الوزان هناك وحضر معه المعارك العنيفة التي انتهت يوم 21 ربيع الأول 13/923 أبريل 1517 بالقضاء على مقاومة المماليك في مصر. ومكث في زيارة بلاد الكنانة بضعة أشهر إلى أن خرج السلطان سليم من الاسكندرية، فصعد هو مع النيل إلى السودان وتجول فيه قبل أن يبحر إلى جدة ويزور الينبوع. وقد استغرق في ذلك بقية عام 923.

9 ــ **الانتقال إلى البلاد الليبية والتونسية في طريق الرجوع إلى المغرب**. ويبدو أن الحسن الوزان مكث هناك حوالي سنتين، إذ نجده في عام 1520/926 يبحر من تونس ليعود إلى المغرب، لكن سوء الحظ أوقعه في أيدي القراصنة الايطاليين فأسروه بالقرب من جزيرة جربة، وأخذوه إلى نابولي ثم قدموه هدية إلى البابا في روما.

□ **في البيئة المسيحية:**

من المعروف أن البابا ليون العاشر (Léon X, Jean de Médicis) من باباوات عصر النهضة الذين عملوا على إحياء العلوم والآداب والفنون.

لذلك سر بهذا العالم العربي الشاب الذي قدم إليه، وسرعان ما وثقت الصلة بينهما، لا صلة سيد بأسير ولكن صلة قريب بقريب كان ينشد ضالَّة فعثر عليها. ولعل من أسباب هذا التقارب والتجاوب ذكاء الحسن الوزان وسرعة تأقلمه مع البيئة المسيحية، فهو موريسكي فتح عينه في غرناطة التي كانت اللغة القشتالية الوثيقة الصلة باللاتينية منتشرة فيها، والكنائس بأساقفتها وطقوسها منبثة في جوانبها. ولا نظن الوزان إلا أنه كان يتفاهم مع البابا بلغة عجمية ويقدر ظروف أسره تقديراً موضوعياً، مدركاً أنه لا يمكن أن يعيش عيشة إسلامية في بؤرة المسيحية، فتظاهر بالتمسح وحمل اسم مالكه وحاميه البابا فصار يدعى (J. Léon) أو يوحنا الأسد الغرناطي أو الافريقي، تستراً وعملاً بقول الله تعالى: **﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّه مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إلاَّ مَن أكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ﴾**.

ولنا أكثر من دليل على استمرار إسلام الحسن الوزان وثبات عقيدته طوال السنين الثلاثين التي قضاها أسيراً في ايطاليا. من ذلك:

1 ــ الصبغة الإسلامية المتجلية في كتاب **وصف افريقيا** كلما تحدث المؤلف عن عادة أو عيد أو غير ذلك مما يخص المسلمين نسبه إلى نفسه مع جماعة المسلمين قائلاً «عندنا» وهذا كثير في الكتاب، بينما لم ينسب فيه لنفسه شيئاً مع المسيحيين بخصوص الطقوس الدينية ولو مرة واحدة. وإنما عبر بقوله (عندنا هنا في ايطاليا) عن بعض المزروعات وعادات الفلاحين وما إلى ذلك من الأمور الدنيوية العادية.

2 ــ اهتمام الكتاب بالملامح الإسلامية في المدن والقرى التي زارها المؤلف واعتزازه بالتعرف على حملة الشريعة الإسلامية من فقهاء وقضاة ومفتين، ولو أنه يحكي واقعاً حدث قبل انتقاله إلى البيئة المسيحية، إذ لو تنصر حقاً لاستنكف عن ذكر ذلك أو استهجنه على الأقل، وذلك ما لم يقع.

3 ـــ التواريخ المذكورة في **وصـــف افريقيـا** كلها هجرية إلا مرات قليلة جداً ورد فيها التاريخ الميلادي، وقد أحصى ماسينيون التواريخ المذكورة في القسم المتعلق بـالمغرب الأقصى من كتـاب **وصـف افريقيـا** فإذا هي 72 تاريخاً، منها 67 بالتاريخ الهجري و 4 بالميلادي، وواحد مؤرخ بسنة طرد اليهود من اسبانيا عـلى طريق التـزامن التاريخي.

4 ـــ تمسك المؤلف باسمه الإسلامي رغم مرور سنين عديدة على أسره وتداول اسمه المسيحي، فهو حينما يوقع في نابولي أو روما أحد كتبه يقول: «العبد الفقير إلى الله مؤلفه يوحنا الأسد الغرناطي المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي». وماذا يا ترى يمكن لأسير في مثل ظروفه أن يفعـل أكثر من ذلـك للتعبير عن حنينـه إلى ماضيـه الإسلامي. بل نلاحظ أن نسبه «الغرناطي» يأتي بعد اسمه المسيحي اعتباراً بأن غرناطة أصبحت آنذاك حاضرة مسيحية، وكأنه أرغم على ذلك أو اصطنعه تستراً وتقية، في حين تأتي النسبة القديمة إلى فاس مـع اسمـه الإسـلامـي تـذكيراً وتشبثاً بـالـوسط الإسلامي الخالد.

أما النشاط الثقافي للحسن الوزان في ايطاليا فيتمثل في تدريس اللغة العربية للخاصة من رجال الكنيسة في روما ونابولي ولعامة الطلبة في مدرسة بولونيا الشهيرة في عصر النهضة الأوروبية، كما يتمثل فيما كتب من مؤلفات باللغة الايـطالية أو الـلاتينية في التـاريخ والجغـرافيا واللغـة، وتتصل موضوعاتها اتصالاً وثيقاً بالمسلمين وبلادهم ولسانهم. ومؤلفات الوزان صنفان، صنف سلم من الضياع فوصل إلينا كاملاً أو ناقصاً، وصنف عفى عليه الزمان فلم نعرف عنه غير الاسم وما استطرد منه المؤلف عرضاً من اشارات في كتبه التي وصلت إلينا.

من المؤلفات الباقية:

1 ـ **معجم عربي ـ عبري لاتيني** ألفه الوزان للطبيب اليهودي يعقوب بن شمعون وانتهى من تأليفه بمدينة بولونيا كما ذكر ذلك في آخر الكتاب. وهذا المعجم ما يزال مخطوطاً بمكتبة الاسكوريال باسبانيا.

2 ـ **كتاب في التراجم**، باللاتينية عرف فيه بثلاثين شخصية بارزة من فلاسفة العرب وأطبائهم، انتهى من تأليفه عام 1527/933، ونشر في زوريخ سنة 1664.

3 ـ **الجغرافية العامة**، كتاب ضخم باللغة العربية اطلع عليه بعض مترجميه القدامى إلا أنه ضاع ولم يبق منه غير القسم الثالث الذي ترجمه الحسن الوزان نفسه إلى اللغة الايطالية، أو اعتمد عليه في كتابه **وصف افريقيا** الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

أما كتب الحسن الوزان الضائعة فيظهر أن بعضها كتب في بلاد الإسلام، وبعضها الآخر في ايطاليا، منها:

(أ) **مختصر تاريخ الإسلام** الذي أحال عليه كثيراً في **وصف افريقيا** كلما أراد تفادي ذكر تفاصيل الأحداث التاريخية التي تعرض لها.

(ب) **أشعار الأضرحة**، كتاب جمع فيه مختلف أشعار الوعظ والزهد مما وجده مكتوباً على الأضرحة والقبور في أقطار المغرب التي زارها، وقال عنه: «انه يقع في سفر صغير جمعته وأهديته لأخ السلطان الحالي عند وفاة أبيه» مشيراً ولا شك إلى أحد أبناء السلطان محمد الشيخ الوطاسي المتوفى عام 1505/910.

(ج) **كتاب في الفقه المالكي** أشار إليه كذلك في **وصف افريقيا**، كما أشار إلى مؤلفات أخرى في الأعياد الإسلامية، وقواعد اللغة العربية، والشعر.

أما تقلبات الحسن الوزان في ايطاليا، فإننا نعلم أنه انتقل بعد موت البابا ليون العاشر سنة 1521 ليعيش في كنف الكردينال جيل دي فيطيرب (Gilles de Viterbe) فكان يعلمه اللغة العربية، وكان هذا الكردينال معجباً كثيراً بالحسن الوزان ويأمل أن ينشر بواسطته اللغة العربية وآدابها في ايطاليا ليتمكن الأوروبيون ـ وهم في عصر النهضة ـ من الاطلاع المباشر والاستفادة الكاملة من كتب العرب في الفلسفة والطب والفلك والكيمياء وغيرها. وقد استدعى الكردينال جيل في آخر حياته أحد أصدقائه النبلاء من حاشية الامبراطور شارلكان في بولونيا، وهو جان ألبير ويدمانسطار (J.A. Widmanstard) استدعاه إلى روما ليرى يوحنا الأسد. وكأن الكردينال كان يريد أن يكل أمر هذا الأسير العربي العالم إلى ذلك النبيل المسيحي ليكفله إذا مات كما فعل هو بمؤلفنا بعد موت البابا ليون العاشر. وقبل أن يصل ويدمانسطار إلى روما اختفى منها الحسن الوزان في ظروف غامضة حوالي عام 1550/957، والتحق بأقرب نقطة إليه في بلاد الإسلام وهي تونس، حيث عاد إلى حياته الإسلامية الأولى.

وقد كتب وديمانسطار في مقدمة الانجيل الذي طبعه سنة 1555 أنه لبى دعوة الكردينال جيل، فزار روما وافريقية ليتصل بيوحنا الأسد الذي كان قد ذهب إلى تونس ورجع إلى الديانة الإسلامية، لكن محاولة الاتصال هذه لم تكن ذات جدوى.

وهنا يسدل الستار على حياة الحسن الوزان، فلا ندري هل بقي في تونس أم عاد إلى أهله في فاس، ولا نستطيع تحديد تاريخ ومكان وفاته إلا أن نقارب ونقول إنّه مات بعد عام 1550/957.

(ب) كتاب وصف إفريقيا:

يمثل هذا الكتاب، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، القسم الثالث من كتاب **الجغرافيا العامة**، الذي ألفه الحسن الوزان باللغة العربية. ثم

ترجم المؤلف هذا القسم إلى اللغة الايطالية، أو اعتمد عليه في انشاء **وصف افريقيا** بالايطالية انشاء، وأتمه عام 1526/933 بمدينة روما. وقد اعتذر المؤلف عما يمكن أن يقع في كتابه من أخطاء خاصة عند النقل، بأنه قد مر عليه عندما ألف **وصف افريقيا** عشر سنين لم يطلع أثناءها على أي كتاب من كتب تاريخ افريقيا أو جغرافيتها. وإنما اعتمد على ما علق بذهنه مما رآه قبل هذه المدة الطويلة. وذلك ما يفسر خلو هذا الكتاب من نقول حرفية عكس ما هو الشأن عند غيره من الجغرافيين العرب. وأكثر ما ينقل الوزان عن ابن الرقيق[1] القيرواني وعبد الرحمان ابن خلدون، ولو أنه ذكر عشرات المؤلفين العرب كالبكري، والشريف الادريسي، وابن فضل الله العمري واضرابهم. ومع ذلك يبقى معظم مادة الكتاب من مشاهدات المؤلف وخبراته الشخصية.

قسم الوزان كتابه **وصف افريقيا** إلى تسعة أقسام أو كتب. في القسم الأول تدقيقات تتعلق بجغرافية افريقيا العامة، ومناخها وخصائص شعوبها وأخلاقهم. وقد جزأ فيه افريقيا تجزيئاً عمودياً باعتبار مميزاتها النباتية والاقتصادية أربعة أجزاء:

(أ) بلاد البربر شمال سلسلة جبال الأطلس الممتدة من تخوم مصر شرقاً إلى المحيط الأطلنطيكي غرباً.

(ب) بلاد الجريد جنوبي جبال الأطلس التي كان الرومان يطلقون عليها نوميديا.

(ج) الصحراء الكبرى المترامية بعد بلاد الجريد.

(د) بلاد السودان الواقعة وراء الصحراء.

ثم قسم كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة إلى عدة أقسام اعتباراً لاختلاف نظم الحكم فيها أكثر من اعتبار الفوارق الطبيعية، مبيناً ـــ كما قال ـــ «المدن والجبال والمواقع والقوانين والعوائد دون إهمال شيء

مما يستحق أن يعرف». ونذكر على سبيل المثال أقسام الجزء الأعلى من افريقيا الذي سماه بلاد البربر تقليداً للرومان، ونسميه اليوم شمال افريقيا أو المغرب الكبير. لقد كان هذا الجزء في مطلع القرن الهجري العاشر يشتمل على أربع ممالك:

1 ـ مملكة مراكش المحتوية بدورها على سبعة أقاليم: حاحا، وسوس، ومراكش، وجزولة، ودكالة، وهسكورة، وتادلا.

2 ـ مملكة فاس المحتوية هي أيضاً على نفس العدد من الأقاليم: تامسنا، وفاس، وأزغار، والهبط، وكرط، والحوز.

3 ـ مملكة تلمسان المشتملة على ثلاثة أقاليم: الجبال، وتنس، والجزائر.

4 ـ مملكة تونس التي تخضع لها أربعة أقاليم: بجاية، وقسنطينة، وطرابلس الغرب، والزاب.

وذكر الوزان أن إقليم بجاية كان موضوع نزاع مستمر، يتبع تارة سلطة ملك تونس وتارة أخرى سلطة ملك تلمسان «إلى أن أصبح في أيامنا هذه ـ يقول المؤلف ـ مملكة مستقلة استولى على عاصمتها الكونت بيير نافارو باسم ملك اسبانيا فرديناند».

ويلاحظ هنا أن الحسن الوزان لم يذكر في هذا القسم من ثغور شمال افريقيا المحتلة من طرف المسيحيين غير بجاية ووهران والمرسى الكبير، وسكت عن العديد منها، خاصة في سواحل المغرب الأقصى الشمالية والغربية. كما يلاحظ أنه لم يولِ العناية الكافية للتحركات البحرية للأخوين التركيين عروج وخير الدين في الحوض الغربي للبحر المتوسط في نفس الفترة التي كان المؤلف يجوس خلال ديار شمال افريقيا، وكان من نتائج هذه التحركات تغيير الخريطة السياسية للمنطقة ولم تمر غير عقود قليلة

من السنين، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن أبناء المغرب العربي عميت على المؤلف في أسره أو صرفت عنه صرفاً.

أما الأقسام السبعة التالية من كتاب **وصف افريقيا** فتتناول بالتفصيل الأقسام الأربعة الأصلية لإفريقيا وأقاليمها الفرعية المذكورة إجمالاً فيما سبق، ثم فصلت انطلاقاً من الغرب إلى الشرق بالترتيب التالي: مملكة مراكش، مملكة فاس، مملكة تلمسان، مملكة بجاية وتونس. بلاد الجريد والصحراء، بلاد السودان، مصر.

ويعود المؤلف في القسم التاسع والأخير من الكتاب إلى ذكر الظواهر الجغرافية العامة لإفريقيا فيبين أنهارها وحيوانها ونباتها، ويظهر هنا أيضاً تغليب جانب المغرب الأقصى لا لشيء إلاّ لأن المؤلف عرفه أكثر من غيره وخبر سهوله وجباله ووديانه في رحلاته العديدة التي أشرنا إليها آنفاً. فهو مثلاً لا يكتفي بالتعريف بالأنهار المغربية الكبرى كأم الربيع وملوية وسبو ودرعة، وإنما يعرف أيضاً بالأنهار الصغرى كتنسيفت وأبي رقراق وبهت، وسوس، بينما اكتفى في غير المغرب بالأنهار الكبرى التي تعرف عليها كالنيجروالنيل وتافنة وشلف.

ثم ذكر حيوانات افريقيا الكبرى كالفيل والأسد والزرافة والجمل والأبقار والخيول المختلفة دون أن يغفل الحيوانات الصغرى أيضاً كالغنم والماعز والقرود والأرانب وقطاط الزباد.

ولما تعرض للحيوانات المائية اهتم بالضخمة منها كسمك العنبر وفرس البحر وثور البحر، والتمساح، وما إلى ذلك مما يوجد في النهرين العظيمين النيجر والنيل، ثم استعرض أشهر الطيور الإفريقية في الأقاليم المختلفة، كالنعامة، والنسر والباز والخفاش والببغاء. وذكر بعض معادن افريقيا كالملح والكحل، بالإضافة إلى ما سبق ذكره من معادن الفضة

والذهب والنحاس وغيرها، وأشار إلى نباتات تستخرج منها مواد صناعية كالصمغ والقطران، وإلى بعض الفواكه كالموز والترفاس والتمر والجميز.

□ مزايا الكتاب ومآخذه:

لعل من أبرز مزايا كتاب **وصف افريقيا** الذهنية المتفتحة التي كتب بها، حتى قال عنه بعض النقّاد الأوربيين انه تأليف عربي بتفكير أوربي أو في إطار مصطبغ بالصبغة الأوروبية. وقد استفاد الحسن الوزان من عمله الإداري وصلته ببلاطي الوطاسيين والسعديين في تحديد عباراته عندما كتب عن القبائل المغربية فأتى بإحصاءات شبه مدققة مبنية على عدد الكوانين في المدن والقرى، وبالتقسيمات السياسية في مختلف الجهات، وبمبالغ الخراج التي يستخلصها بيت المال.

وإذا تحدث المؤلف عن أماكن زارها في أية جهة من جهات افريقيا بين المسافات الفاصلة بالأميال لا بالدرجات الفلكية المعقدة الشائعة عند غيره، ولم تقصر همته عن زيارة التجمعات السكنية المنحرفة عن الطرق الكبرى فأوغل في المسارب والمضايق لاستكمال النظرة الشاملة على الناحية التي يزورها، حتى إذا عجز عن الوصول إلى بعض المواقع النائية جداً كالممالك السودانية الموغلة في الجنوب، بحث عن أهلها أو عمن يعرفها من غيرهم مستكشفاً أحوالها ومتثبتاً في ذلك غاية التثبت، ثم ذكر مصادر روايته مفرقاً بين ما رآه بنفسه وما حكي له.

يضاف إلى ذلك نزاهة المؤلف وحياده التام في كل ما كتب غير متأثر بعاطفة قرابة أو دين أو وطن، تجده يمدح مكاناً وقوماً في جهة، ويذم نظيرهما في جهة أخرى تبعاً لما شاهد وعرف. فالأرض هناك طيبة تنبت من كل زوج بهيج، وأهلها أوفياء كرماء، والنساء جميلات أنيقات عفيفات. وهنالك أرض مجدبة موحشة تكثر فيها البراغيث أو تفوح من بيوتها

الروائح الكريهة، ويسكنها لصوص فتاكون أو أشقياء حفاة عراة، ونساء قبيحات أو فاجرات.

غير أن تلك المزايا على كثرتها لم تعصم المؤلف من الوقوع في هفوات جغرافية وتاريخية صارخة، ولو أن عذره بين بسبب غيبة المصادر عنه وبعد عهده بالأماكن التي تحدث عنها على افتراض أنها لم تكن مسجلة في مذكراته. من ذلك خطؤه في اتجاه مجرى نهر أم الربيع الذي ظنه يجري نحو الجنوب، واعتقاده أن نهر سوس يصب عند رباط ماسة، وخلطه في تقدير المسافات ببعض الأماكن، بل تناقضه مع نفسه أحياناً في أرقام يكررها مختلفة، كعدد الأميال الفاصلة بين مدن فاس والقصر الكبير وأصيلا والبصرة.

وقد استقرأ ماسينيون التواريخ الهجرية المذكورة في الأقسام المغربية التي تهمه من كتاب الوزان، فوجدها 67 تاريخاً، 52 منها صحيحة بالمقارنة مع مقابلها من التاريخ الميلادي عند المؤرخين البرتغاليين المعاصرين له، و6 تواريخ تقريبية، و9 مغلوطة إذا اعتبرنا تواريخ البرتغاليين صحيحة سليمة. واشتبهت على الوزان كذلك أحداث تاريخية تعرض لها، فحرف مثلاً أخبار البرغواطيين وخلط أمر المتنبئين صالح بن طريف البرغواطي وحاميم الغماري على بعد المسافة الفاصلة بينهما زماناً ومكاناً، فالأول تمرّد بتامسنا وسط المغرب في القرن الثاني للهجرة، والثاني ثار بأقصى الشمال في القرن الرابع للهجرة، وتاريخهما مفصل عند ابن خلدون في **كتاب العبر** الذي قرأه الوزان، وخانته ذاكرته.

وفي **وصف إفريقيا** أخطاء أخرى أخطر من الأولى، إلاَّ أن صاحبنا بريء من تبعتها، وهي تحريف عدد كثير من الأعلام الجغرافية والتاريخية بسبب عملية نقل الحروف العربية وتكييفها بالحروف اللاتينية. وقد تتبع ماسينيون عملية النقل عند الوزان فوجدها سليمة، لأنه اختار طريقة معقولة والتزمها في كل عمليات النقل والتكييف. لكن راميزيو ناشر كتاب

وصـف افريقيـا أخطأ في قراءة كثير من الأعلام العربية فحرَّفها وأفسدها من حيث أراد إصلاحها. وبذلك بقيت عشرات الأعلام مشوشة مجهولة وأمكن التعرف على أخرى بجهد ومشقة عن طريق الحدس والاستنتاج أو المقارنة مع ما ذكره مؤلفون آخرون.

إن تلك الهفوات لم تصرف الأوربيين عـن كتاب **وصـف افريقيـا** ولا نقصت من قيمته لديهم، بل أقبلوا على تـدارسه والنقـل عنه في مؤلفاتهم. وكذلك كان أكثر المستفيدين منه الخرائطيون فصححوا بواسطته ما رسم قبله من خرائط ووضعوا أخرى جديدة بحسب ما فيه من مسالك ومسافات وتضاريس، فكانت أقرب إلى الخرائط العلمية المطابقة للواقع. وان صحة المعلومات الـواردة في الكتاب، بغض النظر عن الهفوات، لمشاهدة إلى الآن في الأشياء الثابتة، وحتى في المدن التقليدية التي لم تتعرض لكبير تغيير في القرون الأربعة الأخيرة، كمدينة فاس التي يمكن للإنسان أن يتجوّل فيها اليوم اعتماداً على ما كتبه الوزان فيزور المساجد والمدارس والكتاتيب والأسواق والفنادق والأراحي حيث ذكرت في الكتاب، ويشاهد الفقهاء والعدول والصناع والتجار والحمالين يتحركون نفس التحركات.

وإن أعدل شاهد على تقدير علماء أوربـا لكتاب الحسن الوزان لهو إقبالهم عليه بالنشر والشرح والنقل إلى لغاتهم اللاتينية والانكلوساكسونية، من لدن عصر المؤلف إلى أيامنا هذه. فقد نشر **وصـف افريقيـا** لأول مرة العالم الإيطالي راميزيو سنة 1550 بمدينة البندقية، اعتماداً على مخطوط المؤلف باللغة الإيطالية ولو أنه جنى عليه بالتصرف في نصه زيادة ونقصاً وتغييراً ليجعله سهل القراءة ـــ كما قال ـــ. ونفدت هذه الطبعة بعد أربع سنوات، فأعيد نشره، وتجددت بعد ذلك هذه الطبعة أكثر من ست مرات أخر. وقد ترجم فلوريان (Florian) **وصـف افريقيـا** إلى اللغة اللاتينية ترجمة رديئة، اعتماداً على الطبعة الإيطالية الثانية، ونشر في بلجيكا سنة

1556 ثم أعيد نشره فيها بعد سنتين، ونشر مرة ثالثة في زيوريخ بعد سنة أخرى، ورابعة في لايد سنة 1632.

وعلى هذه الترجمة اللاتينية اعتمدت الترجمة الهولندية المنشورة في أمستردام سنة 1665، والترجمة الانجليزية المنشورة في لندن سنة 1600، التي أعيد طبعها في سنة 1896 مع شروح كثيرة، بينما اعتمدت الترجمة الألمانية المنشورة في هيربورن سنة 1805 على الطبعة الإيطالية الأصلية. أما أول ترجمة فرنسية لوصف افريقيا فهي لطمبورال (J. Temporal) اعتمد فيها الطبعتين الإيطاليتين الأوليين، ونشرت مرتين سنة 1556(؟) في كل من ليون بفرنسا وأنفير ببلجيكا وأعيد نشرها في لايد سنة 1564، وفي باريز سنة 1830 ثم سنة 1896 بتحقيق وتحليل شفير (Schefer) في ثلاثة أجزاء. ولما كانت الترجمة مكتوبة بفرنسية القرن السادس عشر التي أصبحت الآن شبه مغلقة على عموم القراء، فإن الطبيب الفرنسي إيبولار (A. Epaulard) قام سنة 1949 بترجمة فرنسية حديثة لكتاب **وصف افريقيا**، نشرها معهد الدراسات العليا بالرباط سنة 1956 في جزئين، وهي الترجمة التي اعتمدناها في نقل هذا الكتاب وإرجاعه إلى أصله العربي.

(ج) عملنا في الترجمة:

الترجمة الفرنسية التي اعتمدناها اشترك في التعليق عليها إيبولار نفسه، وثمونو، وهـ. لوط، ور. موني. وإذا كنا قد التزمنا نقل النص الفرنسي بحذافيره إلى العربية، فإننا لم نلتزم بترجمة التعليقات لما لنا عليها من ملاحظات، لا سيما فيما يتعلق بالتاريخ، فأهملنا الكثير منها، وأثبتنا بعضها كاملة أو مختصرة أو استبدلنا بها أخرى متى رأينا ذلك مناسباً، دون أن نشير إلى الاختصار أو الحذف أو الزيادة.

واجتنبنا التكرار الكثير الموجود في هوامش الترجمة الفرنسية التي لا تترك كلمة «ميل» تمر إلاّ وذكرت ما يساويها من الكيلومترات، ولا تاريخاً

هجرياً عند المؤلف إلاّ أوردت موافقه من التاريخ الميلادي، تركنا ذلك اعتماداً على ما أثبتناه في التنبيه العام الذي يلي هذه المقدمة، وعلى قاعدة الموافقة المشهورة وجداول المطابقة المعروفة بين التاريخين الهجري والميلادي. كما أنا لم نر فائدة في التعليق على أسماء المساحات والأوزان والمكاييل كالذراع والقدم وحمل الدابة وما أشبه ذلك كلها ورد ذكرها في الكتاب، بل رأينا في بعض تلك التعليقات تكلفاً ظاهراً كتقييد الذراع المطلق عند المؤلف بالذراع الروماني. ولماذا لا يكون الذراع الهاشمي أو العربي عموماً أو الإفريقي ما دام المؤلف عربياً يستعمل أساساً المصطلحات العربية كالتاريخ الهجري مثلاً؟ على أن الأمر سهل لا يحتاج إلى كل هذا التأويل والتمحل، إذ الأذرع متقاربة، العربية منها والعجمية، ويفهم القارىء بأية لغة المسافة المرادة بالذراع أو القدم أو الشبر على سبيل التقريب. على أن مسألة تحديد الأوزان والمكاييل والنقود في عصر المؤلف تبقى مطروحة، لا ينهض بها إلاّ المختصون.

ولما كانت محنة كتاب «وصف إفريقيا» الكبرى تتمثل في أن الأعلام الجغرافية والتاريخية فيه عربية الأصل أو إفريقية نقلت نقلاً غير سليم إلى الإيطالية أو اللاتينية ثم إلى الإيطالية ثم إلى الفرنسية الخ، وفقدت في كل مرحلة من هذه المراحل جزءاً من شكلها ومفهومها حتى غدت رموزاً مغلقة لا يهتدى إلى حلها، لولا الجهود المشكورة للعالم لوي ماسينيون الذي تنزل لها بأناة وصبر وحل معظم تلك الرموز، فإننا لم نر من الفائدة ولا من الأمانة العلمية أن نترك تلك الأعلام محرفة كما جاءت في الأصل المنقول عنه لننبه في الهامش على الحقيقة كما هو الحال في الترجمة الفرنسية، وإنما أثبتناها مباشرة في صلب الكتاب على ما نجزم أو نظن أنه الصواب.

وقد اجتهدنا في الترجمة أحياناً حتى ليظن البعض أننا حرفنا عدداً من المفاهيم، وما ذلك منا إلاّ نتيجة لاستقراء استعمال المؤلف لبعض الكلمات

أو لاعتبار الظروف التاريخية والاجتماعية التى أُلِّف فيها الكتاب، مثل كلمتي غرناطة والغرناطي اللتين ترجمناهما في الغالب بالأندلس والأندلسي. ذلك أن المتأخرين من الأندلسيين، لا سيما الذين عاشوا في مملكة غرناطة الضيقة ثم غادروها بعد سقوطها، لم يكن في تصورهم أن بلاد الإسلام في شبه جزيرة إيبريا تعدو غرناطة، ومن ثم كان المهاجرون إلى العدوة المغربية في نظرهم غرناطيين. وكذلك ترجمنا كلمة (Feu) بالكانون نظراً للاصطلاح المشهور عندنا في البادية حتى الآن، واعتباراً للمصطلح الرسمي الثابت في وثائق القرن العاشر الهجري، حيث كانت عملية إحصاء القبائل تجري بحسب الكوانين أو السروج لفرض عدد من الفرسان في الحروب، أو الخراج السنوي لبيت المال.

هذا، ولا نزعم لأنفسنا الكمال أو القرب منه، فإن مجرد الإقدام على النقل عن نقل بعيد عن الأصل بعدة وسائط يعد جرأة ومخاطرة، غير أنه لم يكن بد من رجوع هذا الأثر العلمي إلى أصله العربي، بالرغم على النقص والغموض، وقديماً قالواْ ما لا يدرك كله لا يترك كله.

الرباط، في 23 ربيع الأول عام 1398
3 مارس 1978.

المترجمان

تنبيـــه

ــ **الميل**: (ألفا ذراع عند العرب، وألف خطوة عند الرومان) يساوي نحو 1.340 ميتر

ــ **الذراع** (الروماني أو الهاشمي الخ) يساوي نحو .... 67 سنتيميتر

ــ **القدم**.......................... 33 سنتيميتر

ــ **الشبر**.......................... 23 سنتيميتر

ــ **الرطل** الإيطالي (Livre) يساوي نحو .... 339 غرام

ــ **الرطل** المغربي أو الافريقي كما يسمى في الكتاب .... 508 غرام

ــ **القنطار** الإيطالي (مائة رطل) .... 33 كيلوغرام و900 غرام

ــ **القنطار** المغربي أو الافريقي .... 50 كيلوغرام و800 غرام

ــ **حمل الجمل** .... 237 كيلوغرام

ــ **البطة** (Botta) كيل إيطالي قدره.......... 938 ليتر، و465 سنتيليتر

ــ **الأونس** (Once) الإيطالي ترجمناه بأوقية، ويزن بالتقريب 28 غرام و256 سنتيغرام

ــ **الدوكة** (Ducat) عملة إيطالية ذهبية ترجمناها بمثقال وكانت تزن في عصر المؤلف........................ 3 غرام و532 سنتيغرام

ــ **المثقال** السوسي، أو الدينار الرائج آنذاك، يزن بالتقريب 3 غرام و853 سنتيغرام

ملحوظتان:

1 ــ اختلف الجغرافيون القدماء والمحدثون في مقدار الميل، فجعله بعضهم أربعة آلاف ذراع، وبعضهم ثلاثة آلاف ذراع، واخترنا المشهور الذي أخذ به ابن الحاجب ومن تبعه من الفقهاء المالكية وهو ألف ذراع، لأنه المتداول عند المؤلفين بفاس وسائر بلاد المغرب في عصر الحسن الوزان.

2 ــ كل ما ذكرناه أعلاه إنما هو بالتقريب، وما زال تحديد الأوزان والعملات في كل من المغرب وإيطاليا على عهد المؤلف، بحاجة إلى مزيد من البحث والتدقيق.

القسم الأوّل

وصف إفريقيا وما فيها
من أشياء تستحق الذكر

أصل تسمية إفريقيا

يسمى هذا القطر باللغة العربية إفريقيا، من الفعل فرق بمعنى فصل باللاتينية (Separavit) وهناك رأيان في أصل هذه التسمية، يعتمد الأول على كون هذا الجزء من المعمور مفصولاً عن أوربا وجزء من آسيا بالبحر المتوسط، ويذهب الرأي الثاني إلى أن هذا الاسم مشتق من افريقش ملك اليمن الذي كان أول من سكن هذه البلاد، فلما لم يستطع الرجوع إلى مملكته بعد أن غلبه الملوك الأشوريون وطردوه، اجتاز النيل مسرعاً، ثم تابع سيره نحو الغرب، ولم يقف حتى وصل إلى ضواحي قرطاج. لذلك نرى العرب لا يكادون يعتبرون إفريقيا سوى ضاحية قرطاج نفسها، بينما يطلقون اسم المغرب على سائر إفريقيا[1].

حدود إفريقيا

تحد افريقيا، حسب رأي العلماء الأفارقة والجغرافيين، بالنيل من

---

(1) لما استولى الرومان على قرطاج وخربوها أسسوا مكانها اقليمًا دعوه «بروفانسيا أفريكا» التي أصبحت افريقيا عند العرب، وكانت تطلق على بلاد تونس الحالية تقريباً. أما اسم المغرب فكانوا يطلقونه على جميع المناطق الواقعة بين العدوة اليسرى للنيل والبحر المحيط.

الناحية الشرقية ابتداء من روافد بحيرة ڤاوڤا[2] جنوباً إلى مصب هذا النهر في البحر المتوسط شمالاً. فتبتدىء افريقيا شمالاً من مصب النيل وتمتد غرباً إلى أعمدة هرقل، ثم تمتد غرباً من هذا المضيق إلى نون[3] الذي هو آخر أجزاء ليبيا على ساحل البحر المحيط. ومن ثم يبتدىء جنوب افريقيا ليمتد على طول البحر المحيط الذي يحيط بها كلها إلى صحراء كاوكة.

أقسام افريقيا

يقسم مؤلفونا افريقيا إلى أربعة أقسام، هي بلاد البربر، ونوميديا، وليبيا، وأرض السودان. تبتدىء بلاد البربر شرقاً من جبل مييس، آخر قمم الأطلس، على بعد نحو ثلثمائة ميل من الاسكندرية[4]، ويحدها شمالاً البحر المتوسط من جبل مييس إلى أعمدة هرقل، وتمتد غرباً من هذا المضيق إلى آخر قمم الأطلس على طول ساحل المحيط، أي إلى أقصى الجهة الغربية لهذه الجبال، حيث تقع مدينة ماسة، وتنتهي جنوباً قرب الأطلس، على السفوح المواجهة للبحر المتوسط. وهذا أشرف أقسام افريقيا، حيث يسكن أناس من الجنس الأبيض، ويحتكمون إلى العقل والقانون.

والقسم الثاني يسميه اللاتينيون نوميديا، ويدعوه العرب بلاد

(2) لا تعرف هذه البحيرة، لأن أعالي النيل لم تكن معروفة عند العرب في القرن السادس عشر.

(3) أطلق البحارة الأوربيون القدامى اسم رأس نون على أقصى نقطة من القارة وصلوا إليها في الجنوب، ولا شك أنهم كانوا ينطلقون من هذا الرأس إلى وادي نون الذي كان مأهولاً بالسكان وذا حركة تجارية نشيطة.

(4) كان الجغرافيون يعتبرون الأطلس سلسلة جبال متواصلة من ساحل البحر المحيط إلى العقبة الكبرى جنوبي خليج السلوم. وجبل مييس الذي يجعله الكاتب على بعد نحو 500 كيلوميتر من الاسكندرية لم يمكن التعرف عليه بعد.

الجريد، حيث ينبت النخيل[5]. يبتدىء شرقاً بالواحات[6]، وهي مدينة تقع على بعد نحو مائة ميل من بلاد مصر، ويمتد غرباً إلى نون على ساحل المحيط، ويصل شمالاً إلى سفح الأطلس الجنوبي، ثم يتاخم رمال الصحراء جنوباً، ويطلق العرب نفس الاسم على جميع هذه البلاد المنتجة للتمر، لأن موقعها واحد.

والقسم الثالث المعروف بليبيا عند اللاتينيين لا يطلق عليه بالعربية سوى اسم الصحراء أي القفر، ويبتدىء شرقاً بتخوم الواحات، ويمتد غرباً إلى المحيط. ويجاور نوميديا في الشمال بلاد النخيل، وفي الجنوب أرض السودان التي تبتدىء شرقاً بمملكة ولاتة[7] الواقعة على شاطىء المحيط.

أما القسم الرابع، وهو أرض السودان، فيبتدىء شرقاً بمملكة كاوكة، ويمتد غرباً إلى مملكة ولاتة، ويتاخم في الشمال صحراء ليبيا، وينتهي جنوباً إلى المحيط في مواقع لا نعرف عنها غير ما يرويه التجار الذين يأتون إلى مملكة تنبكتو، وهو كثير.

---

(5) كان الرومان يطلقون اقليم نوميديا على الجبال التي يتكون منها بالتقريب حوض المجردة، بينما كانوا يسمون سكان السهل الشرقي في اقليم قرطاجة أفري، والقبائل التي تعيش في الغرب حتى ساحل المحيط موري، وجميع أهالي الصعيد وما وراءه من الساحل التونسي إلى ساحل المحيط «كيتولي».

ويبدو أن نوميديا لفظة بربرية الأصل، إلا أنها امتزجت منذ القديم، بكلمة نومادس اليونانية التي تدل على الرعاة الرحالة.

(6) هي القرية الرئيسية لواحة الخركة التي تصلها اليوم بنهر النيل سكة حديد تبلغ إلى النخيل على بعد 170 كلم. وسيجعل المؤلف في الكتاب السادس الواحات في ليبيا ويسميها الكشات.

(7) حرف هذا الاسم في الأصل فكتب (كوالاطة). ومن المعلوم أن ولاتة تقع في الداخل، شمال غرب تمبكتو. ولا يبعد أن يكون نفوذ حكامها وصل إلى شاطىء المحيط، في الوقت الذي كانت ملجأ للفارين من الطاغية سني على ملك السودان.

يشق أرض السودان نهر النيجر الذي يخرج من فلاة تدعى ساوو، نابعاً من بحيرة عظيمة[8]. وهو ـ حسب الجغرافيين ـ فرع من فروع النيل، يغيب تحت الأرض ثم يخرج منها ليكون هذه البحيرة. ويرى البعض أنه ينبع في جبال تقع إلى جهة الغرب، ثم يسيل نحو الشرق ليتحول إلى بحيرة، وهذا غير صحيح: فإننا سرنا في النهر شرقاً من تمبكتو واتبعنا مجرى المياه إلى مملكة جني ومملكة مالي، وكلتاهما واقعتان غربي تمبكتو. وأجمل أرض السودان ما امتد منها على طول مجرى النيجر. ويزعم الجغرافيون أن قسمًا من أرض السودان، الذي يشق النيل جزأه الغربي، يمتد شرقاً إلى بحر الهند، ويصل شمالاً، في بعض النقط، إلى البحر الأحمر، في القسم الذي يقع من هذا البحر وراء المضيق (باب المندب) الفاصل بين هذه الأرض وبلاد اليمن. ولم يعتبر هذا القسم من افريقيا لأسباب عديدة تكفلت الكتب المطولة بشرحها. ويسميه اللاتينيون أتيوبيا، ومنه يأتي بعض الرهبان الموسومة وجوههم بالنار، وهم يوجدون في أوربا كلها، ولا سيما في روما. ويحكم هذه البلاد رئيس من نوع الشيوخ يسميه الايطاليون بريطي جياني[9]. ومعظم السكان من النصارى، إلا أن أميراً مسلمًا يملك اقليمًا شاسعاً في أثيوبيا.

أقسام أجزاء افريقيا الأربعة وممالكها

تشتمل بلاد البربر على أربع ممالك:

الأولى: مملكة مراكش، وتنقسم إلى سبعة أقاليم: حاحا، وسوس، ومراكش، وجزولة، ودكالة، وهسكورة، وتادلا.

---

(8) هي بحيرة التشاد.

(9) لقب حبشي حرف عند ذلك التاريخ، فصار بريطر جان، أو يوحنا الراهب.

والثانية: مملكة فاس، وتحتوي على نفس العدد من الأقاليم، تامسنا، وفاس وازغار، والهبط، والريف، وكرط، والحوز.

والثالثة: مملكة تلمسان، وفيها ثلاثة أقاليم: الجبال، وتنس، والجزائر.

والرابعة: مملكة تونس، وتخضع لها أربعة أقاليم: بجاية، وقسنطينة، وطرابلس الغرب، والزاب، وجل هذا الأخير تابع لنوميديا.

وكان إقليم بجاية موضوع نزاع مستمر، يتبع تارة سلطة ملك تونس، وسلطة ملك تلمسان أخرى، إلى أن أصبح في أيامنا هذه مملكة مستقلة استولى على عاصمتها الكونت بيير نافارو باسم ملك اسبانيا فيردیناند[10].

أقسام نوميديا
أي البلاد التي ينمو فيها النخيل

لم يطلق جغرافيونا اسم مملكة على هذا الجزء من افريقيا الذي يعتبر أقلها قيمة، وذلك للبعد الشاسع الذي يفصل بين المواقع المسكونة فيه. فهناك مثلاً تيشيت[11] المدينة النوميدية المشتملة على أربعمائة كانون، تبعد بـ300 ميل عن أي مكان آخر مسكون في فلوات ليبيا، لذلك لم تستحق لقب مملكة. وسأذكر أسماء المواقع المسكونة، لا سيما وأن بعضها يشبه المناطق

(10) الواقع أن بجاية كانت تابعة للحفصيين ملوك تونس حين انتزعها منهم الاسبانيون في 25 ماي 1509.

(11) جعل المؤلف هذه المدينة في نوميديا، وكذلك توات وكورارة وتكورت، ووركلة، وغدامس، وفزان، وهي في الواقع قرى أو مناطق صحراوية، الأمر الذي يدل على أن معلوماته الجغرافية تقريبية فيما يتعلق بمواقع نوميديا وليبيا. وسيرتكب نفس الخطأ عندما يتعرض للمرابطين فيقول إنهم جاؤوا من صحراء نوميديا.

الأخرى، كدولة سجلماسة المعروفة بموريطانيا، ودولة الزاب المقابلة لمملكة بجاية، وبلاد الجريد الممتدة نحو مملكة تونس.

أما الآن فأعتزم تفصيل المسائل المتعلقة بهذا الجزء الثاني من افريقيا في قسم آخر من هذا الكتاب. وأكتفي بسرد الأسماء الآتية، مبتدئاً من الغرب: تيشيت، ودان، افران، أقا، درعة، تبلبلة، تدغة، فركلة، سجلماسة، بني كومي، فكيك، توات، تسابت، تيكورارين(12)، مزاب، توكورت، وركلة.

ويكون الزاب اقليمًا يضم خمس مدن، وهي: بسكرة، والبرج، ونفطة، وتلكة، ودوسن. وفي بلاد الجريد حالياً نفس العدد من المدن، وهي: توزر، وقفصة، ونفزاوة، والحامة، وقابس. ويجيء بعد هذا الاقليم، إلى جهة الشرق، جزيرة جربة، غريان، مسلاتة، مسراتة، تاورغة، غدامس. فزان. أوجلة، برداي، والواحات(13).

تقسيم الفلوات
الواقعة بين نوميديا وأرض السودان

لم نطلق أي اسم على هذه الفلوات، غير أننا نقسمها خمسة أقسام تحمل أسماء من يسكنها، وتتوفر لديهم فيها أسباب المعاش، وهم النوميديون المنقسمون إلى خمسة أقسام: زناكة، وونزيكة، وتاركة، ولمطة، وبرداوة(14). وتوجد في هذه المناطق أماكن تحمل أسماء خاصة حسنة أو

---

(12) صيغة بربرية تعرب هكذا: كورارة.

(13) ما زالت «الواحات» تطلق على الأرض المصرية المعروفة بالخارجة. وسيجعلها المؤلف في الكتاب السادس من ضمن بلاد ليبيا أي الصحراء، وكذلك كفرة وسيرت على ساحل البحر المتوسط.

(14) هذا التقسيم مأخوذ جزئياً من ابن خلدون، غير أن الوزان كان يجهل أن برداوة ليسوا بربراً، بل هم زنوج من نوع خاص يعرف باسم تبو.

قبيحة بحسب حال البلاد، كالأزواد[15] المسماة هكذا لمحلها وجفافها، وهير[16] التي هي، وإن كانت أيضاً صحراء، فإن هواءها طيب معتدل.

تقسيم أرض السودان إلى ممالك

تنقسم بلاد السودان أيضاً إلى ممالك نجهل بعضها، لبعدها عن تجارتنا. لذلك لن أتعرض إلا للبلاد التي ذهبت إليها وترددت عليها كثيراً، أو التي كان التجار يأتون منها إلى البلدان التي زرتها، فيبيعون بضائعهم ويزودونني بمعلومات عنها. ولا أكتم أني زرت خمس عشرة مملكة من أرض السودان، وفاتني ثلاثة أضعافها لم أزرها، وكل منها معروف ومجاور للممالك التي كنت فيها.

وإليك أسماء هذه الممالك، ابتداء من الغرب إلى الشرق: ولاتة، جني، مالي، تنبكتو، كاوو، كوبير، أغدس، كانو، كلاتسينة، زكزك، زنفرة، ونكرة، بورنو، كَاوكَا، ونوبة. وهذه هي الممالك الخمس عشرة الواقع معظمها على نهر النيجر، والتي تمر بها الطريق التي يسلكها التجار الذاهبون من ولاتة إلى القاهرة[17]، وهي طريق طويلة لكنها مأمونة. وتبعد هذه الممالك بعضها عن بعض، تفصل رمال القفار أو ماء النيجر بين عشر منها. ومن المعلوم أنه كان على رأس كل مملكة منها ملك مستقل، إلا أنها اليوم خاضعة لثلاثة ملوك: ملك تمبكتو الذي يملك الحظ الأوفر منها، وملك بورنو الذي يملك أقلها، وملك كاوو الذي يسيطر على

(15) جمع زاد بالعربية، وهو ما يأخذه المسافر معه من طعام وغيره.

(16) كلمة بربرية معناها الريح.

(17) يبدو أن الطريق بين ولاتة ومصر في جنوب الصحراء، والتي تلتحق بدرب الأربعين بين درفور وأسيوط، لم تكن مسلوكة كثيراً، ولم تفتح إلا ابتداء من آخر القرن السادس عشر، بعد سقوط مملكة نوبة المسيحية. وجميع الطرق المؤدية من غرب السودان إلى مصر كانت تخترق الصحراء وتلتقي عند فزان.

سائرها. ويلاحظ أن لملك دانكلة هو الآخر مملكة صغيرة. وهناك عدة ممالك أخرى تتاخم في اتجاه الجنوب الممالك الآنفة الذكر، وهي: بيتو، وتميام، وداومة، ومدرة، وكرهان، وملوكها ــ كسائر سكانها ــ أثرياء كثيرو الاتجار، يحكمون بالعدل ويدبرون أمورهم أحسن تدبير. أما سكان باقي الممالك فإنهم أحط من الحيوان الأعجم.

الاسكان في افريقيا ومعنى كلمة بربر

يزعم الجغرافيون والمؤرخون أن افريقيا في القديم كانت خالية من السكان باستثناء أرض السودان. ومن المؤكد لديهم أن بلاد البربر ونوميديا لم تكن كل منهما مسكونتين طوال عدة قرون. ويعرف سكانها البيض بالبربر، وهي كلمة مشتقة، حسب رأي بعضهم، من الفعل العربي بربر بمعنى هَمَس، لأن اللهجة الافريقية كانت عند العرب بمثابة أصوات الحيوانات العجماوات. ويرى البعض الآخر أن بربر مكرور (بر) الذي هو الصحراء باللغة العربية. يحكى أن الملك افريقش، عندما غلبه الأشوريون أو الاثيوبيون، هرب إلى مصر. ولما وجد نفسه مطارداً عاجزاً عن مقاومة العدو، استشار قومه في أي سبيل يسلكونه للنجاة، فأجابوه صارخين: «البربر!» أي إلى الصحراء! معبرين بذلك عن كونهم لا يعرفون أي حل سوى عبور النيل واللجوء إلى صحراء افريقيا. وهذا التفسير لكلمة بربر متفق مع رأي من يقول ان أصل الأفارقة من اليمن[18].

---

(18) أطلق الاغريق القدماء بربروس على الأجنبي الذي يتكلم بلغة لا يفهمونها، ثم تبعهم اللاتينيون في هذا الإطلاق. وربما وجد العرب هذا اللفظ يطلق على الأهالي عندما فتحوا شمال افريقيا.

أصل الأفارقة

لم يختلف مؤرخونا كثيراً في أصل الأفارقة، فيرى البعض أنهم ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا إلى افريقيا حين طردهم الأشوريون، فأقاموا بها لجودتها وخصبها، ويزعم آخرون أن أصلهم راجع إلى السبئيين (أي الحميريين) الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل أن يطردهم الأشوريون أو الاثيوبيون منها ـ كما أسلفنا ـ، بينما يدعي فريق ثالث أن الأفارقة كانوا يسكنون بعض جهات آسيا، فحاربتهم شعوب معادية لهم، وألجأتهم إلى الفرار إلى بلاد الاغريق الخالية آنذاك من السكان، ثم تبعهم أعداؤهم إليها، فاضطروا إلى عبور بحر المورة واستقروا بافريقيا، بينما استوطن أعداؤهم بلاد الاغريق[19]. كل هذا خاص بالأفارقة البيض القاطنين في بلاد البربر ونوميديا.

أما الأفارقة السود بمعنى الكلمة فإنهم جميعاً من نسل كوش بن حام بن نوح. ومهما اختلفت مظاهر الأفارقة البيض والسود، فإنهم ينتمون تقريباً إلى نفس الأصل، ذلك أن الأفارقة البيض، إما أتوا من فلسطين ـ والفلسطينيون ينتسبون إلى مصرائيم بن كوش ـ، وإما من بلاد سبأ، وسبأ ابن هامة بن كوش ـ[20]. وهناك افتراضات أخرى لا أذكرها

(19) يلخص الحسن الوزان هنا مسالة اهتم بها المؤرخون القدماء منذ هيرودتس، وكلف بها المؤلفون العرب، ولم تزل تشغل بال المؤرخين المعاصرين الذين يعجبون من وجود شعوب عديدة يختلف نوعها البشري أشد الاختلاف ولا تعرف أي وحدة سياسية، تكون شعباً حقيقياً متحد اللغة عريقاً في القدم رغم تنوع لهجاته، ذا طابع خاص لم يتغير منذ القدم. إن العلم الحديث يهتم بمعطيات واضحة للشعوب الشمالية من بين البربر، ولكن الاقدمين لم يعتبروا سوى هجرات المشارقة، بحيث أصبح البربر ولغتهم يعتبران من النوع الحامي. ومن الغريب أن يتحدث الوزان عن «هجوم شعوب البحر» قبل عدة قرون من اكتشاف الوثائق المصرية.

(20) سبا هذا مذكور في التوراة (×، 7) لكن السبئيين في القرآن الكريم هم رعايا بلقيس ملكة سبا اليمنية التي جاءت إلى سليمان (الاية 22 من سورة النمل، و 15 من سورة =

بالضبط لأني لم أر منذ عشر سنوات ولم أمس أي كتاب في التاريخ الإسلامي.

تقسيم الأفارقة البيض
إلى عدة شعوب

ينقسم الأفارقة البيض إلى خمسة شعوب: صنهاجة، ومصمودة، وزناتة، وهوارة، وغمارة. تسكن مصمودة الجزء الغربي للأطلس من حاحا إلى وادي العبيد، وكذلك الجهة المواجهة للجنوب وجميع السهول المجاورة. وتحتل أربعة أقاليم هي حاحا، وسوس، وجزولة، وناحية مراكش.

وتسكن غمارة جبال موريطانيا أي المحاذية للبحر المتوسط، وتحتل الساحل المسمى بالريف، والذي يبتدىء من أعمدة هرقل ليصل شرقاً إلى تخوم مملكة تلمسان التي يسميها اللاتينيون قيصرية[21]. ويعيش هذان الشعبان منعزلين عن سائر الشعوب الذين يختلطون عادة بعضهم ببعض وينتشرون في افريقيا كلها، لكنهم يتميزون فيما بينهم كما يتميز الأهلي عن الأجنبي. وهم دائماً في حروب وخصام مستمر، لا سيما النوميديون منهم.

ويذهب كثير من المؤلفين إلى أن عدد هؤلاء الشعوب الخمسة هو نفس عدد الذين كانوا يعتادون العيش في البادية تحت الخيام. ويؤكدون أنهم كانوا قديماً في حروب طويلة بينهم، وأن المغلوبين الذين أصبحوا أرقاء للمنتصرين اضطروا إلى السكنى في المدن، بينما استولى الغالبون على

= سبأ). وسبأ ـ في الرواية العربية ـ هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو أول ملوك اليمن (حوالي القرن 20 ق. م.) تفرق أولاده العشرة بعد سيل العرم، فكانوا أصولاً تفرّع منهم سكان الجزيرة العربية.

(21) قيصرية اللاتين عاصمتها شرشال كانت تشكل تقريباً مملكة تلمسان.

البوادي التي استقروا فيها. ويؤيد هذه النظرية وحدة اللهجة عند كل من البدويين والحضريين: فبدو زناتة مثلاً يتكلمون بنفس اللهجة التي يتكلم بها حضرهم، وكذلك الحال عند سائر الشعوب[22].

ويتعايش في بادية تامسنا ثلاثة من هذه الشعوب: زناتة، وهوارة، وصنهاجة متسالمين تارة ومتحاربين بضراوة أخرى، لعداوة قديمة بينهم فيما أعتقد.

وقد سيطر بعض هذه الشعوب مثل زناتة على افريقيا كلها، وهم الذين طردوا آل ادريس، مؤسس مدينة فاس وملكها الشرعي. ويسمى هذا الفرع الزناتي مكناسة. ثم جاء من نوميديا فرع زناتي آخر يدعى مغراوة وطرد مكناسة واحتل المملكة مكانها. ولم يمض وقت قصير حتى جاء من صحراء نوميديا قوم ينتمون إلى صنهاجة ويعرفون بلمتونة، فطردوا الزناتيين واستولوا على بلاد تامسنا كلها وقضوا على سكانها باستثناء رهط من جنسهم نقلوهم إلى دكالة، وهم الذين أسسوا مدينة مراكش[23].

واتفق بعد ذلك أن رجلاً عظيم الشأن في أمور الدين يدعى المهدي ثار على اللمتونيين وتحالف مع هرغة التي هي فرع من مصمودة. وقد تمكن المهدي من أن يطرد لمتونة ويبايع هو ملكاً، وخلفه بعد موته تلميذه عبد المؤمن من بني ورياكل واستمر الملك في أولاده زهاء مائة وعشرين سنة. حكموا خلالها افريقيا كلها تقريباً إلى أن قضى عليهم المرينيون

---

(22) يقصد الكاتب أن برابرة المدن وبرابرة البوادي لا يختلفون إلا بوضعيتهم الاجتماعية، فالعيش تحت خيام الوبر رمز الحرية والشرف، بينما حياة الحضر هي رمز الذلة والعبودية.

(23) حارب اللمتونيون (المرابطون) فعلاً البرغواطيين الضالين المنتشرين في بلاد تامسنا وقضوا عليهم بعد أن سقط قائد المرابطين عبد الله بن ياسين قتيلاً في المعركة، وخلفه يوسف ابن تاشفين الذي أسس مدينة مراكش عام 1062/454 وقعد قواعد الدولة اللمتونية المرابطية.

الزناتيون. ودامت دولة هؤلاء نحو مائة وسبعين سنة، فانتزع الملك منهم بنو وطاس، وهم فرع من لمتونة[24].

وكان بنو مرين في حرب مستمرة ضد بني زيان ملوك تلمسان، وأصلهم من قبيلة صنهاجة فرع مغراوة، وضد الحفصيين ملوك تونس، وهم من قبيلة هنتاتة فرع مصمودة[25].

هكذا نرى كم كان كل واحد من هذه الشعوب الخمسة يكافح ويعمل جاهداً في هذه النواحي. والواقع أن غمارة وهوارة لم تنجبا قط ملوكاً حقيقيين، وإنما كانت لهم إمارات في بعض الأقاليم الخاصة، كما هو مذكور في تواريخ الأفارقة. وقد تولوا هذا الحكم على أثر فتح المسلمين لافريقيا. وبعد ذلك اتخذ كل شعب منهم سكناه على حدة في البادية وجعل يساند أبناء عشيرته، مقسمين الأعمال الضرورية للحياة فيما بينهم، يشتغل سكان البادية بتربية الماشية، ويتعاطى سكان المدن الصناعات اليدوية والفلاحة.

وتنقسم كل هذه الشعوب الخمسة في جملتها إلى عدة أفخاذ، كما ذكر ذلك أحد كتابهم وهو ابن الرقيق الذي قرأت تاريخه مراراً، إلا أن معظم المؤرخين يزعمون أن ملك تمبكتو الحالي وملك مالي السابق وملك أكدز ينتمون إلى قبيلة زناكة الصحراوية[26].

---

(24) يقصد ولا شك زناتة، لأن الوطاسيين أبناء عمومة المرينيين

(25) كان بنو زيان عمالاً للموحدين ملوك مراكش على تلمسان، كما كان الحفصيون عمالاً للموحدين على تونس. فلما ضعفت دولة الموحدين استبد كل من الزيانيين والحفصيين بالحكم، فأسس الأولون إمارة تلمسان التي ستستمر إلى عام 1555/962، والأخيرون إمارة تونس التي ستنتهي عام 1573/981، وذلك على يد الأتراك العثمانيين.

(26) زناكة تحريف لصنهاجة شائع في أماكن متعددة بالصحراء. ويذكر النسابة السودانيون، مثل أحمد بابا، أن كثيراً من الأسر السودانية النبيلة صنهاجية الأصل.. ويبدو أن فرقاً من صنهاجة التي سكنت الصحراء نزلت في فترات متعددة إلى بلاد =

اختلافات اللغة الافريقية وموافقاتها

إن هذه الشعوب الخمسة المنقسمة إلى مئات السلالات وآلاف المساكن تستعمل لغة واحدة تطلق عليها اسم أوال أمزيغ، أي الكلام النبيل، بينما يسميها العرب البربرية. وهي اللغة الافريقية الأصيلة الممتازة والمختلفة عن غيرها من اللغات. ولما كانت مشتملة على عدد من المفردات العربية استدل البعض بذلك على أن الأفارقة ينتمون إلى السبئيين، وهم سكان اليمن كما أسلفنا. لكن أنصار الرأي المخالف يؤكدون أن هذه المفردات إنما أدخلها العرب عندما جاؤوا إلى افريقيا وفتحوها. وكانت هذه الشعوب في حالة من البداوة والجهالة بحيث لم تترك أي كتاب يؤيد احدى النظريتين، على أن هناك اختلافاً بين اللهجات لا في النطق فحسب، ولكن أيضاً في معنى كثير من الألفاظ. والأفارقة الذين هم أقرب إلى مساكن العرب وأوثق صلة بهم هم أكثر الأفارقة استعمالاً للكلمات العربية في لهجتهم. فغمارة إلا أقلهم يستعملون العربية، لكنها عربية رديئة، وكذلك الشأن في عدد كبير من قبائل هوارة. والسبب في ذلك أن هذه الشعوب على اتصال شفوي مستمر مع العرب.

أما في بلاد السودان فاللغات متباينة، تسمى احداها **سونغاي** وتستعمل في عدة نواح، كولاتة، وتمبكتو، وجني، ومالي، وكثاوو، بينما تدعى لغة أخرى كوبر وتستعمل في بلاد كوبر، وكانو، وكاسنا، وبرزكزك، ووانكرة[27]. وهناك لغة في بورنو[28] تشبه المستعملة في كاوكاو[29]، وأخرى بقيت مستعملة في مملكة النوبة تختلط فيها العربية والسريانية والقبطية.

= السودان واختلطت بالسكان الأصليين عن طريق الزواج، ولا سيما في القرنين الرابع والخامس للهجرة 10 و11 م.

(27) هي لهجة الحوصة.

(28) هي لهجة الكنوري.

(29) هي لهجة الكنمبو.

وفي جميع المدن الافريقية الواقعة على شاطىء البحر المتوسط[30] إلى جبال الأطلس يتكلم الناس على العموم بلغة عربية فصيحة، ماعدا في مملكة مراكش وفي مدينة مراكش نفسها، فإن اللغة المستعملة هي البربرية وهذه اللغة مستعملة أيضاً في بلاد نوميديا، أو على الأقل عند النوميديين المجاورين لموريطانيا والقيصرية، لأن الشعوب المجاورة لتونس تتكلم كلها بلغة عربية فاسدة.

العرب القاطنون في مدن افريقيا

ان الجيش الذي أرسله عثمان ثالث الخلفاء الراشدين في العام الرابع والعشرين للهجرة، حمل إلى افريقيا عدداً كبيراً من العرب يناهز الثمانين ألفاً من الأشراف وغيرهم[31].

ولما فتح الكثير من المناطق، عاد إلى الجزيرة العربية تقريباً جميع الأعيان والأشراف، ولم يبق مع المخلفين إلا قائد الجيش المدعو عقبة بن نافع. وقد بنى مدينة القيروان وحصّنها، إذ كان يخشى أن يخذله سكان الساحل وترد عليهم إعانة من جزيرة صقلية فيحاربوه بها. لذلك تراجع إلى داخل الصحراء حاملاً معه جميع الثروات التي غنمها، وأسس مدينة القيروان على بعد نحو 120 ميلاً من قرطاج[32] وأمر القواد العسكريين

---

(30) لعل المؤلف يقصد شاطىء المحيط الأطلنطيقي، لأن سهوله هي مواطن القبائل العربية، كما هو معروف، ولأنها هي الممتدة إلى جبال الأطلس كما ورد في نص المؤلف. ويؤكد ذلك استثناؤه مملكة مراكش الواقعة في جنوب سهول الشاطىء الأطلنطيقي.

(31) يمكن أن يكون هذا العدد صحيحاً إذا اعتبرنا الحملات المتلاحقة من عهد الخلفاء الراشدين إلى أيام الأمويين الأولين.

(32) على بعد 192 كلم من تونس العاصمة.

والمدنيين الذين أقاموا معه أن ينزلوا في الأماكن الأكثر مناعة والتي يسهل الدفاع عنها، وأن يشيدوا قلاعاً وحصوناً حيث لا توجد ففعلوا[33].

وعندما أمن العرب، أصبحوا مواطنين بهذه البلاد ممتزجين بالأفارقة. وكان هؤلاء قد اتخذوا آنذاك اللغة الإيطالية لغة لهم بعد أن خضعوا مدة طويلة لحكم الإيطاليين. لذلك فإن العرب الذين عاشوا بين الأفارقة وظلوا على اتصال دائم بهم فسدت لغتهم وصارت خليطاً من اللهجات الافريقية، وامتزج الشعبان المختلفان شعباً واحداً، غير أن كل عربي وبربري ظل يحتفظ بكتابة عمود نسب آبائه، وهذا شيء من الأهمية بمكان، يمكن كل عدل أو محرر عقد رسمي أن يذكر اسم المعني بالأمر وأصله عربياً كان أو بربرياً.

العرب القاطنون بإفريقيا
تحت الخيام لا في الدور

كان الخلفاء المسلمون يمنعون الأعراب دائمًا من اجتياز النيل بأهلهم وخيامهم، إلى أن كان عام 400 للهجرة، فأذن لهم بذلك أحد الخلفاء الشيعيين، لأن شخصاً صديقاً موالياً له كان قد ثار واستولى على مدينة القيروان ومعظم بلاد البربر، وتوارث الملك بعد وفاته أولاده مدة من الزمن[34].

---

(33) كان معاوية بن حديج قد أقام القيروان في سفح جبل وسلات، فحول عقبة هذا المركز إلى السهل الرملي الذي هو الموقع الحالي للقيروان ليكون في مأمن من الهجمات المتوقعة من الجبال. وقد قتل عقبة بن نافع عند رجوعه من المغرب الأقصى في كمين أعد له قرب بسكرة عام 63 هـ/ 683 م.

(34) تحدث المؤلف هنا بالتقريب معتمداً فقط على ذاكرته، دون أن تكون له كتب يرجع إليها ليتأكد من تسلسل الأحداث وضبط تواريخها. فذكر أن هجرة الأعراب من مصر إلى افريقيا في عام 400، وقد كانت في الواقع عام 441 هـ/ 1050 م. أمر بها الخليفة الفاطمي المستنصر بالله انتقاماً من الزيريين الصنهاجيين أمراء القيروان الذين قطعوا =

قرأت في كتب تاريخ افريقيا أنه في أيام القائم، ملك هذه الدولة البدعية وإمامها، اتّسعت امبراطوريته وتكاثر أتباعه، فبعث إلى الغرب غلاماً له يدعى جوهراً، وكان مولاه وكاتبه، على رأس جيش عرمرم فتح به جميع بلاد البربر ونوميديا إلى أن وصل إلى الجنوب، ثم رجع إلى سيده بكل ما جمع من خراج هذه البلاد وإتاواتها، ذهباً وغيره.

ولما تأكد الخليفة من قيمة هذا الرجل ورأى ما أحرز عليه من انتصارات، عزم على أن يكلفه بمهمة أكثر خطورة، فأطلعه عليها وأجابه جوهر قائلاً: «أتعهد لك يا مولاي أنني كما فتحت لك هذه الأقاليم الغربية سأفتح ممالك الشرق، أي مصر وسوريا وكل الجزيرة العربية، وسأنتقم لك بذلك من كل ما ارتكبه العباسيون من بغي وظلم ضد أسلافك. ومهما كانت المخاطر والمصاعب التي ستواجهني، فلن يقر لي قرار حتى أبوئك عرش أسلافك الشرفاء الكرام الأمجاد».

تأثر الخليفة بشجاعة مولاه واطمأن إلى قوله، فاستنفر جيشاً مؤلفاً من ثمانين ألف رجل جعل على رأسه جوهراً مفوضاً له الأمر مزوداً إياه بكثير من الأموال والأقوات. سار الغلام الوفي على رأس جيشه مخترقاً الصحراء الفاصلة بين بلاد البربر وديار مصر، وقبل أن يصل إلى الاسكندرية فرَّ والي مصر ملتحقاً بالخليفة العباسي ببغداد[35].

= دعوة الفاطميين وخلعوا طاعتهم. وقد أضعفت فعلاً هجرة أعراب بني هلال سلطة الزيريين إلى أن قضى عليهم نهائياً عبد المؤمن الموحدي عام 555 هـ/ 1160 م.

وكذلك الشأن فيما حكاه المؤلف بعد هذا مما كان قرأه في كتب التاريخ عن اتساع الدولة الفاطمية غرباً وشرقاً.

انظر تفاصيل هذه الأحداث بدقة عند الدكتور حسن ابراهيم حسن في كتابه **«تاريخ الدولة الفاطمية»**.

(35) كانت مصر آنذاك خاضعة لأمراء الدولة الاخشيدية التابعين لخلفاء بني العباس ببغداد.

هكذا استولى جوهر على كل بلاد مصر وسوريا في أمد قريب دون أن يلقى مقاومة كبيرة، إلاَّ أنه لم يطمئن باله، وأخذ يتساءل عما إذا فاجأه خليفة بغداد بجموع جيش آسيا، وأرغمه بهجوم مضاد قوي على فقدان وسائل الدفاع وجيوش البربر في آن واحد. لذلك عزم على أن يشيد حصناً يأوي إليه رجاله عند الاقتضاء ويقاومون هجوم العدو[36]. فبنى مدينة أحاطها بالأسوار، وأقام على حراستها من كانوا عنده محط الثقة الكبرى ومعهم طائفة من الجند. وقد سمى هذه المدينة القاهرة «أي التي تقهر» ويدعوها الأوربيون عموماً (Le Caire) فلم تزل تنمو وتتسع أحياؤها ويتكاثر سكانها داخل الأسوار وخارجها حتى أضحت لا تضاهيها أية مدينة أخرى في العالم.

ولما رأى جوهر أن خليفة بغداد لم يحاول مقاومته، أخبر سيده بأن جميع البلدان التي احتلَّها قد تم خضوعها وعاد إليها السلم، وأنها محروسة مستعدة للدفاع. وإذا ما ارتأى سيادته أن يذهب بنفسه إلى مصر، فإن مجرد حضوره سيساعد على فتح ما بقي من البلاد أكثر مما يساعد على ذلك مئات المحاربين، وسيكون من شأن ذلك أن يتخلى خليفة بغداد عن الإمامة والملك ويفر بنفسه.

وعندما طرق هذا الكلام الجميل سمع الخليفة الفاطمي، أعدَّ جيشاً عظيمًا وذهب غير مبالٍ بما عسى أن يعترضه، مهتبلاً بهذه الفرصة الجديدة، بعد أن ولى على بلاد البربر قائداً أميراً من صنهاجة لم يكن صديقاً له

(36) لم يكن تهديد الفاطميين من قبل خليفة بغداد، وإنما كان التهديد من القرامطة الذين هاجموا العباسيين واقتطعوا الكثير من مناطق نفوذهم. انظر: ح. ابراهيم حسن، «تاريخ الدولة الفاطمية»، ص 157-160. وانظر: أصل القرامطة واتساع نفوذهم عند ابن خلدون «العبر»، 3:736-747، 4:181-200.

فحسب، بل خادم بيته[37]. ولما وصل إلى القاهرة استقبله مولاه بغاية الخضوع. ثم ظهرت له عدة مشاريع وأرسل جنده لمحاربة خليفة بغداد[38].

وفي هذه الأثناء تمرَّد حاكم بلاد البربر (الصنهاجي) وعرض طاعته على خليفة بغداد الذي رحَّب بهذا العرض ومنحه مزايا عظيمة وعيَّنه ملكاً على افريقيا كلها. علم القائم[39] بهذا الخبر وهو في القاهرة، فكبر عليه الأمر، لأنه كان خارجاً عن مملكته وقد أنفق كل ما حمل معه من ذخائر الذهب والمؤن وحار في أمره وأخذ يصب لعناته على مولاه (جوهر) الذي أشار عليه بالقدوم إلى القاهرة. وقد كان عنده كاتب عالم ذكي اسمه أبو محمد الحسن[40] أدرك سبب ندم مخدومه وأنه هالك لا محالة إن لم يعالج الحالةالتي هو عليها، فأخذ يواسيه ويقول له: «مولاي! إن الدهر قلب، فلا تفقد الثقة في قوتك من أجل ما أصابك أخيراً. وإذا قبلت رعاك الله الرأي الذي سأعرضه عليك أنا خادمك الوفي بكل نية وإخلاص، فلا شك أنك ستسترجع عما قريب كل ما سلبك إياه الثوار، وتدرك بعد ذلك كل ما تتمناه دون أن تستأجر أي جندي، بل أريد أن يكون الجيش الذي سأجعله بين يديك هو الذي يؤدي لك الثمن لسبب سأشرحه لك».

---

(37) خرج الخليفة المعز لدين الله من عاصمته المنصورية (مدينة صبرة المتصلة بالقيروان) يوم الأربعاء 22 ذي القعدة عام 4/361 سبتمبر 972 بعد أن استخلف على افريقية بلكين بن زيري الصنهاجي وأمر الناس بطاعته.

(38) بل حارب الفاطميون القرامطة ومن معهم من ثوار الأتراك، انظر: «**تاريخ الدولة الفاطمية**».

(39) يستعمل المؤلف هنا لقب القائم بتجوز، لأن هذا اللقب خاص بثاني الخلفاء الفاطميين أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي المتوفى عام 946/334. وكان المتولي للخلافة أيام استبداد الزيريين بحكم إفريقيا هو المستنصر بالله ثامن الخلفاء الفاطميين، المتوفى عام 1094/487.

(40) هو الحسن بن علي اليازوري قاضي قضاة مصر الذي عين وزيراً عام 1050/442 وقتل عام 1058/450.

طابت نفس الخليفة لهذا الكلام، وسأل: كيف يكون ذلك؟ فتابع الكاتب كلامه قائلاً: «إنك تعلم يا مولاي أن سكان الجزيرة العربية تكاثروا إلى حد أن البلاد أصبحت اليوم لا تسعهم جميعاً، وما تنتجه الأرض يكاد لا يكفي لعلف الماشية لشدة قحطها. والناس لا يشكون فيها قلة الأماكن للسكنى فحسب، وإنما يعانون أيضاً قلة الطعام، لهذا فإنهم سيهاجرون إلى افريقيا إن أذنت لهم. فَأْذَنْ لهم بالهجرة، وسأضع بين يديك بسبب ذلك كمية هائلة من الذهب»[41].

ولما أنهى الكاتب كلامه لم يقتنع الخليفة كثيراً بنصيحته، إذ اعتبر أن الأعراب سيخربون افريقيا فلا يستفيد من ذلك هو ولا الثائر، لكنه رأى من جهة أخرى أنه فقد مملكة إفريقيا على أي حال، فأخف الضررين أن يحصل على مبلغ طائل من المال كما وعده بذلك مستشاره، وأن يثأر من عدوه في نفس الوقت، بدلاً من أن يفقد الأمرين معاً. لذلك أمر كاتبه أن ينشر مرسوماً يقضي بأن كل اعرابي يؤدي ديناراً فقط[42] يسمح له بالعبور إلى افريقيا بكل حرية، شريطة أن يحلف أنه سيعامل الأمير الثائر معاملة العدو. فكان ذلك، وعبر نحو عشر قبائل عربية، أي نصف سكان

---

(41) تختلف الروايات التاريخية المعروفة قليلاً عما أورده المؤلف هنا بحكم اعتماده على الذاكرة أيضاً. والمعروف أن المعز بن باديس الصنهاجي حاكم افريقيا قطع الخطبة باسم الفاطميين على منابره وأحرق بنود المستنصر ومحا اسمه من السكة والطرز سنة 443 هـ/ 1051 م، ودعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله، فجاءه خطابه وكتاب عهده فقرىء بجامع القيروان ونشرت الرايات السود العباسية، انظر: «**الاستقصا**»، 2:147-148.

(42) هنا أيضاً إجمال وبعض اختلاف، إذ بعث المستنصر وزيره اليازوري إلى بني هلال وبني جشم المقيمين بصعيد مصر وأرضخ لأمرائهم في العطاء، ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل، فعبروه ونزلوا ببرقة واستباحوها وأعجبتهم البلاد، فكتبوا إلى إخوانهم الذين بقوا شرقي النيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا المستنصر دينارين لكل رأس، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه. (انظر: «**الاستقصا**»، 2:148).

صحراء الجزيرة العربية، وبعض بطون قبائل اليمن. كان عدد الرجال المحاربين يناهز خمسين ألفاً، ولا يكاد يحصى عدد النساء والأطفال والبهائم، وقد أحصاهم عدداً المؤرخ الافريقي ابن الرقيق المذكور آنفاً[43]. وهكذا قطع العرب في وقت وجيز الصحراء التي قلنا انها تفصل بين مصر وبلاد البربر، فتوقفوا أولاً لمحاصرة طرابلس حتى أخذوها عنوة ونهبوها وقتلوا كل من أمكنهم قتله بها، ثم توجهوا إلى قابس وخربوها، وأخيراً أقاموا الحصار على القيروان التي تحصَّن فيها الأمير الثائر بكل ما يحتاج إليه من زاد وغيره مدة ثمانية أشهر انتهت بدخول الأعراب إلى المدينة عنوة ونهبها وقتل الثائر بها صبراً[44].

وبعد ذلك اقتسم هؤلاء الأعراب جميع البوادي وسكنوها، وفرضوا على كل مدينة ضرائب وتكاليف جسيمة، وظلوا سادة هذه الناحية من افريقيا إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين أول ملوك مراكش، فبالغ المجهود في إسعاف أقارب الثائر الهالك، وما زال يعمل إلى أن حرر المدن من سيطرة الأعراب الذين استقروا رغم ذلك في البوادي يقتلون وينهبون ما استطاعوا، بينما بقي أهل الأمير الثائر يحكمون في أماكن مختلفة.

ولما تولى الحكم أمير المؤمنين المنصور رابع الملوك الموحدين عزم على محاربة أبناء الأمير الثائر وحرمانهم من كل سلطة، خلافاً لأسلافه الذين

---

(43) يبدو أن ابن الرقيق لم يتكلم عن هجرة بني هلال لأن الأحداث التي يتحدث عنها تنتهي عام 417 هـ/ 1027 م. وربما أراد المؤلف أن يقول ابن رشيق، فكلا الرجلين من القيروان. ولابن رشيق الأديب «تاريخ القيروان»، و «ميزان العمل في تاريخ الدول».

(44) انتصر العرب، وعددهم ثلاثة آلاف، على أمير افريقيا المعز بن زيري وجيشه المؤلف من ثلاثين ألف جندي عام 1052/443، ثم نازلوه بالقيروان وطال عليه أمر الحصار إلى أن افتتحها العرب ونهبوها وفرَّ المعز إلى المهدية متحصناً بها إلى أن مات 1052/454. وتوارث أبناؤه من بعده إمارة المهدية إلى أن قضى عليهم نهائياً الموحدون. انظر ابن خلدون «العبر»، 31:6، وما بعدها.

أشفقوا عليهم وأصلحوا حالهم. لجأ المنصور إلى الحيلة وعقد معهم معاهدات، ثم دفع العرب إلى محاربتهم، فانتصروا عليهم دون عناء، وبعد ذلك نقل المنصور أهم قبائل الأعراب إلى الممالك الغربية، فأسكن أشرفهم بدكالة وأزغار، وأدناهم بنوميديا[45].

وبعد ذلك استرجع أعراب نوميديا حريتهم من النوميديين الذين استعبدوهم، واستولوا بالغلبة على الجزء الذي منحهم إياه المنصور، موسعين إقليمهم يوماً بعد يوم. وأما النازلون بأزغار وباقي نواحي موريطانيا فاستعبدوا أيضاً جميعاً، لأن الأعراب خارج الصحراء كالسمك خارج الماء. وكان بالإمكان أن يذهبوا إلى الصحراء لو لم يمنعهم من ذلك امتلاك البربر لمسالك الأطلس، كما كان عليهم من جهة أخرى ألا يحاولوا أي توغل في البوادي لأنها خاضعة لغيرهم من الأعراب. فأقبلوا على رعي الماشية وحرث الأرض متخلين عن كبريائهم، وعاشوا مع ذلك تحت الخيام لا في الأكواخ والدور الخشنة. وزاد من فقرهم أنهم كانوا مرغمين على أداء إتاوة سنوية لملك فاس، بخلاف أعراب دكالة الذين أعفوا من كل التكاليف، محتمين بوفرة عددهم.

وتخلف بعض الأعراب في ناحية تونس العاصمة، لأن المنصور امتنع عن أخذهم معه، فاستولوا بعد ذهابه على تونس، وملكوا البلاد إلى أن قام بعض الأمراء الحفصيين، فاتفقوا معهم على أن يتركوا لهم السيادة المطلقة شريطة أن يعطيهم الحفصيون نصف الأعشار وما يستخلصونه ممّا تُنتجه المملكة[46]، لكن ملوك تونس لم يستطيعوا إرضاء جميع الأعراب، لأن

---

(45) عبارة ابن خلدون («العبر»، 46:6) هكذا «وراجعت قبائل جشم ورياح من الهلاليين طاعته ــ أي المنصور ــ ولاذوا بدعوته فنقلهم إلى المغرب الأقصى، وأنزل جشم ببلاد تامسنا ورياحاً ببلاد الهبط وأزغار مما يلي سواحل طنجة إلى سلا».

(46) استبد الحفصيون، وكانوا حكاماً لتونس من قبل الموحدين، بأمر تونس عام 1320/627، وأسسوا بها دولة مستقلة استمرت أزيد من ثلاثة قرون إلى أن تغلب =

عددهم يفوق إمكانيات المداخيل ومنتجات البلاد، فوزعوا ذلك على طائفة منهم شريطة أن يحافظوا على الأمن في البوادي، ففعلوا ولم يسيؤوا إلى أحد. وأما الأعراب المحرومون فإنهم أخذوا يتعاطون النهب والقتل وارتكاب أفظع الجرائم، ، وكثيراً مايتربصون في الكمائن، حتى إذا مر بهم مسافر خرجوا وجردوه من المال والثياب، ثم فتكوا به؛ فأصبحت الطرق غير آمنة البتة. والتجار الذين يريدون الذهاب من عاصمة تونس إلى مدينة أخرى لقضاء بعض الحاجات يصحبون معهم خفيراً من أصحاب البنادق، إلاّ أنهم يتعرضون لأحداث خطيرة: أولها أداء مبلغ ضخم من المال للعرب المأجورين من قبل الملك ليسمحوا لهم بالمرور، وثانيها وأقبحها التعرض في كثير من الأحيان لهجوم الأعراب الآخرين، فلا يغني عنهم شيئاً خفير النجاة المصاحب لهم، ويفقدون أموالهم وأرواحهم معاً.

أصناف العرب الذين سكنوا إفريقيا وسموا بالعرب المستعجمة(47)

ينتمي العـرب الذين دخلوا افريقيا إلى ثلاث قبائل: حكيم، وهلال، ومعقل. وتنقسم حكيم إلى ثلاثة فروع كبرى: اثبج، وسميت (؟)، وسعيد.

= عليهم الإسبانيون في مطلع القرن الهجري العاشر، وقضت عليهم نهائياً الحملة التركية الكبرى بقيادة الوزير سنان باشا عام 1573/981، فأصبحت البلاد التونسية ولاية عثمانية.

(47) لم يسر المؤلف هنا على نمط تقسيم ابن خلدون لقبائل العرب الداخلين إلى المغرب في القسم الأول من المجلد السادس من كتاب «العبر» بعنوان: الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة (جزء 6، ص 3-174). والعذر للمؤلف في انعدام المراجع المكتوبة لديه أثناء التأليف. فقد احتفظت ذاكرته ببعض أصول القبائل وفروعها حسبما كتبه ابن خلدون، وذلك مثل بطون ذوي منصور، وذوي عبيد الله، ودوي حسان المتفرعة عن قبيلة معقل، إلاّ أن التحريف الناتج عن الترجمات الأعجمية المتعددة للكتاب افسدت كثيراً من أعلام القبائل وجعلت التعرف على اسمها الحقيقي متعذراً في بعض =

وتتفرع اثبج بدورها إلى ثلاثة فروع صغرى: دلاج، والمنتفق، وصبيح. كما تتفرع كل قبيلة من هذه القبائل إلى عدة بطون.

وتنقسم هلال من جهتها إلى أربعة فروع: بني عامر، ورياح، وسفيان، وهوازن ويتفرع بنو عامر إلى: عروة، وعقبة، وهبرة، ومسلم.

وتشتمل رياح على ذواد (دواودة)، وسويد، وأسجع، وحارث، والنضر (؟) وكرفة، بينما تتفرع هذه القبائل الست إلى عدة أسر.

وأما معقل ففروعها ثلاثة: مختار، وعثمان، وحسان.

تشتمل مختار على روحة، وسليم، وعثمان على حاسن، وكنانة، وحسان على ذوي حسان، وذوي عبيد الله، وذوو حسان على دليم، والأوداية، والبرابش، والرحامنة، وأحمر.

ويشتمل ذوو منصور على العمارنة، والمنابهة، وأولاد حسين، وأولاد أبي الحسين.

وينقسم بنو عبيد الله بدورهم إلى خراج وحدج، وثعلبة، وجعوان. وتتفرع كل هذه القبائل إلى بطون عديدة يصعب بل يستحيل استحضارها.

= الأحيان. على أن الاختلاف البيِّن بين ما عند ابن خلدون والحسن الوزان، في تعداد بعض البطون والعمائر والأفخاذ، راجع كذلك إلى تطور الأسماء تبعاً لتعاقب الأجيال، واختفاء بعض الأسر وانقراضها، وظهور أخرى مكانها على مسرح الأحداث بأسماء رؤسائها وأحيائها الجديدة، إذ لم يعتمد الحسن الوزان في معرفته للقبائل العربية على ما قرأه في كتب النسابين والمؤرخين، وإنما انتقل إلى ديارهم وعرفهم عن قرب كما سيصرح بذلك فيما يأتي.

وقد حرر أحمد الناصري في «الاستقصا» (جزء 2، ص: 145-161) أصول عرب المغرب وكيفية دخولهم إليه واستيطانهم إياه ملخصة من «تاريخ» ابن خلدون، و «جمهرة الأنساب» لابن حزم.

توزيع العرب
بحسب المناطق وذكر عددهم

كانت اثبج أشرف العرب وأنبههم شأناً، فاختارهم المنصور لسكنى دكالة وسهول تادلا. ويؤدون في أيامنا هذه ضرائب جسيمة لملك البرتغال تارة، ولملك فاس تارة أخرى. ويبلغ عددهم نحو مائة ألف مقاتل نصفهم من الفرسان.

وتخلفت سميت في بيداء ليبيا من أعمال صحراء طرابلس، وقليلاً ما يأتون إلى بلاد البربر، إذ لا نفوذ لهم فيها، ولم تخصص لهم بها أية منطقة يسكنونها. فهم مقيمون دوماً بالصحراء مع إبلهم، وعددهم تسعون ألف رجل على أهبة حمل السلاح، غالبهم من المشاة.

يسكن بنو سعيد نفس الصحاري الليبية، ويتعاملون معاملة صداقة وتجارة مع مملكة وركلة، ويكسبون عدداً وافراً من الماشية يمونون بلحومها جميع المدن والقرى المجاورة في فصل الصيف فحسب، لأنهم لا يغادرون الصحراء في فصل الشتاء. ويناهز عددهم مائة وخمسين ألف رجل، لا خيول لهم.

وينتشر دلاج في مناطق متعددة، فيعيش معظمهم في تخوم القيصرية ومملكة بجاية، ويتلقون إعانات مالية من الأمراء المجاورين لهم. وتسكن أصغر فرقهم سهل أدخسان[48] بتخوم موريطانيا والأطلس، وتؤدي الخراج لملك فاس.

ويسكن المنتفق سهل أزغار ويعرفون اليوم بالخلط[49] ويؤدون الخراج كذلك لملك فاس. ويقدر عددهم بثمانية آلاف فارس مجهز أحسن تجهيز.

---

(48) السهل الحالي لمدينة خنيفرة شمالي قصبة تادلا.

(49) ما يزال الخلط يسكنون ضواحي مدينة القصر الكبير.

أما صبيح، أعني أهمهم وأعلاهم قدراً، فإنهم يعيشون في تخوم مملكة الجزائر، ويتلقون إعانات مالية من ملك تلمسان، ولهم في نوميديا أقاليم عديدة خاضعة لهم. ومن عادة هؤلاء الأعراب أن يرحلوا كذلك في فصل الشتاء إلى الصحراء لكثرة إبلهم. وتقيم فرقة أخرى من صبيح في السهول بين سلا ومكناسة[50]، ولهم أغنام وأبقار، يحرثون الأرض ويؤدون الخراج كذلك للملك فاس. ويقدر عددهم بأربعة آلاف فارس مجهز أحسن تجهيز.

رهط بني هلال ومواطنهم

أهم فرع لهذا الرهط هم بنو عامر المقيمون بتخوم مملكتي تلمسان ووهران، يرحلون إلى صحراء تيكورارين ويستأجرهم ملك تلمسان. وهم ذوو شجاعة فائقة وثروة طائلة، عددهم نحو ستة آلاف من أحسن الفرسان وأقواهم عتاداً.

أما عروة القاطنون بضواحي مستغانم فهم وحوش ولصوص، يرتدون أرذل لباس ولا يبتعدون عن الصحراء، إذ لا موطن لهم في بلاد البربر ولا إعانة مالية، وعددهم نحو ألفي فارس.

وتسكن عقبة ضواحي مليانة ويمدهم ملك تنس بقليل من المال، لكنهم فتاكون بدون شفقة ولا رحمة، وهم نحو ألف فارس.

وديار هبرة في السهل الممتد بين وهران ومستغانم، وهم فلاحون يؤدون الخراج للملك تلمسان، ولعل عددهم مائة فارس.

تسكن مسلم مفازة مسيلة الممتدة نحو مملكة بجاية، ويأخذون اتاوات من مسيلة وبعض القرى.

---

(50) ما تزال مساكن قبيلة صبيح معروفة وعامرة حتى اليوم شمال مدينة القنيطرة.

تقيم رياح بقفار ليبيا جنوبي قسنطينة، وتمتد سلطتهم على جزء من نوميديا، وينقسمون إلى ستة أفخاذ كلهم أبطال حرب نبلاء مجهزون أحسن تجهيز، وتصلهم إعانات مالية من ملك تونس، وعددهم خمسة آلاف فارس.

تقطن سويد القفار الممتدة نحو مملكة تنس، ولهم صيت بعيد وسيطرة واسعة وأجور يتقاضونها من ملك تنس، وهم شرفاء شجعان يمتلكون كل ما يحتاجون إليه.

تخضع أسجع لقبائل مختلفة من الأعراب، ويسكن معظمهم مع العمارنة في صحراء كرط، في حين يقيم فريق آخر منهم مع أعراب دكالة في نواحي آسفي[51].

يقيم الحارث بسهول حاحا[52] مع الشياظمة، ويتقاضون خراجاً من أهل حاحا، وهم ضعفاء.

يسكن النضر[53] كذلك سهول حاحا. وجميع هؤلاء الأعراب المقيمين بحاحا نحو أربعة آلاف فارس، كلهم سيؤو التجهيز هؤلاء وأولئك.

وتوجد كرفة في مواطن مختلفة بدون رؤساء، ويختلطون مع المنابهة والعمارنة، وهم الذين يحملون التمر من سجلماسة إلى مملكة فاس، ومنها يحملون الأقوات الضرورية لسجلماسة.

---

(51) هم سكان مدينة الغربية الخربة اليوم.
(52) ورد هذا الاسم محرفاً في الترجمة الفرنسية هنا هكذا (حلين) وقد كرر بعد ذلك مرتين باسم حاحا وهو مايقتضيه السياق.
(53) انقرضوا.

مواطن معقل وعددهم

تسكن روحة، وهم فرع من مختار، الصحاري المجاورة لدادس وفركلة. وهم فقراء لا يملكون إلاَّ قليلاً من الأرض، غير أنهم شجعان يحاربون وهم راجلون، حتى ليعتبر من العار عندهم أن ينتصر فارسان على راجل واحد. ولا يوجد من بينهم أحد مهما كان بطيئاً لا يمكنه أن يسرع في سيره إسراع أي فارس كيفما كان طول الطريق. وهم نحو خمسمائة فارس وثمانية آلاف راجل، ونعني بذلك رجال الحرب منهم[54].

يقيم بنو سليم قرب نهر درعة ويتنقلون عبر الصحراء. وهم أثرياء يذهبون كل سنة ببضائعهم إلى تنبكتو، ولهم بدرعة ممتلكات عديدة وأرض كثيرة للحرث وعدد وافر من الإبل. ويبلغ عددهم نحو أربعة آلاف فارس.

يقطن بنو حسين بساحل المحيط على تخوم ماسة، وهم نحو خمسمائة فارس تجهيزهم سيِّىء جداً. ويقيم بعضهم بأزغار رعايا لملك فاس، بينما يتمتع الأولون بالحرية ولا يخضعون لأحد.

تسكن كنانة مع الخلط وتخضع كذلك لسلطة ملك فاس. وهم أشداء لديهم كل ما يحتاجون إليه، وعددهم ألفا فارس.

وينقسم ذوو حسين إلى دليم، وبرابش، وأوداية، وذوي منصور، وذوي عبيد الله[55].

---

(54) ما يزال أعراب روحة مجتمعين في بعض قصور درعة عارفين أصلهم العربي، لكنهم لا يتميزون اليوم عن سكان القصور الأخرى، فلم تبق لهم خيول ولا أية صفة مما ذكره المؤلف هنا.

(55) كرر المؤلف تقسيم ذوي حسين مخالفاً ما سبق أن ذكره في الفصل السابق عن أصناف الأعراب المتبربرين، فذوو منصور وذوو عبيد الله هنا وضعا موضع الرحامنة وأحمر هناك.

تساكن دليم الصنهاجيين الافريقيين في صحراء ليبيا، وليست لهم قيادة ولا يتقاضون أي أجر، فهم لذلك صعاليك ولصوص، كثيراً ما يأتون إلى درعة ليستبدلوا بمواشيهم التمر، ويرتدون أرذل لباس. يبلغ عددهم عشرة آلاف رجل، أربعمائة منهم فرسان والباقي راجلون.

يسكن البرابش أيضاً صحراء ليبيا في قسمها الموالي لإقليم سوس، وهم كثيرون وضعفاء، لكن لديهم كثير من الإبل، يحكمون تشيت التي لا تكفيهم حتى لتصفيح حوافر خيولهم القليلة.

تقطن الأوداية الصحاري الواقعة بين وادان وولاتة، ويبسطون نفوذهم على السودانيين، ولا يكاد يحصى عددهم. ويقدر المقاتلون منهم بسبعين ألف رجل لكن ليس لهم إلاَّ عدد قليل من الخيل.

يسيطر الرحامنة[56] على الصحراء المجاورة لأقا، وكذلك على تشيت التي اعتادوا الذهاب إليها كل شتاء، وخيولهم هم أيضاً قليلة.

تسكن أحمر صحراء تكانوت[57] ويتلقون بعض الإعانات المالية من سكان قرية تكاووست، ويتنقلون في الصحراء إلى واد نون، ويبلغ عدد محاربيهم نحو ثمانية آلاف رجل.

ذوي منصور

يقيم العمارنة، وهم فرع من ذوي منصور، في الصحاري المجاورة لسجلماسة، ويتنقلون في صحراء ليبيا إلى ايكيدي[58]، ويتقاضون الخراج من أهل سجلماسة وتدغة وتبلبالت ودرعة. يملكون واحات كثيرة تمكّنهم

---

(56) نقلوا بعد ذلك إلى شمال مراكش حيث ما يزالون هناك لحد الآن.

(57) لعلها تكاووست.

(58) معناه الرمل، ويقع في جنوب تفيلالت.

من العيش كأمراء، ويتمتعون بصيت كبير. فرسانهم نحو ثلاثة آلاف رجل. ويوجد من بينهم عدد وافر من أجلاف الأعراب، لكنهم يملكون كثيراً من الخيل والماشية، أمثال كرفة وأسجع.

وللعمارنة فرقة خاصة يمتد سلطانها على بعض الأراضي الزراعية الواقعة بنوميديا[59] ويتنقل أفرادها حتى صحراء فجيج، وتمدهم أراضيهم الزراعية وقراهم النوميدية بمداخيل كثيرة مهمة. ويأتي هؤلاء الأعراب في الصيف للمقام بإقليم كرط على تخوم القسم الشرقي لموريطانيا. وهم نبلاء في غاية الشجاعة، لذلك اعتاد ملوك فاس أن يتخذوا كلهم تقريباً زوجاتهم من بنات هؤلاء الأعراب ويربطوا معهم وشائج القربى.

يسكن المنابهة هم أيضاً صحراء فجيج، وتمتد سيطرتهم على مطغرة والرتب من أقاليم نوميديا. وهم كذلك شجعان يأخذون بعض الإعانات المالية من سكان سجلماسة، ويبلغ عدد فرسانهم نحو ألفي رجل.

تنتمي قبيلة حسين هي أيضاً إلى ذوي منصور، وتساكن الجبليين في الأطلس. وتساهم بتقديم عدد من رجالها كسادة لكثير من الجبال الآهلة بالسكان والمدن والقصور التي أقطعهم إياها مختلف ملوك بني مرين، جزاء لما قدمته لهم هذه القبيلة من عون فائق في بداية دولتهم. وتباشر حسين سلطتها فيما بين مملكة فاس وسجلماسة، ويحكم رئيسهم مدينة تدعى كرسلوين[60]. وينتقلون أيضاً في صحراء الظهرة[61] وهم أثرياء أقوياء، يبلغ عدد فرسانهم نحو ستة آلاف رجل، وغالباً ما يوجد من بينهم أعراب آخرون، لكنهم يعدون من أتباعهم.

---

(59) لعله يقصد بلاد البربر.

(60) تحمل أنقاضها حالياً اسم دوار، وتقع على ضفة نهر زيز في منطقة كير.

(61) بين دبدو وفجيج.

وتقيم فرقة من حسين في صحراء الظهرة هذه، لا يملكون غير القليل، ويعيشون في فقر مدقع لا يتمكنون معه حتى من المقام تحت خيامهم في هذه الصحراء. صحيح أن يقال انهم تمكنوا من الحصول على ممتلكات صغيرة في صحراء ليبيا، لكنهم يعيشون هنالك متضورين من الجوع، ويؤدون اتاوات لقومهم الآخرين.

ذوي عبيد الله

تكون خراج قسمًا من ذوي عبيد الله، ويسكنون في صحراء بني كومي[62] وفجيج. لهم أراضٍ زراعية كثيرة بنوميديا، وإعانات مالية يتلقونها من ملك تلمسان الذي لا يكاد يفتر في الحرص على حملهم على أن يعيشوا عيشة مسالمة شريفة، لأنهم لصوص يكادون يفتكون بكل من تصل إليه أيديهم. وهم نحو أربعة آلاف فارس، من عادتهم أن يرحلوا إلى نواحي تلمسان في فصل الصيف.

كانت ثعلبة تسكن سهل الجزائر وتتنقل في الصحراء حتى تكديت[63]، ولهم سيطرة على مدينتي الجزائر ودلس، لكن في وقتنا هذا انتزعهما منهم بربروس وبويع ملكاً، فدمّرت ثعلبة وكانت ذات شرف وشجاعة، يبلغ عدد فرسانها ثلاثة آلاف رجل.

تسكن الهدج صحراء مجاورة لتلمسان تدعى أنكاد، ليس لهم ممتلكات ولا إعانات، ولا يعيشون إلا على القتل والنهب، وهم نحو خمسمائة فارس.

تسكن جعوان في فرقتين، إحداهما مع الخراج والأخرى مع الهدج، لكنهم شبه رعايا لهم، وجعوان راضية بذلك.

---

(62) تقع قصور بني كومي على ضفاف نهر زوزفانة، وأهمها تغيت.

(63) لعله يقصد توات البعيدة عن الجزائر، وربما قصد تكدمت القريبة من تاهرت في منطقة سوسو.

والآن ينبغي القول ان الشعبين الأولين، أعني حكيمًا وهلالاً، من عرب نجد وينتسبون إلى اسماعيل بن ابراهيم (عليهما السلام) وأن الشعب الثالث ـ معقل ـ من اليمنْ وينتسب إلى سبأ. ويعتبر المسلمون آل اسماعيل أشرف من السبئيين، لذلك فإنه لما كانت القبائل لا تنقطع عن التنافر، نظم شعراء كل فريق قصائد منافرة يذكرون فيها مفاخر قومهم وفضائلهم وأمجادهم.

ولا بأس أن نعرف أيضاً أن العرب الأقدمين الذين عاشوا قبل ظهور اسماعيل كانوا يعرفون عند المؤرخين الأفارقة بالعرب العاربة، نسبة إلى جزيرة العرب. ويعرف العرب المنتمون إلى اسماعيل بالعرب المستعربة، أي الذين تعرّبوا عرضاً، لأنهم لم يولدوا عرباً. وأما الذين جاؤوا إلى افريقيا فيدعون بالعرب المستعجمة والعرب المتبربرة، لأن لغتهم فسدت مع طول الزمن لمساكنتهم أمة أجنبية فأصبحوا برابرة.

ويحسن الرجوع إلى تاريخ العرب لابن خلدون الذي ألفّ كتاباً ضخماً مخصّص كله تقريباً لأنساب العرب المتبربرة، ولم يعلق منه بذاكرتي الضعيفة إلا مايقرأ هنا، لأنني منذ أكثر من عشر سنين خلت، لم يقع بصري على أي كتاب في تاريخ العرب. إلا أنني رأيت تقريباً جميع القبائل العربية الآنفة الذكر، وتحدثت إلى أفرادها، وعلق بذهني بعض خصائصها.

عادات الأفارقة القاطنين بصحراء ليبيا وطرق عيشهم

إن الشعوب الخمسة التي ذكرناها، وهي صنهاجة، وونزكة، وتاركَة، ولمطة وبردوة، تعرف كلها عند اللاتينيين بالنوميدية[64] ويعيش جميع أفرادها بنفس الطريقة، دون أية قاعدة ولا منطق.

---

(64) الواقع أن اللاتينيين كانوا يطلقون اسم النوميديين على سكان شمال تونس والشمال الشرقي لإقليم قسنطينة الحالي. وكان في الجنوب الجتول والكرمانت بمنطقة فزان. ويبدو أن الصحراويين لم يطلق عليهم أي اسم خاص.

يتركّب لباسهم من عباءة ضيقة من الصوف الخشن، ويضع كل واحد منهم على رأسه أو يلف حول وجهه قطعة من النسيج الأسود على شكل عمامة. ويتميز الأعيان والأشراف عن غيرهم بقميص طويل عريض الأكمام من القطن الأزرق يبيعهم إياه تجار يأتون من أرض السودان. ولا يركبون غير الإبل يتخذون لها سروجاً خاصة يضعونها بين أسنمتها وأعناقها. ومنظر هؤلاء القوم على ظهور إبلهم جميل، يضعون أحياناً رجلاً على رجل فوق عنق الجمل، ويجعلون أرجلهم في سير بلا ركاب تارة أخرى، ويتخذون مهمازاً على رأس قضيب طوله ذراع، لكنهم لا يخزون به غير كتفي الدابة. وأنوف الجمال المعدة للركوب كلها مثقوبة على نحو بعض الجواميس بايطاليا، فيدخل في الثقب سير يقاد به الجمل كما يقاد الفرس باللجام.

ينام هؤلاء القوم على حصر من السمار الرقيق جداً، ويصنعون خيامهم من نسيج وبر الإبل وتلك الألياف الخشنة التي تنبت بين جذوع النخل. أما غذاؤهم فإن من لم يرهم لا يصدق مدى صبرهم على الجوع، ليس من عادتهم أن يأكلوا الخبز ولا أي طعام مطبوخ، ويقتاتون بلبن نوقهم. تعودوا أن يشربوا في الصباح ملء إناء كبير من اللبن الساخن فور ما يحلب، وأن يتعشوا في المساء بالقديد المطبوخ في اللبن المدهون بالسمن، فإذا نضج اللحم تناول كل واحد نصيبه بيده وأكله ثم شرب المرق مستعملاً يده كالملعقة. وحسا أخيراً فنجاناً من اللبن وقد تمّ العشاء. وما دام عندهم اللبن فلا حاجة لهم بالماء لا سيما في فصل الربيع، حيث لا يغسل بعضهم أيديهم ولا وجوههم إطلاقاً. وسبب ذلك أنهم لا يقصدون أثناء تلك المدة مواقع الماء، لأن لديهم اللبن أولاً، ولأن الإبل عندما ترعى العشب لا تحتاج إلى الماء ثانياً.

يقضي هؤلاء الرحالة حياتهم كلها حتى الموت في الصيد واختطاف

جمال أعدائهم، ولا يقيمون في أي موطن أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ريثما ترعى إبلهم كلأه.

ورغم ما قلناه من أن هؤلاء القوم لا يخضعون لأي قانون ولا شرع، فإن لهم جميعاً أميراً شبه ملك يعظّمونه ويخضعون له تمام الخضوع. وهم أميون يجهلون كل شيء لا الأدب فحسب، ولكن أيضاً الفنون وجميع المعارف، لا يكاد يوجد في قبيلة بأسرها قاض يستطيع أن يفصل في نازلة، بحيث إن من تورط منهم في خصام أو كان ضحية لجريمة لزمه أن يسافر مسافة خمسة أيام أو ستة على الجمل ليصل إلى خيمة القاضي. وهذا الجهل ناتج عن كون هؤلاء القوم لا يخصصون أي وقت للدراسة، ويمتنعون من مغادرة صحاريهم في طلب العلم. ولا يأتي القضاة إلى هؤلاء الرعاع إلا مكرهين، إذ لا يستطيعون تحمّل عاداتهم وطريقة عيشتهم، غير أن من يأتي منهم يتقاضى أجراً حسناً، فيعطى كل قاضٍ ألفي دينار[65] كل سنة، أو أكثر أو أقل، بحسب مقدرة القاضي المسكين.

يضع أشراف هؤلاء القوم على رؤوسهم كما قلت فيما سلف لثاماً أسود يحجبون بطرف منه وجوههم التي لا يرى منها غير العينين، ولا ينزعون اللثام أبداً، بحيث إنهم كلما أرادوا الأكل وأخذوا لقمة من الطعام كشفوا عن أفواههم ثم غطوها في الحين. ويعللون هذه العادة بقولهم ان المرء يخجل لإدخال الطعام خجله من إخراجه.

ونساؤهم ممتلئات لحمًا وشحمًا، لكنهن غير شديدات البياض، أردافهن غليظة سمينة، ونهودهن بارزة، بيد أن خصورهن في غاية الرقة، يتحدثن بظرف ويمددن أيديهن عن طيب خاطر، وقد يسمحن للرجال بلثمهن، لكن تعدي ذلك الحد خطير يؤدي إلى اقتتال الرجال بضرواة

---

(65) إذا كان المؤلف قارن الدوكة الايطالية بالدينار العربي أو المثقال، فإن الدوكة الرائجة في عهد البابا كليمان السابع وهو الوقت الذي كان الحسن الوزان يؤلف فيه هذا الكتاب ــ كانت تزن 3,532 غرام ذهباً.

متناهية، فهم في ذلك أعقل من بعضنا، لا يقبلون الخدعة في أعراضهم بأي ثمن.

وهؤلاء القوم في غاية الكرم مع أن الناس لا يمرون بمضارب خيامهم لجفاف أرضهم، ولأنهم هم أنفسهم لا يترددون على الطرق المطروقة. غير أن القوافل التي تقطع صحاريهم تؤدي حتمًا إلى أمرائهم اتاوة هي عبارة عن قطعة قماش تساوي ديناراً عن كل حمل جمل.

وقد مررت من ثم منذ سنوات في قافلة مع مسافرين آخرين[66]. ولما وصلنا إلى سهل أروان جاء للقائنا أمير صنهاجة في خمسمائة رجل راكبين على الجمال.

وبعد أن أخذ منا الإتاوة، استدعى جميع من بالقافلة إلى الذهاب معه إلى خيامه، للاستراحة بها يومين أو ثلاثة أيام. ولما كان المخيم بعيداً عن طريقنا بنحو ثمانين ميلاً، وإبلنا محمّلة كثيراً، رفض التجار هذا الاستدعاء تفادياً لإطالة الطريق. عند ذلك قرر الأمير أن يتابع الجمالون السفر مع دوابهم ويصحبه التجار رغبة منه في مقامنا عنده.

وما كدنا نصل إلى الخيام حتى أمر ذلك الرجل الطيب بذبح عدد من الجمال الصغيرة والكبيرة، والغنم، وبعض النعامات التي اصطادوها في الطريق. ولما طلب التجار من الأمير ألا يذبح الجمال لأنهم لم يتعودوا أكل غير لحم الغنم، أجاب بأنه لا يجمل عندهم في الوليمة الاكتفاء بذبح الحيوانات الصغيرة، لا سيما ونحن غرباء ضيوف عنده. فأكلنا ما قدّم لنا، وأهمه لحوم مشوية ومطبوخة. حملوا إلينا اللحم على طاولة شرائح مفوهة متبلة بالأعشاب وبكمية كبيرة من توابل أرض السودان، وكان الخبز معجوناً من خالص دقيق الدخن والذرة. وفي الأخير وضعوا بين أيدينا تمراً كثيراً وصحوناً كبيرة مملوءة لبناً. وقد تفضّل الأمير فشرّف الوليمة بحضوره

---

(66) لعل ذلك كان حوالي عام 1512/918 أثناء سفر المؤلف إلى تنبكتو للمرة الثانية.

مع بعض نبلاء حاشيته وأقاربه، لكنهم أكلوا منعزلين عنا، وأحضر بعض الفقهاء والأدباء الذين كانوا هناك وأجلسهم بالقرب منه. وأثناء الغداء لم يتناول أي نوميدي خبزاً، وإنما أكلوا اللحم وشربوا اللبن فقط. وعندما لاحظ الأمير تعجبنا قدم لنا توضيحات بأسلوب ظريف مفادها أنه ولد في هذه القفار التي لا تنبت أية حبة، وأن الناس هنا يتغذون بما تنتجه أرضهم. وقال لنا انه يتزود كل عام بالحبوب لإكرام الغرباء الذين يمرون هناك. لكنهم في الواقع تعودوا أن يأكلوا الخبز أيام الأعياد الكبرى كعيدي الفطر(67) والأضحى.

وقد حرص الأمير على أن نقيم عنده يومين وأحاطنا بكل عناية وإكرام، وسمح لنا في اليوم الثالث بالانصراف، وأراد أن يشيعنا إلى أن نلتحق بالقافلة. ولا أخفي أن الأنعام التي أمر بذبحها لإطعامنا تساوي عشرة أضعاف ما قدمناه له من حق المرور. وقد لاحظنا من خلال أفعال الأمير وأقواله نبله وظرفه رغم أنه لا يفهم لغتنا ولا نفهم لغته، وإنما كانت محادثتنا معه بواسطة ترجمان.

وهذه العادات وطريقة المعاش التي ذكرت لكم عن هذا الشعب هي نفس ما يوجد عند الشعوب الأربعة الأخرى المتفرقة في سائر صحاري نوميديا.

عادات العرب القاطنين بإفريقيا وطريقة معاشهم

تختلف عادات العرب وطريقة معاشهم باختلاف المناطق التي يقطنون بها. فعرب نوميديا وليبيا يعيشون عيشة بؤس وفقر مدقع،

---

(67) عبر المؤلف عن عيد الفطر بعيد الفصح الذي هو آخر أيام الصيام عند المسيحيين تقريباً لأفهامهم.

لا يختلفون في ذلك عن الشعوب الافريقية التي ذكرناها، إلا أنهم أكثر شجاعة منهم. يتجرون بالجمال في أرض السودان، ويملكون كمية وافرة من الخيول التي نسميها في أوربا الخيول المغربية. ويخرج هؤلاء العرب دائماً لصيد الغزال، وحمار الوحش، والنعام، واللمت، والمها، وغيرها من الوحش.

ولا ينبغي أن يغفل القول بأن لمعظم عرب نوميديا كثيراً من الشعراء ينظمون قصائد مطوّلة تتحدث عن غارات حربهم وصيدهم، وتتطرق إلى الغزل بغاية الرقة والظرف. وأبياتهم مقفاة كأبيات الشعر الايطالي الشعبي. وهم كرماء لكن ليست لهم موارد تؤيد شهرتهم وتبين كرمهم، فهم يفتقدون كل شيء في هذه القفار. يشبه لباسهم لباس النوميديين، إلا أن نساءهم يرتدين حللاً تختلف قليلاً عن حلل النساء النوميديات.

كانت الصحاري التي يقطنها هؤلاء العرب في أيدي شعوب إفريقية. ولما دخلت القبائل العربية إلى افريقيا، أرغمت النوميديين على مغادرتها، واستقرت بالفلوات المجاورة للواحات، بينما تقهقر النوميديون ليسكنوا القفار المجاورة لأرض السودان.

أما العرب القاطنون بافريقيا بين الأطلس والبحر المتوسط(68)، فإنهم أكثر هناء وغنى من العرب المذكورين آنفاً، لا سيما فيما يخص اللباس، وأسراج الخيول، وجمال الخيام وعظمتها. يملكون خيولاً أحسن بكثير من خيول الصحراء، إلا أنها أقل منها سرعة عند السباق. ويحرث هؤلاء العرب أرضهم فيحصلون منها على كمية وافرة من الحبوب ويكسبون عدداً لا يحصى من الغنم والبقر، الأمر الذي جعلهم لا يستقرون في مكان واحد لعدم وجود أرض كافية لرعي هذه الأعداد الوافرة من الماشية. وهم أكثر وحشية وخيانة من عرب الصحراء، إلا أنهم

---

(68) لعله يقصد بلاد البربر كلها.

كرماء. من يسكن منهم مملكة فاس يخضع لملكها ويؤدي له الخراج. وقد عاش عرب نواحي مراكش ودكالة مدة من الزمن محررين من كل الكلف المخزنية إلى أن احتل البرتغاليون أسفي وأزمور [69]، فثارت الفتن بين القبائل وتفرقوا حزبين، دمر ملك فاس[70] أحدهما، وقضى ملك البرتغال[71] على الحزب الآخر، كما نالت المجاعة السائدة في افريقيا تلك السنة منهم كثيراً، إلى أن هاجر العرب المساكين عن طواعية إلى البرتغال يعرضون أنفسهم كعبيد لمن يعولهم، حتى لم يبق منهم أحد بدكالة[72].

لكن العرب المقيمين بالصحاري المجاورة لمملكتي تلمسان وتونس يعيشون جميعاً مثل سادتهم. فكل أمير يتوصل من الملك بإعانات مالية ضخمة يوزعها على قبيلته ليتقي الفتن ويعيش معهم في سلم وعلاقة ودية. ويحب هؤلاء العرب اللباس الجميل، واكتساب الخيل الفارهة المسرجة، والخيام الكبيرة الرائعة. ومن عادتهم أن يذهبوا صيفاً إلى ضواحي تونس ليتزودوا منها، وفي شهر أكتوبر يقتنون كل ما يحتاجون إليه من طعام ولباس وسلاح، ويرجعون إلى الصحراء ليقضوا فيها الشتاء. وفي الربيع يتسلون بالصيد بالكلاب والصقور، يصيدون جميع أنواع الحيوانات ذات الشعر أو الريش.

أقمت عندهم مراراً واقتنيت أشياء كثيرة، ولاحظت أنهم يملكون في خيامهم من الثياب والنحاس أكثر مما يملكه الحضريون، غير أنهم لا يؤتمنون لعدم تورعهم عن النهب والقتل، رغم مجاملتهم البالغة.

---

(69) كان احتلال آسفي عام 1501/914، واحتلال آزمور في 2 رجب 3/919 شتنبر 1513.

(70) هو أبو عبد الله الوطاسي المعروف بالبرتغالي.

(71) هو عمانويل الأول.

(72) لم تكن الحالة الاقتصادية سيئة حسب الوثائق البرتغالية، ولا شك أن الهجرة كانت محدودة لم تشمل غير جماعة من الفقراء، إذ لا تزال هذه القبائل العربية تقيم في مواطنها المعروفة بدكالة إلى أيامنا هذه.

إنهم يحبون الشعر وينشدون بلهجتهم العامية أبياتاً رائعة جداً، ولو أن هذه اللغة تعتبر اليوم فاسدة. وقد ينال شاعر مشهور إعجاب الأمراء، فيمنحونه صلات هامة. ولا استطيع أن أعرب لكم عن مدى صفاء أشعارهم ورقتها. أما نساء هؤلاء العرب فيرتدين لباساً حسناً حسب عادة البلاد، وهو قميص أسود واسع الأكمام، يجعلن فوقه خماراً أسود أو أزرق يلتحفن به ويجعلن هدبه على أكتافهن من أمام ومن خلف، حيث يمسك بمشبك فضي مصنوع بطريقة فنية. ويضعن أقراطاً عديدة من الفضة كذلك في آذانهن، وخواتم في أصابعهن، وأساور في أيديهن وخلاخل في أرجلهن على عادة الأفارقة.

تضع هؤلاء النساء أمام وجوههن ثوباً صغيراً مثقوباً أمام العيون، فإذا رأين رجلاً ليس من أهلن، احتجبن فوراً بهذا اللثام، وأمسكن عن الكلام، فإذا انفردن بأزواجهن وذويهن رفعن اللثام.

ولما كان العرب يرحلون من مكان إلى آخر، فإنهم يحملون نساءهم على هوادج كالسلال تغطى بزرابي جميلة جداً. وهذه الهوادج صغيرة لا يسع الهودج إلا امرأة واحدة. ويصطحبون نساءهم في حروبهم لتزداد شجاعتهم ويقل خوفهم.

ومن عادة هؤلاء النساء أنهن، قبل الزفاف إلى أزواجهن، يخضبن بالحناء وجوههن وصدورهن وأذرعهن وأيديهن إلى رؤوس الأصابع، لأن ذلك مستحسن عندهن. وقد اتخذ العرب المستعجمة هذه العادة عندما انتقلوا إلى سكنى هذه البلاد الافريقية، ولم تكن معروفة لديهم من قبل، غير أن الحضريين وأشراف البلاد لم يتبعوا هذه العادة، وبقيت نساؤهم محتفظات ببياضهن الطبيعي، وإنما يستعملن في بعض الأحيان خضاباً مصنوعاً من عتن لوز العصفة والزعفران، ويرسمن به في وسط خدودهن زينة مستديرة تشبه الدينار، وبين الحاجبين شكلاً مثلثاً، وعلى الذقن شبه ورقة الزيتون، وتخضب به بعضهن الحواجب كاملة، يمدح الشعراء العرب والأشراف هذه

العادة، وتراها النساء أنيقة وجميلة، غير أنهن لا يحتفظن بهذه الزينة أكثر من يومين أو ثلاثة، لأنهن لا يستطعن البروز إلى أقاربهن بتلك الحال، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو أبنائهن. ويفعلن ذلك ليكن أكثر جاذبية، متوهمات أن تلك الزينة تزيد كثيراً من جمالهن.

العرب الذين يسكنون الصحاري الواقعة بين بلاد البربر ومصر

يعيش هؤلاء العرب عيشة فقيرة، لأن البلاد التي يسكنونها قاحلة وعرة، ويكسبون الغنم والجِمال، لكنها لا تنتج إلا القليل لقلة المرعى. لذلك كلما أوغلت في أرضهم وأبعدت لم تجد بقعة صالحة للزراعة. ومع ذلك فإن في هذه الصحاري مجموعات صغيرة تشبه الضيعات أو القرى بجوار واحات صغيرة جداً. وهناك يزرع القمح لكن بكميات قليلة لا تكاد تذكر. لذلك فإن سكان هذه القرى كثيراً ما يزعجهم العرب ويثقلون كواهلهم بالأعمال، يأتون إليهم مراراً ليستبدلوا القمح بإبلهم وغنمهم، لكن القمح لا يكفي لمثل أعدادهم. لذلك تجد في كل وقت العديد من أولاد هؤلاء العرب عند الصقليين كرهائن للقمح الذي يأخذونه منهم. وفي حالة عدم الوفاء بالدين عند انتهاء الأجل المحدد يحتفظ الدائنون بالأطفال كرقيق لهم. وإذا رغب الآباء في افتدائهم بعد ذلك لزمهم أداء ثلاثة أضعاف مبلغ الدين، فيضطرون إلى تركهم لهم. وهذا ما جعل هؤلاء العرب أقبح الفاتكين على وجه الأرض، يجرِّد كل غريب وقع بين أيديهم من جميع ما عنده ثم يباع للصقليين، حتى إنه منذ مائة سنة لم تمر أية قافلة بالساحل المحاذي للصحراء التي يعيش فيها هؤلاء القوم. وإذا أرادت قافلة أن تخترق البلاد، مرت من الداخل على بعد نحو خمسمائة ميل من البحر.

وقد سلكت سبيل البحر على طول الساحل مع ثلاث سفن تجارية

تفادياً لخطر ملاقاة هؤلاء القوم[73] ولما بصر بنا الأعراب، سارعوا إلى المرسى، مدعين أنهم يرغبون في التعامل معنا بتجارة رابحة، لكن أحداً لم يقبل النزول إلى البر خوفاً منهم قبل أن يسلموا إلينا بعض أولادهم على سبيل الاحتياط. وقد اشترينا قليلاً من غنمهم وسمنهم، ثم ولينا مسرعين آملين ألا يلاحقنا قراصنة صقلية أو رودس.

الشاوية أو رعاة الشاء
شعب إفريقي يعيش عيشة العرب

تشتغل كثير من القبائل الافريقية بتربية الغنم والبقر، ولا تعمل أي عمل آخر طول النهار. يسكن معظمهم في سفح الأطلس وفي الجبل، ويؤدون الخراج أينما وجدوا للملك أو للعرب، باستثناء سكان تامسنا فإنهم أحرار ذوو شوكة يتكلمون اللغة الافريقية، ويتحدث بعضهم باللغة العربية لمجاورتهم للعرب وعلاقاتهم معهم، كسكان بوادي الأربيوس في ضواحي تونس. وهناك جماعة أخرى تقيم في التخوم بين تونس وبلاد الجريد[74]، وكثيراً ما تجرؤوا على ملك تونس وأعلنوا الحرب ضده كما حدث منذ بضع سنوات. وكان إذ ذاك ابن ملك تونس قد خرج من قسنطينة لجباية الخراج منهم، فهجم عليه أميرهم معترضاً طريقه بألفي فارس، فهزم الجند وقتل ابن الملك واستولى على محلته، وكان ذلك عام 915 للهجرة، وأصبح اسم هذه القبيلة مشهوراً منذ هذه الهزيمة وسار بذكرها الركبان، وفر عدد كثير من العرب الذين كانوا يخدمون ملك تونس من المناطق الخاضعة له، وذهبوا ليسكنوا مع المنتصرين، بحيث صار هذا الأمير من أكبر سادة أفريقيا وأشهرهم.

---

(73) ألعل ذلك كان أثناء رجوعه الأخير من مصر.

(74) يعني شاوية الأوراس في جنوب شرقي إيالة قسنطينة القديمة.

ديانة قدامى الأفارقة

كان الأفارقة في الزمن القديم وثنيين على غرار الفرس الذين يعبدون النار والشمس، ويتخذون لعبادتها معابد جميلة مزخرفة توقد داخلها نار تحرس ليل نهار حتى لا تنطفيء، كما كان يفعل ذلك في معبد الإلهة «فيستا» عند الرومان. ذلك ما لا تفتأ تواريخ الأفارقة والفرس تتحدث عنه. ومن المعلوم أن أفارقة نوميديا وليبيا كانوا يعبدون الكواكب ويقربون إليها القرابين، وأن بعض الأفارقة السود كانوا يعبدون «كيغيمو» ومعناه في لغتهم رب السماء. وقد أحسوا بهذا الشعور الحسن دون أن يهديهم إليه أي نبي أو عالم. وبعد ذلك اعتنقوا الديانة اليهودية طوال سنين عديدة إلى أن أصبحت بعض الممالك مسيحية فدانوا بالمسيحية وأخلصوا لها إلى أن قامت بعض الفرق الإسلامية عام 268 للهجرة، فجاء بعض المسلمين دعاة في هذه المناطق وأقنعوا هؤلاء الأفارقة باعتناق دينهم حتى أصبحت الممالك السود المتاخمة لليبيا مسلمة(75). غير أنه لا تزال بعض الممالك، بقي فيها السود متمسكين بالمسيحية إلى الآن ما عدا اليهود منهم وحدهم فقد حطمهم جميعاً المسيحيون والافريقيون. أما سائر السودانيين الذين يقطنون بساحل المحيط فما زالوا وثنيين يعبدون الأصنام، وقد رآهم عدد كثير من البرتغاليين وكانت لهم معهم بعض العلاقات الخارجية.

وظل سكان بلاد البربر وثنيين مدة طويلة من الزمن، واعتنقوا المسيحية قبل مولد محمد (عليه السلام) بمائتين وخمسين سنة، ذلك لأن

---

(75) لعل المؤلف يشير هنا إلى حركة الفاطميين بالمغرب الأدنى، وقد صاحبت حركتهم الشيعية دعوة إلى الإسلام في المناطق الجنوبية التي امتد إليها نفوذهم. لكن الدولة الفاطمية تبتديء عام 296 ولم يكن لها وجود عام 268. ولعل تحريفاً وقع في الأرقام فكان الأصل 68 أو 62 وهو يوافق تاريخ الولاية الثانية لعقبة بن نافع الفهري الذي توغّل في الجنوب ونشر الإسلام بين الملثمين وبعض السودان.

انظر: أ. الناصري، **الاستقصا**، 1:72-75؛ حسن ابراهيم حسن، **انتشار الإسلام والعروفة**، ص: 46-49.

المنطقة التي تقع فيها تونس وطرابلس كانت تحت سيطرة بعض أمراء بوي وصقلية، بينما كان ساحل القيصرية وموريطانيا خاضعاً لملوك القوط[76]، وفي نفس الوقت أيضاً هرب عدد كثير من الأمراء المسيحيين أمام هيجان القوط وتركوا بلادهم الجميلة ليسكنوا ضواحي قرطاج حيث كونوا لأنفسهم ممتلكات بعد ذلك. ومن المعلوم أن هؤلاء المسيحيين كانوا على مذهب الأريوسيين الذين ينتسب له سان أوجستان[77]. ولما جاء العرب ليفتحوا بلاد البربر وجدوا المسيحيين يملكون هذه المناطق فحاربوهم مراراً وأبى الله إلا أن يكون النصر حليف العرب، فهرب الآريون بعضهم إلى إيطاليا وبعضهم إلى إسبانيا[78].

وبعد مرور نحو مائتي سنة على وفاة محمد (عليه السلام) أصبح سكان بلاد البربر مسلمين إلا القليل منهم. ومن المعلوم أنهم ثاروا أكثر من مرة وارتدوا وقتلوا أئمتهم وولاتهم، غير أن الخلفاء عجلوا بإرسال الجنود لقتال البربر كلما علموا بهذه الثورات، واستمر ذلك إلى أن جاء الشيعيون الفارون من الخلفاء ودخلوا إلى بلاد البربر، فتمكن الإسلام حينئذٍ في هذه البلاد بصفة نهائية[79].

غير أنه كان عند البربر وما زال عدد كثير من البدع والفرق المختلفة، وآمل بعون الله تعالى أن أدرس مسألة الديانة الإسلامية دراسة

---

(76) لا تعرف بالضبط مراحل انتشار الديانة المسيحية في بلاد البربر، ويعني المؤلف بالقوط الوندال.

(77) غلط المؤلف هنا لعدم اطلاعه على الديانة المسيحية، فقد كان سان أوجستان ضد الآريين بعكس ما ذكر المؤلف.

(78) فرَّ الآريون فعلاً وهم الوندال لكن في أوائل سنة 534 م.

(79) يشير إلى دور الإمامين ادريس الأول وابنه ادريس الثاني في نشر الإسلام بين البربر. وقد جاء ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى المغرب فاراً من العباسيين في وقعة فخ الشهيرة عام 788/172 حيث بويع ملكاً بالمغرب في نفس السنة، ثم خلف ابنه ادريس الثاني واستمر ملكه إلى عام 828/213.

شاملة فيما يتعلق بهذه النقط المهمة والاختلافات المشاهدة فيها بين مسلمي افريقيا وآسيا، وذلك في كتاب آخر بعد أن يتم تأليف هذا الكتاب.

الكتابة المستعمَلة عند الأفارقة

يعتقد المؤرخون العرب اعتقاداً جازماً أنه لم تكن للأفارقة كتابة اخرى غير المرسومة بالحروف اللاتينية، ويقولون ان العرب عندما فتحوا افريقيا لم يجدوا فيها غير الكتابة اللاتينية. وهم يعترفون بأن للافارقة لغتهم الخاصة، لكنهم يلاحظون أنهم يستعملون عادة في كتابتها الحروف اللاتينية، كما يستعمل الألمانيون ذلك في أوربا. وجميع ما عند العرب من كتب التاريخ المتعلقة بالأفارقة مترجمة من اللغة اللاتينية، وهي مؤلفات قديمة كتبت ولا شك أيام الآريين وغيرهم من قبل، وأسماء مؤلفيها معروفة عندنا إلا أنها غابت عن ذهني. وأظن أن هذه الكتب طويلة جداً لأن مترجميها تعودوا أن يقولوا: «إن المسألة الفلانية معروضة في ستين جزءاً»، ولم يترجم العرب في الحقيقة هذه الكتب بحسب الترتيب الذي وضعه لها مؤلفوها، وإنما كتبوا قائمة مختصرة للملوك رتبوا عليها الحقب الخاصة بهم وبالأمراء، وقسموها بالموافقة مع تواريخ ملوك الفرس أو الأشوريين أو الكلدانيين أو الاسرائيليين.

وفي الوقت الذي كان حكم افريقيا بيد المبتدعة الفارين من خلفاء بغداد، أمروا بإحراق جميع كتب الأفارقة المتعلقة بالتاريخ والعلوم، متوهمين أن الإبقاء على هذه الكتب من شأنه أن يترك الأفارقة على نخوتهم القديمة ويدعوهم إلى الثورة والارتداد عن الإسلام.

ويذهب فريق آخر من مؤرخينا إلى أنه كانت للأفارقة لغة مكتوبة خاصة بهم، لكنهم افتقدوا هذه الكتابة[80] من جراء احتلال الرومان لبلاد

(80) لعله يشير إلى الكتابة الليبية ـ البربرية التي استمرت إلى وقتنا هذا عند الطوارق في شكلها الحديث (تيفيناغ)، أو تكون الإشارة إلى اللغة الفينيقية التي كانت منتشرة حول مدينة قرطاج وانتشرت في سائر جهات شمال افريقيا حتى بعد اضمحلال تلك المدينة.

البربر، وطول مدة حكم المسيحيين الذين فروا من إيطاليا، ثم القوط من بعدهم. والرعايا ملزمون في الواقع باتباع عادات حكامهم إن أرادوا إرضاءهم، وذلك ما حصل للفرس الخاضعين للعرب، فقدوا هم أيضاً كتابتهم وأحرقت جميع كتبهم بأمر من علماء المسلمين الذين ظنوا أن الفرس لن يكونوا مسلمين سنيين مخلصين ما دامت لديهم كتب في العلوم الطبيعية والقانون والديانة الوثنية، فأحرقوا جميع هذه الكتب ومنعوا العلوم[81]. وذلك ما فعله أيضاً الرومان والقوط لما حكموا بلاد البربر كما أسلفنا.

ولعل في الدليل الآتي كفاية، ذلك أن بلاد البربر كلها، سواء منها مدن الساحل أو مدن الداخل، أعني المدن المشيدة قديماً، لا تحتوي على أية كتابة في الأضرحة أو في جدران أي بناء إلا وهي بالحروف اللاتينية دون استثناء. ولا أظن أن الأفارقة استعملوا هذه الحروف واتخذوها لكتابة لغتهم الخاصة، إذ لا شك أن الرومان لما انتزعوا هذه الأماكن من أيدي أعدائهم، محوا ــ حسب عادة المنتصرين ــ جميع النقوش الحاملة لآثار المغلوبين بخطهم الأصلي قصد إذلالهم، وجعلوا عوضها كتابتهم (الرومانية). وهكذا كانوا يقضون في آن واحد على كرامة الأفارقة وعلى كل ما يذكر بماضيهم حتى لا يتركوا شيئاً يذكر غير الشعب الروماني. وهذا ما أراد القوط أيضاً أن يفعلوه بالبنايات الرومانية، والعرب بالبنايات الفارسية، وذلك ما يفعله الأتراك اليوم في الأماكن التي يستولون عليها من يد المسيحيين، فهم لا يمتهنون ذكريات جميلة وشهادات طافحة بالشرف فحسب، ولكنهم يمتهنون أيضاً صور القديسين والقديسات في الكنائس[82]

---

(81) من المعلوم أن العرب أهملوا من الكتب القديمة ما كان دا روح وثنية فقط كان أدباً أو علماً أو قانوناً، وترجموا كل ما عدا ذلك ودرسوه كما هو معروف.

(82) لم يكن ذلك عاماً، بل لاحظ بعض الكتاب المسيحيين عكس ما ذكره المؤلف، وذلك في كنيسة سان نيكولا نفماكوست التي حول وسطها إلى مسجد، وتركت صور القديسين في حالة جيدة. غير أن فماكوست بجزيرة قبرص لم ينتزعها الأتراك من يد البنادقة إلا في سنة 1571.

ألسنا نشاهد بروما نفسها في وقتنا الحاضر صرحاً عجيباً بدأ تشييده أحد الباباوات وصرف عليه مبالغ ضخمة لكنه مات دون إتمامه؟ فجاء خلفه وأمر بهدمه ليقيم بناء آخر مكانه، أو أمر بإتمامه ونزع شعار البابا الراحل ليوضع شعاره هو مكانه بدعوى أنه أضاف أشياء صغيرة إلى الصرح. وإذا تصرف تصرفاً لائقاً وترك شعار سلفه وضع شعاره هو فوقه بخط عريض وأحلّه محل الشرف «بدقة متناهية». فليس من الغريب إذن أن تكون الكتابة الافريقية قد ضاعت منذ تسعمائة سنة التي يستعمل فيها الأفارقة الكتابة العربية. وتحدث الكاتب الافريقي ابن الرقيق في تاريخه طويلاً عما إذا كانت للأفارقة كتابة خاصة أم لا، وانتهى إلى القول بأنه كانت لهم كتابة، وأن من أنكر ذلك يمكنه أن ينكر أيضاً وجود لغة خاصة بهم، وأضاف أنه من المستحيل على شعب ذي لغة خاصة أن يستعمل في كتابته حروفاً أجنبية(83).

بقــاع إفريقيــا

كما تنقسم افريقيا إلى أربعة أقسام، يتميز كذلك كل قسم منها بطابع خاص. فساحل البحر المتوسط، من مضيق جبل طارق إلى تخوم مصر، كله جبال تمتد شطر الجنوب على مسافة تقرب من مائة ميل، تزيد في بعض النقط وتنقص في أخرى. وتوجد بين هذه الجبال وبين الأطلس سهول وتلال صغيرة، وتنبع في جميع جبال هذا الساحل عيون عديدة تتفرع عنها جداول صافية رائقة بديعة المنظر.

تمتد من وراء هذه السهول والتلال سلسلة الأطلس التي تبتدىء من

---

(83) يدل هذا على أن الكتابات الليبية والفينيقية وحتى الاغريقية لم تكن معروفة أيام المؤلف. ولن نعرف أبداً ما إذا كان بعض كتب خزانة ملك نوميديا هيامبسال في القرن الأول ق. م. كانت مكتوبة بالحروف الليبية، وهو شيء غير محتمل. ومهما كان الأمر فإن هذا الخط انتشر إلى الجزر الخالدات ووسط الصحراء وغربها، وتيفيناغ الطوارق فرع منه.

البحر المحيط غرباً وتنتهي شرقاً إلى قرب مصر. ونجد وراء الأطلس سهول نوميديا التي ينبت فيها النخيل، وهي بلاد تكاد تكون كلها رملية. بعدها تأتي صحاري ليبيا التي هي بدورها رملية وتمتد إلى بلاد السودان وتكثرفيها الجبال، غير أن التجار لا يقطعون هذه الجبال في طريقهم لوجود ممرات كثيرة واسعة مستوية بينها.

ومن وراء صحاري ليبيا بلاد السودان، ومعظمها سهل رملي، باستثناء ضفاف النيجر وسائر المراكز التي يمكن أن يصل إليها الماء ويبلل ثراها.

الأماكن الموحشة والثلجية في إفريقيا

يكون ساحل بلاد البربر كله والجبال الواقعة فيه منطقة باردة قبل كل شيء، وهناك فصل يسقط فيه الثلج، وتنبت في جميع هذه الجبال الحبوب والفواكه، لكن محصول القمح فيها قليل، لذلك يأكل الناس خبز الشعير في معظم السنة. ولماء تلك العيون طعم التراب ويكاد يكون عكراً لا سيما في الجزء الموالي لموريطانيا. وتوجد كذلك في هذه الجبال غابات كثيفة ذات أشجار ضخمة، معظمها مليء بالحيوانات النافعة والضارة.

أما التلال الصغيرة والسهول الواقعة بين هذه الجبال وبين الأطلس فتربتها طيبة تنبت كمية عظيمة من الحبوب والفواكه الجيدة. وتجري بين هذه التلال وخلال هذه السهول جميع الأنهر التي تنحدر من الأطلس لتصب في البحر المتوسط، إلَّا أن الغابات في هذه المنطقة قليلة. وأجود السهول ما امتد بين الأطلس والمحيط، كناحية مراكش وإقليم دكالة وجميع تادلا وتامسنا مع أزغار إلى مضيق جبل طارق.

والأطلس شديد البرد كثير الجدب، لا ينبت فيه إلَّا قليل من الحبوب، وتكسوه غابات كثيفة من كل ناحية، وتكاد تتكون فيه جميع أنهار

افريقيا. وعيون الأطلس غاية في البرودة حتى في غمرة الصيف بحيث إذا ترك الإنسان يده فيها مدة أتلفها التبريد. وليست جميع أطراف الجبل مجدبة بنفس الدرجة، إذ هناك أماكن يمكن أن يقال عنها بأنها معتدلة وصالحة ليتخذ فيها الإنسان مساكن حسنة للغاية، وهي بالفعل مسكونة حسبما سنفصل ذلك في القسم الثاني من كتابنا. والمناطق غير المسكونة (في الأطلس) إما قارسة البرد وإما شديدة الوعورة، فالتي تواجه تامسنا وعرة، والتي تواجه موريطانيا باردة. إلَّا أن أهل الشاوية يعيشون في هذا الجزء من الأطلس أثناء الصيف لترعى فيه ماشيتهم، ويستحيل عليهم تماماً أن يمكثوا هنالك في فصل الشتاء، لأنه عندما يسقط الثلج تهب ريح خطيرة من الشمال تقتل كل الحيوانات التي تصيبها في هذه الناحية، وتقضي على الناس كذلك، إذ تمر من هناك الطريق المؤدية من موريطانيا إلى نوميديا[84] ولما كان التجار قد اعتادوا الذهاب من نوميديا[85] بأحمال التمر في آخر أكتوبر، فإن الثلج يفاجئهم أحياناً ولا يبقي منهم على أحد. ذلك أن الثلج إذا بدأ يسقط ليلاً أصبحت القافلة مدفونة تحته ومخنوقة. وليست القافلة هي التي يكسوها الثلج وحدها، بل يكسو الأشجار المحيطة بها أيضاً بحيث تتعذر رؤية الطريق وتختفي المعالم للعثور على الجثث. وقد نجوت أنا نفسي من خطر الموت بمعجزة مرتين عندما كنت أتردد على هذه الطرق ولن أزعجكم إذا ما قصصت عليكم إحدى هاتين المغامرتين.

كنا جماعة من التجار الفاسيين ذهبنا سوياً ووجدنا أنفسنا في الأطلس مع هذه القافلة (التي تسافر) في شهر أكتوبر. وعند غروب الشمس بدأ يسقط ثلج كثيف بارد، فاجتمع نحو عشرة أو اثني عشر من الأعراب الفرسان وعرضوا علي مغادرة القافلة والذهاب معهم للبحث عن مأوى حسن. لم أستطع رفض عرضهم، لكني خشيت أن يكون في الأمر مكيدة،

---

(84) هي الطريق المؤدية من فاس إلى تفيلالت.

(85) يعني تفيلالت.

ففكرت في التخلص من كمية مهمة من الدنانير كانت معي. ولما امتطى هؤلاء الرجال خيولهم وطلبوا مني أن أسرع إليهم تظاهرت بأني مستعجل لقضاء حاجة الإنسان واختفيت وراء شجرة، وهناك خبأت بكل ما أمكنني من عناية الدنانير وغطيتها بالتراب والحجر، ثم علمت الشجرة بدقة. سرنا ساكتين حتى قرابة منتصف الليل، فرأى أحد الأعراب أن الوقت قد حان ليفعلوا بي ما دبروه سلفاً، أي تجريدي من المال وتركي أهيم على وجهي. سألني هل عندي دنانير، فأجبته بأني تركتها في القافلة عند أحد أحبابي الأقربين. لم يصدقني الأعراب وألزموني لكي يعرفوا الحقيقة بأن أخلع حتى القميص مع هذا البرد القارس. ولما لم يجدوا شيئاً أخذوا يمازحونني مدعين أنهم قاموا بذلك بقصد التسلية ليعرفوا ما إذا كنت رجلاً قوياً قادراً على تحمل البرد. وتابعنا سيرنا في الظلام، والطقس الرديء والليل لا ينفكان يزعجاننا. وبعد مدة أنعم الله علينا بسماع ثغاء عدد كثير من الغنم، فوجهنا خيلنا نحوها. وكان ذلك الثغاء في وسط الغابة بين صخور عالية، فتعرضنا بذلك للخطر مرة أخرى. وأخيراً اكتشفنا عدداً من الرعاة في كهف كانوا قد أدخلوا نعاجهم فيه بعناء كبير، وأوقدوا ناراً جلسوا حولها، ولما رأونا وعرفوا الأعراب خشوا من أذاهم أولاً، ثم لما أيقنوا باستمرار العاصفة اقتبلونا بكل بشاشة وقدموا لنا ما كان لديهم من طعام خبزاً ولحماً وجبناً. ولما انتهينا من الأكل اضطجعنا حول النار ونحن ما زلنا نرتعد من البرد، لا سيما أنا الذي جردت من ثيابي فضلاً عما أصبت به من خوف. أقمنا يومين وليلتين مع هؤلاء الرعاة دون أن ينقطع نزول الثلج. وفي اليوم الثالث انقطع الثلج فقام الرعاة يزيلون الثلج الذي أغلق مدخل الكهف نهائياً، ثم ذهبوا بنا إلى المكان الذي خبؤوا فيه خيولنا، وهي كهوف أخرى تركوا فيها كثيراً من العلف لدوابنا فوجدناها على أحسن ما يرام. انصرفنا وقد أشرقت في ذلك اليوم شمس مضيئة أزالت برد الأيام السابقة، وشيعنا الرعاة إلى مسافة بضعة أميال ليدلونا على الممرات التي يعرفون أن الثلج فيها غير كثيف، ومع ذلك فإنه كان يصل إلى صدور خيلنا.

ولما وصلنا إلى قرية قريبة من مدينة فاس، أكدوا لنا بأن القافلة قد اختنقت بالثلج، وعندذلك أيس الأعراب من أن ينالوا أجر أتعابهم، إذ كانوا يرافقون القافلة ليسهروا على أمنها، وأخذوا يهودياً كان معنا وله خمسون حملاً من التمر في القافلة، وذهبوا به إلى مخيمهم عازمين على أن يحتفظوا به إلى أن يؤدي عن الجميع، وسلبوا مني فرسي وتركوني في يد الله. اكتريت بغلاً له بردعة من النوع الذي يستعمله الجبليون، ووصلت في اليوم الثالث إلى مدينة فاس التي كان بلغها نعي رجال القافلة وظن أهلي أنني هلكت مع الهالكين، لكن ذلك أمر لم يقدِّره الله تعالى. والآن أتوقف عن حديث مغامراتي لأستأنف عرضي حيث تركته.

تقع وراء الأطلس بلاد جافة وحارة، توجد بها أنهر قليلة تنبع أيضاً من الأطلس وتجري نحو صحراء ليبيا حيث تختفي في الرمال، ويكون بعضها بحيرات. ليس بهذه البلاد سوى القليل من الأراضي التي يمكن زراعتها، لكن فيها كمية عظيمة من النخيل، وبعض أشجار الفواكه إلا أنها قليلة. وفي أجزاء نوميديا المتاخمة لليبيا جبال جرداء ليس عليها شجر، وفي سفوحها غابات كثيرة من الأشجار الشائكة التي لا تثمر، وليس هناك عين ولا نهر سوى بعض الآبار التي يكاد يجهلها الناس، وتقع كلها بين هذه التلال وتلك الجبال الخالية. وتكثر في جميع أراضي نوميديا الحيات والعقارب، وكثيراً ما يموت الناس من عضها ولسعها في فصل الصيف.

وليبيا هي الأخرى بلاد كلها صحراء ورمال، لا نهر فيها ولا ماء باستثناء بعض الآبار ذات الماء الملح الأجاج، وهي مع ذلك قليلة. وفي بعض النواحي لا يوجد الماء في طول مسافة سفر ستة أيام أو سبعة. ويكون على التجار أن يحملوا الماء في القرب على ظهور جمالهم، وخصوصاً في الطريق الرابطة بين فاس وتنبكتو، وبين تلمسان وأكدز. وأسوأ من هذا خط السفر المفتوح حديثاً بين فاس والقاهرة مروراً بصحاري ليبيا، غير أن

المسافرين يمرون في طريقهم هذه بالقرب من بحيرة عظيمة(86) تعيش حولها شعوب ساوو وكوران.

وفي الطريق المؤدية من فاس إلى تنبكتو توجد بعض الآبار المكسوة في داخلها بجلد الإبل أو المبنية بعظامها. ومن الخطر جداً على التجار أن يقوموا بهذا السفر في غير فصل الشتاء، لأنه تهب في غير هذا الفصل رياحٍ قبلية تحمل معها من الرمال ما يغطي الآبار، حتى أن من يذهب مؤملاً أن يجد الماء في الأماكن المعتادة لا يعثر للآبار التي غطتها الرمال على رسم ولا أثر، ويكون مضطراً إلى أن يموت عطشاً.

وغالباً ما يرى المسافرون عظام هؤلاء الرجال وجمالهم مبيضة في بعض الأماكن. وليس لذلك إلا دواء واحد غريب، وهو أن يقتل جمل ويستخرج الماء من بطنه، فيشرب بعضه ويقسم الآخر إلى أن يقع العثور على بئر أو أن يهلك المسافرون عطشاً.

ويشاهد في صحراء أزواد قبران مبنيان بنوع من الحجر لا أعرفه نقشت عليه كتابة تقول بأن رجلين دفنا ها هنا، كان أحدهما تاجراً غنياً مرَّ بهذه الصحراء فاشتد عطشه واشترى من الآخر، وهو الدليل، قدحاً من الماء بعشرة آلاف مثقال، لكنهما ماتا معاً من العطش، سواء التاجر الذي اشترى الماء، والدليل الذي باعه إياه.

تكثر في هذه الصحراء الحيوانات الضارة وغيرها، وسأتحدث عنها في القسم الرابع من هذا الكتاب عندما أتكلم على ليبيا، أو عندما أتعرض على الخصوص للحيوانات الموجودة بافريقيا(87).

---

(86) هي بحيرة التشاد.

(87) كان في نية المؤلف، بعد تخصيص كتابه الأول للمعلومات الجغرافية العامة، أن يصف بلاد البربر في الكتاب الثاني، ونوميديا في الثالث، وليبيا في الرابع، إلا أنه لم يتبع هذا التصميم.

وللمزيد من المعلومات والتوضيحات، سأشير بكيفية خاصة إلى أخطار تعرضت لها أثناء الرحلات التي قمت بها في ليبيا، لا سيما خلال رحلتي من ولاتة إلى القاهرة. كنا تارة نضل الطريق إلى مكان الماء بسبب خطأ الدليل، وتارة نجد العدو يحتل الممرات المؤدية إلى الماء، فنضطر إلى ادخار الماء لنكتفي منه طوال عشرة أيام باستعمال ما كنا أعددناه لخمسة أيام فقط. وإذا أردنا أن نذكر تفاصيل سفرة واحدة فلا بد من أن نكتب مجلداً من مائة صفحة.

والبلاد الواقعة في أرض السودان شديدة الحرارة، إلّا أن بها شيئاً من الرطوبة بسبب النيجر، وكل الأقاليم المجاورة لهذا النهر تصلح جداً للزراعة، وتنمو فيها الحبوب بكثرة، وتوجد بها من الماشية أعداد لا تحصى. غير أنها لا فاكهة فيها سوى ثمر شجرة ضخمة شبه القسطل يميل طعمه إلى المرارة. وتبعد هذه الأشجار قليلاً عن النهر لتقع في الأرض اليابسة، وتسمى الفاكهة المذكورة كورو[88] بلغة البلاد.

صحيح أن اليقطين والخيار والبصل ينبت هناك بكثرة، ولا يرى جبل ولا تل على ضفاف نهر النيجر، ولا حتى على تخوم ليبيا. لكن تتكون عند فيضانه بحيرات عظيمة تحيط بها غابات عديدة مملوءة فيلة وحيوانات أخرى حسبما سنفصل ذلك في محله.

الحركة الطبيعية للرياح بإفريقيا والتغيرات الناتجة عنها

يبتدىء فصل الشتاء والبرد في كل بلاد البربر تقريباً بعد منتصف اكتوبر، ويستمر في دجنبر، ثم يشتد البرد في يناير كما هو الشأن في سائر البلدان، لكن هنا في الصباح فقط بحيث لا يحتاج أحد إلى إيقاد النار

(88) هو اسم كولا.

للتسخين. ويقل البرد عادة في شهر فبراير، غير أن الجو يتقلب غالباً خمس أو ست مرات في اليوم. وفي شهر مارس تهب رياح قوية من الغرب والشمال فتخصب الأرض وتزهر الأشجار. وفي أبريل تكاد جميع الفواكه تبتدىء في أخذ شكلها بحيث يؤكل حب الملوك في سهول موريطانيا أوائل ماي بل وفي أواخر أبريل. وبعد مرور الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر ماي يقتطف تين ناضج نضج تين الصيف. وفي الأسبوع الثالث من شهر يونيه يبدأ العنب ينضج ويؤكل، وينضج في شهري يونيه ويوليوز التفاح والإجاص والمشمش والبرقوق جميعها، كما ينضج في شهر غشت تين الخريف والعناب، غير أنه لا يكثر التين والخوخ إلاّ في شتنبر. ويبدأ تجفيف العنب في الشمس بعد منتصف غشت، فإذا نزل المطر في شتنبر عصر ما بقي من العنب خمراً و(صامتاً)[89] لا سيما في إقليم الريف كما سنذكره عندما نتعرض له.

ويقتطف التفاح والرمان والسفرجل في شهر اكتوبر، والزيتون في نونبر. ولا يكون قطف الزيتون باليد والتسلق في السلاليم كما هو الحال في أوربا، إذ لا يمكن صنع سلاليم طويلة تصل إلى أعلى الأشجار، فأشجار الزيتون هنا ضخمة عالية جداً لا سيما الواقعة منها في موريطانيا والقيصرية، لكن أشجار الزيتون في مملكة تونس شبيهة بأشجار زيتون أوربا. وعندما يريد الناس قطف الزيتون يتسلقون الأشجار وفي أيديهم عصي طويلة جداً يضربون بها الأغصان ليسقط الثمر. وهم يعرفون أن ذلك مضر بالأشجار حيث يتسببون في إتلاف البراعم وعدد كثير من الجذوع الصغيرة وإفسادها. ثم إنه يحدث لزيتون افريقيا أن يكثر في سنة، ويقل في أخرى حتى لا ترى ولو زيتونة واحدة. ويوجد نوع من الزيتون الغليظ لا يصلح لأن يعصر منه الزيت، وإنما يؤكل محفوظاً (مصبراً) حتى في جميع فصول السنة.

---

(89) عصير خمر مطبوخ.

حدود الفصول ومميزاتها

تكون شهور الربيع الثلاثة معتدلة نسبياً، ويبتدىء فصل الربيع في 15 فبراير لينتهي في 18 ماي، ويبقى الجو صافياً طوال هذا الفصل، غير أنه إذا لم ينزل مطر فيما بين 25 أبريل و 5 ماي تضرر محصول السنة كثيراً. ويسمون ماء المطر الذي ينزل في هذه المدة «ماء نيسان» ويعتبرونه ذا بركة إلهية، فيحتفظ به كثير من الناس في قوارير صغيرة للتبرك به[90].

يستمر الصيف إلى 16 غشت، فيشتد الحر دائمًا لا سيما في شهري يونيه ويوليوز حيث تكون السماء صافية رائقة، إلاَّ أنه في بعض السنين ينزل المطر في شهري يوليوز وغشت فيفسد الجو كثيراً وتنشأ عنه حمى حادة تشتد على أكثر الناس ولا ينجو منها إلا القليل.

يبدأ الخريف عند الأفارقة في 17 غشت ويستمر إلى 16 نونبر، فتقل الحرارة في شهري غشت وشتنبر، ومع ذلك فإن الأيام الواقعة فيما بين 15 غشت و 15 شتنبر سماها الأقدمون «فرن الزمان»، لأن شهر غشت ينضج التين والرمان والسفرجل وينشف العنب. أما فصل الشتاء فيبدأ في 15 نونبر ويستمر إلى 14 فبراير. ويبدأ موسم الزرع في الجبال خلال شهر أكتوبر.

يعتقد الإفريقيون أن في السنة أربعين يوماً شديدة الحر تبتدىء يوم 12 يونيه، وأربعين يوماً شديدة البرد تبتدىء يوم 12 دجنبر[91]، ويعرفون اعتدال (الربيع والخريف) ويحددونه في 16 مارس و 16 شتنبر، ويقولون بانقلاب سير الشمس (صيفاً وشتاء) في 16 يونيه و 16 دجنبر.

تلك هي القواعد الفلكية التي يعتبرها الأفارقة، سواء في كراء أراضيهم وزرعها وحصدها، أو في ركوب البحر ومعرفة مواقع النجوم في

---

(90) هناك مثل عند الفلاحين المغاربة يقول: (الشتا دنيسان كترفد في الكيسان).

(91) يسمون أيام الحر هذه: السمائم، وأيام البرد: الليالي.

منازل أفلاكها وحساب حركة الكواكب السيارة. ويعلمون الأولاد في المدارس أشياء نافعة جداً مما يتعلق بهذه المسائل.

وهناك عدد وافر من الفلاحين العرب وغيرهم في غاية الأمية يحسنون الكلام بإسهاب في الفلك، ويستنتجون من أقوالهم استنتاجات متناهية في الدقة. والقواعد التي يتبعونها في ذلك وهي عندهم ضرورية أتت من اللاتينية وترجمت منها إلى العربية. ويوجد كتاب ضخم في ثلاثة أجزاء يسمى «**كنز الفلاحة**» ترجم من اللاتينية إلى العربية في قرطبة أيام المنصور ملك الأندلس[92]. ويتعرض هذا الكتاب لجميع المسائل الضرورية للفلاحة، كالفصول وطرق الزرع والغرس وتلقيح الأشجار وتغيير كل ثمر أو حب أو خضرة بواسطة الفلاحة... وإني لأعجب كثيراً من وجود مثل هذا العدد من الكتب المترجمة عن اللاتينية عند الأفارقة في حين افتقدت الآن عند اللاتينيين.

إن التوقيت وأحكامه في جميع المسائل الدينية والشرعية التي يسير عليها الأفارقة وسائر المسلمين مبني على سير القمر، فالسنة 354 يوماً، لأنها تتركب من ستة شهور في كل منها ثلاثون يوماً، وستة شهور أخرى في كل منها تسعة وعشرون يوماً، فيكون مجموع الأيام هو ذلك العدد. وتكون الأعياد والصيام في تواريخ مختلفة، فالسنة العربية إذا أقصر من السنة اللاتينية بأحد عشر يوماً، وهذا العدد من الأيام هو الذي يجعل سنتنا دائمًا متأخرة عن السنة الشمسية.

واعلم أيضاً أنه في آخر الخريف وأثناء الشتاء كله وبعض فصل الصيف تحدث عواصف مصحوبة بالبرد والصواعق والبرق، وينزل الثلج

---

(92) هذه العبارة مضطربة، إذ المقصود ــ فيما يظهر ــ أنه يعني المنصور بن أبي عامر حاجب الحكم المستنصر الأموي، وكان حاكمًا للأندلس كلها لا لغرناطة فقط، اللهم إلا أن يكون ذلك من تأثر المؤلف بما عرف من اقتصار حكم المسلمين على غرناطة في عهدهم الأخير بالأندلس. انظر المقدمة، ص 23.

في أماكن كثيرة من بلاد البربر، والرياح الثلاث التي تهب من الشرق والجنوب الشرقي والجنوب بالغة الضرر، لا سيما في شهري مايو ويونيه، لأنها تفسد جميع الغلات وتمنع الفواكه من النمو والنضج. وكذلك الضباب يضر الحبوب كثيراً لا سيما إذا وقع في وقت الازهار لأنه يستمر أحياناً النهار كله.

وفي الأطلس لم تعد السنة تشتمل إلاّ على فصلين، ستة أشهر للشتاء من أكتوبر إلى أبريل، وستة أشهر للصيف من أبريل إلى شتنبر، غير أنك تجد الثلج دائمًا طوال السنة في أعلى قمم الجبال.

وفي نوميديا يتقدم تسلسل الفصول، إن صح هذا التعبير، فالقمح يحصد في مايو، والتمر يجنى في أكتوبر. ومن منتصف شتنبر وأكتوبر كله إلى يناير يكون الفصل الأكثر برداً في السنة. وإذا هطل المطر في شتنبر فسد معظم التمر، وكانت الغلة مزرية. وتحتاج جميع أراضي نوميديا إلى السقي لكي تزرع. ومن ثم إذا لم يهطل مطر في الأطلس وجفت وديان نوميديا فإنه لا يمكن سقي الأراضي. وإذا لم ينزل مطر كذلك في أكتوبر فإنه لا يرجى أن يكون حصاد في تلك السنة. وإذا لم تمطر السماء في شهر أبريل كانت غلة القمح منعدمة في البوادي. ولكن عندما ينحبس المطر تجود غلة التمر. ويفضل النوميديون كثيراً غلة التمر على غلة القمح، لأن هذه الأخيرة مهما كثرت لا تكفي لنصف السنة. أما إذا جادت غلة التمر فإن القمح لا ينعدم حينئذٍ، إذ أن الاعراب والجمالين الذين يتعاطون تجارة التمر يأتون بكميات ضخمة من القمح لاستبداله بالتمر.

وإذا تغير الجو في صحراء ليبيا عند منتصف غشت، واستمر هطول المطر إلى شهر نونبر وحتى أثناء دجنبر ويناير وطرف من فبراير، نتج عن ذلك وفرة الأعشاب، ووجد حينئذٍ في ليبيا كلها بحيرات عديدة، وكثر اللبن. وهذا هو السبب الذي من أجله يقوم تجار بلادالبربر في هذا الفصل برحلتهم إلى أرض السودان.

وفي هذه البلاد تتقدم الفصول، فتظهر بوادر المطر في نهاية يوليوز غير أنهم لا يمطرون بغزارة. ويمتاز المطر في بلاد السودان بخاصية أنه لا ينفع ولا يضر. فمياه النيجر تكفي حقول القمح، وفيضان النهر يرطب الأرض ويخصبها مثلما يفعل النيل في مصر تماماً. حقاً إنه يحتاج إلى المطر في بعض الجبال. ويقع فيضان النيجر في نفس وقت فيضان النيل، أي أنه يبتدىء في 15 يونيه ويستمر أربعين يوماً. ويمكن في وقت الفيضان أن يقطع المرء كل بلاد السودان تقريباً على ظهر زورق، لأن المنبسطات والشعاب والحفر تصير كلها وديانا. لكن ركوب بعض الزوارق التي يستعملها أهل البلاد خطير جداً كما سأفصِّل ذلك في القسم الخامس من هذا الكتاب[93].

قصر العمر وطوله
عند الأفارقة

يعمِّر الناس في جميع مدن بلاد البربر وقراها من خمسة وستين إلى سبعين عاماً، ويعيش قليل منهم أكثر من ذلك، غير أنه يوجد في الجبال من يبلغ مائة سنة أو يجاوزها. وشيخوختهم قوية مرنة. ولقد رأيت بعض الجبليين بلغوا الثمانين أو جاوزوها يحرثون الأرض وينقشون الكرم ويقومون بسائر الأعمال التي يحتاجون إليها بخفة عجيبة. ورأيت أعجب من ذلك في الأطلس شيوخاً في هذه السن يشاركون في الحروب ويصارعون الشبان بشجاعة وكثيراً ما ينتصرون.

ويعمر الناس طويلاً كذلك في نوميديا، أي بلاد النخيل، لكنهم يفقدون أسنانهم، ويضعف بصرهم كثيراً. ويأتي سقوط الأسنان من كونهم يأكلون التمر على الدوام، وضعف البصر من كون هذه البلاد تعصف بها

(93) غيَّرالمؤلف ترتيب كتابه فتحدث عن هذه الزوارق في القسم السابع عند كلامه على جني.

الريح الشرقية التي تحمل الرمل والغبار فتتأذى منها العيون وتفسد في النهاية. أما أهل ليبيا فيعيشون أقل من سكان المناطق السابقة، غير أنهم يبقون أقوياء سالمين إلى أن يبلغوا الستين سنة أو نحوها، لأنهم ضامرون طوال.

ويعمر الناس في بلاد السودان أقل مما تعمره الأجناس الأخرى، لكنهم يبقون دائمًا أقوياء، وأسنانهم سالمة على حالها لا تتغير. وهم فاسقون فجرة كأهل ليبيا ونوميديا، بينما نجد طبع سكان بلاد البربر أكثر اعتدالاً.

أكثر الأمراض انتشاراً عند الأفارقة

يتكون القرع عادة في رؤوس الأطفال الصغار والنساء البالغات، فيصعب الاستشفاء منه إلا بمشقة عظيمة. ويصيب صداع الرأس كثيراً من الناس دون حمى في بعض الأحيان، وتكثر أمراض الأسنان التي يظن أنها ناشئة عن كون هؤلاء القوم يشربون الماء البارد فور تناولهم الحساء الحار. ويتألمون كذلك من أمراض المعدة التي يسمونها جهلاً أمراض القلب، ويصاب الكثير منهم يومياً بإسهال وأوجاع حادة في أمعائهم، وذلك أيضاً بسبب الماء البارد الذي يشربون. ويكثر عندهم ألم النسا (بوزلوم) والركب بسبب الجلوس على الأرض وهم لا يلبسون أي نوع من السراويل.

ولا يصاب منهم بالنقرس إلاَّ القليل، ومع ذلك يرى بعض الرؤساء المصابين به ممن اعتادوا شرب الخمر وأكل الدجاج وغيره من الأطعمة الناعمة الشهية.

والإكثار من أكل الزيتون والجوز وغيرهما من الأطعمة الخشنة التي لا تصلح لشيء يورث الجرب الذي يصعب التخلص منه. والجلوس على الأرض في الشتاء يسبب أحياناً لذوي المزاج الدموي سعالاً قوياً وأليمًا. وكثيراً ما يتلهى في المساجد يوم الجمعة في الوقت الذي يجتمع عادة آلاف

الأشخاص، فإذا وصل الخطيب إلى أحسن فقرة في خطبته واتفق أن سعل أحد الحاضرين، سعل آخر (ثم آخر) وهكذا حتى يسعل الجميع في نفس الوقت تقريباً إلى نهاية الخطبة فيفترقون دون أن يستمع أحد إليها.

وداء الإفرنج (الزهري) الفظيع بأوجاعه وبثوره وقروحه منتشر كثيراً في بلاد البربر لا يكاد يسلم منه إلا القليل. حقاً ان هذا الداء لا يكاد يعرف في البوادي وجبال الأطلس، ولا يوجد بتاتاً عند الأعراب ولا في نوميديا، أي بلاد النخيل، ولا في ليبيا، ولا يقع حتى الحديث عن هذا الداء في بلاد السودان. بل بالعكس إذا أصيب به أحد فإنه يشفى منه عاجلاً بمجرد أن يبدل الهواء ويذهب إلى نوميديا أو بلاد السودان.

وهذا الداء لم يشاهد قط ولم يذكر حتى اسمه، لكن عندما طرد الدون فيرديناند ملك إسبانيا اليهود من بلاده[94] جاء كثير منهم إلى بلاد البربر فظهر فيها هذا الداء الذي حمله عدد كثير من يهود إسبانيا، وكان لعدد من أشقياء المغاربة اتصال (جنسي) مع نساء هؤلاء اليهود، وهكذا انتشر قليلاً قليلاً في ظرف عشر سنوات حتى لم تعد تسلم منه أية أسرة.

وقد اعتبر المصابون الأولون بهذا المرض كالبرصان، فطردوا من بيوتهم وألزموا بالسكن مع البرصان، لكن عندما شوهد تكاثر عدد الإصابات به كل يوم، وأصبح عدد المصابين ضخماً في إسبانيا كلها، أخذ المرضى يحيون حياتهم العادية، وعاد المبعدون منهم إلى بيوتهم على الفور. ويؤكدون في بلاد البربر أن أصل هذا المرض من إسبانيا ويطلقون عليه ذلك الاسم في إسبانيا ولا سيما في موريطانيا. ويطلق عليه أهل تونس اسم داء الإفرنج، كما يطلق عليه ذلك الإيطاليون وأهل مصر والشام. وقد فتك هناك (بالناس) فتكاً ذريعاً وخاصة في مملكة تونس.

ويصاب عدد من الناس بذات الجنب.

---

(94) وذلك بمرسوم 3 مارس 1492.

ولا يشكو في بلاد البربر إلا القليل من ذلك المرض أو تلك العاهة المسماة بالفتق عند اللاتينيين، لكن يشكو منه الكثير في الديار المصرية. وقد تنتفخ الخصيتان عند البعض إلى حد أنهما تشكلان منظراً غريباً. ويظن أن مردَّ هذه العاهة إلى أكل الصمغ والإكثار من أكل الجبن المالح.

وكثيراً ما يشاهد مرض الأعصاب في افريقيا عند الأطفال، لكنهم يشفون منه كلما تقدمت سنهم، ويصاب به كثير من النساء، لا سيما في بلاد البربر وأرض السودان. ومن البلاهة اعتبار هؤلاء كمصابين بمس من الجن.

ويظهر الوباء في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات، أو خمس عشرة أو خمس وعشرين سنة. وعندما يأتي يذهب بالعدد العديد من الناس، لأنه لا يهتم به أحد ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون، ولم يظهر الوباء بنوميديا منذ مائة سنة، ولم يظهر قطُّ في أرض السودان.

مزايا الأفارقة
والأشياء المحمودة عندهم

إن الأفارقة الذين يسكنون مدن بلاد البربر، ولا سيما مدن ساحل البحر المتوسط، يهتمون كثيراً بالتعلم ويتعاطون الدراسة بكامل العناية. وفي طليعة ما يدرسون الآداب والكلام والفقه. وكان من عادتهم في القديم أن يدرسوا الرياضيات والفلسفة وحتى علم الفلك. غير أنه منذ أربعمائة سنة خلت، كما أشرت إلى ذلك من قبل، منعهم فقهاؤهم وملوكهم من تعاطي معظم هذه العلوم. وذلك ما حدث للفلسفة والتوقيت الشرعي.

وسكان افريقيا متمسكون أيضاً بالديانة شديد التمسك، يخضعون لفقهائهم وأئمتهم، ويهتمون شديد الاهتمام بمعرفة الأشياء الضرورية في

الدين. يترددون على المساجد لأداء الصلوات، ويتحملون بصبر عجيب مشقة الوضوء قبل كل صلاة، بل ويغسلون أجسادهم أحياناً، حسبما أذكر ذلك في الباب الثاني من كتابي عن العقيدة والديانة الإسلامية.

ثم إن سكان المدن في بلاد البربر أناس ماهرون، حسبما يشاهد من جودة الأعمال المختلفة التي ينجزونها. وهم ذوو تربية فائقة، وكياسة متناهية، وإحسان كثير، حتى لا تكاد تصدر عنهم إساءة. تكن أفئدتهم الحق وتنطق به ألسنتهم، رغم ما كانوا عليه بخلاف ذلك في القرون الخالية حسبما يشهد به التاريخ الذي كتبه المؤلفون اللاتينيون[95]. وهم غاية في الإقدام والشجاعة ولا سيما الجبليون منهم، يوفون بالعهد فوق كل شيء ويؤثرون الموت على إخلاف الوعد. ولا حد لغيرتهم على النساء، حتى إنهم ليهبون أرواحهم بدل أن يتحمّلوا العار في حق نسائهم، كما لا حد لحرصهم على المال والشرف، فيذهبون إلى جميع الأقطار للاتجار، فتراهم في كل وقت بمصر وأثيوبيا والجزيرة العربية، وبلاد فارس والهند وتركيا. وحيثما ذهبوا حَسُنَ اقتبالهم وإكرامهم، لأنهم جميعاً خبراء ماهرون في المهن التي يمتهنونها.

أضف إلى هذا أنهم ذوو حشمة وأمانة في حديثهم، لا يجهرون بالسوء من القول البتة، يحترم صغيرهم كبيرهم، سواء في الكلام أو في أية مناسبة أخرى، حتى إن الشاب منهم لا يجرؤ على أن يتحدث عن الحب أو عن الفتاة التي يهواها بمحضر أبيه أو عمه، كما يستحي أن ينشد أغنية غرامية بمجرد ما يرى من هو أكبر منه. وإذا جاء أطفال إلى أناس يتحدثون عن الغرام انصرفوا حالاً. تلك هي العادات الحسنة وتقاليد التربية المستحسنة التي توجد عند الحضريين ببلاد البربر.

---

(95) الإشارة إلى «فيديس بونيكا» لسالوست.

وسكان الخيام، أعني الاعراب والرعاة، ذوو كرم ورحمة وشجاعة وحلم ولطف وألفة، يعيشون عيشة راضية في طاعة وديانة وبشاشة ومرح.

وسكان الجبال هم بدورهم كرماء شجعان، يحسنون الكلام ويحيون حياة جماعية شريفة.

وسكان نوميديا أكثر معرفة من أولئك، لأنهم متشبثون بالقِيَم الأخلاقية ودراسة الشريعة الإسلامية. غير أنهم لا يعرفون شيئاً يذكر من العلوم الطبيعية، يحسنون استعمال السلاح، فهم أشِدَّاء، رحماء (بينهم).

وسكان ليبيا، سواء منهم الأفارقة والعرب، ذوو كرم ولطف، يعملون كل ما في استطاعتهم لخدمة إخوانهم، ويحترمون الغريب غاية الاحترام، وهم على جانب كبير من الطيبوبة والصراحة والإخلاص.

يعيش السودانيون عيشة حسنة أوفياء، ويحسنون استقبال الغرباء، ويقضون أوقاتهم في اللهو والمجون، يرقصون ويولمون بأكثر ما يمكن. ويقبلون على كل أنواع التسلية. وهم في غاية الصراحة، يُعَظِّمون العلماء والفقهاء ويوقِّرونهم، وهم الذين يقضون أحسن الأوقات من بين الأفارقة القاطنين في هذه البلاد.

مساوىء الأفارقة
والأشياء المذمومة عندهم

مما لا شك فيه أن للأفارقة مساوىء بقدر ما لهم من محاسن، فلننظر ما إذا كانت هذه المساوىء أقل أو أكثر أثراً. إن سكان مدن بلاد البربر فقراء متكبرون لا مثيل لحقدهم، فهم كما يقال ينقشون على الرخام أقل إهانة (تلحقهم) ولا يسمحون لها بالخروج من قلوبهم أبداً. وهم كريهون لدرجة أنه قلَّما ينال الغريب محبتهم، بالإضافة إلى أن سذاجتهم تجعلهم يصدقون كل شيء مهما كان مستحيلاً. وتجهل العامة نواميس

الطبيعة جهلاً تاماً، حتى إنها تنظر إلى جميع الظواهر الطبيعية كيفما كانت كتصرفات إلهية. وهم غير منتظمين في معاشهم وكذلك في أعمالهم، يتملكهم الغضب، وفي معظم الأوقات عندما يتكلمون يرفعون أصواتهم بكلام متغطرس. وفي الأزقة التي يكثر فيها المرور قلَّ ألَّا ترى رجلين أو ثلاثة يتلاكمون، وهم أنذال لا يعيرهم سادتهم أي اعتبار: ويمكن القول ان السيد منهم يهتم بحيوان أكثر مما يهتم بإنسان مدني، وليس لهم أعيان ولا قضاة يتولون شؤونهم أو ينصحونهم في أية مسألة من سياسة أمورهم، بالإضافة إلى أنهم في غاية التعنت والجهل بالتجارة، ليست لهم مصارف ولا من يتكفل بشحن البضائع من مدينة إلى أخرى، وإنما يلزم كل تاجر ان يبقى بجانب بضاعته ويذهب معها أين ذهبت.

وهم فوق كل ذلك بخلاء يوجد من بينهم عدد لم يقبل قط إيواء غريب، لا مجاملة ولا لوجه الله. كما أن منهم القليل ممن يردون الحسنة بمثلها. وهم في اضطراب وقلق مستمر، لا يصغون إلى الفكاهة بتذوق، وذلك لاهتمامهم المستمر بضرورات الحياة لشدة فقرهم وقلة مكاسبهم.

والرعاة سواء منهم سكان الجبال وسكان السهول يعيشون معيشة ضنكاً ويبقون في بؤس وخصاصة على الدوام. وهم جفاة ولصوص وجهال، لا يردون إطلاقاً ما اقترضوا من مال. والأزواج المخدوعون عندهم أكثر من غيرهم. ويمكن لجميع الفتيات أن يكون لهن قبل الزواج عشاق يذقن معهم حلاوة الحب، ويرحِّب الأب نفسه بعاشق ابنته أجمل ترحيب، وكذلك يفعل الأخ بعاشق أخته، بحيث إنه لا توجد امرأة تزف بكراً إلى زوجها. حقاً إن المرأة بمجرد زواجها ينقطع عنها عشاقها، ولكنهم يذهبون إلى أخرى. وأكثر هؤلاء القوم ليسوا بمسلمين ولا يهود ولا بالأحرى مسيحيين، لا إيمان لهم ولا دين بل ليس لهم حتى ظل الدين. لا يؤدون أي صلاة، وليست لهم مساجد، وإنما يعيشون كالبهائم. وحتى

إذا وجد من بينهم من له ذرة شعور بالدين اضطر إلى أن يعيش كغيره ما دام ليس هناك مبادىء دينية ولا فقهاء ولا أية قاعدة من القواعد.

والنوميديون بعيدون عن معرفة الأشياء جاهلون بطريقة السلوك في حياة طبيعية منتظمة، فهم غدارون فتاكون متلصصون لا يراعون إلاً ولا ذمة، كما انهم لا إيمان لهم ولا قواعد دينية. عاشوا دائمًا ويعيشون وسوف يعيشون في شقاء. وإذا احتاجوا إلى شيء أو طمعوا فيه ارتكبوا كل خيانة مهما عظمت وفظعت. ولا توجد بهائم تحمل قروناً كقرون هؤلاء الأنذال يقضون حياتهم كلها في الاضرار أو الصيد أو القتال فيما بينهم أو رعي ماشيتهم في القفر يمشون دائمًا حفاة عراة.

وسكان بلاد السودان شرسون دون عقل ولا ذكاء ولا خبرة، لا يعرفون أي شيء على الإطلاق، يعيشون أيضاً كالبهائم بدون قواعد ولا قوانين. وتكثر عندهم العاهرات والأزواج المخدوعون، إلا قليلاً من النساء اللواتي يعشن في أمهات القرى فلهن نصيب أوفر قليلاً من الكرامة الإنسانية.

ولا يخفى علي ما يصيبني من خجل عندما أعترف وأكشف عيوب الأفارقة، فافريقيا في الواقع هي التي أرضعتني، وفيها كبرت وقضيت أجمل وأطول قسط من حياتي، لكن عذري عند الجميع هو ما أضطلع به من دور المؤرخ الذي يلزمه قول الحق الواقع دون أي اعتبار، ولا إرضاء رغبات أي كان. ذلك هو السبب الذي اضطررت من أجله اضطراراً إلى أن أكتب ما أكتب قاصداً ألا أبتعد عن الحقيقة في شيء، وأن أترك جانباً محسنات الأسلوب وزخرف القول.

وللدفاع عن نفسي، لا بد من أن أقص حكاية صغيرة تكون مثلاً كافياً للأذهان النيِّرة والشخصيات البارزة التي ستتفضل بقراءة هذا المؤلف الطويل.

يحكى أن شاباً وضيعاً سيىء السلوك من بلادي ألقي عليه القبض من أجل سرقة تافهة وحُكِمَ عليه بالجَلد. ولما حل اليوم الذي ينفذ فيه الحكم ويسلم إلى رجال العدالة لاحظ أن الجلاَّد من أصحابه، ووثق من أنه سيوليه من الرفق أكثر مما يوليه لغيره. لكن الجلاَّد بعكس ذلك بادره بضربة قاسية جداً، فتألم الصاحب المسكين وأخذ يصيح: يا أخي إنك تعاملني معاملة في غاية السوء مع أنك صديق! فنزل عليه الجلاَّد بضربة ثانية أعنف من الأولى، وقال له: لا بد يا صاحبي من أن أقوم بعملي كما يجب، ولا موضوعِ للصداقة هنا! ثم تابع عمله وصبَّ عليه سوطه بعدد الجلدات التي حَكَمَ بها القاضي كاملة.

لهذا كنت أُلَام لو أني أخفيت عيوب الأفارقة. وقد يظن البعض أنني فعلت ذلك لاتصافي بالكثير من هذه النقائص، ولحرماني من تلك الفضائل التي للآخرين. وفي هذه الحالة بما أنني لا أملك وسيلة أخرى أفضل للدفاع عن نفسي، أرى أن أستفيد من طريقة اتَّبعها أحد الطيور. ولكي أوضِّح لكم ذلك أقصُّ عليكم حكاية أخرى قصيرة وممتعة:

زعموا أنه في العصر الذي كانت فيه الطيور تتكلم، كان طائر صغير ظريف جريء خصَّه الله بذكاء عجيب، وحبته الطبيعة خاصية إمكان العيش بين السمك في الماء، وعلى الأرض مع سائر الطيور. وكان على جميع الطيور آنذاك أن تؤدي إلى ملكها ضريبة سنوية، فقرر هذا الطائر ألا يؤدي شيئاً. ولما بعث إليه الملك أحد موظفيه لاستخلاص الضريبة، قدم إليه الطوير الماكر كلمات بدل المال، ثم ارتفع في الجو ولم يقف حتى نزل في البحر واختفى في مياهه. ولما رأى السمك هذا الشيء الجديد تسارعوا إليه جميعاً وأحاطوا به لمعرفة السبب الذي حمله على المجيء إليهم، فأجابهم بقوله: «يا حسرتاه! ألا تعلمون أيها الكرام أن العالم صار إلى حيث أنه لم يعد بالإمكان العيش في البر؟ وأن ملكنا النذل الحقير زيَّنت له نفسه أن يمزقني حياً رغم صلاحي وكوني أمثل الطيور وأشرفها على الإطلاق. ثم زاد

قائلاً: فاسمحوا لي لوجه الله أن أسكن معكم حتى يمكنني القول بأني وجدت عند الغرباء من الإيناس أكثر مما وجدته عند أهلي وأبناء جنسي. فرضي السمك بذلك، وقضى الطائر الصغير سنة معهم دون أن يؤدي أية ضريبة. ولما انتهت السنة وحان وقت استخلاص الضرائب، بعث ملك السمك أحد خدامه إلى الطائرالصغير ليخبره بما جرت به العادة ويطلب منه أداء المبلغ الذي وجب عليه. فقال له الطائر: هذا معقول تماماً! ثم طار وخرج من الماء تاركاً مخاطبه في غاية الارتباك والدهشة. وهكذا كان كلما طلب من الطائر الصغير أن يؤدي الضريبة لملك الطيور هرب واختفى تحت الماء، وكلما طلب منه أن يؤدي الضريبة لملك السمك عاد إلى البر.

أريد أن أستخلص من هذا، أن الإنسان يسعى إلى حيث يرى منفعته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ومن ثم فإني إذا ذممت الأفارقة قلت انني ولدت بغرناطة لا بافريقيا، وإذا انتقدت مسقط رأسي تعللت بأني إنما نشأت في افريقيا لا في غرناطة. غير أن عطفي على الأفارقة يجعلني لا أذكر من الأشياء التي يلامون عليها سوى ما كان منها معروفاً عند الناس ظاهراً للعيان.

القسم الثاني

مملكةُ مَرَّاكُش



مملكة مراكش
إقليم دكّالة
آسفي
جبل بني ماجر
إقليم حاحا
إقليم مراكش
مراكش
أغمات
أمزمين
وادي نفيس
وادي تنسيفت
أنماي
إقليم تادلا
وادي أم الربيع
وادي العبيد
إقليم هسكورة
إقليم سوس
سوس
تيدسي
ماسة
إقليم جزولة
درعة
بني صبيح
واد

تَوْطِئَة

ذكرت في القسم الأول من هذا الكتاب اجمالاً وبصفة عامة مدن افريقيا وحدودها وأقسامها، وكذلك الأشياء المتعلقة بالأفارقة مما بدا لي أنه أجدر بالذكر. وستقدم إليكم الأقسام التالية معلومات خاصة عن الأقاليم المختلفة، والمدن، والجبال، والمواقع، والقوانين، والعوائد. ولن أهمل شيئاً مما يستحق أن يعرف. وسأبدأ بالغرب لأنهي عرضي ببلاد مصر، وذلك في سبعة أقسام. وسأزيد قسمًا آخر أنوي بعون الله تعالى ومشيئته أن أصف فيه أهم الأنهار ومختلف الحيوانات والنباتات والفواكه والخضر التي لا تخلو من فائدة وتوجد في افريقيا، لأنه لا يمكن بدون تلك المشيئة الربانية أن يحقق الإنسان شيئاً كاملاً في الحياة الدنيا.

* * *

مملكةُ مَرَّاكُش

حَاحَا، إقليمٌ غربيّ

تنتهي حاحا التي هي أحد أقاليم مملكة مراكش إلى البحر المحيط في جهتي الغرب والشمال، وإلى الأطلس في الجنوب، وتقف في الشرق عند نهر أسيف نوال[1] الذي ينبع من هذا الجبل (الأطلس) ويصب في نهر تنسيفت، وهو الحد الفاصل بين حاحا والاقليم المجاور لها.

---

(1) اسم بربري يعني وادي الاخصاص، وقد تنوسي اليوم هذا الاسم، ويطلقه المؤلف على المجرى الأسفل لوادي شيشارة.

بقاع حاحا وطبيعتها

هذا الاقليم وعر جداً ومليء بالجبال الصخرية العالية والغابات والشعاب والأودية الصغيرة، وهو عامر بالسكان، لا يزال فيه عدد ضخم من الماعز والحمير، وقليل من الغنم، وأقل من ذلك البقر والخيل. ويوجد فيه أيضاً قليل من الفواكه، لا لعدم خصب التربة بل لجهل السكان، لأنني شاهدت أماكن عديدة يكثر فيها التين والخوخ، ولا ينبت في حاحا إلا اليسير من القمح، بينما يكثر فيها الشعير والدخن والذرة. وتنتج كمية باهظة من العسل الذي يعتبر الغذاء العادي لسكان هذه البلاد، غير أنهم لا يعرفون ماذا يصنعون بالشمع فيرمونه. ويوجد هناك عدد وافر من أشجار شائكة تثمر حباً كبيراً يشبه الزيتون الذي يأتينا من اسبانيا. ويسمى هذا الثمر عندهم بالهرجان، وتستخرج منه زيت كريهة الرائحة تستعمل مع ذلك في الطبخ والانارة.

نمط عيش هؤلاء السكان

تعود أهل هذه البلاد أن يأكلوا خبز الشعير الذي هو أشبه بالرغيف منه بالخبز، يعجن بلا خميرة وينضج على مقلاة فخار على صورة غطاء القدر، ولا يخبز في الفرن إلا نادراً. وهناك طعام خشن يدعى العصيدة ويهيأ بالطريقة التالية: يغلى الماء في قدر ثم يوضع فيها دقيق الشعير ويحرك بقضيب حتى ينضج. تصب هذه العصيدة في طبق مجوف، وتجعل في وسطه حفرة تملأ بزيت الهرجان هذه، وتجتمع الأسرة كلها حول هذا الطبق، فيأخذ كل واحد منه بيده دون ملعقة ما يستطيع حتى لا يبقى شيء في الطبق. وفي خلال الربيع والصيف كله يطبخ هذا الدقيق في اللبن ويدهن بالزبد، ذلك هو العشاء العادي، أما الغداء فيتكون في الشتاء من الخبز والعسل، وفي الصيف من اللبن والزبد. ويؤكل أيضاً اللحم مطبوخاً بالبصل والفول، أو مصحوباً بطعام آخر يسمى الكسكسو. وهم

لا يستعملون الموائد ولا السمط، وانما يفرشون على الأرض حصراً مستديرة يأكلون عليها.

لباس هؤلاء السكان وعاداتهم

يلبس معظم الناس ثوباً من الصوف يدعى كساء، يشبه غطاءات الفرش التي تستعمل في إيطاليا، يلفون به أجسامهم لفاً جيداً، ويأتزرون بنوع من فوط الصوف، ويضعون على رؤوسهم قطعة من نسيج الصوف كذلك. طولها عشرة أشبار وعرضها شبران، مصبوغة بلحاء جذور شجرة الجوز، يفتلونها ويديرونها حول رؤوسهم بحيث يبقى أعلى الرأس دائماً مكشوفاً. ولا يحمل القلنسوة منهم عادة إلّا الشيوخ، والفقهاء إن وجدوا. وهذه القلانس مزدوجة مستديرة في علو القلانس التي يحملها بعض الأطباء في ايطاليا. ولا يلبس القميص منهم الا القليل، لأن الكتان لا يزرع في هذه البلاد أولاً، ثم لأنه لا أحد منهم يعرف نسجه. يجلسون على حصر مفتولة من الوبر ونبات الأسل، وينامون على أغطية مصنوعة من الصوف الطويل أيضاً، يتراوح طولها بين عشرة أذرع وعشرين ذراعاً، يستعملون طرفاً منها كفراش، وطرفاً آخر كازار وغطاء من فوقهم. وفي الشتاء يوضع جانب الغطاء الوبري في الداخل مما يلي الجسد، ويعكس الوضع في الصيف. والمخدات والوسادات أصناف من أكياس الصوف الخشنة الصلبة من نوع بعض أغطية الخيل الواردة من ألبانيا وتركيا.

أغلب نسائهم سافرات الوجوه، ويستعملون كماعون أطباقاً خشبية لا تجوف بالمخرطة بل بالسكين، غير أن القدور والجفنات مصنوعة من الطين.

وليس من عادة العزاب عندهم أن تكون لهم لحى، وانما يعفون لحاهم عندما يتزوجون. وليس لهم سوى القليل من الخيل، لكن هذا القليل تعود على قطع تلك الجبال بخفة ومهارة حتى ليظن أنها قطاط، ولا تصفح سنابكها بالحديد. ولا يحرث الحاحيون إلا بالحمير والخيل. ويوجد في هذه المنطقة عدد وافر من الوعول والغزلان والأرانب إلا أنهم

لم يعتادوا صيدها. وكنت دائماً أتعجب من قلة الطاحونات مع وجود هذه الكثرة من المياه. وذلك ناتج عن أن لكل بيت أدواته الخاصة لطحن الحبوب، وأن النساء يعملن ذلك بأيديهن.

والتعليم غير معروف في هذه البلاد، فلا تجد فيها من يحسن القراءة، باستثناء بعض الفقهاء الذين لا يعرفون شيئاً آخر غير الفقه. ولا يوجد أي طبيب من أي صنف ولا أي جرّاح أو عقاقيري. وتكاد جميع الأدوية والعلاجات تكون بالكي بالنار كما تعالج الحيوانات. ويوجد حقاً بعض الحلاقين الذين تقتصر عملياتهم الجراحية على ختان الأطفال. ولا يصنع الصابون في هذه البلاد، ويستعمل الرماد مكانه.

وأخيراً فإن السكان في حروب لا تنقطع، لكنها حروب أهلية لا تصيب الأجانب. وإذا أراد أحد الأهالي أن ينتقل من مكان إلى آخر، فعليه أن يصحب معه بعض رجال الدين أو النساء من فريق خصومه. ولا وجود للعدالة في هذه البلاد قليلاً ولا كثيراً، ولا سيما في الجبل حيث لا أمير ولا حاكم. ويكاد الأشراف والأعيان لا يقدرون على الاحتفاظ بشبه سلطة داخل المدن، وهي قليلة. ومع ذلك يوجد كثير من المداشر والقصور والقرى، بعضها متناه في الصغر، وبعضها في غاية الكبر والازدهار، وسأحدثكم عن هذه وتلك.

تَدْنِسْتْ، مدينةٌ في حَاحَا

تدنست مدينة قديمة بناها الأفارقة في سهل على جانب كبير من الرونق والجمال، يحيط بها من كل جانب سور من الآجر والطين، وتوجد في داخله الدور والدكاكين. يوجد فيها خمسمائة كانون فأكثر، ويسيل على مدى طول السور جدول ماء ينبع بالقرب من ذلك المكان. وفي المدينة بعض دكاكين التجار الذين يبيعون القماش المستعمل في تلك الناحية، ونسيج الكتان المستورد من البرتغال. وليس هناك من الصناع غير الاسكافين والحدادين والخياطين وبعض الصاغة اليهود. ولا يوجد في أي

مكان من هذه المدينة فندق ولا حمام ولا دكان حلاق، فإذا جاء أحد التجار الغرباء نزل عند صديق أو شخص يعرفه، وإن لم يعرف أحداً اقترع أعيان المدينة لاضافته. وهكذا يجد جميع الغرباء منازل لهم، وهؤلاء القوم يسرهم أن يكرموا كل غريب. حقاً ان على كل ضيف من الغرباء أن يقدم عند انصرافه بعض الهدايا لمضيفه اعترافاً بالجميل. وإن جاء مسافر من غير التجار كان له حق اختيار مكان نزوله عند من يروقه من الأعيان دون أن يؤدي ثمناً أو يقدم هدية. وإذا اتفق مجيء فقير غريب أسكنوه في ملجأ خاص بايواء الفقراء واطعامهم.

وفي وسط المدينة جامع عظيم مبني بالحجر والجير في غاية الحسن، وهو عتيق شيد في الوقت الذي كانت البلاد خاضعة لسلطة ملوك مراكش. وفي وسط المسجد صهريج كبير. يقوم بخدمة هذا الجامع عدد من الفقهاء والسدنة. ويرى (في المدينة) كذلك بعض الجوامع والمساجد الأخرى، وهي جيدة البناء يعتني المكلفون بخدمتها رغم صغرها.

وفي مدينة تدنست مائة منزل لليهود، لا يؤدون الجزية. لكنهم يقدمون عادة هدايا للأعيان الذين يحمونهم، ومعظم السكان من اليهود، وهم الذين يملكون دار السكة ويضربون لسكان المدينة نقود الفضة: يستخرج من كل أوقية من الفضة (أونس)[2] مائة وستون قطعة نقدية صغيرة تشبه «الهيلير» المجري إلا أنها مربعة. ولا وجود في هذه المدينة لضريبة الأسواق ولا لضريبة الجمرك ولا لأية جباية أخرى. وإذا اتفق أن اضطرت المدينة إلى بعض الاداءات، اجتمع أعيانها واقتسموا المصاريف بحسب ما يستطيعه كل واحد منهم.

وقد خربت تدنست عام 918 للهجرة، وفر سكانها بعضهم إلى الجبال وبعضهم إلى مراكش، لأن جيرانهم من الأعراب تواطؤوا مع قائد

---

(2) الأونس (Once) الايطالي الذي يجعله المؤلف مساوياً للأوقية المغربية يزن 28 غرام وربع غرام بالتقريب.

(جيش) ملك البرتغال المقيم بأسفي وكان هؤلاء الأعراب يريدون تسليم المدينة للنصارى، فاتفق السكان جميعهم وغادروها. وقد شاهد كاتب هذه السطور مدينة تدنست بعد خرابها، وقد تهدم السور كله وكذلك المنازل، ولم يعد يسكنها غير البوم والغربان، وذلك عام 920[3].

تَكُولِيتْ، مدينةٌ في حَاحَا

تقع هذه المدينة على منحدر جبل، وفيها نحو ألف كانون. وهي على بعد 18 ميلاً من تدنست إلى جهة الغرب. يجري بالقرب منها نهر صغير تقوم على ضفتيه بساتين وحدائق عامرة بالفواكه. وللمدينة عدة آبار ماؤها صاف زلال، وجامع في غاية الحسن، وأربعة ملاجىء للفقراء، وزاوية للأتقياء. وسكان هذه المدينة أغنى من سكان تدنست، لأن مدينتهم مجاورة لمرسى على البحر المحيط يسمى كُوز[4] (أكوز).

تباع بتكُوليت كمية كثيرة من الحبوب، لوقوعها بجوار سهل فسيح، كما يباع فيها كثير من الشمع للتجار البرتغاليين. لذلك يرتدي الناس في هذه المدينة أجمل الملابس ويمتطون الخيول المسرجة بأحسن السروج. وفي الوقت الذي ذهبت فيه إلى هذه البلاد كان بتكوليت أحد الأعيان كرئيس لمجلسها، يتولى تدبير جميع شؤونها من توزيع الضرائب التي تؤدى للأعراب، وعقد معاهدات السلم والوفاء بالعقود المبرمة بينهم وبين أهل المدينة. وكان يملك ثروة طائلة ينفقها لاكتساب رضى الجميع ومحبتهم، يتصدق كثيراً ويعين الشعب بهباته فيما يحتاج إليه، بحيث إنه لم يكن هناك أحد إلا وهو يحبه كأبيه. ولقد رأيت هذا الرجل الشريف

---

(3) تفيد المصادر البرتغالية أن عامل أسفي نونيو فرنانديس وحليفه يحيى بن تعفوفت قائد الأعراب هزما أحمد الأعرج يوم فاتح محرم 26/920 فبراير 1514 على بعد نحو مائة كيلومتر من آسفي في طريق تدنست.

(4) هي الصويرة القديمة على الضفة الغربية لوادي تنسيفت غير بعيد عن المصب. ولا تقع تماماً على المحيط. ويبقى موقع تكُوليت مع ذلك مجهولاً لحد الآن.

وأقمت عنده نحو ثمانية أيام ونلت من كرمه. ووجدت، عنده كتباً تاريخية عديدة وحوليات تتعلق بافريقيا فقرأتها. وقتل المسكين أخيراً في الحرب ضد البرتغاليين عام 923 من تاريخنا (الهجري) الموافق للسنة المسيحية 1514 (4م) في حين أسرت طائفة من السكان، وفرت طائفة، وقتلت طائفة أخرى كما ذكرنا ذلك في كتابنا تاريخ افريقيا الحديث.

أدِيكِيسْ، مدينةٌ في حَاحَا

تقع أديكيس في السهل على بعد ثمانية أميال جنوبي تكوليت، وتشتمل على نحو سبعمائة كانون. والسور المحيط بها من الآجر النيء، وكذلك جامعها ومعظم منازلها. ويمر بداخل المدينة نهر قليل الأهمية ترى على ضفتيه كروم عديدة معروشات في غاية الجمال، ويعيش فيها عدد وافر من الصنّاع اليهود. ويلبس السكان الثياب الأنيقة ويمتلكون الخيل الفارهة، لأنهم يتعاطون التجارة ويتنقلون في الضواحي. يضربون السكة الفضية، ويقيمون كل سنة سوقاً يجتمع فيها جميع سكان الجبال المجاورة الذين هم أشبه بالوحوش منهم بالبشر. وتكثر في هذه السوق البهائم والزبد وزيت الهرجان، وكذلك الحديد والثياب(المنسوجة)في البلد،وتستمر خمسة عشر يوماً.

نساء هؤلاء السكان بارعات الجمال، بيض متوسطات البدانة، في غاية الظرف واللطف. لكن الرجال ذوو عنف وغيرة، يقتلون كل من أفرط في الاقتراب من نسائهم. وليس هناك قاض ولا فقيه يفصل بين الناس في قضاياهم المدنية، وإنما يحكمون أنفسهم كما يحبون، إلا في المسائل الشرعية التي ينظر فيها الفقهاء وأضرابهم، ولا وجود لاتاوة أو أية ضريبة أخرى في هذه المدينة ولا في سائر الأماكن التي تحدثنا عنها.

أقمت في بيت فقيه هذه المدينة، وكان فظاً غليظاً، إلا أنه معجب بالبلاغة العربية، ومن أجل ذلك حبسني عنده شهراً رغم تمنعي، وزعم

(4م) لعل الصواب عام 920 هـ إذ هي الموافقة لعام 1514 م. لا سيما وقد كان المؤلف عام 1517/923 في مصر.

أنه لا يليق بي أن أذهب دون أن يشيعني بنفسه لما كنت أظهره من ود للعرب، لأنه هو وأهله من العرب. وهكذا استبقاني عنده بهذه التعلة إلى أن فرغت من مؤلف صغير في البلاغة قرأته له. ومن ثم رجعت إلى مراكش فلم تلبث أديكيس إلا قليلاً حتى دمرت في الحرب ضد البرتغاليين، وهرب جميع سكانها إلى الجبال. وذلك عام 922، في أول السنة التي شرع المؤلف في القيام برحلته الكبرى، وهي السنة الموافقة لسنة 1505 الميلادية(5).

إدَاوْ إزْكْوَاغَنْ

هي(6) قرية بنيت كحصن على جبل عظيم، بعيدة عن أديكيس بعشرة أميال إلى جهة الجنوب، وبها نحو أربعمائة كانون، ويجري من تحتها نهر صغير. لا يوجد في داخل المدينة ولا في خارجها أي بستان أو كرم أو شجر مثمر، ولا سبب لذلك غير اهمال السكان وتكاسلهم لدرجة أنهم لا يبحثون عن طعام آخر غير الشعير وزيت الهرجان. يسيرون حفاة إلا قليلاً منهم ينتعلون نعالاً من جلد الجمال أو البقر، ولا يفترون عن محاربة سكان البادية فيتقاتلون كالكلاب. ليس لهم قاض ولا فقيه ولا شخص يحكمونه ليفصل بينهم في خصوماتهم، إذ ليس لهم من الايمان والشريعة إلا ما يجري على ألسنتهم. ولا يوجد في جبالهم كلها أي نتاج آخر غير كمية كثيرة من العسل الذي يدخرونه كطعام ويبيعون منه لجيرانهم، ويلقون بالشمع في المزابل.

في هذه القرية مسجد صغير لا يسع أكثر من مائة شخص، إذ ليس

---

(5) لعل هنا تحريفاً نسخياً في الأرقام أيضاً. فقد تقدم قبيل هذا أن ذكر المؤلف أن العام الهجري 923 يوافق 1514. وربما كان الصواب هنا: 921 = 1515. وربما كانت الجملتان الأخيرتان من زيادة الايطالي راميزيو كما يظهر من السياق.

(6) اندثرت هذه القرية ولم يعرف مكانها، غير أن فرقة من قبيلة آيت بيوض المتفرعة عن قبيلة إدَاوْزمزم ما زالت تحمل إلى اليوم اسم إدوإزكواغن.

لهؤلاء القوم أدنى اهتمام بالديانة أو الاستقامة. يتقلدون دائمًا خناجر أو رماحاً للفتك بالناس، وهم خونة غادرون.

ذهبت مرة إلى هذه المدينة مع الشريف (السعدي) الذي بويع أميراً على بلاد سوس وحاحا، وكنا قد جئنا لتوطيد الأمن بين السكان.

تِيُّوتْ

تييوت قرية صغيرة في سهل تكتنفه الجبال، بعيدة عن ايداوازكواغن بعشرة أميال إلى الغرب، وبها نحو ثلاثمائة كانون، وسورها من الآجر. سكان تييوت كلهم فلاحون، أرضهم صالحة للشعير لا يزرع فيها غيره، وحدائقهم كثيرة مليئة بأشجار العنب والتين والخوخ، ويملكون أعداداً وافرة من الماعز. وتكثر الأسود في هذه المنطقة فتفترس العديد من هذه الماشية وتعطبها.

قضيت ليلة في تييوت فنزلت بمدشر صغير نصفه خرب، وقد أعطينا خيولنا كثيراً من الشعير ثم عقلناها وخبأناها أحسن ما يمكن باغلاق باب المكان بكمية كثيرة من الشوك. كنا في منتصف أبريل والجو حار فصعدنا إلى السطح لننام في الهواء الطلق، وفي منتصف الليل أقبل أسدان عظيمان جلبتهما رائحة الخيل وحاولا إزالة الشوك، فأخذت الخيل تصهل وتضطرب لحد أننا صرنا نرتعد خوفاً من أن ينهار السقف ونصبح فريسة لهذين السبعين. وما كدنا نلمح طلوع الفجر حتى أسرجنا خيلنا وذهبنا إلى حيث ذهب الأمير. وبمجرد ارتحالنا عن هذه المدينة هدمت وقتل بعض سكانها وحمل الآخرون أسرى إلى البرتغال، وذلك سنة 920[7].

(7) سيذكر المؤلف بعد هذا أنه حضر يوم الجمعة 18 صفر 14/920 أبريل 1514 معركة بولعوان وهو متوجه من محلة ملك فاس إلى مراكش ليخبر أميرها أبا علي الناصر بن يوسف الهنتاتي والأمير الشريف أبا العباس الأعرج السعدي بقرب قدوم أخي ملك فاس عندهم، وهو الناصر الوطاسي الذي انهزم في أوائل ربيع الأول 920 ماي 1514، ويبدو أنه بعد ذلك مباشرة توجه حاكم آسفي البرتغالي نونيو فرنانديز دي أطايدي في مائتين وخمسين من الرماة البرتغاليين وبمساعدة أعراب عبدة والغربية لمهاجمة قوات =

تَسَكْدَلْتْ

تسكدلت مدينة لها شيء من الأهمية، تقع على جبل عال وتحيط بها صخور شاهقة بحيث لا تحتاج إلى سور. وهي شبيهة بأورطي في ايطاليا، وبعيدة عن تييوت بنحو اثني عشر ميلاً إلى الجنوب. يجري تحت المدينة نهر تنتشر حوله حدائق فيها جميع أنواع الأشجار لا سيما الجوز. وسكان تسكدلت أغنياء يملكون عدداً مهمًا من الخيل فلا يؤدون أية ضريبة للأعراب، بل يحاربونهم باستمرار ويقتلون الكثير منهم. والحقيقة أن أهل البادية يحملون جميع حبوبهم إلى هذه المدينة خوفاً من أن يسلبهم اياها الاعراب.

ولسكان تسكدلت عادات حسنة فيما يتعلق بالكرم والمجاملة: فحراس الأبواب مكلفون باستفسار كل غريب جاء إلى المدينة عما إذا كان له من صديق فيها، فإن أجاب بالنفي كان على هؤلاء الحراس أن يضيفوه، بحيث إن كل غريب يلقي هناك استقبالاً حسناً ولطيفاً دون أن يؤدي شيئاً. والرجال معذبون بالغيرة إلا أنهم متمسكون بدينهم تمسكاً تاماً. ولهم في وسط المدينة مسجد في غاية الجمال يتولى تدبيره عدد من الفقهاء، كما أن لهم قاضياً متضلعاً في الفقه يفصل في كل القضايا إلا ما يرجع منها إلى (النفاليس)[8]. وجميع الحقول التي تزرع واقعة في الجبل.

أقمت نحو عشرة أيام في هذه المدينة مع الأمير الشريف (السعدي) سنة 919 هـ.

= الشريف السعدي في بلاد الشياظمة فأخضع البلاد إلى الأطلس، وربما كان هذا الغزو هو الذي سبب خراب تييوت.

(8) النفاليس أو اينفلاس مفرده أنفلوس، وهم الأعيان والضمان أو الشيوخ والعرفاء في سوس وكانوا يتولون الفصل في الجنايات وبعض القضايا المدنية بحسب ما في الألواح. انظر كتابنا الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، 298:1.

تاكُتْسَّة

تاكُتسة مدينة قديمة مشيدة على جبل شامخ كروي الشكل، يخرج الناس منها وهم يدورون حول الجبل كما يدورون في سلم حلزوني. وهي بعيدة عن تسكُدلت بنحو أربعة عشر ميلاً. يجري تحتها نهر يشرب السكان من مائه ويبعد عن المدينة بستة أميال. ومن نظر إلى تاكتسة وهي بجانب الوادي بدت له وكأنها لا تبعد عنه بأكثر من ميل ونصف ميل. وتنزل النساء إلى النهر من ممر ضيق منحوت في الصخر على شكل سلم أيضاً. وسكان هذه المدينة كلهم قتلة في حرب دائمة مع جيرانهم أجمعين، حقولهم وماشيتهم في الجبل، والغابات المحيطة بهذا المكان مليئة بالخنازير البرية، وليس في تاكُتسة ولو فرس واحد، ولا يستطيع الأعراب أن يجتازوا بالمدينة أو ناحيتها إلا بإذن خاص وجواز مرور.

وقد مررت بأسفل هذه المدينة في سنة كثر فيها الجراد جداً في وقت أخرج الزرع سنابله، وكان عدد الجراد ضعف عدد السنابل بحيث أن الأرض كانت لا تكاد تظهر، وذلك عام 919.

آيْتْ داود (9)

هي مدينة عتيقة بناها الأفارقة على جبل شامخ، إلا أن بقمته سهلاً في غاية الجمال. تبعد عن تاكُتسة بنحو خمسة عشر ميلاً إلى جهة الجنوب، وفي وسطها عيون جارية كثيرة ماؤها بارد جداً. وليست ضواحيها سوى صخور وغابات غريبة موحشة، وتنبت بين هذه الصخور كمية وافرة من الأشجار.

في هذه المدينة عدد كثير من الصناع اليهود من حدادين واسكافيين وصباغين وصائغين.

---

(9) اندثرت هذه المدينة الآن، إلا أن آيت داود، وهم فرقة من ايداوبوزية، ما يزالون في نفس المنطقة.

يقال ان السكان الأقدمين لهذه المدينة يهود من سلالة داود، أسلموا بعد أن فتح المسلمون هذه البلاد، يكثر فيهم المتضلعون في الفقه، ويستظهر معظمهم النوازل والأحكام. وقد عرفت منهم شيخاً يحفظ كتاب **المدونة** عن ظهر قلب، يعني مجموع القوانين ويشتمل على ثلاثة أجزاء تتناول بالدرس أصعب المسائل الفقهية وتبين رأي الإمام مالك فيها. وهذه المدينة شبه محكمة ترفع إليها جميع الخصومات، فتسوى فيها المطالبات القضائية والاستدعاءات والاتفاقات والعقود الخ... ولذلك يقصدها جميع الناس من الأماكن المجاورة. وان هؤلاء الفقهاء هم الذين يقومون بادارة الشؤون المدنية والدينية، إلا أنهم في الواقع لا يطاعون من قبل السكان حينما يتعلق الأمر بمسائل خطيرة ذات بال، ولا يفيدهم علمهم حينئذ شيئاً.

ولما ذهبت إلى هذه المدينة نزلت بدار وكيل شرعي، وحدث ذات مساء أن اجتمع عنده عدد من الفقهاء، وبعد تناول العشاء بدأت المناقشة حول معرفة ما إذا كان يجوز بيع ملك الخواص إذا احتاجت إليه الأمة واقتضته المصلحة العامة. وكان من بين الحاضرين شيخ كبير حاز شرف الفصل في المسألة وحسم الخلاف فيها، وكان يدعى الجزار. فلما سمعتهم ينادونه بذلك سألته عن معنى هذا الاسم فأجابني: القصاب! ثم قال: ان السبب في ذلك هو أن الجزار متعود كثيراً على التعرف على مفاصل البهائم، وكذلك أَمتاز أنا باصابة مفاصل النوازل الشرعية!

ان عيشة الناس في آيت داود عموماً خشنة جداً، فهم يتغذون بالشعير وزيت الهرجان ولحم الماعز، ولا يعرفون القمح. نساؤهم جميلات زاهيات ورجالهم أشداء يكسو الشعر صدورهم خلقة، كرماء جداً لكنهم مفرطون في الغيرة.

قْلِيعَةْ المُرِيدين [10]

هي قلعة صغيرة واقعة على قمة جبل شاهق بين جبلين عاليين كذلك، وفي هذه الجبال كلها صخور عظيمة تحيط بها غابات كثيفة. ولا يمكن الصعود إلى هذه القلعة إلا من ممر ضيِّق في حجْر الجبل، إذ تقع هذه الصخور من جهة، وجبل تسكدلت القريب بنحو ميل ونصف من جهة أخرى. وتبعد آيت داود عن القليعة بثمانية عشر ميلاً.

أُسِّسَتْ هذه القلعة في أيامنا هذه من قبل عمرو السياف[11] الثائر رئيس المبتدعة. وكان في بداية أمره شيخاً متصوفاً، ثم لما جمع حوله عدداً كثيراً من المريدين وأطاعوه صار جباراً عنيداً، ودامت سطوته اثني عشر عاماً كانت سبب خراب هذه البلاد. وقد قتلته إحدى نسائه حينما وجدته يضاجع ابنة لها من زوج آخر، فأدرك الناس حينئذٍ أن الرجل فاسق لا إيمان له ولا دين، وثار الشعب بعد موته وقتل كل من كان يتبع طريقته. وخلف عمرو حفيداً تولى الحكم في قليعة المريدين وصمد لحصار المتمردين وجميع سكان حاحا طوال عام إلى أن كلُّوا وتفرَّقوا عنه. وقد قاوم هذا الرجل وما زال يقاوم حتى اليوم العداوة الشديدة من رجال حاحا وجميع جيرانهم تقريباً، لا يعيش إلا من النهب، وله فرسان يغيرون على كل من يمر بهم. وهو في حركة دائمة، يسلب الماشية تارة والناس أخرى، ويستخدم أيضاً بعض الرجال المسلحين بالبندقيات. ولما كانت الطريق الرئيسية لا تبعد عن القلعة إلا بميل واحد، فإن هؤلاء الرجال يطلقون من

---

(10) اندثرت هذه القليعة إلا أن موقعها قد يكون هو قصبة تمولكت الحالية.

(11) هو عمرو بن سليمان الشياظمي المعروف بالسياف وبالمريدي. كان من تلاميذ الشيخ محمد ابن سليمان الجزولي، فلما مات الشيخ عام 870 مسموماً ثار عمرو هذا مظهراً المطالبة بثأر الشيخ، وعظم أمره فسمى أتباعه المريدين ــ ومن ثم سميت قلعته قلعة المريدين ــ وكان قد أخرج شلو الشيخ الجزولي من قبره وجعله في تابوت كتابوت بني اسرائيل، واستمرت فتنته عشرين سنة. انظر: «الاستقصا»، 4:122-123.

بعيد نيران بندقياتهم على المارة المساكين فيجرحونهم وغالباً ما يقتلونهم. غير أن الكل يكرهه لدرجة أنه لا يستطيع أن يزرع أو يحرث بل حتى أن يحكم شبراً من الأرض خارج جبله. وقد أقبر جده في القلعة بكامل العناية، وجعل ضريحه بمثابة مزارة من مزارات الأولياء.

مر كاتب هذه السطور أمام هذه القلعة مع فرسان الأمير الشريف (السعدي)، فأصاب رماة القلعة بعضهم لكنهم لم يختطفوا منهم أحداً. وبعد ذلك تحادث المؤلف مع بعض مريدي عمرو السياف فأخبروه بحياة هذا الزنديق وأطلعوه على مذهبه المخالف للشريعة الإسلامية، وقد ذكر ذلك في كتابه «**مختصر تاريخ الإسلام**».

إيغِيلِينْغِيغيلْ، مدينةٌ في حَاحَا

إيغيلينغيغيل مدينة صغيرة في الجبل من بناء الأفارقة الأقدمين، تبعد عن آيت داود بنحو ستة أميال إلى الجنوب، وفيها زهاء أربعمائة كانون، وصنّاع للأشغال الضرورية للحياة. والأرض المجاورة للمدينة صالحة جداً لزراعة الشعير، ويكثر بها العسل وزيت الهرجان. وليس لمن يريد الصعود إلى المدينة إلا ممر صغير بجنب الجبل، بلغ من الضيق والوعورة بحيث لا يمكن قطعه على الفرس إلا بشق الأنفس. والسكان في غاية الشجاعة عندما يحملون السلاح، وهم في خصام دائم مع الأعراب وينتصرون عليهم دائمًا بسبب موقع مدينتهم الحصين الذي لا يكاد يصل إليه أحد. وهم إلى ذلك في غاية الكرم، يصنعون في مدينتهم كمية عظيمة من أوان تباع في مختلف الجهات، ولا تصنع في غير هذه المدينة على ما أعتقد.

مدينةُ تَفَتْنَة وميناؤها في حَاحَا

تفتنة ثغر على البحر المحيط بعيد عن إيغيلينغيغيل بنحو أربعين ميلاً إلى جهة الغرب، من بناء الأفارقة. فيها نحو ستمائة كانون، ومرسى في

غاية الجودة للسفن الصغيرة، اعتاد بعض التجار البرتغاليين أن يجيؤوا إليه ليقايضوا سلعهم بالشمع وجلود الماعز. والبادية المجاورة لهذا الثغر مليئة بالجبال، وينبت فيها الشعير بكثرة. ويمر بالقرب من المدينة نهر صغير تدخل إليه السفن بسهولة عندما تهب العواصف بالبحر. ويوجد في مدينة تفتنة جمرك وضريبة الملح، وتقسم جميع المداخيل بين الرجال القادرين على الدفاع عن المدينة. وفيها شيوخ وفقهاء إلَّا أن هؤلاء غير مختصين في النظر في جرائم القتل والجروح. وإذا ارتكب شخص إحدى الجريمتين وظفر به أهل الضحية قتلوه، وإن لم يظفروا به نُفِيَ سبع سنوات، وعند انقضاء مدة النفي يرفع عن المجرم حظر الإقامة إذا أدَّى غرامة (دية) لذوي القتيل.

وسكان تفتنة شديدو بياض البشرة، في غاية الالفة والمجاملة، يعامل الغرباء عندهم بأحسن مما يعامل المواطنون أنفسهم. وعندهم منزل كبير للضيوف الغرباء، ولو أن معظم هؤلاء يضيفهم الخواص من السكان.

ذهبت إلى هذه المدينة مع الأمير الشريف (السعدي)، ومكثنا فيها ثلاثة أيام كانت عندي بمثابة ثلاثة أعوام سواء من كثرة البراغيث التي لا يحصى لها عد، أو من رائحة أبوال الماعز وأبعارها، فلكل واحد من سكان المدينة عدد من الماعز ترعى نهاراً وتؤوي ليلاً إلى داخل المنازل فتنام عند أبواب الحجرات.

إدَاوْ عاقَلْ،
أوَّلُ قسمٍ من الأطلس

لقد أنهيت الآن وصف أهم مدن حاحا، ويبدو لي من المفيد أن أشرع في الكلام عن الجبال دون أن أهمل شيئاً مما يستحق الذكر فيها، لأن معظم الحاحيين في الواقع يسكنون في الجبال ويقيمون بها على الدوام.

وأول قسم من الأطلس هو جبل قبيلة إِداو عاقل الذي يبتدىء عند البحر المحيط ويمتد شرقاً إلى إيغيلينغيغيل فاصلاً بين ناحية حاحا

وناحية سوس. عرضه مسيرة ثلاثة أيام تقريباً، لأن تفتنة تقع على رأس الساحل نحو الشمال، وماسة على رأس الساحل نحو الجنوب، وقد قضيت فعلاً ثلاثة أيام في السفر من تفتنة إلى ماسة[12].

هذا الجبل كثير السكان، يحتوي على عدد من القرى والمداشر، ويعيش الناس فيه على ما لهم من الماعز والشعير والعسل، لا يلبسون قميصاً ولا ثوباً مخيطاً بالإبرة، إذ ليس عندهم من يحسن الخياطة، وإنما يلتفون بقدر الإمكان في قماش. ومن عادة نسائهم أن يحملن في آذانهن أقراطاً ضخمة من الفضة، فتضع بعضهن أربعة أقراط منها في كل أذن، ويستعملن أيضاً أنواعاً من مشابك الثياب الغليظة التي تزن الواحدة منها أوقية يمسكن بها ثيابهن على أكتافهن ويحملن من الفضة كذلك خواتم في أصابعهن وخلاخل في سيقانهن. ولا يفعل ذلك منهن إلا النبيلات والموسرات، أما نساء العامة والفقراء فيتخذن تلك الحُلى من الحديد أو النحاس.

وهناك بعض الخيول إلاَّ أنها قصيرة لا تصفح حوافرها، وهي في غاية الخفة، بحيث تقفز كالقطط من أعلى إلى أسفل. وتكثر الأرانب والغزلان والأيول إلا أن أهل البلاد لا يعيرونها أي اهتمام. والعيون الجارية كثيرة، وكذلك الأشجار لا سيما أشجار الجوز.

ومعظم هؤلاء السكان كالاعراب يرحلون من مكان إلى آخر وفيما يتعلق بالسلاح فإن للرجال منهم خناجر عريضة مقوسة، وسيوفاً من نفس الشكل، ظهرها عريض كظهر المناجل التي تستعمل في إيطاليا لقطع الحشائش. وعندما يذهبون إلى الحرب يحملون في أيديهم ثلاثة رماح أو أربعة. وليس في البلد قاض ولا فقيه ولا من يعرف العقيدة الدينية،

---

(12) يبدو أن ذاكرة الحسن الوزان خانته فنسي أن بعد هذا الجبل واد سوس، ولا بد من قطع هذا الوادي والسهول المحيطة به قبل الوصول إلى ماسة. وذلك ما يفسر الخلط الذي سيرى عند المؤلف بعد هذا بين موقع وادي سوس ووادي ماسة.

وهم على العموم شريرون غادرون. قيل للأمير الشريف (السعدي) بمحضري ان سكان هذا الجبل يقدمون عشرين ألف مقاتل.

جبل دْمَنْسْرَة

يكون هذا الجبل أيضاً جزءاً من الأطلس مبتدئاً من تخوم الجبل السابق ممتداً شرقاً على مسافة نحو خمسين ميلاً إلى جبل نفيفة في ناحية مراكش[13]. فاصلاً بين قسم مهم من حاحا وسوس. وفي أحد أطرافه الممر الجبلي الذي يعبر منه الناس للذهاب إلى ناحية سوس.

هذا الجبل مليء بالسكان، لكنهم غلاظ شداد يملكون عدداً وافراً من الخيل وكثيراً ما يحاربون جيرانهم والاعراب لمنعهم من الدخول إلى بلادهم. وليس هناك مدينة ولا قصر ولا منزل منعزل، بل عدد كثير من القرى والمداشر. ويوجد من بين السكان أشراف كثيرون تخضع لهم العامة جميعاً. والأراضي الزراعية صالحة للشعير والدخن. وهناك عيون كثيرة تكون جداول ماء تنحدر إلى الشعاب لتصب في نهر شيشاوة[14].

يرتدي السكان ملابس أنيقة، ويستخرجون من الأرض كمية وافرة من الحديد تباع في مختلف الجهات، فيحصلون بذلك على نقود فضية. ويسير في هذه الجبال عدد كثير من اليهود ممتطين صهوات الجياد، شاكين السلاح مدافعين عن سادتهم، أعني سكان الجبال، ويعتبرهم سائر يهود افريقيا مارقين من الدين ويدعونهم كرايم.

ينبت في هذا الجبل شجر المصطكي والبقس العظيم والجوز الباسق، ويخلط أهل البلاد الجوز والهرجان فيستخرجون منها زيتاً هو على الأصح مُر يأكلونه ويستصبحون به.

وقد مررت بهذا الجبل لما رجعت من سوس واستقبلت فيه بحفاوة

---

(13) تقع بلاد نفيفة حالياً شمال بلاد دمنسرة بين واد أجنيف غرباً وواد إيمينتانوت شرقاً.

(14) يكتب في الأصل المترجم (شفشاوة) بدل شيشاوة.

فائقة نظراً لما كنت أحمل من رسائل التوصية من الأمير الشريف(السعدي)، وذلك عام 920.

جبل الحديد

ليس هذا الجبل من الأطلس، إذ يبتدىء من المحيط شمالاً، ويمتد جنوباً إلى نهر تنسيفت[15]، فاصلاً بين أقاليم حاحا ومراكش ودكالة، وتسكنه قبيلة تدعى رجراجة. تكثر الغابات وعيون الماء في هذا الجبل، كما يكثر فيه العسل وزيت الهرجان. أما القمح فقليل، وإنما يستورد من دكالة. والسكان هنا فقراء، فضلاء أتقياء. يسكن عدد كثير من النساك في قمة الجبل ويقتاتون الفواكه والماء. هؤلاء الجبليون أمناء جانحون للسلم، إذا سرق أحدهم أو ارتكب أية جريمة أخرى نفوه لمدة معينة. وهم مغفلون إلى أقصى حد، إذا فعل أحدهؤلاء النساك أي شيء عدوه من الكرامات. ويسبب لهم جيرانهم من الاعراب كثيراً من المتاعب فيؤدّون لهم خراجاً معلوماً يتقون به شرهم. وقد غزا ملك فاس محمد (البرتغالي الوطاسي) هؤلاء الأعراب ففروا إلى الجبل، لكن الجبليين عندما وجدوا أنفسهم أقوياء بمساعدةالملك هاجموا الأعراب في المضايق، وتعاونوا مع جنود الملك في مطاردتهم فمزقوهم كل ممزق. ولما انتهت المعركة قدم الجبليون إلى الملك خيول القتلى من الأعراب، فكانت زهاء ثلاثة آلاف وثمانمائة فرس، ولم يؤدوا بعد ذلك خراجاً.

وقد حضرت هذه الموقعة، وأنا يومئذٍ في المحلة السلطانية، وذلك عام 921، وبلغ عدد المحاربين القادمين من هذا الجبل حوالي اثني عشر ألف مقاتل.

وفي بلاد حاحا عدة جبال أخرى لكنها غير مسكونة، ضربت عنها صفحاً خشية الإطالة والملل.

---

(15) بل بالعكس يتجه جبل الحديد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ابتداء من الضفة اليسرى لواد تنسيفت.

سُوسْ

سأتعرض الآن لناحية سوس الواقعة وراء الأطلس إلى جهة الجنوب، المقابلة لبلاد حاحا، أي في أقصى إفريقيا[16]. تبتدىء غرباً من المحيط، وتنتهي جنوباً في رمال الصحراء، وشمالاً في الأطلس عند حدود حاحا، وشرقاً عند نهر سوس الذي سميت به هذه الناحية.

سأبتدىء من الغرب وأحدثكم عن كل مدينة وموقع هام بصفة خاصة.

مدينةُ مَاسَّة

تتكوَّن ماسة من ثلاث مدن صغيرة تبعد كل منها عن الأخرى بنحو ميل وقد أسسها الأفارقة الأقدمون على شاطىء المحيط عند قدم الجبل الذي يكون بداية الأطلس، تحيط بهذه المدن أسوار من الآجر النِّيء، ويمر بينها نهر سوس الكبير[17]، الذي يمكن عبوره بسهولة في الصيف، ويتعذر ذلك في الشتاء إلا بزوارق صغيرة معدّة لهذا الشأن.

تقع هذه المدن الصغيرة وسط غابة ليست كسائر الغابات، وإنما هي نخيل يكون ممتلكات تدر غلاتها على السكان. والواقع أن هذا التمر غير جيد لأنه لا يحتفظ به طول السنة. وسكان ماسة كلهم فلاحون،

---

(16) لعله يقصد بلاد البربر.

(17) نهر ماسة النابع من الأطلس الصغير هو الذي يمر بين هذه المدن ويصب هنا في المحيط، لا نهر سوس الذي ينبع من الأطلس الكبير ويصب في المحيط قرب أكدير.

يحرثون أرضهم عندما يفيض النهر خلال شتنبر وآخر أبريل، ويحصدون الحبوب في ماي. وإذا لم يحدث فيضان في أحد هذين الشهرين انعدمت الغلة تلك السنة. والماشية هناك قليلة. ويوجد في خارج ماسة على شاطىء البحر مسجد يقدسه الناس كثيراً، ويذكر عدد من المؤرخين أن المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً حسبما أخبر به النبي محمد (عليه السلام) سيخرج من هذا المسجد. ويقال أيضاً ان النبي يونس (عليه السلام) لما التقمه الحوت نبذ بالعراء في ساحل ماسة، وجميع العوارض التي تحمل سقف هذا المسجد من عظام سمك (البلين)، وكثيراً ما يحدث عندما يهيج البحر أن يقذف على شاطىء ماسة بعدد من هذه السمكات العظيمة ميتة، وهي مفزعة لضخامتها وبشاعة منظرها. وتحكي العامة أنه ما مرت سمكة من هذا النوع بقرب المسجد إلا ماتت بسبب البركة التي منحها الله لهذا المسجد. وكان يصعب علي أن أصدق ذلك لولا أني رأيت بعيني سمكات منها يقذف بها البحر ميتة كل يوم. وقد تحيَّرت من ذلك، غير أني تحادثت فيما بعد مع شيخ يهودي من نفس المكان فأخبرني بأنه لا عجب في ذلك، إذ يوجد في البحر على بعد نحو ميلين من البر بعض الصخور العظيمة الحادة، فإذا هاج البحر ذهبت هذه السمكات هنا وهناك، وما اصطدم منها بتلك الصخور جرح ومات، ولهذا ينبذه البحر بعد ذلك على الساحل حيث نراه، فظهر لي أن هذا التأويل خير من تأويل العامة.

وقد ذهبت إلى ماسة في عهد الأمير الشريف، فاستدعاني أحد الأعيان أن أتناول معه الطعام في بستان خارج المدينة، ولقينا في الطريق عظماً من عظام هذا السمك الضخم على شكل قوس مررنا تحته ونحن راكبون على الجمال كأنه باب، دون أن يمس رؤوسنا لشدة ارتفاعه. ويقال ان هذا العظم قائم هناك منذ ما يقرب من مائة سنة، وأنه يحتفظ به لغرابته.

ويوجد في هذه البلاد على شاطىء البحر عنبر من الدرجة الأولى يباع

بـأبخس الأثمان إلى التجـار البرتغـاليين والفـاسيين، يكـاد يقل ثمن الأوقية[18] منه عن مثقال. يقول الكثير من الناس ان هذا السمك الضخم هو الذي ينتج العنبر. فيزعم البعض بأنه برازه، ويزعم آخرون بأنه المذي الذي يسيل من جهاز الذكر عندما يريد أن يدنو من الأنثى فيتجمد في البحر.

تِيُّوتْ، مدينةٌ في سوس

تييوت مدينة قديمة أسسها الأفارقة في سهل بديع، وهي مقسمة ثلاثة أقسام يبتعد كل قسم منها عن الآخر بنحو ميل ويكون مجموعها شكلاً مثلثاً. تشتمل كلها على ألف كانون، ويمر بالقرب منها نهر سوس. وتنتج هذه الأرض كمية عظيمة من القمح والشعير وغير ذلك من الحبوب والخضر، وينبت فيها أيضاً قصب السكر بكثرة، غير أنه سكر أسود لجهلهم بطريقة طبخه وتصفيته. ويقصد تييوت عدد كثير من تجار فاس ومراكش وبلاد النيجر لشراء السكر. وفيها أيضاً كمية عظيمة من التمر.

إن السكة الوحيدة المتعامل بها هنالك هي التبر، ويستعمل أهل البلاد أيضاً كعملة للأداء قطعاً صغيرة من القماش قيمة الواحدة منها مثقال[19]. والفضة قليلة عندهم تتحلى بها النساء. وتروج عندهم مكان (الكطريني)[20] قطع حديدية تزن الواحدة منها نحو أوقية.

والفـواكه قليلة عـدا التين والعنب والخـوخ، ولا ينبت الزيتـون عندهم، لكن يستورد الزيت من بعض جبال مراكش، ويباع في سوس بخمسة عشر مثقالاً للقنطار الذي يزن مائة وخمسين رطلاً إيطالياً. وحيث إنه لا وجود لسكة مضروبة عندهم فإن الأوقية من الذهب تساوي سبعة

---

(18) وزن الأوقية هو 28 غراماً وربع غرام بالتقريب.

(19) هذه القطع النقدية القماشية كانت تأتيهم من التجار الأوربيين.

(20) عملة نحاسية إيطالية قيمتها نحو 3 سنتيمات ـ ذهب.

مثاقيل وثلث مثقال، فالأوقية هي نفس الأوقية (الأونس) الإيطالية، لكن تساوي ثمان عشرة أوقية ويسمونها الرطل. ومائة رطل تساوي قنطاراً. والثمن العادي لحمل البضائع إن لم يكن مرتفعاً ولا منخفضاً هو مثقال واحد لثلاثة أحمال الجمل، وزن كل حمل سبعمائة رطل إيطالي. وهذا في الشتاء، أما في الصيف فيحملون بمثقال من خمسة إلى ستة أحمال الجمل.

ويصنع في تييوت الجلد القرطبي الجميل الذي يسمى المغربي في إيطاليا. وتباع هذه الجلود بستة مثاقيل لاثني عشر جلداً، وفي فاس بثمانية مثاقيل. وفي القسم الجنوبي من بلاد تييوت القريب من الأطلس (الصغير) تكثر القرى والمداشر، لكن القسم الغربي[21] منها غير مسكون، لأنه عبارة عن سهل بيد العرب.

وفي وسط تييوت جامع واسع يدعى الجامع الكبير، تجري بداخله ساقية من النهر. ورجال هذه البلاد أشداء خلقة يعيشون في حرب دائمة بينهم، وقلما يعرفون السلم. لكل قسم من أقسام المدينة الثلاثة رئيس، ويحكم هؤلاء الرؤساء الثلاثة مجتمعين تييوت، غير أن حكمهم لا يطول أكثر من ثلاثة أشهر. ولا يختلف لباس معظم السكان عن لباس أهل حاحا، فيرتدي بعضهم قميصاً ويضع على رأسه عمامة من الكتان الأبيض.

و (الكانا)[22] من الثوب الخشن مثل (الفرجية) تساوي مثقالاً ونصفاً، وقطعة الكتان البرتغالية أو الفلاماندية (الهولاندية) إن لم تكن خشنة جداً تساوي أربعة مثاقيل، وطول كل قطعة أربعة وعشرون ذراعاً (توسكانياً).

---

(21) كرر في الأصل القسم الجنوبي، ولعل الصواب هو القسم الغربي.

(22) الكانا: قياس إيطالي قدره نحو ميترين.

وفي مدينة تييوت قضاة وفقهاء يرجع إليهم في الأمور الدينية، أما المسائل الدنيوية فإن من كان أكثر أهلاً كان أكثر حظاً فيها[23] وإذا حدث أن قتل رجل منهم آخر، فإن تمكن أهل القتيل من الاقتصاص من القاتل انتهى الأمر، وإلاَّ نفي القاتل لمدة سبع سنوات أو بقي في المدينة رغم أنف أهل القتيل. وإذا نُفِيَ القاتل فتلك عقوبته، وعندما تنتهي مدة النفي يستدعي جميع الأعيان إلى وليمة ويتصالح مع خصومه.

وفي تييوت عدد كثير من الصناع اليهود، وهم لا يؤدون أية جزية، وإنما يقدمون بعض الهدايا الصغيرة إلى الأعيان.

تَرُودَانْتْ، مدينةٌ في سوس

ترودانت مدينة عظيمة أسسها الأفارقة الأقدمون، وفيها نحو 3.000 كانون.

تقع جنوب الأطلس (الكبير) بعيدة عنه بما يزيد قليلاً عن أربعة أميال، وشرق تييوت بعيدة عنها بخمسة وثلاثين ميلاً[24] وتشبه ترودانت من حيث مواردها وعاداتها المدن التي ذكرناها آنفاً، إلا أنها أقل سكاناً[25]. وهي أكثر تحضراً، لأن المرينيين عندما كانوا ملوكاً في فاس بسطوا نفوذهم كذلك على سوس، واتخذوا من ترودانت مركزاً لإقامة نائب السلطان في هذا الإقليم. لذلك يوجد فيها حتى اليوم قصبة خربة من بناء أولئك السلاطين. ومنذ أن انقرضت دولة بني مرين رجعت ترودانت إلى حريتها. ويلبس السكان القماش والكتان، وفيها عدد كثير من الصناع.

---

(23) هؤلاء الأعيان.

(24) الواقع أن ترودانت تقع شمال غربي تييوت بعيدة عنها بنحو 12 ميلاً فقط أي نحو 20 كيلومتراً.

(25) يتناقض هذا مع ما ذكر من أن ترودانت تشتمل على 3.000 كانون، وتييوت على 1.000. إلا أن يكون الناسخ زاد صفراً خطأ، فجعل 300 ثلاثة آلاف، أو أن يكون المراد أن بعض أحياء ترودانت خالية كقصبتها السلطانية.

تخضع ترودانت لحكم الأعيان ويتداول أربعة منهم مجتمعين السلطة لمدة لا تزيد عن ستة أشهر. وأهل ترودانت أناس مسالمون لا يسيؤون إلى جيرانهم.

وفي القسم المجاور للأطلس بهذا الإقليم كثير من القرى والمداشر، بينما يحتل الأعراب السهول الجنوبية ويرعون فيها ماشيتهم. ويؤدي سكان ترودانت لهؤلاء الأعراب خراجاً كثيراً عن الأراضي الزراعية حسب العادة وكحقوق لأراضيهم ولقيامهم كذلك بتأمين الطرق. وقد ثارت ترودانت في أيامنا هذه ضد الأعراب ودخلت في طاعة السلطان الشريف (السعدي) عام 920.

أَكْدِيرْ كْسِيمَة

هو حصن[26] واقع في أقصى طرف الأطلس الزاحف نحو المحيط، بالقرب من مصب نهر سوس في البحر.

وفي دائرة هذا الحصن أراضٍ زراعية جيدة استولى عليها البرتغاليون منذ عشرين سنة، فاتفق أهل حاحا وسوس على استرجاع هذا الحصن، بمساعدة عدد كثير من المحاربين الذين أتوا من النواحي النائية، واتخذوا قائداً لهم أحد الأعيان الأشراف من آل محمد (عليه السلام)، فأقام الحصار أمام الحصن أياماً عديدة، مات خلالها عدد وافر من المحاربين الغرباء عن البلد، فتخلى هؤلاء عن القتال ورجعوا إلى ديارهم. وبقي البعض مع

---

(26) هذا الحصن الذي لم يظهر اسمه واضحاً في الأصل المنقول عنه كان قريباً من أكدير الحالية، وليس هو إياها قطعاً لأن أكادير المعروفة التي سميت بالعربية (حصن المنكب) وبالشلحية (أكدير ايغير) لم تؤسس إلا بعد عقود من السنين مرت على خروج الحسن الوزان من المغرب وأسره في إيطاليا، أي عندما تغلب محمد المهدي الشيخ على البرتغاليين وطردهم من شواطىء سوس فحطم حصن فونتي البرتغالي وأسس على أنقاضه أكدير عام 1541/947.

الشريف لمتابعة قتال المسيحيين، واكتفى سكان سوس بأن يدفعوا للشريف المبلغ اللازم لتجهيز خمسمائة فارس. فلما استلم الشريف أموالاً باهظة لاستئجار هذا الجند، واكتسب الخبرة اللازمة للبلاد، أعلن الدعوة لنفسه واستقل بالحكم. ولما غادرت بلاط هذا الشريف كان عنده أكثر من ثلاثة آلاف فارس، وعدد لا يحصى من المشاة وكميات هائلة من الذخيرة الحربية، كما ذكرنا ذلك آنفاً بتفصيل في «**مختصر تاريخ الإسلام**»[27].

تِيدْسِي، مدينةٌ في سوس

تيدسي مدينة كبيرة تحتوي على أربعة آلاف كانون، أسسها الأفارقة على بعد ثلاثين ميلاً من شرق ترودانت، وستين ميلاً من البحر[28]، وعشرين ميلاً من الأطلس. وهذه البلاد منتجة خصبة. تنبت فيها كميات من الحبوب وقصب السكر وأشجار النيلة. وفيها أناس يتجرون مع بلاد السودان. يعيش سكان تيدسي في سلام، وهم مهذبون مستقيمون. لهم نظام جمهوري حيث يحكم البلاد ستة أشخاص يختارون بالقرعة ويعوضون بآخرين كل ستة عشر شهراً.

يمر نهر سوس بقرب المدينة على بعد ثلاثة أميال منها[29]، وفيها عدد كثير من الصناع اليهود كصياغين وحدادين الخ. وبها جامع يشتمل على كل ما يحتاج إليه من أئمة ومستخدمين، وقضاة وفقهاء يؤدي أجورهم سكان المدينة. ويقام يوم السبت سوق يجتمع فيه الأعراب والفلاحون والجبليون. وقد دخلت تيدسي عام 920 في طاعة الشريف الذي اتخذ منها عاصمة له.

---

(27) يظهر أن هذا المختصر كان محرراً مثبتاً في صدر هذا الكتاب إلا أنه افتقد فيما بعد.

(28) وقع هنا أيضاً اضطراب في بعض الأرقام، فتيدسي تقع على بعد 14 ميلاً جنوبي غربي ترودانت، وعلى بعد 30 ميلاً من البحر.

(29) يبعد مجرى سوس اليوم عن شمال تيدسي بثلاثة عشر ميلاً (نحو21كلم) لكن ربما كان هناك جدول منه يمر بالقرب الذي ذكره الوزان في ذلك العصر ثم اندثر.

تكّاوُوسْتْ

تكاووست مدينة كبيرة، وهي أهم مدن سوس على الإطلاق، بها ثمانية آلاف كانون، وسورها من التراب المدكوك. تبعد عن المحيط بنحو ستين ميلاً، وعن الأطلس بنحو خمسين ميلاً إلى جهة الجنوب. وهي من بناءالأفارقة، يجري نهر سوس[30] على بُعْدِ عشرة أميال منها. وفي وسط المدينة دكاكين كثيرة للتجار والصناع، وسكانها منقسمون إلى ثلاث فرق يكاد القتال لا ينقطع بينهم، ويستعين كل فريق على الآخر بالاعراب الذين يناصرون هؤلاء تارة، وأولئك أخرى، بحسب ما يتلقون منهم من أموال.

الأراضي الزراعية بهذه المنطقة كثيرة الإنتاج، والمواشي وافرة الأعداد، يباع الصوف فيها بأبخس الأثمان، ويصنع منه الكثير من قطع الثياب الصغيرة. التي يحملها تجار المدينة مرة في السنة إلى تنبكتو وولاتة من بلاد السودان. ويقام السوق مرتين في الأسبوع. يتأنق سكان تكاووست في لباسهم، ونساؤهم جميلات لطيفات. وهناك عدد كثير من الرجال سمر الألوان، لأنهم منحدرون من بيض وسود. وليس ثم حكومة معينة، وإنما الحكم للأقوى.

أقمت بهذه المدينة ثلاثة عشر يوماً مع نائب الشريف، لشراء اماء سود يقمن بخدمة هذا الأمير، وذلك عام 919.

جبل هَنْكِيسَة

يبتدىء هذا الجبل تقريباً عند الأطلس[31] غرباً، ويمتد مرتفعاً شرقاً على مسافة زهاء أربعين ميلاً. وتوجد عند قدمه ماسة والبلاد السوسية

---

(30) ظن بعضهم أن قرية الأقصابي بضواحي كوليمين قائمة مكان تكاووست المندثرة، غير أنها لا تنطبق عليها الحدود والمسافات المبينة هنا، فهي بعيدة عن المحيط بـ 30 كيلومتر، وعن نهر سوس بأكثر من 175 كيلومتر.

(31) لعل الصواب: المحيط.

الأخرى[32]. وسكان هذا الجبل ذوو نجدة فائقة، بحيث إن الواحد من مشاتهم لا يخشى أن يواجه بالرمحين الصغيرين اللذين يحملهما عادة فارسين اثنين. ولا ينبت القمح في هذا الجبل، وإنما يكثر فيه الشعير والعسل، ويسقط الثلج في كل فصل، غير أن السكان لا يخشون البرد، فتراهم شبه عراة طوال فصل الشتاء. حاول الأمير الشريف أن يخضع هؤلاء الجبليين ويلزمهم النائبة[33] لكنهم رفضوا ذلك بتاتاً وحاربوه باستمرار وبقوا منتصرين إلى السنة التي كان المؤلف فيها بهذه البلاد، وهي سنة 919[34]

جبل إيلالَنْ

يبتدىء هذا الجبل غرباً عند تخوم الجبل السابق، وينتهي شرقاً في ناحية جزولة، وجنوباً في سهول سوس. وسكانه نبلاء شجعان عندهم خيول كثيرة، يتحاربون فيما بينهم باستمرار من أجل منجم فضة يوجد في الجبل، ويستغله المنتصرون منهم.

---

(32) هناك إلى جانب هنكيسة الذي تبلغ قمته 2.376 متر مكان في السهل قرب مصب نهر ماسة يدعى تنكيست.

(33) النائبة هو الاسم الذي أطلقه السعديون على الضريبة التي ضربوها على جميع السكان الخاضعين لهم.

(34) لم تطل مدة عصيان المصامدة للسعديين، فإنهم ما فتئوا أن أطاعوهم وأخلصوا في مناصرتهم طوال قيام الدعوة السعدية.

ناحيةُ مرّاكُش

موقع الناحية

تبتدىء هذه الناحية غرباً من جبل نفيفة وتمتد شرقاً إلى جبل أنماي، ثم تنحدر نحو الشمال إلى قرب وادي تنسيفت لتنتهي في ملتقى هذا النهر مع وادي أسيف أنوال، حيث تبتدىء بلاد حاحا شرقاً. وتشكّل هذه الناحية شبه مثلث، وتنتج القمح وغيره من الحبوب بكثرة كاثرة. وفيها ماشية عديدة، ومياه وأنهار وعيون وفواكه كالتمر والعنب والتين والتفاح والإجاص من كل نوع. وتكاد تكون هذه الناحية كلها سهلاً كسهل اللومباردي بايطاليا، وجبالها في غاية البرد والجدب بحيث لا تنبت غير الشعير.

وسنبدأ بالقسم الغربي واصفين كل ما فيه من جبال ومدن حسب طريقتنا المألوفة.

الجمُعَة، مدينةٌ في هذه الناحية

الجمعة مدينة صغيرة تقع في السهل بالقرب من النهر المدعو شيشاوة على بعد نحو سبعة أميال من الأطلس. أسسها الأفارقة، ثم احتلها الأعراب في العصر الذي انحلت فيه سلطة الموحدين، ولم يبق من هذه المدينة غير آثار قليلة.

ولا يزرع الأعراب من أرضها إلا الجزء الذي ينتج كفاية قوتهم ويتركون سائرها بوراً. وفي العهد الذي كانت فيه هذه المدينة مسكونة كان إنتاجها السنوي مائة ألف مثقال، وعدد كوانينها ستة آلاف. وقد مررت بالقرب منها ونزلت عند أعراب وجدتهم في غاية الكرم، لكنهم غادرون بطبعهم خائنون.

إِيمَجْيَاجَنْ (بلاد إِيمَرْجَانْ)

هو حصن واقع في قمة أحد جبال الأطلس لا سور له، لكنه منيع بموقعه الطبيعي. يبعد عن المدينة السابقة بخمسة وعشرين ميلاً إلى جهة الجنوب. في الزمن الماضي كان يحكم هذا الحصن أحد نبلاء البلد، ثم انتزعه منه البدعي عمرو السياف الذي تحدثنا عنه سابقاً، وتصرف فيه بوحشية فظيعة، حيث قتل حتى الأطفال الصغار، وبقر بطون النساء الحوامل وأخرج الأجنة ومزقها إرباً على صدور الأمهات، بحيث ذاقوا مرارة الموت قبل أن يعرفوا حلاوة الحياة. وذلك عام 900، فخلا الحصن وبقي مهجوراً.

صحيح أنهم بدأوا يعمرون قسمًا من الحصن في عام 920، لكنه ليس هنا غير حدور الجبل التي يمكن حرثها وزرعها للحصول على القوت الضروري، لأنه لا يمكن حتى المرور إلى السهل خوفاً من الأعراب تارة ومن البرتغاليين أخرى.

تِينِيزّا

تينيزا مدينة واقعة في قسم الأطلس المسمى كدميوة. بناها الأفارقة الأقدمون على بعد نحو ثمانية أميال من أسيف أنوال إلى جهة الشرق. وتوجد تحت هذه المدينة سهول واسعة صالحة كلها لزراعة الحبوب، غير أن السكان لا يستطيعون حرثها بسبب إزعاج الأعراب، وإنما يزرعون منحدر

الجبل الواقع بين النهر والمدينة، وحتى عن هذا الجزء يؤدون ثلث المحصول كاتاوة للأعراب.

الجُمُعة الجديدة

هذه المدينة عبارة عن حصن واقع على شاهق. جبل تحيط به عدة جبال أخرى. وتحت هذا الحصن ينبع أسيف نوال، وهذا الاسم يعني باللغة الافريقية: نهر الضوضاء، لأنه في الواقع يسقط من الجبل بصخب شديد مجوفاً تجويفاً عميقاً على شكل جحيم (تيفولي) إحدى مدن مقاطعة روما.

وهذه المدينة حديثة بناها في أيامنا هذه أحد الأمراء، وبها زهاء ألف كانون وبقيت مدة طويلة خاضعة لأحد الطغاة من أسرة ملوك مراكش(35). ولهذا الحصن حرس قوي من المشاة والفرسان، ويجبي من محصول قرى هذا الجزء من الأطلس ومداشره ما يقل قليلاً عن عشرة آلاف مثقال. ويرتبط السكان برباط الود المتين مع الأعراب، وكثيراً ما يقدمون إليهم هدايا ذات بال، الشيء الذي طالما أهان أمراء مراكش. والناس هنا مهذبون يرتدون أجمل الملابس، والمدينة في غاية العمران مليئة بالصناع، لأنها قريبة من مراكش لا تبعد عنها إلا بخمسين ميلاً. وبين هذه الجبال بساتين بديعة تنمو فيها الفواكه بكثرة، ويزرع هنا الشعير والكتان والقنب. ويملك السكان عدداً ضخماً من الماعز، ولديهم فقهاء وقضاة، وهم فضلاً عن ذلك خشنون غيورون جداً على نسائهم.

ولما ذهبت إلى هذه المدينة نزلت عند أحد أقربائي، وقد أثقلته الديون عندما كان يتعاطى الكيمياء بمدينة فاس، فانتقل إلى السكنى هنا وأصبح بعد قليل كاتباً لحاكم المدينة.

---

(35) لعله يشير إلى إدريس الهنتاتي الذي يلقبه البرتغاليون بملك الجبل، وهو من أصل موحدي وابن عم أبي علي الناصر بن يوسف الهنتاتي ملك مراكش.

أمَزْمِيزْ

أمزميز مدينة متوسطة الكبر واقعة على صخر وعر لأحد جبال الأطلس على بعد نحو أربعة عشر ميلاً من المدينة السابقة غرباً. وهي من بناء الأقدمين، يوجد تحتها ممر يقطع به الأطلس للذهاب إلى ناحية جزولة يسمى بوريش، أي ذا الريش، لأن الثلج يسقط فيه باستمرار ويشبه الريش الأبيض الذي نراه يتطاير أحياناً. وتمتد تحت هذه المدينة كذلك سهول كبيرة تتصل بمراكش على مسافة ثلاثين ميلاً، وينبت فيها قمح جيد غليظ الحب لم أر قط أحسن منه، ودقيقه في غاية الجودة. لكن الأعراب يثقلون كاهل هذه المدينة بالاتاوات، وكذلك يفعل بها أمير مراكش، حتى إن معظم البادية غدا غير مأهول. وأخذ السكان أيضاً يغادرون المدينة، وقد فقدوا أموالهم، ولو أنهم يملكون كثيراً من الأراضي والحبوب.

لم أنزل عند أحد داخل المدينة، وإنما بقيت بجانبها في خيمة سيدي كانون، وهو صالح يحظى هنا بثقة عظيمة.

تُومكْلاَسَتْ

تتكون تومكلاست من ثلاثة قصور صغيرة في السهل، على بعد أربعة عشر ميلاً من الأطلس، ونحو ثلاثين ميلاً من مراكش. ويحيط بهذه القصور الثلاثة النخيل والكروم والأشجار المثمرة. والبادية المحيطة بها جميلة وصالحة جداً للحبوب، غير أنه لا يمكن زرعها بسبب تعسف الأعراب، وتكاد تكون هذه القصور الصغيرة غير مسكونة، إذ لم يبق بها سوى اثنتي عشرة أو خمس عشرة أسرة تنتمي إلى الصالح المذكور، ويمكنها بفضل حمايته أن تحرث بعض القطع من الأرض، دون أن تؤدي شيئاً إلى الأعراب. وهؤلاء يقيمون في بيوت تلك الأسر إذا ما جاءوا إلى تومكلاست، وهي بيوت ضيقة غير ملائمة أشبه باصطبلات الحمير منها

بمساكن الناس، لأنها مليئة بالبراغيث والبق وغيرها من الحشرات المؤذية. وماء هذا المكان ملح أجاج.

ذهبت إلى تومكلاست، وأقمت فيها مع سيدي يحيى الذي أوفده ملك البرتغال ليجبي الخراج باسمه، وعيّنه قائداً على بادية آسفي(36).

مدينةُ تَشْرَافْتْ

تشرافت مدينة صغيرة على ضفة أسيف المال، تبعد عن مراكش بأربعة عشر ميلاً وعن الأطلس بنحو عشرين ميلاً، وتحيط بها بساتين كثيرة مغروسة بالنخيل، وأرضها صالحة للقمح. جميع السكان بستانيون، ويفيض النهر فيتلف جميع البساتين، ثم يأتي الأعراب في الصيف فيأكلون كل ما يجدونه من الطيبات.

ذهبت إلى هذا المكان ولم أمكث فيه إلا بمقدار تقديم علف الشعير لخيولنا، وقد نجوت ذلك اليوم بأعجوبة من فتك الأعراب بي لحسن حظي.

مدينة مَرَّاكُش العُظْمَى

تعد مراكش من كبريات عواصم العالم وأشرف مدن إفريقيا. تقع في سهل فسيح بعيدة عن الأطلس بنحو أربعة عشر ميلاً. بناها يوسف بن تاشفين أمير لمتونة حين دخل مع قبيلته إلى هذه الناحية، واتخذها عاصمة لملكه بالقرب من طريق أغمات التي يقطع منه الأطلس للذهاب إلى

(36) كان لقاء المؤلف بأبي زكرياء يحيى بن محمد بن تعفوفت في صيف عام 1514/920، وسينبئنا المؤلف فيما بعد أثناء حديثه عن مدينة آسفي أنه تحدّث مع ابن تعفوفت باسم ملك فاس الوطاسي، والأمير الشريف السعدي، وأنه كان مع يحيى 500 فارس برتغالي وأكثر من 2000 من الفرسان الأعراب.

الصحراء موطن هذه القبيلة. وقد بنيت مراكش بحسب تصاميم لمهندسين ممتازين من طرف صناع ماهرين، في وسط إقليم عظيم. وفي حياة علي بن يوسف بن تاشفين كان بها ما ينيف على مائة ألف كانون، وأربعة وعشرون باباً، وسور في غاية الجمال والقوة مبني بالطين المدكوك بالجير والرمل الغليظ الممزوج بالحصى. ويمر على بعد ستة أميال منها نهر كبير يدعى تنسيفت.

في هذه المدينة مساجد ومدارس وحمامات وفنادق على الشكل الإفريقي. من هذه المساجد ما بناه ملوك لمتونة، ومنها ما بناه من خلفهم من ملوك الموحدين. وفي وسط المدينة جامع في غاية الحسن بناه علي بن يوسف أول ملوك مراكش يسمى جامع علي بن يوسف. وقد هدمه عبد المومن من الملوك الذين جاءوا بعد اللمتونيين وأعاد بناءه لغرض واحد، هو أن يمحو اسم علي ويجعل اسمه هو مكانه، فذهب عمله سدى، لأنه لا يجري على ألسنة الناس إلى الآن إلا الاسم القديم (جامع ابن يوسف).

ويوجد أيضاً قرب القصبة جامع آخر بناه عبد المومن هذا، وهو ثاني ملوك الدولة التي خلفت الدولة (اللمتونية) السابقة بعد أن ثارت عليها. وقد وسّع هذا الجامع بعد ذلك يعقوب المنصور حفيد عبد المومن، وزاد فيه خمسين ذراعاً في كل جهة، وزينه بعدة أعمدة جلبها من اسبانيا، وبنى تحته خزان ماء بأقواس على جميع مساحة الجامع، وأمر بأن يغطى الجامع بسقف من الرصاص تحيط به قنوات ضيقة بحيث تصرف جميع المياه الساقطة عليه إلى الخزان. وشيّد كذلك صومعة بالحجر الضخم المنحوت الشبيه بحجر برج الكوليزي بروما، يبلغ محيط دائرة هذه الصومعة مائة ذراع توسكاني، وهي أعلى من برج أزينيلي في بلونية.

يصعد إلى هذه الصومعة بواسطة مدرج مستوٍ عرضه تسعة أشبار، وسمك جدارها الخارجي عشرة أشبار وسمك الجدار الداخلي خمسة أشبار. وفي

داخل الصومعة سبع غرف واسعة في غاية الجمال، بعضها فوق بعض. وهذا المدرج مضاء جداً من أسفل إلى أعلى بواسطة كوى رائعة في غاية الإحكام والانتظام. هي في الداخل أعرض منها في الخارج. وعندما يصل الإنسان إلى أعلى الصومعة يجد بريجاً هرمي القمة. محيطه خمسة وعشرون ذراعاً بحجم الصومعة تقريباً، وعلوه رمحان كبيران. يشتمل البريج على ثلاث طبقات مقوسة يصعد إليها بواسطة درج من الخشب وقد ركِّز في أعلى هذا الهرم بإحكام تام عمود نضدت فيه ثلاث تفاحات فضية، السفلى أضخم من الوسطى، وهذه أضخم من العليا، وتزن كلها ثلاثة وتسعين رطلاً ايطالياً[(36م)] وعندما يوجد المرء في الطبقة العليا من البريج عليه أن يدير رأسه إلى جميع الجهات كما لو كان على مرقب صاري السفينة. وإذا نظر إلى أسفل لم ير الرجال مهما طالت قامتهم إلا كأطفال عمرهم سنة واحدة. ويظهر جلياً جبل آسفي البعيد عن مراكش بمائة وثلاثين ميلاً، كما تظهر أيضاً السهول المحيطة بالمدينة على مسافة نحو خمسين ميلاً.

والجامع المذكور غير مزخرف كثيراً من الداخل، ومع ذلك فإن سقفه من الخشب مثل كثير من سقوف الكنائس التي رأيناها في ايطاليا. والواقع أن هذا الجامع من أبهى معابد العالم، لكنه اليوم مهجور لأن سكان مراكش تعودوا ألا يقيموا فيه غير صلاة الجمعة، ولأن المدينة قليلة السكان جداً لا سيما في الحي المجاور لهذا الجامع. وحتى الوصول إليه يتعذر كثيراً بسبب أنقاض الخرائب المتراكمة في الطريق. وكان تحت رواقه قديماً نحو مائة دكان للكتبيين لم يبق منها اليوم ولو دكان واحد.

إن ثلثي هذه المدينة المسكينة غير مسكون، والأراضي الفارغة فيها غرست بالنخيل والكروم والأشجار المثمرة لأن السكان لا يستطيعون أن يملكوا ولو شبراً واحداً من الأرض الصالحة للفلاحة خارج الأسوار لكثرة

(36م) أي نحو 30 كيلو غرام ونصف كيلو، باعتبار أن الرطل الايطالي 330 غرام بالتقريب.

تعسف الأعراب. ويمكن أن نقول حقيقة، إن هذه المدينة شاخت قبل الأوان، ففي الوقت الذي يحرر المؤلف هذا الكتاب لم يمض على تأسيس مراكش سوى خمسمائة سنة، إذ بناها يوسف بن تاشفين عام 424(37). وخلف يوسف بعد موته ابنه علي، وخلف علياً ابنه ابراهيم، الذي ظهر في عصره إمام يدعى المهدي، وقد ولد ونشأ في هذه الجبال، فثار وجمع جنوداً كثيرين حارب بهم ابراهيم(38).

اضطر الملك ابراهيم إلى الخروج مع جنده لملاقاة جيش المهدي، وجرت معركة انهزم الملك على أثرها لسوء طالعه، وقطعت أمامه الطرق المؤدية إلى مراكش، فعدل عن الرجوع إليها وفرّ نحو الشرق في قليل من الجند الذي بقي معه متبعاً سفوح منحدرات الأطلس. ولم يكتف المهدي بذلك بل كلّف أحد أتباعه المدعو عبد المومن بمطاردة الملك وأعطاه نصف الجيش، وبقي هو مع نصف الجيش الآخر يحاصر مدينة مراكش. ولم يجد الملك وسيلة للنجاة من عدوه ولا لمدافعته إلى أن وصل إلى مدينة وهران. فظنّ أنه سيتحصن بها أحسن ما يكون مع باقي جنده، لكن عبد المومن لم يلبث أن وصل وخيّم أمام المدينة، أشعر السكان الملك حينئذ بأنهم لا يريدون أن يصيبهم ضرر بسببه، وفقد الملك البائس كل أمل في النجاة، فأردف امرأته على فرسه وخرج متنكراً من أحد أبواب المدينة، وقاد فرسه نحو صخرة عالية مشرفة على البحر، ثم همز دابته وارتمى متدحرجاً من صخرة إلى صخرة. وعثر على الثلاثة ميتين مهشمين فوق صخور البحر فدفنوا في حالة مؤسفة.

---

(37) يظهر أنه وقع هنا أيضاً خلط في الأرقام، فتأسيس مراكش كان عام 454هـ / 1062م.

(38) الذي خلف علياً هو ابنه تاشفين الذي حارب الموحدين طوال مدة ولايته سنتين وشهراً ونصف شهر إلى أن هلك في قتالهم خارج وهران في 27 رمضان عام 23/539 مارس 1145م. وكان المهدي قد مات عام 524، فخلفه تلميذه عبد المومن بن علي.

رجع عبد المومن منتصراً إلى مراكش، فشاء حظه السعيد أن يجد المهدي قد مات، وانتخب ملكاً مكانه من طرف المريدين الأربعين والأمناء العشرة[39] وهو عرف جديد في الشريعة المحمدية. شدد عبد المومن الحصار على مراكش سنة كاملة حتى دخلها عنوة. وأخذ الطفل إسحاق بن ابراهيم الوحيد الذي بقي على قيد الحياة وذبحه بيده بكل شراسة، وفتك بمعظم الجند الموجود هناك، وقضى على حياة قسم كبير من سكان مراكش. وتوارثت أسرة عبد المومن الملك من عام 516 إلى عام 668 حيث خلعهم ملوك بني مرين. فاعتبروا بتقلبات الدهر! وقد احتفظت هذه الأسرة بالملك إلى عام 785، فانقرضت بدورها، ودخلت مراكش تحت حكم بعض الأمراء من أبناء جبل دَرَن المجاور للمدينة[40].

ولم يضر بمراكش من هذه التغييرات في الحكم أكثر مما أضرّ بها بنو مرين الذين استقروا بفاس وأقاموا فيها بلاط ملكهم وأرسلوا نائباً عنهم إلى مراكش. فأصبحت فاس عاصمة موريطانيا وجميع المنطقة الغربية. وقد تحدثنا عن المسألة بكيفية أشمل في المختصر الذي وضعناه لتاريخ الإسلام.

وقد ابتعدنا قليلاً عن موضوعنا، وآن الأوان للرجوع إلى وصف مراكش، فهذه المدينة قصبة كبيرة كأنها مدينة، ذات أسوار سميكة متينة فتحت فيها أبواب في غاية الحسن، قوائمها وأعاليها من الحجر المنحوت، ومصاريعها مصفحة بالحديد.

---

(39) المعروف في كتب التاريخ أن أول من بايع عبد المومن بن علي العشرة أصحاب المهدي، ثم الخمسون من أشياخ الموحدين (لا الأربعون كما هنا).

انظر: ترتيب المهدي لقومه، أهل الدار، وأهل الجماعة، وأهل الساقة، وأهل خمسين، الخ. عند ابن الخطيب في رقم الحلل، ص 57. وانظر في موضوع نشأة دولة الموحدين عموماً أ. الناصري، الاستقصا، 2: 71 فما بعدها.

(40) في الترجمة الفرنسية (الجبل القديم) وهو بدون شك تحريف (لجبل درن) الذي هو الأطلس الكبير.

وفي وسط القصبة جامع في غاية البهاء تعلوه صومعة متناهية الجمال كذلك، في أعلاها رُكِّـز عمود من حديد فيه ثلاث تفاحات من ذهب تزن مائة وثلاثين ألف مثقال افريقي[41]، أكبرها السفلى وأصغرها العليا. وقد أراد كثير من الملوك أن يزيلوا هذه التفاحات ويسكوها نقوداً عندما اشتدت حاجتهم إلى المال، ولكنهم في كل مرة تحدث لهم حادثة غريبة تلزمهم بتركها في محلها حتى إنهم تطيروا من مسها، وتقول العامة ان التفاحات وضعت هناك تحت تأثير أحد الكواكب، بحيث يستحيل ان ينزعها أحد من مكانها، كما تقول بأن من ركّز تلك التفاحات قرأ عليها عزائم سحرية ألزمت بعض الأرواح برصدها على الدوام.

وفي أيامنا هذه أراد ملك مراكش الذي كان عليه أن يصد هجمات المسيحيين البرتغاليين ولا يبالي بسذاجة العامة، أراد أن ينزع هذه الكـرات، لكن السكان منعوه من ذلك بدعوى أنها تمثل أشرف حلية لمراكش. ونقرأ في كتب التاريخ أن امرأة المنصور بعد أن بنى زوجها هذا الجامع، أرادت أن يكون لها أيضاً نصيب في تزيينه، فباعت حليها من الذهب والفضة والجوهر، الخ. الذي كان الملك أعطاهـا إياه عندما تزوجها، وأمرت بصنع التفاحات الذهبية الثلاث التي تعطي أبهى منظر لرأس هذه الصومعة كما ذكرنا.

وفي القصبة أيضاً مدرسة في غاية الحسن، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة وسكنى مختلف الطلبة، تحتوي على ثلاثين حجرة، وقاعة في الطبقة الأرضية كانت تعطى فيها الدروس فيما سبق. وكان كل طالب

---

(41) ظنّ المعلق في النسخة الفرنسية أن صفراً قد أقحم هنا، والصواب أن تقرأ 13,000 مثقال أي ما يساوي 60 كيلوغراماً من الذهب؛ لكن هناك روايات تاريخية أخرى تؤكد أن تفافيح منار جامع أشبيلية موّهت بمائة ألف دينار ذهباً، فيمكن إذاً أن تكون تفافيح جامع المنصور بالقصبة السلطانية بمراكش موهت بمائة وثلاثين ألف دينار أو مثقال ذهباً.

مقبول في هذه المدرسة ينفق عليه ويكسى مرة في السنة، ويتقاضى الأساتذة مرتباً قدره مائة أو مائتا مثقال حسب نوع الدروس المطوقين بإلقائها. ولم يكن يقبل في هذه المدرسة إلا من كان يعرف مبادىء العلوم معرفة تامة. وهذه البناية مزخرفة بالفسيفساء البديعة، وحيث لا توجد فسيفساء تغطى الجدران الداخلية بزليج من الطين المشوي اللماع المقطع على شكل أوراق رقيقة أو بمواد أخرى بدل الفسيفساء، وذلك على الأخص في قاعة الدروس والممرات المسقوفة. وفناء المدرسة المكشوف كله مفروش بالزليج اللماع كالذي يستعمل في اسبانيا. وفي وسط المدرسة فسقية (خصة) منحوتة من المرمر الأبيض في غاية الجمال، لكنها منخفضة على عادة الأفارقة. وكان بالمدرسة قديماً حسبما سمعت عدد كثير من الطلبة، لكنهم اليوم لا يتجاوزون خمسة طلاب مع أستاذ جهله بالفقه فاحش، ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالآداب وأقل من ذلك بعلوم أخرى.

ولما ذهبت إلى مراكش كانت لي علاقات ودية مع قاضٍ غني عارف بتاريخ افريقيا معرفة تامة، إلا أنه قاصر في العلوم الفقهية، حصل على هذا المنصب بفضل التجربة التي اكتسبها مدة أربعين سنة قضاها كعدل مقرب إلى السلطان. أما الأشخاص الآخرون الذين كانوا يشغلون الوظائف العامة فظهر لي ضيق أفق تفكيرهم حسب التجربة التي حصلت عليها أثناء وجودي عند هذا الأمير في البادية لما زرت مراكش للمرة الأولى.

وفي القصبة أيضاً أحد عشر أو اثنا عشر قصراً حصيناً في غاية الجودة، بناء وزخرفة من تشييد المنصور. كان يقيم في القصر الأول المواجه حرس الرماة المسيحيون، وهم في العادة خمسمائة، يسيرون دائماً أمام الملك عندما ينتقل من مكان إلى آخر. ويسكن في القصر الذي يليه نفس العدد من الرماة. وعلى بعد قليل من هذا القصر يوجد مسكن العمال والكتّاب الذي يسمى بالعربية دار القضايا. ويسمى القصر الثالث قصر النصر، توضع فيه الأسلحة وذخائر المدينة. وفي قصر آخر بعيد قليلاً كان يسكن رئيس

اصطبلات الملك. وبالقرب من هذا القصر ثلاثة اصطبلات مقوسة السقوف يسع كل واحد منها ثلاثمائة فرس. وهناك اصطبلان آخران أحدهما للبغال يضم مائة بغل. والثاني للحجرات والبغلات التي يركبها الملك. وبعد هذه الاصطبلات كان هريان مبنيان كذلك بسقف مقوس، في كل هري طبقة علوية. يوضع العلف في الطبقة الأرضية، ويخزن في إحدى الطبقتين العلويتين الشعير للخيل. ويخزن القمح في الأخرى. وتسع كل من الطبقتين أكثر من ثلاثين ألف كيل (رودجي) من الحبوب.

وقد أعدت طاقات في سقف هاتين البنايتين يرقى إليها بواسطة مدرج من الحجر تصعد فيه الدواب محمّلة إلى هذا السطح حيث يكال الحب ثم يصب من هذه الطاقات. وإذا أريد إخراج الحب اكتفي بفتح الثقب الموجودة في أسفل الهري. وهكذا يمكن أخذ الحب من هذين الهريين ووضعه فيهما دون عناء.

ويوجد أيضاً بعيداً من هناك قصر جميل آخر كان يستعمل مدرسة لأبناء الملك وأبناء أسرته، ترى فيه قاعة مربعة في غاية الحسن، يحيط بها ممر مع نوافذ رائعة ذات زجاج ملّون. وحول القاعة خزانات كثيرة مصنوعة من الخشب المزخرف بنقوش مذهّبة، طليت مختلف أجزائها بطلاء الذهب وباللازوردي الرفيع.

وكان يوجد قصر آخر معد كذلك لحرس من رجال الأسلحة. كما كان الملك يعقد جلساته العامة في قصر آخر كبير جداً، بينما يقيم السفراء عندما كان الملك يستقبلهم في قصر آخر، وكذلك الكتاب. وخصّص قصر آخر لنساء الملك ووصفائهن وإمائهن. وبالقرب من هذا القصر كان قصر آخر مقسّم إلى عدة مساكن يقيم بها الذين شبوا عن الطوق من أبناء الملك.

وعلى مسافة قريبة من هناك كان يوجد على طول سور القصبة المشرف على البادية بستان في غاية الجمال والسعة مليء بجميع أنواع الأشجار

والأزهار، فيه حوض مربع من رخام، عمقه سبعة أشبار، في وسطه عمود يحمل أسداً منحوتاً من رخام بفن عجيب يخرج من فيه ماء غزير نمير يتدفق في الحوض. وفي كل زاوية من زواياه الأربع ركب فهد من المرمر الأبيض المجزع طبيعياً بنقط خضر مستديرة. ولا يوجد هذا المرمر في أي مكان آخر غير بعض الأماكن في الأطلس على بعد خمسين ومائة ميل من مراكش.

وكان بالقرب من البستان معرض وحوش يحتوي على عدد من الحيوانات الوحشية كالزرافات والفيلة والأسود والأيول المختلفة، إلا أن معرض الأسود مفصول عن معرض الحيوانات الأخرى، ويسمى حتى اليوم معرض الأسود.

ورغم قلة آثار الماضي الباقية بهذه المدينة فإنها تدل على الفخامة والعظمة السائدتين في عهد المنصور. ولم يبق مسكوناً في أيامنا هذه سوى قصر الأسرة الملكية، وقصر حرس الرماة الذي يقيم فيه الحجاب والمكلفون ببغال الأمير الحالي، أما سائر القصور فيعشش فيها الحمام والبوم والغربان وما شابهها. والبستان الذي كان من قبل في غاية البهجة أصبح اليوم مزبلة للمدينة. والقصر الذي كانت فيه خزانة الكتب استعمل جناح منه للدجاج وآخر للحمام. وأصبحت الخزانات التي كانت توضع فيها الكتب أقفاصاً لهذه الطيور.

لقد كان المنصور (الموحدي) حقاً ملكاً عظيمًا يشمل نفوذه المنطقة الممتدة من ماسة إلى طرابلس الغرب التي هي أشرف مناطق افريقيا. ولم يكن بالإمكان قطع مملكته في أقل من تسعين يوماً طولاً، وخمسة عشر يوماً عرضاً. وكان يملك أيضاً في أوربا كل إقليم الأندلس المعروف بغرناطة. الممتد من جزيرة طريف إلى إقليم أركون شاملاً قسمًا من قشتالة والبرتغال. ولم يملك المنصور وحده هذه الامبراطورية العظيمة، وإنما ملكها جده عبد المومن وأبوه يوسف، وهو يعقوب المنصور، وابنه محمد الناصر.

وقد هزم الناصر في مملكة بلنسية، وفقد ستين ألف رجل من بين الفرسان والمشاة، واستطاع أن ينجو بنفسه من الكارثة ويدخل إلى مراكش[42] وتشجع المسيحيون بعد هذا الانتصار فتابعوا عملهم واسترجعوا في ظرف ثلاثين سنة بلنسية ودانية ولقنت ومرسية وقرطاجنة وقرطبة وأشبيلية وجيان وعبيدة. وعلى أثر هذه الهزيمة النكراء والمذبحة الشنيعة، أخذت أسرة ملوك مراكش في الانحلال. ولما مات محمد الناصر ترك ولدين كبيرين أراد كل منهما أن يستبد بالملك، فكان ذلك سبب تقاتلهما ودخول بني مرين إلى مملكة فاس ونواحيها، بينما ثارت قبيلة بني عبد الواد أيضاً واستولت على السلطة في تلمسان وطردت الوالي المعين من لدن تونس واختارت الملك الذي أرادته، وهكذا كانت نهاية عقب المنصور، وآلت مملكة مراكش بعد ذلك إلى يعقوب بن عبد الحق أول ملوك بني مرين.

وخلاصة القول ان مدينة مراكش فقدت شهرتها القديمة وغدت مضطربة على الدوام بسبب الأعراب كلما امتنع السكان من إرضاء أقل رغباتهم.

وما قلته الآن عن مراكش رأيت بعضه عياناً في الواقع، وقرأته أيضاً في تاريخ مراكش لابن عبد الملك المراكشي[43]، وهو كتاب يقع في سبع مجلدات، وأثبته أيضاً في المختصر الذي كتبته لتاريخ الإسلام.

مدينةُ أغْمَاتْ

أغمات مدينة واقعة على بعد نحو أربعة وعشرين ميلاً من مراكش، مبنية على منحدر جبل من جبال الأطلس ومشتملة على ستة آلاف كانون.

---

(42) الإشارة إلى وقعة العقاب المشؤومة عام 1212/609.

(43) يشير إلى كتاب الذيل والتكملة لمحمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى عام 1303/703. طبعت بعض أجزائه في بيروت بتحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بنشريفة.

كانت أيام الموحدين متحضرة جداً وتدعى مراكش الثانية. وهي محاطة بالبساتين البديعة وحقول الكروم، بعضها في الجبل وبعضها في السهل. ويجري تحت المدينة نهر جميل يأتي من الأطلس ويصب بعد ذلك في تنسيفت، والبادية فيما بين هذين النهرين خصيبة جيدة التربة. يقال إنها تعطي أحياناً خمسين ضعف ما يزرع فيها. وماء النهر أبيض على الدوام، وتشبه مدينة أغمات وواديها مدينة نارني ونهر نيرا في أومبري.

ويؤكدون أن ماء نهر أغمات يصل إلى مراكش، يؤخذ بالقرب من أغمات ويتابع جريانه في قنوات تحت الأرض. وقد أمر عدد من الملوك بالبحث لمعرفة من أين يأتي هذا الماء إلى مراكش، فدخل بعض الأشخاص إلى القناة من النقطة التي يصل إليها الماء وفي أيديهم مشاعل يستضيئون بها. ولما قطعوا بعض المسافة في القناة أحسوا بهبوب ريح شديدة أطفأت مشاعلهم ولها من القوة ما خيل إليهم أنه لا عهد لهم بمثلها. وتعرضوا أكثر من مرة لخطر عدم إمكان الرجوع إلى الوراء، لأنه بالإضافة إلى ذلك كان مجرى الماء مسدوداً بكتل حجرية ضخمة ينكسر عليها الماء ليمر من هذه الجهة وتلك، وأخيراً وجدوا حفراً عميقة جداً حتى إنهم اضطروا إلى ترك محاولتهم، ولم يجسر أحد بعد ذلك على استيناف هذا العمل.

ويقول المؤرخون ان الملك الذي أسس مراكش توقّع بفضل معطيات بعض المنجمين أنه سيخوض معارك كثيرة، فأنجز بواسطة الفن السحري جميع هذه العوائق الطارئة في تلك القناة، حتى لا يعرف أي عدو من أين يأتي الماء إلى المدينة فلا يستطيع أن يقطعه عنها.

ويوجد تحت أغمات على طول الوادي ممر يقطع الأطلس إلى إقليم جزولة. غير أن هذه المدينة أصبحت اليوم مأوى للذئاب والثعالب والغربان وما شاكلها من الطيور والوحوش. ولم يعد يسكن الحصن في هذه الأيام سوى ناسك مع مائة من مريديه الذين كانت لهم جميعاً خيول في

غاية البهاء. وقد عملوا على أن يعترف بهم كحاكمين لكنهم لم يجدوا مَنْ يحكمونه.

أقمت في منزل هذا الناسك قرابة ثمانية أيام، وكان أخوه من أقرب أصدقائي لأنه كان طالباً مقيمًا بمدرسة مجاورة لمنزلي بفاس فكنا نحضر معاً مجلساً في عقائد النسفي.

أغْمايْ

أغماي[44] بلدة صغيرة واقعة في منحدرات الجبل نحو السهل، على بعد نحو أربعين ميلاً من مراكش في الطريق الذاهبة إلى فاس المحاذية لسفوح الجبل. ويمر نهر أغمات على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من هذه البلدة. والبادية فيما بين النهر وأغماي ممتازة كبادية أغمات تماماً. وأمير مراكش هو الذي يحكم المنطقة الواقعة بين مراكش ونهر أغمات، بينما يحكم أمير أغماي المنطقة الممتدة من مراكش إلى أغماي، وهو شاب شجاع طالما حارب أمير مراكش والأعراب، وحكم أيضاً عدة قبائل في جبال الأطلس، وكان كريماً مقداماً قتل أحد أعمامه وأعلن نفسه حاكمًا لأغماي ولما يبلغ السادسة عشرة من عمره. ثم لم يلبث أن واتته الفرصة لإظهار كفايته، عندما انضم عدد عديد من الأعراب إلى ثلاثمائة فارس برتغالي وقاموا على حين غفلة بغارة حتى وصلوا إلى أبواب المدينة، فدافع هذا الشاب في مائة من الفرسان وعدد من الأعراب بشجاعة فائقة حتى إن عدداً كثيراً من الأعراب المهاجيمن سقطوا صرعى، ولم يعد ولو نصراني واحد إلى البرتغال، وهذه الهزيمة ناتجة عن عدم معرفتهم للبلاد، وكان ذلك عام 920.

---

(44) تقع أغماي على واد تساوت أحد روافد أم الربيع، وتسمى اليوم: سيدي رحال، باسم الشيخ رحال الكوش (ت. حوالي 1543/950) الذي أسس زاويته بها، وما يزال اسم أغماي يطلق على مكان قريب من هذه الزاوية، والبقعة مقدسة من طرف اليهود أيضاً لارتباط أحد أحبارهم بها.

وقد طلب الملك من حاكم أغماي أن يؤدي له اتاوة فأبى، وأرسل له الملك فرقة من الجيش فيها كثير من الفرسان والرماة، ولما عزم حاكم أغماي على الدفاع عن نفسه وخرج من مدينته لخوض المعركة أصابته رصاصة بندقية في بطنه وخرّ ميتاً لحينه. فخضعت أغماي للملك وسلّمت أرملة الأمير الهالك إلى قائد جيش الملك عدداً من الأعيان فأسرهم وصفدهم بالحديد. وترك القائد وراءه والياً على أغماي وانصرف، وذلك عام 921.

جبل نفيفة

الآن وقد تكلمنا على ناحية مراكش بكيفية تبدو لنا كافية، سنتحدث حسب الطريقة المتبعة عن أكثر جبالها شهرة مبتدئين بجبل نفيفة الذي يحدد غرباً بداية هذه الناحية فاصلاً بينها وبين حاحا. وهو آهل بالسكان جداً، ويزرع الشعير في قمته فينمو بكثرة رغم أن الثلج كثيراً ما يتساقط هناك. وسكان هذا الجبل متوحشون لا تربية لهم، إذا رأوا حضرياً عجبوا منه ومن لباسه، وذلك ما فعلوه خلال اليومين اللذين قضيتهما عندهم. وقد وسخوا البرنس الأبيض الذي كنت ألبسه على عادة طلبة هذه البلاد، فكل من تكلمت معه من الأعيان لمس برنسي لينظره حتى أصبح في ظرف يومين كأنه خرقة مطبخ. وألزمني أحد هؤلاء الأعيان أن أبادله السيف الذي كنت أتقلده، وهو يساوي في فاس أكثر من مثقال ونصف. بفرسه الذي يساوي عشرة مثاقيل، وذلك لأن التجار لا يأتون أبداً إلى هذه المنطقة بسبب ما يقع فيها من اغتيالات، ويكثر فيها الماعز والعسل وزيت الهرجان، ومن هنا يبدأ ظهور الهرجان.

جبل سَمِدْ

يبتدىء هذا الجبل من تخوم الجبل السابق مفصولاً عنه بوادي شيشاوة، ويمتد شرقاً على مسافة نحو عشرين ميلاً. وسكانه أنذال خشنون

فقراء. وتوجد بهذا الجبل عيون كثيرة والثلج طوال السنة. وليس هناك من يحكم بين الناس بالعدل ولا من يتقيد به، وربما تقاضوا إلى أحد المسافرين الذين يتوسمون فيه الكفاية.

وقد قضيت ليلة بهذا الجبل في بيت ناسك يجله هؤلاء الجبليون كثيراً، واضطررت إلى أكل طعام البلاد الذي هو عبارة عن دقيق الشعير المنقوع في الماء المغلي مع لحم تيس مسن تدل صلابته على أنه أناف على سبع سنوات، كما اضطررت إلى المبيت على الأرض العارية. ولما أفقت في الصباح الباكر أخذت أتهيأ للانصراف كما لو كنت أجهل عادة البلاد. لكن أحاط بي أكثر من خمسين رجلاً وأخذوا يعرضون علي قضاياهم كأنني قاض أو حاكم. فأجبتهم بأنني لا أعرف شيئاً من قضاياهم. وحينئذ جاءني ثلاثة من أعيانهم وقال لي أحدهم: «لعلك تجهل يا سيدي عادتنا، وهي أنه لا ينفصل غريب عنا قبل أن يدرس قضايانا ويقضي فيها». وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى أخذوا فرسي واضطررت إلى تحمّل تسعة أيام مرّة وتسع ليال لا تقل عنها مرارة، سواء في المأكل أو المبيت. ففضلاً عن كثرة القضايا لم يكن هناك أحد يعرف كتابة كلمة واحدة، وكان علي أن أقوم في آن واحد بوظيف قاض وكاتب عدل. وبعد ثمانية أيام قالوا لي: انهم سيقدمون لي في صباح الغد هدية جميلة، فطالت ليلتي كأنها ألف سنة مؤملاً في نفسي الحصول على عدد مهم من الدنانير. ولما بزغ الفجر أجلسوني تحت رواق مسجد، وبعد أداء الصلاة قدّم إلي كل واحد هدية وقبّل رأسي، حمل إلي أحدهم ديكاً، وآخر جوزاً، وثالث ضفيرتين أو ثلاثاً من البصل، ورابع ضفائر من الثوم، وأعطاني أكرمهم تيساً. ولما لم أجد من يشتري مني كل ذلك لعدم وجود نقود مسكوكة في البلاد تركته لصاحب البيت، لأني لم أرد حمله معي، فكان ذلك ثمن تعبي وغمي تلك الأيام. نعم صحبني خمسون من هؤلاء الرجال الغلاظ طوال قسم من الطريق الذي لم يكن مأموناً.

جبل شِيشَاوَة

يأتي جبل شيشاوة بعد الجبل السابق، وينبع منه نهر يحمل اسمه[45]، سكان هذا الجبل متوحشون جداً ومحاربون لجيرانهم على الدوام. يستعملون كأسلحة أحجاراً يقذفونها بالمقاليع، ويعيشون على أكل الشعير والعسل ولحم الماعز. ويختلط بهم كثير من اليهود الذين يزاولون في هذه الجبال مهنة الحدادة ويصنعون المجارف والمناجل وصفائح الخيل، كما يخدمون في البناء الذي لا يفيدهم فائدة تذكر، لأن الجدران تقام بالآجر النيء والطين، وتغطى المنازل بالقش، إذ لا يوجد جير ولا قرميد ولا آجر. وجميع المنازل مبنية بشكل واحد في الجبال التي تحدثنا عنها آنفاً.

ولسكان هذا الجبل عدد من الفقهاء يفتونهم في بعض أمورهم، عرفت الكثير منهم عندما كانوا يدرسون في فاس، فاستقبلوني أحسن استقبال ووعدوني مراراً بأن يصحبوني.

جبل سَكْسِيوَة

سكسيوة جبل موحش جداً، شديد الارتفاع والبرد، تغطيه غابات كثيرة، ولا يزول منه الثلج أبداً. تعود سكانه أن يضعوا على رؤوسهم قلنسوات بيضاء. وفيه عدد كثير من العيون، ومنه ينبع أسيف نوال[46]، كما أن فيه كثيراً من الكهوف العريضة العميقة التي جرت العادة أن تخبأ فيها الماشية ثلاثة أشهر من كل سنة: نونبر ودجنبر ويناير، فتعلف الحشيش الجاف وأوراق بعض الأشجار العظيمة. تجلب الأقوات من الجبال المجاورة لأنه لا ينبت شيء في هذا المكان، ويكثر الجبن الطري والزبد في فصلي الربيع والصيف.

---

(45) كتب اسم هذا الجبل في الترجمة الفرنسية سوساوة، ويظهر أن المراد شيشاوة ولو أن واد شيشاوة لم يعد يحمل هذا الاسم إلا في مجراه الأدنى.

(46) هو واد ايمينتانوت الذي ينبع من جبل سكسيوة.

يعمر الرجال طويلاً فيعيشون عادة ثمانين أو تسعين أو مائة سنة، وشيخوختهم قوية خالية بطبيعتها من العلل التي تحملها معها السنون، فهم يسيرون وراء بهائمهم إلى أن يدركهم الموت. لا يرون الأجانب مطلقاً، ولا ينتعلون وإنما يضعون تحت أقدامهم شبه نعال تقيهم الحجارة، ويلفون سيقانهم بخرق مشدودة بخيوط تحميها من الثلج.

جبل ومدينة تِينْمَلْ

تينمل جبل عال جداً شديد البرودة، يزدحم السكان فيه من كل جهة. وعلى قمته مدينة تحمل اسمه، وهي عامرة كذلك ومزدانة بمسجد جميل، ويخترقها نهار جار[47] وفيها دفن الداعية المهدي، وتلميذه عبد المومن. وسكان البلد من شر الخلق وأرذل النسل، يتبجحون بأنهم علماء، لأنهم درسوا جميعاً عقيدة هذا الداعية الذي يعدّ من أهل البدع، وحينما يرون أجنبياً قادماً عندهم يريدون أن يناقشوه. وهم يرتدون ثياباً رديئة لعدم وجود أي تاجر أجنبي في هذه البلاد، ويعيشون عيشة وحشية فيما يخص طريقتهم في الحكم، إلا أنه يوجد فقيه على رأس مجلسهم. ويأكلون عادة الشعير وزيت الزيتون، وعندهم كمية كبيرة من الجوز وتفاح الصنوبر.

جبل كُذْمِيوَة

يبتدىء جبل كدميوة من قمة جبل سمد غرباً، ويمتد شرقاً على مسافة نحو خمسة وعشرين ميلاً إلى أن يصل إلى أمزميز. وسكانه قرويون فقراء خاضعون للعرب ولرئيس الجمعة الجديدة، لأن مساكنهم مجاورة للسهل الذي ينظر إلى الجنوب حيث يوجد جبل تينمل. وتكثر على حدود الجبل أشجار الزيتون وحقول الشعير، كما تبدو في أعلى الجبال أيضاً غابات كبيرة وعيون عديدة.

---

(47) هو واد نفيس.

جبل هَنْتَاتَة

لم تر عيني قط أعلى من هذا الجبل الذي يبتدىء غرباً من تخوم كدميوة، ويمتد على مسافة نحو خمسة وأربعين ميلاً إلى جبل أديمي. يسكن هذا الجبل رجال شجعان أغنياء يملكون كثيراً من الخيل. وهناك حصن يحكمه أمير من أقرباء حاكم مراكش[48]، لكن الحرب بينهما مستمرة بسبب خلاف حول بعض القرى والأراضي الواقعة في الحدود بينهما. وفي هذا الجبل كثير من الصنّاع اليهود يؤدون الجزية لهذا الأمير، وهم جميعاً من نحلة القراء (الذين يعتمدون نصوص التوراة وحدها)، ويقال انهم يبلون البلاء الحسن في الحرب إذا أعطوا السلاح.

قمة جبل هنتاتة مغطاة دائماً بالثلوج، حسبتها يوم رأيتها لأول مرة سحاباً لشدة علو هذا الجبل[49]. وحدوره جرداء لا شجر فيها ولا نبات، وفيه أماكن عديدة يمكن أن يستخرج منها مرمر شديد البياض والصفاء، لكن أهل البلد لا يقدّرون قدره ولا يعرفون طريقة استخراجه ولا صقله. ويوجد هناك أيضاً عدد من الاعمدة والتيجان الرخامية المنقوشة، وفسقيات (خصات) في غاية الضخامة والجمال صنعت أيام الملوك العظماء الذين سبق أن تحدثنا عنهم، لكن الحروب عرقلت مشاريعهم.

ولقد رأيت هنا عدداً من الأشياء العجيبة، لكن ذاكرتي الواهية لم تتمكن من استذكارها لاشتغالها بما هو أهم.

---

(48) يشير إلى (ملك الجبل) ادريس الهنتاتي ابن عم سلطان مراكش الناصر الهنتاتي. ومن المعلوم أن حكم الهنتاتي لمراكش انتهى حوالي عام 1521/927 عندما دخلها الملك السعدي أحمد الأعرج.

(49) يبلغ ارتفاع جبال طبقال 4.165 ميتراً.

جبل أدِيمي

أديمي جبل كبير شاهق يبتدىء من حدود جبال هنتاتة غرباً، ويسير شرقاً الى نهر تساوت. وهناك توجد المدينة التي سبق أن قلنا ان الحاكم قتل بها في حرب بينه وبين ملك فاس.

يسكن هذا الجبل عدد من القبائل، وفيه غابات من شجر اللوز والزيتون والسفرجل. ورجاله أبطال يملكون أعداداً وافرة من الحيوانات المختلفة، لأن الجو هنا معتدل والأرض خصبة. تنبع من هذا الجبل عيون كثيرة ونهران سنتحدث عنهما في القسم الذي خصصناه لهذا الوصف.

* * *

الآن وقد فرغنا من مملكة مراكش التي تنتهي في جنوب الأطلس، سنتحدث عن ناحية جزولة التي توجد وراء الجبل وتحد مملكة مراكش لا يفصلها عنها غير الأطلس.

ناحيَةُ جَزْولَة

جزولة بلاد عامرة بالسكان تتاخم غرباً جبل سوس ايلدا. وشمالاً الأطلس حيث تقع في سفحه تقريباً، وشرقاً اقليم حاحا[50].

سكان هذه الناحية خشنون لا مال لهم، لكنهم يملكون ماشية كثيرة وكمية كبيرة من الشعير. وتكثر معادن النحاس والحديد في هذا الاقليم، لذلك يصنعون عدداً من أنواع ماعون النحاس يحملونه إلى البلاد المختلفة ليأخذوا بدله الثياب والتوابل والخيول وسائر ما يحتاجون إليه من الأشياء الضرورية. ولا يوجد في هذا الجبل كله (الأطلس الصغير) مدينة ولا قصر، وإنما توجد فقط قرى كبيرة تشتمل أحياناً على ألف كانون أو أقل أو أكثر. وسكان هذا الاقليم لا سلطان لهم، فيحكمون أنفسهم بأنفسهم حتى إنهم يكونون منقسمين ومتحاربين في غالب الأحيان. ولا تطول هدنتهم أكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع[51]، وفي خلال أيام الهدنة يمكن

---

(50) ربما كان هذا سبق قلم، إذ الذي يحد هذه المنطقة من الشرق هي بلاد درعة لا حاحا.

(51) تؤكد المصادر العربية هذه الهدنة وتصبغها بصبغة الكرامات الصوفية، فقد ذكر محمد الأفراني في نزهة الحادي (ص: 13) من جملة كرامات الشيخ محمد بن مبارك: «ان جعل لهم ثلاثة أيام في كل أسبوع في كل شهر لا يحمل فيها أحد سلاحاً ولا يتعرض بعض القبائل فيها لبعض. ومن انتهك فيها الحرمة عجلت له العقوبة..».

للخصوم أن يتجروا فيما بينهم وأن يتنقلوا من جهة إلى أخرى. لكنهم في غير هذه الأيام يتقاتلون كالوحوش.

وفي الوقت الذي مررت فيه بهذه البلاد كان الآمر بهذه الهدنة شيخ زاهد مشهور عندهم بالصلاح، وكان المسكين أعور لم أر منه في الواقع غير الصفاء واللطف والاحسان[52].

يلبس سكان الاقليم قمصاناً قصيرة من الصوف دون أكمام ضيقة ملتصقة بأجسامهم، ويتسلحون بخناجر مقوسة عريضة ذات حدين ورأس متناه في الدقة. وسيوفهم هي نفس سيوف أهل حاحا. وتقام في بلادهم سوق تستمر شهرين يقدم فيهما الطعام لجميع الغرباء الذين يوجدون هناك ولو بلغ عددهم عشرة آلاف. وعندما يقترب يوم السوق تعقد هدنة، ويختار رئيس كل جماعة قائداً ومائة من الرجالة للقيام بالحراسة والمحافظة على الأمن في السوق. يقوم هذا الجيش الوقتي بالحراسة ويعاقب الجناة بحسب أهمية جرائمهم. يقتل السارقون على الفور فيطعنون برمح قصير وتترك أشلاؤهم للكلاب.

تعقد هذه السوق في سهل يكتنفه جبلان، ويضع التجار بضائعهم في خيام أو أكواخ صغيرة من أغصان الأشجار. ويجتمعون بحسب أصناف بضائعهم كل صنف على حدة، بحيث تجد هنا تجار النسيج، وهناك تجار الأقمشة والخردوات وهكذا. أما تجار الماشية فيكونون خارج الخيام. وبجانب كل خيمة كوخ من أغصان الشجر، وفي هذه الأكواخ يقيم الأعيان ويقدم الطعام للغرباء. ورغم النفقات الكثيرة التي ينفقها أهل السوق فان بيع البضائع يدر عليهم مبالغ النفقات مضاعفة مرتين، لأن

---

(52) يشير إلى الشيخ الصوفي محمد بن مبارك الاقاوي تلميذ الشيخ محمد بن سليمان الجزولي. توفي ابن مبارك عام 1518/924. انظر ترجمته عند م. ابن عسكر، **دوحة**: 113، محمد الأفراني، **نزهة**: 12-13، م. المختار السوسي **المعسول**: 18: 167-171.

سكان الناحية كلها يأتون إلى هذه السوق، بل وحتى سكان بلاد السودان، فيقومون بأعمال تجارية مهمة.

وأخيراً فإن الجزوليين ذوي العقول البدائية عرفوا بحق كيف ينظمون بطريقة عجيبة سوقهم من ناحية الطمأنينة والأمن. يبتدىء السوق يوم المولد النبوي الذي هو الثاني عشر من شهر ربيع الأول ثالث أشهر السنة العربية في حسابهم.

وقد ذهبت إلى هذا السوق مع الأمير الشريف (السعدي) وأقمت فيه خمسة عشر يوماً للنزهة سنة 920.

ناحيَةُ دُكَّالَة

تبتدىء ناحية دكالة من تنسيفت غرباً، وتنتهي على شاطىء المحيط شمالاً، وعند وادي العبيد جنوباً، وأم الربيع غرباً[53]. تمثل هذه الناحية مسيرة نحو أربعة أيام طولاً ويومين عرضاً. وهي آهلة جداً بالسكان، لكنهم قباح جهال. ولا يوجد فيها غير عدد قليل من المدن المسورة سنتحدث عما يستحق الذكر منها واحدة واحدة.

مدينة أسَفِـي

أسفي مدينة بناها الأفارقة الأقدمون على شاطىء البحر المحيط، وفيها نحو أربعة آلاف كانون. يسكنها جمهور غفير من الناس لكن تنقصهم التربية. كان بمدينة أسفي قديماً عدد كثير من الصناع ونحو مائة دار لليهود. والأرض المحيطة بالمدينة خصبة جداً إلا أن الأهالي غير أذكياء لا يعرفون كيف يحرثونها ولا حتى كيف يغرسون فيها الكروم، ومع ذلك فإن لهم بعض الحقول الصغيرة للخضر. ولما أخذت سلطة ملوك مراكش في الانحلال استبد بأمر أسفي أسرة تدعى آل فرحون.

---

(53) هنا خلط بين في حدود بلاد دكالة، فشمالها في الواقع نهر أم الربيع، وجنوبها تنسيفت، وغربها البحر المحيط، لكن الحد الشرقي الفاصل بين دكالة وتادلا آنذاك غير واضح، وربما كان هو ملتقى نهر أم الربيع ووادي العبيد.

وفي شبابي[54] كانت أسفي خاضعة لأميرها الشجاع المسمى عبد الرحمان الذي لم يتمكن من الاستيلاء على الحكم إلا بعد أن قضى على أحد أعمامه[55]، وبعد ذلك نشر الأمن في المدينة واحتفظ برئاستها مدة طويلة. وكان لهذا الرجل بنت بارعة الجمال عشقت رجلاً من العامة كان رئيساً لعصابة كثيرة العدد يدعى علي بن وشيمن. وقد تمكن هذا الرجل من أن ينام مع البنت أكثر من مرة بتواطؤ أمها مع احدى الاماء. وأعلمت الأمة سيدها عبد الرحمان فغضب على زوجته وهددها بالقتل، لكنه تظاهر بعد ذلك بعدم اهتمامه بالأمر. ولما كانت المرأة تعرف بطش زوجها فانها أشعرت عشيق بنتها بأن يأخذ حذره. خاف علي حقيقة على حياته وقرر أن يقتل عبد الرحمان، وأفضى بسره إلى شاب شجاع[56] رئيس كذلك لجماعة من المقاتلين الراجلين كان يثق به ثقة تامة. لم ينتظر الرجلان المتفقان إلا الفرصة المؤاتية. وفي يوم عيد (الأضحى) بعث الأمير إلى علي يخبره بأنه يرغب في أن يقوم معه بعد الانتهاء من مراسيم الاحتفال الديني بنزهة على الخيل قصد التسلية، وعين له مكاناً ينتظره فيه، ونيته أن يفتك به هناك. لكن علياً قدر كل شيء واستدعى صاحبه (يحيى بن تعففت) وأخبره بأن الوقت حان لتنفيذ مشروعهما. أخذا معهما عشرين من أصحابهما، وتسلحوا بعناية وهيؤوا سفينة شراعية زعموا أنها سترسل إلى أزمور، وهي في الواقع معدة ليتمكنوا من الفرار فيها عند الاقتضاء. توجه هؤلاء إلى المسجد فوصلوا

(54) سيذكر المؤلف فيما بعد أنه ذهب إلى آسفي عام 1500/906 وعمره اثنتا عشرة سنة.

(55) كان هذا العم يدعى أحمد بن علي ويعرف باسم حمادوش بن فرحون. وفي 16 أكتوبر 1488 قلده ملك البرتغال جان الثاني قيادة آسفي، وكانت هذه المدينة خاضعة للحماية البرتغالية قبل سنة 1481. وفي شهر شتنبر 1498 قررت الحكومة البرتغالية أن تعوض القائد أحمد الذي بلغ من الكبر عتيا بابن أخيه عبد الرحمان، وبعثت بذلك رسولاً إلى القائد أحمد. لم تمض الأشياء دون اصطدام قام أثناءه عبد الرحمان بطعن أخيه بالرمح على أثر نزاع حاد ثار بينهما، لكن الشعب هتف بعبد الرحمان، وتصالح القائد العجوز مع ابن أخيه وخطب في الجمهور طالباً منه أن يطيع عبد الرحمان.

(56) هو أبو زكرياء يحيى بن محمد بن تعففت.

بعد أن دخل الأمير إليه بقليل وأحرم بالصلاة، وكان المسجد غاصاً بالناس. دخل الشابان ومن معهما من الرجال إلى المسجد وهم متقدون عزماً واقداماً، واقتربوا من الأمير الذي كان بازاء امام الصلاة دون أن يعترض طريقهم الحراس الذين لم يكن لهم شك فيهم بما يعرفون لهم من مكانة عند الرئيس.

تقدم أحد المتآمرين أمام الملك، وبقي الآخر وهو علي خلفه وطعنه في ظهره بخنجر، في حين أغمد الثاني سيفه في جسمه. حدثت ضجة عظيمة وانقض الحراس على القاتلين، لكنهم عندما رأوا فجأة الرجال العشرين شاهرين سيوفهم ظنوا أن هناك اتفاقاً بين السكان وانقلبوا هاربين، فخرج الناس من المسجد ولم يبق فيه سوى المتآمرين.

وان كاتب هذه السطور سمع علياً يقول بلسانه انهما حينما دخلا المسجد لم يكن الأمير قد دخله بعد، ولذلك مكثا في داخله فترة من الزمن في انتظاره، وأنهما لم يخرجا إلى الساحة إلا بعد أن مات الرئيس، فخطبا في الناس وأقنعاهم بأنهما ان قتلا الرئيس فإنهما على حق لأنه كان يريد قتلهما. سكنت روعة الناس بسهولة ورضوا بأن تكون الامارة في يد هذين الرجلين، لكنهما لم يبقيا على وفاق مدة طويلة، وأصبح أحدهما يجذب من جهة والثاني من أخرى.

وفي هذه الأثناء حدث أن بعض التجار البرتغاليين ـ وهم متوافرون آنذاك بأسفي ـ نصحوا ملك البرتغال أن يأمر بتجهيز أسطول يمكنه أن يستولي بسهولة على المدينة. فلم يقبل أن يقدم على هذه العملية إلا عندما عرفه التجار أن سكان أسفي منقسمون طوائف، وأن البرتغاليين تمكنوا بسبب تقديم بعض الهدايا إلى أحد رؤساء هذه الطوائف[57] من أن يربطوا معه أمتن الصلات، ويتفقوا على شبه عقد بأن أخذ المدينة ممكن

(57) هو يحيى بن تعففت.

دون أية صعوبة ولا نفقات كثيرة. وقد كانوا في الواقع أقنعوا هذا الرئيس بأن يتركهم يبنون داراً حصينة على شاطىء البحر تكون فيها بضائعهم في أمان. متعللين بأنهم عندما مات الحاكم نهبوا تقريباً وأخذ منهم قسط مهم من مالهم. وقد بنوا داراً حصينة جداً نقلوا إليها سراً أنواعاً من البندقيات داخل براميل الزيت وحزمات البضائع، وما داموا يؤدون الاتاوات المفروضة فان سكان المدينة لم يكونوا يطالبونهم بأكثر من ذلك.

لما تزود البرتغاليون بما يكفي من أسلحة الهجوم والدفاع بدؤوا يبحثون عن مختلف المناسبات لخلق الاضطراب والخصام مع المغاربة. وهكذا فان غلام أحد التجار البرتغاليين كان يشتري لحمًا فأخذ يثير غضب الجزار إلى أن لطمه، فأخرج الغلام خنجره وأغمده في صدر الجزار المسكين الذي سقط جثة هامدة. هرب القاتل ولجأ إلى الدار البرتغالية، فهاج السكان لهذا القتل وحملوا السلاح وذهبوا إلى الدار البرتغالية لنهبها وتمزيق من بها ارباً ارباً. لكن البرتغاليين عندما رأوا الجمهور يقترب منهم أخذوا يطلقون عيارات بنادقهم المختلفة. ولا حاجة إلى التساؤل هل فر المغاربة مذعورين، فقد قتل منهم أكثر من مائة رجل في هذا الهجوم المفاجىء، ولم يمنعهم ذلك من محاصرة الدار أياماً عديدة.

عندئذ ظهر بغتة أسطول قادم من لشبونة كان الملك جهزه بجميع أنواع الأسلحة وقطع المدفعية الثقيلة، علاوة على كميات وافرة من المؤن. كان على ظهر هذا الأسطول خمسة آلاف من الجنود المشاة ومائتان من الفرسان[58]، لذلك فان المغاربة تملكهم الرعب وتركوا المدينة ملتجئين إلى جبال بني ماجر، ولم يبق فيها غير أسرة الرئيس الذي وافق على بناء الدار البرتغالية، وأنصاره. استولى قائد الأسطول على مدينة أسفي وأمر بأن يحضر

---

(58) وصل قسم من هذا الأسطول أمام آسفي يوم 24 ديسمبر 1507 ثم وصلت سفن أخرى في أول يناير 1508 شعبان 913 وربما بقي الأسطول أمام آسفي نحو ثلاثة أشهر.

أمامه الرئيس المذكور المسمى يحيى (بن تعففت)، فبعث به إلى ملك البرتغال الذي جعل له ايراداً حسناً وأعطاه عشرين خادماً. وبعد ذلك أعاده الملك إلى افريقيا ليحكم البادية التابعة لآسفي، لأن القائد البرتغالي لا يعرف عادات هذا الشعب الجاهل ولا الطريقة التي ينبغي أن يساس بها. وبقيت أسفي منذ ذلك العهد خالية، وخربت البلاد[59].

وانما أفضت القول في هذا الموضوع قليلاً لأبين أن الأحزاب السياسية بالاضافة إلى امرأة، كانت سبب الخراب لا لمدينة أسفي وحدها ولكن لمجموع سكان دكالة. ولما ذهبت إلى أسفي كنت غلاماً في الثانية عشرة من عمري، لكن بعد مرور نحو أربع عشرة سنة أخرى قابلت حاكم هذه البادية موفداً إليه من قبل ملك فاس والشريف أمير بلاد سوس وحاحا. وكان الحاكم آنذاك بالقرب من مراكش مع جيش مكون من خمسمائة فارس برتغالي وأكثر من ألفين من فرسان الأعراب. وكان يأخذ جميع الضرائب في تلك البلاد لحساب ملك البرتغال. وذلك عام 920 حسبما ذكرته بتفصيل أكثر في **مختصر تاريخ الإسلام**[60].

---

(59) تقول الرواية البرتغالية إنه بعد مقتل القائد عبد الرحمان في أبريل 1507/ ذي الحجة 911 اختلف علي بن وشيمن ويحيى بن تعففت. وكان قائد موكادور (الصويرة) البرتغالي قد كلف بأمر آسفي فانحاز إلى علي وبعث بيحيى بن تعففت إلى لشبونة في غشت 1507 / ربيع الثاني 912، ثم رجع يحيى منها في خلال سنة 917/1511. أما علي بن وشيمن فذهب بعد احتلال آسفي ليقيم مع أهله في تاركا على ضفاف أم الربيع فسجن في ماي 1514 / ربيع الأول 920 من قبل الناصر أخي ملك فاس ونقل إلى فاس ثم رجع، واستقر به المقام أخيراً في مملكة فاس. ويظهر أن الحسن الوزان استقى قصة أحداث آسفي من علي بن وشيمن نفسه.

(60) سبق أن ذكر المؤلف أن هذا اللقاء تم في تومكلاست بناحية مراكش خلال صيف 1514/920 بينما كان سفره الأول إلى آسفي قبل ذلك بأربع عشرة سنة، أي عام 906 وعمره أربع عشرة سنة، فيكون تاريخ ميلاد الحسن الوزان حوالي عام 1489-88/894.

قَنْطْ، مدينةٌ في دُكّالَة

قنط[60م] مدينة صغيرة على بعد نحو عشرين ميلاً من أسفي، بناها القوط في العهد الذي كانوا يسيطرون فيه على هذا الساحل. وهي الآن خراب تخضع أراضيها لبعض أعراب دكالة.

تِيطْ، مدينةٌ في دُكَّالَة

تيط[61] مدينة قديمة تبعد عن آزمور بنحو أربعة وعشرين ميلاً، بناها الأفارقة على شاطىء المحيط، تحيط بها بادية واسعة حيث ينبت الزرع الجيد بكثرة كاثرة، ويسكنها قوم ذوو ذكاء محدود لا يعرفون انشاء حديقة ولا أي شيء آخر يلفت النظر.

وفي الحقيقة يرتدون لباساً لائقاً بسبب تجارتهم وعلاقاتهم مع البرتغاليين. ولما احتل البرتغاليون آزمور خضعت تيط إلى ملك البرتغال باتفاق مع قائده وأدت له بعض الاتاوات. وفي عهد شبابي جاء ملك فاس بنفسه إلى تيط لينجد سكان دكالة. ولما لم يتمكن من الحصول على أية نتيجة، أمر بشنق نصراني كان أمين خزانة المال ويهودي كان وسيطاً، ونقل سكان تيط إلى فاس وعين لإقامتهم قرية صغيرة مهجورة منذ مدة، تبعد عن فاس باثني عشر ميلاً.

المَدِينَة، حاضِرَةُ دُكَّالَة

المدينة من قرى دكالة وهي بالتقريب حاضرة هذه الناحية، يحيط بها سور مبني على الطريقة المتبعة في البلاد، أي بمواد غير متقنة على الأصح،

(60م) حرف اسم هذه المدينة في الأصل المنقول عنه فكتب «كونتي». وهذه مدينة معروفة مندثرة يحمل اسمها اليوم رأس قنط (كاب كانتان) الذي كانت تقع بجواره.

(61) ما تزال آثار تيط ظاهرة عند زاوية مولاي عبد الله أمغار على شاطىء البحر، بعيدة عن مدينة آزمور بخمسة وعشرين كيلومتراً جنوباً. ومعنى تيط بالبربرية: عين جارية.

ومنظره كئيب. ويمكن التأكيد حقيقة بأن سكان المدينة جهال يرتدون بعض الملابس الصوفية المصنوعة في عين المكان. تتحلى نساؤهم بكثير من حلى الفضة والعقيق الأحمر، ورجالهم شجعان يملكون عدداً من الخيل. وقد نقلهم ملك فاس إلى مملكته حذراً من البرتغاليين، إذ بلغه أن شيخاً[62] رئيساً لفريق من المدينة كان ينصح السكان بأن يؤدوا الخراج إلى ملك البرتغال. وقد رأيت هذا الشيخ يقاد مقيداً حافي القدمين، فأشفقت عليه كثيراً، لأن المسكين كان مضطراً إلى أن يفعل ما فعل، إذا اعتبرنا أن أداء الخراج خير من خسران المال والتضحية بحياة الناس. وتدخل عدد من الناس لدى الملك طالبين تحرير هذا الرجل، فحصلوا على ذلك وأطلق سراحه مقابل أداء ذعيرة. وظلت المدينة فيما بعد خالية، وقد جرى ذلك عام 921.

مدينةُ مِائة بِيرْ[63] في دُكَّالة

هي قرية صغيرة واقعة على ربوة كلسية، في خارجها عدة مطامير تعود السكان أن يخزنوا فيها حبوبهم. ويقول سكان هذه البلاد بأن القمح يحفظ في هذه المطامير مائة سنة دون أن يفسد أو تتغير رائحته.

ولكثرة هذه المطامير التي تشبه الأبيار سميت هذه المدينة مدينة مائة بير. والسكان فيها قليلون جداً، لأنه لا يوجد فيها أي صانع باستثناء بعض

---

(62) تسمي المصادر البرتغالية هذا الشيخ المتعاون بميمون. ويشكك بعضهم في كون الملك الوطاسي نقل جميع سكان تيط إلى ناحية فاس، لأن الحسن الوزان غادر المغرب بالقرب من هذا التاريخ فلم يكن يعرف ما إذا عمرت المدينة بعد حركة الوطاسي أو خلت.

(63) يوجد في هذه الناحية بالفعل مكان يدعى مائة بير، لكن هناك من يرى أن المقصود مدينة صيرنو الصغيرة التي تبعد عن ذلك المكان بـ 11 كلم جنوباً حيث كان يسكن يحيى بن تعففت، وقد وهبها له ولأولاده ملك البرتغال عمانويل الأول برسالة مؤرخة في 25 غشت 1514.

الحدادين اليهود. وفي الوقت الذي نقل ملك فاس سكان المدينة إلى الاقامة بأرضه أراد أن ينقل أيضاً سكان مدينة مائة بير لكنهم رفضوا هذا الانتقال وفروا إلى أسفي حتى لا يتركوا أرضهم. ولما رأى الملك ذلك نهب مدينة مائة بير فلم يجد فيها غير الحبوب والعسل والأشياء الثقيلة التي لا قيمة لها[64].

السّبِيَّتْ

السبيت مدينة صغيرة على الضفة الجنوبية لنهر أم الربيع، تبعد عن المدينة بنحو أربعين ميلاً، وتخضع لأعراب دكالة. وهي تنتج كثيراً من القمح والعسل، لكن لا ترى بها بساتين ولا حقول كروم لجهل سكانها. ولما خربت بولعوان نقل ملك فاس سكان مدينة السبيت إلى مملكته وأعطاهم مدينة صغيرة كانت مهجورة في اقليم فاس، وبقيت مدينة السبيت منذ ذلك الحين خالية.

تَمَرّاكْشْتْ

تمراكشت[65] مدينة صغيرة بدكالة على ضفة نهر أم الربيع، بناها الملك الذي أسس مدينة مراكش، ولذلك سميت بهذا الاسم. كانت تمراكشت آهلة بالسكان، محتوية على أربعمائة كانون وخاضعة لآزمور. وفي السنة التي احتل البرتغاليون مدينة آزمور، خربت تمراكشت وانتقل سكانها إلى المدينة.

ترْكَا

تركا[66] مدينة صغيرة على ضفة نهر أم الربيع بعيدة عن آزمور بنحو

---

(64) تقول المصادر البرتغالية انه بقي من الحبوب بمدينة صيرنو أكثر مما نهبه ملك فاس.

(65) تمراكشت صيغة تصغير بالبربرية لمراكش.

(66) تركا كانت تقع على بعد 35 كلم في ملتقى نهري تركا وأم الربيع، على الضفة اليمنى لهذا النهر. وقبل أن يستقر علي بن وشيمن في تركا، أسره الناصر الوطاسي وحمله إلى =

ثلاثين ميلاً، كانت آهلة بالسكان محتوية على ثلاثمائة كانون خاضعة لأعراب دكالة. ولما احتلت آسفي انتقل عليٌّ رئيس الطائفة المعادية للبرتغاليين إلى تركا وسكنها فترة من الزمن مع بعض أنصاره الأبطال. وبعد ذلك استقدمه ملك فاس إلى مملكته مع أسرته، فغدت تركا خالية تأوي إليها البوم.

بُولَعْوَانْ

بولعوان مدينة صغيرة مبنية على ضفة نهر أم الربيع، بها نحو خمسمائة كانون، كان يسكنها عدد من النبلاء الكرماء، وتقع في منتصف الطريق بين فاس ومراكش. وقد شيد سكان هذه المدينة بناية من عدة غرف على شكل اصطبل عظيم. وكل الذين يمرون بهذه المدينة يستضافون باكرام في هذه الدار على نفقة السكان، لأنهم أغنياء جداً بحبوبهم وماشيتهم. لكل واحد من السكان مائة زوج من الثيران أو أقل أو أكثر، ومحصولات تبلغ حوالي ألف حمل دابة من القمح[67]، ومنهم من تبلغ محصولاتهم الزراعية ثلاثة آلاف حمل، والأعراب هم الذين يشترون هذا القمح ويتزودون منه للعام كله.

وفي عام 919 أرسل ملك فاس أخاه[68] ليدافع عن بلاد دكالة ويحكمها، ولما قرب من بولعوان علم أن حاكم آزمور البرتغالي قادم إلى هذه المدينة ليفسدها ويأسر سكانها، لذلك عجّل بإرسال قائدين مع ألفين من الفرسان، وقائد ثالث مع ثمانمائة من الرماة لإنجاد بولعوان. وقد

= أخيه الملك بفاس عام 1514 ثم رجع وترأس قبيلة بني ماجر عند حركة الملك محمد الوطاسي سنة 1515، ثم انتقلت هذه القبيلة كلها إلى اقليم فاس.

(67) سبق أن ذكر المؤلف أن حمل الجمل في سوس هو سبعمائة رطل ايطالي، أي 237 كيلوغرام، ولعل ذلك هو نفس وزن الحمل في دكالة.

(68) هو الناصر الحلو حاكم مكناس ونائب أخيه فيها وفي بلاد الشاوية.

وصلت هذه القوات في نفس الوقت الذي وصل فيه الجيش البرتغالي. ولما كان مع البرتغاليين ألفان من الأعراب[69]، فإنه كان لهم التفوق المطلق. وقد طوّق رماة ملك فاس في وسط السهل وضُربت أعناقهم بالسيف إلا عشرة أو اثني عشر رجلاً فرّوا مع بقية الجيش إلى الجبال. حقاً ان المغاربة أعادوا تنظيم قواتهم وكروا على البرتغاليين في حملة مضادة وطاردوهم وقتلوا خمسين من فرسانهم[70].

جاء أخو الملك إلى دكالة وجبى الخراج ووعد بأنه سيساعد هذه الناحية على الدوام، لكنه عندما خذله الأعراب اضطر إلى العودة إلى فاس. وهكذا فإن سكان بولعوان لما رأوا قدوم أخي الملك لم يكن له من نتيجة غير جبي الخراج دون أن يقدّم لهم أية مساعدة تذكر، تملّكهم الفزع وغادروا مدينتهم ملتجئين إلى جبال تادلا خوفاً من أن يعود إليهم البرتغاليون ويفرضوا عليهم اتاوات أقوى لا يستطيعون أداءها، فيخضعوهم للأسر ويستعبدوهم.

حضرت هذه الهزيمة وشاهدت مذبحة الرماة، لكنني كنت بعيداً عنهم بنحو ميل راكباً على حجر تضيق افريقيا كلها عن قفزه عند الفرار.

---

(69) أتى بهؤلاء الأعراب الفرسان من حوز مراكش يحيى بن تعففت.

(70) هناك رواية مفصلة لهذه المعركة التي جرت يوم الجمعة 18 صفر 14/920 أبريل 1514، رواها حاكم أزمور دون جاووديمينيسيس الذي قاد الحملة مع نينو فرنانديز حاكم آسفي، وذلك في تقرير قدّمه للملك عمانويل الأول، زعم أنه لم يهلك من البرتغاليين سوى 32 فارساً، بينما تؤكد رواية برتغالية أخرى أنه لم تمض ثلاث ساعات على بداية المعركة حتى سقط فيه أكثر من 50 فارساً برتغالياً زيادة على قتلى المشاة والمجروحين الذين فاق عددهم مائة. وقد هوّل التقرير وبالغ في أعداد قتلى المسلمين وأسراهم.

انظر: مصادر غير منشورة لتاريخ المغرب، السلسلة الأولى، البرتغال، 1:504-541.

وقد كنت عندئذ مسافراً فتوجّهت إلى مراكش قادماً من ساحة المعركة التي خاضها جيش ملك فاس لأخبر حاكم مراكش والأمير الشريف بالقدوم القريب لأخي الملك عندهم ليأخذوا الأهبة ويستعدوا بكل ما يستطيعونه لمواجهة البرتغاليين.

مدينة آزَمُّور

أزمور مدينة في دكالة من بناء الأفارقة على مصب نهر أم الربيع في البحر المحيط، بعيدة عن المدينة (الغربية) بثلاثين ميلاً إلى الجنوب[71]. وهي كبيرة وآهلة بالسكان، تحتوي على نحو خمسة آلاف كانون، لا ينقطع عنها التجار البرتغاليون، ولذلك فإن سكانها متحضرون حسنو الهندام، وهم منقسمون طائفتين إلا أنهم يعيشون دائمًا في سلام. وتنتج هذه المدينة أي باديتها كثيراً من القمح، ولا يُرى فيها في الحقيقة بستان ولا حديقة إلا قليلاً من شجر التين. ويدرّ النهر على هذه المدينة سنوياً كرسوم على صيد سمك الشابل، من ستة آلاف إلى سبعة آلاف مثقال. يبتدىء موسم الصيد في أكتوبر وينتهي في آخر أبريل. والشابل هناك كثير جداً، وهو يحوي من الشحم أكثر مما يحويه من اللحم، حتى إنه يكفي لقليه اليسير جداً من الزيت، لأن السمكة لا تكاد تحس بحرارة النار حتى يخرج منها أكثر من رطل ونصف رطل من الدهن الذي يشبه الزيت، وهم يستصبحون به لأنه لا يوجد زيت في هذه البلاد.

يأتي التجار البرتغاليون مرة في السنة ليشتروا كمية عظيمة من هذا السمك وهم الذين يؤدون رسوم الصيد المذكورة، حتى إنهم تمكّنوا في النهاية من إقناع ملك البرتغال بالاستيلاء على المدينة، فأرسل أسطولاً

(71) وقع هنا خلط في البعد والجهة، فمدينة أزمور تبعد عن المدينة الغربية بأكثر من 56 ميلاً (90 كلم) شمالاً.

يتركّب من سفن عديدة، لكنه انهزم بسبب قلة خبرة القائد، وغرقت معظم السفن[72].

وقد أعاد ملك البرتغال الكرّة على آزمور فأرسل إليها بعد سنتين أسطولاً آخر متركّباً من مائتي سفينة[73] فلم يكد يراه السكان حتى خارت قواهم وأخذوا يفرون مذعورين حتى إنه هلك منهم أكثر من ثمانين نفساً اختناقاً عند الأبواب من شدة الازدحام. أما الأمير البائس الذي جاء لينجد المدينة، فلم يعرف سبيلاً للخلاص سوى أن يتدلى من أعلى السور بحبل، والناس يجرون داخل المدينة في كل اتجاه، بعضهم حفاة، وبعضهم على الخيل. إنه لمنظر كئيب أن ترى الأطفال والشيوخ والنساء والفتيات حفاة شعثاً يركضون في كل مكان ولا يعرفون أين يختبئون. غير أنه قبل أن تبدأ المعركة مع المسيحيين بقليل، كان اليهود قد اتفقوا مع ملك البرتغال على أن يسلموا له مدينة آزمور شريطة أن لا يلحقهم منه أي أذى، ففتحوا الأبواب بموافقة الجميع. وهكذا استولى المسيحيون على آزمور[74]، وانتقل

---

(72) تقول المصادر البرتغالية ان آزمور اعترفت بالحماية البرتغالية منذ 1486/891 لكن الاتفاقيات نقضت عام 1502/907، واقتضت الأحداث المتوالية بعد ذلك تدخلاً عسكرياً برتغالياً، فظهر أمام آزمور أسطول من 75 سفينة يوم 12 غشت 1508/ 14 ربيع الثاني 914. ونزل منها أكثر من ألفي رجل اصطدموا بقوة أرغمتهم على الإسراع بالرجوع إلى سفنهم، ولم تجنح إلا بعض السفن وأحرقت إحداها في النهر. وكان هذا الأسطول بقيادة الدون جو أووديمينيسيس الذي مات وهو حاكم لآزمور في ماي 20/1514 ربيع الأول 920.

(73) كانت هذه الغزوة بقيادة دوق ديبراكانس، تتركب من 500 سفينة أنزلت حمولتها في البريجة التي لم تكن يومئذ غير مرفأ، يوم الاثنين 26 جمادى الثانية 29/919 غشت 1513 وقد نزل منها ألفا فارس وثلاثة عشر ألف راجل.

(74) تقول المصادر البرتغالية ان الجنود البرتغالية خيّمت أمام آزمور يوم الخميس فاتح شتنبر 1513، في حين كان قسم من الأسطول يدخل النهر، وفي الغد الجمعة قنبلت المدينة من طرف المدفعية، وذلك سبّب فزع السكان الذين أخلوا المدينة ليلاً، والأمير المشار إليه هو زيان ابن عم ملك فاس الوطاسي الذي كان فيما سبق حاكمًا لمكناس والشاوية، ثم ثار على الملك والتجأ إلى البرتغال أولاً ثم إلى آزمور، حيث لعب على =

بعض أهلها إلى السكنى بسلا، وبعضهم إلى السكنى بفاس، وقد عوقب الآزموريون بهذا الشكل على إغراقهم في اللواط وشيوعه فيهم حتى إنهم كانوا لا يجدون غضاضة في أن يبحث الأب لولده عن صديق مداعب لطيف.

وأخيراً سقطت هذه المدينة عام 918 وأنا يومئذ في بلاد السودان[75].

مْرَامَرْ

مرامر مدينة بناها القوط في الداخل على بعد نحو أربعة عشر[76] ميلاً من أسفي، بها نحو أربعمائة كانون. وتنتج البلاد الكثير من القمح والزيت. وكانت هذه المدينة فيما سبق خاضعة لحاكم أسفي، فلما احتل البرتغاليون أسفي هرب سكان مرامر وبقيت مدينتهم خالية زهاء سنة. ثم اتفقوا بعد ذلك مع البرتغاليين ورجعوا إلى ديارهم، وهم يؤدون حتى الآن جزية لملك البرتغال[77].

جبل بنِي ماجَرْ

هو جبل يبعد عن أسفي باثني عشر ميلاً[78]، كان يسكنه عدد وافر من الصنّاع الذين يملكون جميعاً دوراً بآسفي. وهو جبل كثير الإنتاج

= الحبلين، وقد صالح ابن عمه الملك أخيراً بكيفية رسمية عام 1514، وسيتحدث عنه المؤلف فيما بعد. وتقول تلك المصادر أيضاً ان اليهود لم يسلموا آزمور إلى البرتغاليين، وإنما جاء أحد اليهود إلى البرتغاليين في منتصف الليل يخبرهم بإخلاء المدينة، فاحتلها البرتغاليون دون حادث صباح السبت ثالث شتنبر 1513/ثاني رجب 919.

(75) يظهر أن المؤلف سافر عام 1512/918 إلى بلاد السودان للمرة الثانية، ولم تحتل آزمور في الواقع إلا في السنة التالية.

(76) يظهر أن الأصل 44 ميلاً، لأنها تبعد عنها بسبعين كلم على الأقل.

(77) تحمل أنقاض هذه المدينة الصغيرة اسم صويرة ميرامر، وتقع على الضفة اليسرى لنهر تنسيفت الذي كان آنذاك ملحقاً بدكالة، وقد ذكرها البكري على الطريق الرابطة بين نفيس والمدينة الداخلية التي كانت لها أهمية عند الفتح الإسلامي في مرفأ أكوز.

(78) بل 22 ميلاً.

لا سيما من القمح والزيت. وكان فيما سبق خاضعاً لحاكم أسفي، فلما أخذت المدينة المذكورة لم يجد هؤلاء القوم ملجأ غير جبلهم، وغدا منذ ذلك الحين تابعاً لملك البرتغال. ولما قدم ملك فاس إلى هذه البلاد عاد بعض الماجريين إلى أسفي. وأخذ الملك الآخرين معه إلى فاس، لأنهم لم يرضوا بالعيش تحت سلطة المسيحيين[79].

الجبل الأخضر

الجبل الأخضر شاهق يبتدىء بجوار نهر أم الربيع ويمتد غرباً إلى تلال هسرة[80] فاصلاً بين دكالة وجزء من ناحية تادلا. وهذا الجبل مكسو كثيراً بالأشجار ووعر جداً، ينتج كمية كبيرة من البلـوط، وينبت فيه الكثير من هذه الأشجار التي تحمل فاكهة حمراء قد تسمى باللغة الأفريقية الأربوز (القطلب)، كما ينبت فيه شجر الصنوبر.

ويعيش في هذا الجبل نساك كثيرون لا يقتاتون إلا بثمـاره، إذ يبعدون عن كل مكان مسكون بخمسة وعشرين ميلاً. وهناك عدد كثير من العيون الجارية والمساجد المبنية على الطراز الإسلامي، وبعض البنايات الافريقية القديمة. وتوجد بالقرب من الجبل بحيرة في غاية الجمال، كبيرة كبحيرة بولصينا في الأرض البابوية، فيها كمية عظيمة من الأسماك كالنون (الأنقليس) والبرعان الأحمر، والبوري (الزنجور) وغيرها من الأسماك التي لم أرها قط في ايطاليا، وكلها في تمام الجودة، غير أنه لا أحد يصطاد في هذه البحيرة.

ولما ذهب ملك فاس محمد (الشيخ الوطاسي) إلى دكالة أقام بجوار هذه البحيرة ثمانية أيام، وكلّف بعض الناس بالصيد، فشاهدت الطريقة

---

(79) الماجريون المهاجرون إلى فاس ذهبوا مع حاكمهم السابق علي بن وشيمن.
(80) الصواب: ويمتد شرقاً... أما هسرة فلا تعرف إلا أن تكون تحريفاً لهسكورة.

التي استعملوها في ذلك، وهي أنهم خاطوا أعناق وأكمام بعض القمصان ووتروا أسفلها بقضبان ثم أنزلوها إلى أسفل البحيرة، وبهذه الطريقة أخذوا كثيراً من السمك. ولا تسأل عما يحصل عليه ذوو الشباك من كميات عظيمة من الحيتان. وذلك لأن السمك كان كالمدوخ الثمل بسبب دخول الخيل والجمال إلى البحيرة على مسافة نحو ميل، وكان عدد الخيل كثيراً يبلغ نحو أربعة عشر ألف فرس، معظمها ملك للأعراب الذين جاءوا ليكونوا رهن إشارة الملك، وبعضها لاتباعه من العرب أو لجنوده. وجيمع الأعراب أتوا معهم بعدد من الجمال يبلغ ثلاثة أضعاف عدد الخيل. وكان في محلة الملك وإخوته نحو خمسة آلاف فرس، لأن الملك كان في الواقع يوفر حاجات جميع جنوده النظاميين، وهم نحو سبعة آلاف فارس، ومثلهم من الراجلين ما بين خدم وبغّالين وجمّالين وسقّائين وحطّابين وغلمان المائدة ومحاسبي النفقات. أضف إلى هذا العلّاف ومساعديه في الحسابات ومن استصحبه من المستخدمين، كل هؤلاء القوم كانوا على نفقة الملك، باستثناء قواد المشاة وقواد الفرسان الذين كان لهم تموينهم الخاص من خيام وجمال ورجال الخدمة.

وقد ذكرت كل تلك الأخبار في **مختصر التواريخ** المذكور آنفاً فلا أطيل فيها أكثر ليلا نخرج عن موضوعنا الذي هو البحيرة.

يوجد على ضفاف هذه البحيرة كمية كبيرة من أشجار تشبه أوراقها أوراق شجر الصنوبر(81)، يعشش بين أغصانها عدد لا يحصى من الحمام، حتى إنه في ذلك الوقت، وهو شهر ماي، كانت تباع ست حمامات منها بأبخس الأثمان.

استراح الملك ثمانية أيام ثم أراد أن يذهب إلى الجبل الأخضر، وكنا نحن الذين نرافقه من الفقهاء والجلساء كثيرين، فكان كلما صادف في

---

(81) لعلها أشجار العرعار.

طريقه مسجداً أوقف الجميع وصلى ودعا بخشوع قائلاً: «اللهم إنك تعلم أني ما جئت إلى هذا البلد المهجور إلا لمساعدة سكان دكالة وتحريرهم من الأعراب الزنادقة المتمردين، ومن أعدائنا الألداء المسيحيين. فإن كانت مشيئتك تعلقت بذلك فصب سوط عذابك علي أنا، لأن الذين يتبعونني لا يستحقون العقاب».

دخلنا إلى المحلة مساء بعد أن قضينا النهار في الجبل. وفي غداة الغد قرّر الملك أن يصطاد في الغابة المحيطة بالبحيرة، فاستعمل في ذلك الكلاب والصقور التي يملك عدداً كبيراً منها. وقد اصطيد الأوز الوحشي والبط وطير الماء والحمام. وفي اليوم التالي كان صيد آخر بالكلاب السلوقية والصقور والبيزان، فاصطيدت كميات هائلة من الأرانب والأيول والضربان واليحمور والذئاب والحجل، لأنه لم يصد أحد في هذا الجبل منذ مائة سنة.

وبعد هذا الصيد استراح الملك قليلاً ثم ارتحل مع جيشه قاصداً المدينة (الغربية) بدكالة، بعد أن أذن لمن كان معه من الصلحاء والفقهاء بأن يرجعوا إلى فاس، وبعث بعضهم إلى مراكش، وكنت من بينهم، وذلك عام 921 للهجرة.

ناحيَةُ هَسْكُورَة

تبتدىء ناحية هسكورة من التلال المتاخمة لدكالة غرباً لتنتهي شرقاً عند نهر تنسيفت في سفح جبل أدماي، وتتاخم شمالاً وادي العبيد الفاصل بين هسكورة وتادلا، كما تفصل دكالة وتلالها هذه الناحية عن البحر المحيط(82).

وأهل هسكورة أكثر تمدناً من أهل دكالة، لأن في هذه البلاد موارد ناتجة عن كمية وافرة من الزيت ومن تلك الجلود المدبوغة التي يكاد يشتغل جميع السكان في إعدادها. ويملك الهسكوريون عدداً لا يحصى من المعز، وتدبغ في ناحيتهم جميع الجلود الواردة من الجبال المجاورة. وتكثر عندهم الأغنام جداً فيصنعون من أصوافها ثياباً رفيعة لسد الحاجات المحلية، كما يصنعون سروجاً بديعة للخيل.

يقوم التجار الفاسيون بتجارة رابحة في هذه الناحية، فيستبدلون نسيجهم بهذه الجلود والسروج. وعملة هذه الناحية هي نفس العملة الجارية بدكالة، ويشتري الأعراب عادة من هسكورة الزيت وغيره من الحاجات.

وسأتكلم الآن عن كل مدينة، الواحدة تلو الأخرى.

---

(82) وقع هنا خلط عند المؤلف في ذكر الجهات عند الحدود وقد صححناها بحسب الواقع.

المدِينَة، حاضرةُ هَسْكُورة

تقع المدينة[83] على حدود الأطلس، وهي من بناء أهل هسكورة تشتمل على نحو ألفي كانون وتبعد عن مراكش شرقاً بنحو تسعين ميلاً وعن المدينة (الغربية) بدكالة بنحو ستين ميلاً[83م]. تضم هذه المدينة عدداً كثيراً من الدبّاغين والسّراجين وغيرهم من الصنّاع، وفيها الكثير من اليهود، بعضهم تجار وبعضهم صنّاع كذلك.

تقوم المدينة وسط غابة من الزيتون والكروم المعروشات البديعة وأشجار الجوز العظيمة، ويفترق سكانها فرقاً عديدة تختصم باستمرار داخل المدينة، ويعادون في الخارج أهل مدينة أخرى بعيدة عنهم بنحو أربعة أميال. ولا يستطيع أحد أن يسير في البادية إلى حقله ما عدا العبيد والنساء، وإذا أراد أحد التجار الغرباء أن يذهب من مدينة إلى أخرى فعليه أن يستصحب حرساً قوياً، لذلك فإن كل واحد منهم يستأجر عادة مسلحاً ببندقية أو قذّافة بأجرة شهرية تتراوح ما بين عشرة واثني عشر مثقالاً بالعملة المحلية، وهي تساوي ست عشرة (دوكة) إيطالية.

يوجد في هذه المدينة بعض الرجال المتضلعين من علم الفقه يؤخذ منهم القضاة والأئمة. وتؤدى الضرائب المفروضة على الغرباء إلى بعض الرؤساء الذين يحفظونها ليصرفوها في حاجيات الجماعة. ويؤدي أهل المدينة للأعراب عن أملاكهم في السهل ما لا أدري قدره من الخراج. لكنهم يربحون مع هؤلاء الأعراب عشرة أضعاف ما يؤدون لهم.

---

(83) لعلها دمنات، إذ تنطبق صفات الموقع المذكورة هنا عليها. وقد سألت أحد شيوخ هذه الناحية فأكد بأنه وقومه يعرفون بأن دمنات كانت تُعرف بالمدينة قديماً، حتى قبل تأسيس مدينة مراكش فيما يتناقلون.

(83م) لعل الصواب 160 ميلاً. إذ أن المسافة بينها تبلغ نحو 220 كلم.

ذهبت إلى هذه المدينة عند عودتي من مراكش ونزلت بدار أحد الغرناطيين الأثرياء الذي أقام هناك زهاء ثمانية عشر عاماً يعمل في صنع القذافات، فكنا تسعة نفر فضلاً عن الخدم، قام بنفقتنا جميعاً بلطف وسخاء إلى أن انصرفنا في اليوم الثالث. وكان السكان أرادوا أن ينزلونا بدار الضيافة المعدّة لجميع الغرباء، لكنه لم يتحمّل أن يرانا ننزل في مكان آخر غير منزله لأنني كنت بلديه. وطوال المدة التي قضيناها عنده كانت الجماعة تهدي لنا عجولاً أو خرفاناً أو دجاجاً. ولما رأيت كثرة الخيل بهذه المدينة سألت مضيفي لماذا لا يهدون إلينا منها، فأجابني بأن الفرس يعتبر أحقر الدواب في هذه الناحية وأنهم يهدون بالأحرى ماعزة أو تيساً. ونساء المدينة في غاية الجمال والبياض، يقدمن أنفسهن عن طيب خاطر للغرباء متى أمكنهن ذلك في تستر كامل.

الْمِدِينْ، مدينةٌ بنفس الإقليم

تقع المدين(84) بجوار المدينة السابقة على بعد أربعة أميال منها إلى جهة الغرب، وتوجد في شعب بين أربعة جبال عالية، فهي لذلك شديدة البرودة، يسكنها الصنّاع والتجار والأعيان، وتحتوي على نحو ألف كانون، وأهلها في حرب دائمة مع سكان المدينة (المجاورة).

وفي عهد شبابي استولى ملك فاس على هاتين المدينتين بواسطة أحد التجار الفاسيين بالطريقة التالية: كان هناك تاجر فاسي ـ كما قلنا ـ مولهاً بحب فتاة جميلة وعده أبوها بالزواج بها، لكن اختطفها في يوم العرس شخص كان قائد المدينة. غضب التاجر وعرف كيف يكظم غيظه طالباً من القائد أن يأذن له بالخروج، فرجع إلى فاس وقدّم لملكها هدية مشتملة على نوادر تلك البلدة ونفائسها، ثم طلب منه أن يُنعم عليه بإعارة مائة من الرماة وثلاثمائة من الفرسان وأربعمائة من الراجلين يتكفّل بالإنفاق عليهم

(84) اندثرت هذه المدينة ولا يعرف الآن اسمها ولا موقعها.

جميعاً، ووعده بالاستيلاء على المدينة في ظرف وجيز وحكمها باسم الملك، وبأداء سبعة آلاف مثقال، كخراج سنوي لتلك البلاد. قَبِل الملك هذا الاقتراح وأظهر كرمه فلم يحمّله غير نفقة الرماة، ثم أعطاه رسالة إلى عامل تادلا يأمره بأن يقدّم للتاجر مقدار كذا من الفرسان وكذا من الراجلين مع قائدَين. وبعد أن رتّب التاجر الأمور كلها نزل أمام المدينة وحاصرها ستة أيام، وبعد هذه المدة ذهب سكان المدينة إلى رئيسهم وأخبروه بأنهم لا يريدون جلب عداوة ملك فاس ولا التعرض أكثر من ذلك إلى أية خسارة، فخرج هذا القائد حينئذ من المدينة متنكّراً في زي سائل، لكنه عرف وأحضر أمام التاجر الذي أمر بأن يُقيّد بالسلاسل. وفي تلك الأثناء فتحت المدينة أبوابها وسلّمت نفسها للتاجر الذي كان يتصرف باسم ملك فاس، واعتذر له أهل الفتاة التي كان أحبها بأن القائد أخذها منهم قهراً، وأنها في الواقع زوجة التاجر لأنهم زوّجوه إياها أولاً. وكانت المرأة حاملاً من ثمانية أشهر، فانتظر التاجر حتى وضعت ثم تزوّجها. وحكم الفقهاء على القائد بالموت لأنه محصن زان، ورُجم في نفس اليوم. وقد احتفظ التاجر بحكم المدينة، ووطّد الأمن بين المدينتين المتعاديتين، وأوفى للملك بما وعد.

ذهبت إلى هذه المدينة وتعرّفت فيها على التاجر الذي كان يحكمها، ثم رجعت إلى فاس في نفس تلك السنة، حيث ذهبت لبيتي استعداداً للانطلاق إلى القسطنطينية.

تَكُودَاسْتْ، مدينة في هَسْكُورة

تقع مدينة تكوداست[85] على قمة جبل شاهق تحيط به أربعة جبال عالية، وتجاورها حدائق عجيبة مغروسة بجميع أنواع الأشجار المثمرة.

---

(85) لا تُعرف اليوم مدينة بهذا الاسم، وربما كان محرفاً عن تكندافت المدينة المعروفة حتى الآن على نهر تساوت غير بعيدة عن دمنات إلا بنحو 30 كلم.

رأيت فيها مشمشاً ضخماً في حجم الليمون، والكروم فيها معروشة مسندة إلى جذوع الأشجار، تعطي عنباً أحمر يسمى بِلُغَة البلاد بيض الدجاج، وهو اسم يطابق المسمّى في الواقع لضخامة حبه. ويكثر فيها الزيت والعسل، ومنه نوع أبيض كاللبن ممتاز، وآخر أصفر فاتح كالذهب، وكذلك الزيت جيد مذاقاً ونوعاً.

في داخل المدينة عيون ثرّة تكوّن جدولاً، يجري فُيدير بعض الطاحونات الصغيرة المقامة على ضفّتيه، وصنّاع كثيرون ينتجون الأدوات العادية. والسكان متحضّرون نسبياً، نساؤهم في غاية الجمال، يتحلّين بحلي جميل من الفضة، لأن الرجال يحصلون من بيع زيتهم على ربح وفير، يحملونه إلى مدن الصحراء المجاورة، أي إلى جهات الأطلس الواقعة في جنوب الجبل، كما يحملون الجلود ليبيعوها في فاس ومكناسة.

طول السهل بضاحية تكوداست نحو ستة أميال، وحقوله المزروعة بالقمح جميلة، والفلاحون يؤدّون الخراج للأعراب عن ممتلكاتهم.

في هذه المدينة أئمّة وفقهاء وعدد من الأشراف. وفي الوقت الذي ذهبتُ إليها كان أميرها شيخاً نبيلاً أعمى يُطيعه السكان وينقادون له، وكان في شبابه على ما قيل لي، رجلاً مقداماً ذا عزمة قوية، قتل بيده في جملة من قتل أربعة من رؤساء الأحزاب كانوا يضطهدون الرعية، وبعد موتهم سلك سبيل الرأفة تجاه السكان وأحسن معاملتهم حتى إن الأحزاب المتفرقة اتّحدت، وحلّ الوئام بين أفرادها بدرجة أن هؤلاء وأولئك لم يعقدوا بينهم أواصر المحبة فحسب، وإنما عقدوا أواصر القرابة. وفيما يخص حكمه، عاش الناس في حرية مطلقة، إلا أنه لم يكن بالإمكان البت في أمر دون أخذ رأي الحاكم وإذنه.

نزلتُ عند هذا الشيخ مع نحو ثمانية من الفرسان، فبرهن عن كرم عظيم، وقدّم لنا ولخيلنا كل ما نحتاج إليه من أنواع الأقوات. قضينا عنده ثلاث ليال نتحدث معه دون انقطاع، فحكى لنا ما فعله لإخماد الفتن في

المدينة، وشرح ذلك دون أن يخفي عني شيئاً، تماماً كما لو كنت أخاه. وعند انصرافي أردتُ أن أُعوّضه عمّاً أنفق علينا وأكرمنا به، لكنه رفض وقال لنا انه كان صديقاً لملك فاس وخادماً وفياً له، ومع ذلك فإنه لم يعاملنا هذه المعاملة لكوننا من بطانة الملك المقرّبين إليه، وإنما لما ورث عن أجداده من عادة إيواء كل شخص يمر بالبلاد وإكرامه، معروفاً لديهم كان أم غريباً، وذلك لوجه الله وحسب التقاليد النبيلة، ثم قال ان الله الذي يعطي كل شيء قدّر له أن يحصد في تلك السنة نفسها نحو سبعة آلاف مد من القمح والشعير، بحيث إن عدد الناس الذين كان يعولهم أقل بكثير مما لديه من المؤ ن الضرورية لهم، وله كذلك أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والماعز لا يأخذ من نتاجها سوى الصوف والشعر، لأنه يترك اللبن والجبن للرعاء الذين يعطونه مع ذلك شيئاً من السمن. وقال ان هذه الأشياء لا تباع في البلاد، لأن الناس كلهم يملكون الماشية الصغيرة بكثرة، لكن الجلود والصوف والزيت تباع في أماكن تبعد بمسيرة سبعة أيام أو ثمانية. وقال لنا أخيراً ان ملكنا إذا سلك لدى عودته من دكالة الطريق المحاذي لسفح الجبل، فإنه سيستقبله ويقدّم له ما يلزم من الخدمة كصديق وخديم له. وقد ودّعنا هذا الشيخ الكريم،وظللنا نلهج بشكره ومدحه في بقية سفرنا.

الجُمُعَــــة

تبعد مدينة الجمعة(86) عن تكوداست بنحو خمسة أميال، وقد بُنيت في أيامنا هذه على جبل عال تكتنفه جبال أخرى شامخة، محتوية على نحو خمسمائة كانون، ويوجد نفس هذا العدد في القرى الواقعة في هذه الجبال. وفيها عيون عديدة وحدائق كثيرة مليئة بكل أنواع الأشجار المثمرة، لاسيما

(86) مازالت معروفة إلى اليوم، ويدعوها الأهالي «فم الجمعة» بالقرب من سوق اتنين نتيفة.

بعدد وافر من أشجار الجوز الضخمة. وجميع التلال المحدقة بهذه الجبال مكسوّة بحقول الشعير والكثير من أشجار الزيتون.

يسكن هذه المدينة عدد وافر من الصنّاع، لاسيما الدبّاغين والسرّاجين والحدّادين، لأن هناك منجمًا للحديد على عمق كبير، ويصنع هؤلاء الحدّادون كثيراً من صفائح الخيل. يُصدّر أهل هذه البلدة جميع الأدوات التي يصنعونها مع بضائعهم إلى البلاد التي لا توجد فيها هذه المصنوعات والبضائع، ويستبدلونها بالعبيد والنيلة وجلود بعض الحيوانات التي تعيش في الصحراء، فيصنعون منها دروعاً جميلة في غاية المناعة. ثم يحملون هذه الأشياء إلى فاس، فيستبدلونها بالأغطية والمنسوجات وغيرها من الأشياء التي يستعملونها.

تبعد مدينة الجمعة كثيراً عن الطريق الرئيسية حتى إن من جاءها من الغرباء، هبّ جميع السكان لرؤيته حتى الأطفال، إذا كان مرتدياً لباساً غير اللباس المعتاد عندهم. ويحكم أهلها مجلس بلدي. وقد بنى هذه المدينة عامة أهل تكوداست على أثر خلاف نشب بين أعيانها، فلم يرد العامة أن ينحازوا إلى أي فريق، غادروا مدينتهم وأتوا يبنون الجمعة تاركين تكوداست للأعيان. وهكذا نجد الآن إحدى المدينتين عامرة بالأعيان فقط، وليس في الأخرى سوى عامة الناس.

بزُو، مدينةٌ في هَسْكورة

بزو مدينة قديمة مبنية على جبل عال، بعيدة عن المدينة السابقة بنحو عشرين ميلاً إلى جهة الغرب، يجري تحتها وادي العبيد على بعد نحو ثلاثة أميال. وسكان بزو كلهم تجار أمناء حسنو الهندام، يُصدّرون الزيت والجلود والأغطية إلى بلاد السودان. ويُنتج جبلهم كثيراً من الزيت والحبوب ومختلف أنواع الفواكه الطيبة. ومن عادتهم تجفيف عنب ذي لون ومذاق عجيبين، كما يملكون عدداً هائلاً من أشجار التين، وهي أشجار

عظيمة ضخمة، وتبلغ أشجار الجوز حداً متناهياً في الارتفاع لدرجة أن الحدأ تعشش فيها بأمان، لأنه لا يوجد إنسان يجرؤ على أن يتسلق في مثل ذلك الارتفاع. ومنحدر الجبل المؤدّي إلى الوادي محروث تماماً، بينما تمتد الحدائق الغنّاء إلى ضفة النهر.

ذهبتُ إلى بزو في نهاية شهر ماي، حيث كانت فاكهة المشمش والتين ناضجة، وأقمتُ عند إمام المدينة بجوار مسجد في غاية الجمال، تمر بالقرب منه ساقية تخترق سوق المدينة.

جبل آيْتْ وَاوْزْكِيتْ

هذا الجبل[87] يقابل ناحية هسكورة على منحدر الأطلس المتجه إلى الجنوب. سكانه كثيرون، وهم رجال في غاية الشجاعة عندما يحملون السلاح، سواء منهم الراجلون والفرسان. يملكون خيولاً كثيرة قصيرة القامة، وتنبت في جبلهم كمية كبيرة من النيلة والشعير، غير أنه لا ينبت ولو حبة قمح، بحيث لا يقتاتون إلا الشعير، ويُرى فيه الثلج طوال السنة. والأعيان والفرسان في السكان عديدون، ولهم أمير يحكمهم بصفته رئيساً لهم، يأخذ جبايات الجبل ليصرفها في الحروب التي تنشب بين قومه وسكان جبل تنزيتة، ويعمل تحت إمرته نحو عشرة آلاف فارس، بينما يمثّل الأعيان والفرسان مثل هذا العدد بالتقريب، ويعمل تحت إمرته مائة من رماة البنادق المختلفة.

وفي الوقت الذي ذهبتُ إلى هذا البلد كان الرئيس فيه رجلاً في غاية الكرم، يحب قبل كل شيء جميع ما يُقدَّم إليه من هدايا ويكال له من مديح، ولم يكن له نظير في اللطف، إذ يعطي كل ما يملك وينشرح

(87) يدل الموقع على أن المقصود جبل آيت واوزكيت. وقد حرف هذا الاسم في النسخ أو الترجمة إلى تينواوز.

لاستماع اللغة العربية الفصحى ولو أنه لا يفهمها، ويستخفّه الطرب عندما ينشده الشعراء ما نظموه في مدحه، ولما أرسل ملك فاس عمي سفيراً إلى ملك تنبكتو[88] أخذني معه ووصلنا إلى ناحية درعة التي تبعد عن مقر هذا الرئيس بنحو مائة ميل، فبلغه صيت عمي الذي كان في الواقع خطيباً مصقعاً وشاعراً ظريفاً. أرسل ذلك الرئيس خطاباً إلى حاكم درعة يرجو منه أن يبعث إليه بعمي لرغبته في رؤيته والتعرّف عليه، فاعتذر عمي قائلاً إنه لا يمكن لرسول ملك أن يذهب لزيارة الرؤساء الموجودين خارج طريقه ويؤخّر خدمة الملك، إلا أنه تفادياً للظهور بمظهر الكبرياء سيبعث إليه بابن أخيه يسلّم عليه، وأرسلني ببعض الهدايا اللطيفة المشتملة على ركابين مزخرفين بنقوش مغربية قيمتهما خمسة وعشرون مثقالاً، ومهمازين مزخرفين كذلك قيمتهما خمسة عشر مثقالاً، ونطاقين من الحرير مفتولين بخيوط ذهبية أحدهما بنفسجي والآخر لازوردي، وكتاب في غاية الجمال جديد الجلد عن حياة صلحاء افريقيا، وأخيراً قصيدة في مدح هذا الرئيس. توجّهتُ إليه في رفقة فارسين، ودام السفر أربعة أيام نظمتُ خلالها قصيدة أخرى في مدح الرئيس المذكور.

ولما وصلتُ إلى المدينة كان الرئيس يتهيأ للخروج إلى الصيد في موكب فخم، وما كاد يعلم بقدومي حتى أمر بإحضاري إليه فوراً. وبعد أن سلّمتُ عليه وقبّلتُ يده سألني كيف حال عمي، فأجبته بأنه بخير وأنه في خدمة جنابه. أمر لي حينئذ بمنزل أقيمُ فيه، وطلب مني أن أستريح ريثما يعود من الصيد، وقد رجع قبل الوقت المنتظر ليلاً، وأرسل في طلبي للالتحاق بقصره، فتقدّمتُ إليه وقبّلتُ يده مرة أخرى، ثم أطريته كثيراً وقدّمتُ إليه الهدايا التي سُرّ بها غاية السرور على ما ظهر لي، وناولته أخيراً قصيدة عمي التي أمر أحد كتّابه بقراءتها. وبينما كان هذا الكاتب يشرح له

---

(88) هو بلا شك الأسكيا محمد الكبير رأس أسرة الأسكيين ملوك سنغاي، وقد حكم بلاد السودان قرابة نصف قرن (898 - 934 هـ/ 1493 - 1528).

محتوى القصيدة نقطة نقطة، أخذت تظهر على وجهه أَمارات الغبطة والارتياح. ولما انتهت القراءة والترجمة جلس الرئيس لتناول الطعام وأجلسني على مقربة منه، وكان هذا الطعام متركّباً من لحم الغنم شواء وطبيخاً ملفوفاً في مرقّقات من العجين المتناهي في الدقة تشبه شريطيات (لازانيا) قليلاً إلا أنها أمتن منها وعجينها أغلظ. ثم أحضروا الكسكسو والفتات وألواناً أخرى من الأطعمة لم أعد أتذكّرها الآن.

ولما انتهينا من الأكل قمتُ وقلت: مولاي! لقد بعث عمي إلى جنابكم بهدية صغيرة هي جهد فقيه فقير، ليعبّر لكم عن حسن نيّته وتحتفظوا له بحيّز صغير في ذاكرتكم. أما أنا ابن أخيه وتلميذه فإني لما كنت لا أملك وسيلة أخرى للتعبير عن ولائي لكم، سوف لا أهدي لكم غير كلمات، ومهما كانت ضآلتي في الواقع فإنني أرغب في أن أُعدّ من خدّام جنابكم. وبعد ذلك أخذت أنشد قصيدتي. والرئيس أثناء ذلك يطلب تارة أن يُشرح له ما ندّ عن فهمه، وينظر أخرى إلي أنا الذي لم أكن آنذاك سوى غلام ابن ست عشرة سنة[88م] ولما انتهيت من الإنشاد ودّعني لأنه كان متعباً بالصيد، وساعة النوم قد حانت. وفي صباح الغد الباكر استدعاني لتناول الفطور معه، وبعد الأكل أعطاني مائة مثقال أُقدّمها لعمي وغلامين يخدمانه أثناء سفره، وأهدى إلي شخصياً خمسين مثقالاً وفرَساً، وأعطى كُلاً من الرجلين اللذين يرافقاني عشرة مثاقيل. وكلّفني أن أقول لعمي إن هذه الهدايا القليلة إنما هي لشكره على قصيدته، وليست في مقابل الهدايا التي تسلّمها منه، لأنه يؤجّل التعبير له عن امتنانه العظيم إلى ما بعد رجوعه من تنبكتو. وأمر أحد كتّابه أن يدلّني على الطريق، ثم صافحني وأذن لي بالانصراف في نفس ذلك الصباح، إذ كان عليه أن يشنّ غارة على أحد خصومه. فودّعت مضيفي حاملاً أطيب ذكرى عنه وعدتُ

(88م) في الترجمة الفرنسية لطمبورال (طبعة ليون، سنة 1566، ص 99): لم تكن سنه تتجاوز السابعة عشرة.

إلى عمي. وقد أبيت إلا أن أروي هذه القصة لأبرهن لكم على أنه يوجد بإفريقيا كذلك نبلاء ورؤساء في غاية اللطف مثل رئيس هذا الجبل.

جبل تَنْزيتة

تنزيتة[89] من جبال الأطلس، يبتدىء غرباً عند نهاية الجبل السابق ويمتد شرقاً إلى جبل دادس. وهو جبل يعجّ بالسكان ويشتمل على خمسين قصراً كلها مسوّرة بالصلصال والآجر النيء، ولا ينزل فيه المطر إلا نادراً لموقعه في الجنوب. وجميع هذه القصور مبنية على طول نهر درعة، لكنها تبعد عنه بمسافات متفاوتة، بعضها على بعد أربعة أميال وبعضها على ثلاثة.

ويحكم هذه الناحية رئيس كبير يعمل تحت إمرته نحو خمسمائة وألف فارس ومثلهم عدداً من الراجلين، كالرئيس الذي ذكرناه آنفاً[90]. وبين هذين الرئيسين قرابة رحم، إلا أنهما عدوّان لدودان متحاربان على الدوام. وينبت النخيل في معظم هذا الجبل، وسكانه فلاحون أو تجار، كما ينبت فيه الشعير بكثرة كاثرة، لكن نقص القمح واللحم عندهم عظيم لقلة الماشية. ويجبي الرئيس من جبله عشرين ألف مثقال ذهباً؛ غير أن مثقال هذه الناحية لا يزن غير ثلثي (الدوكا) الإيطالية، أي اثني عشر قيراطاً[91].

هذا الرئيس صديق حميم لملك فاس يبعث إليه دائماً بهدايا عظيمة، كما أن ملك فاس يكافئه على مجاملته ويرسل إليه خيلاً بسروج فخمة

---

(89) تانزيتة الحالية مقاطعة صغيرة شمال زاكورة.

(90) هو رئيس جبل آيت واوزكيت.

(91) يزن القيراط 0,1962 كرام، فيكون وزن مثقال أو دينار جبل تانزيتة هو: $0,1962 \times 12 = 2,35$ كرام بالتقريب.

وأغطية قرمزية وثياباً حريرية وخيمة جميلة. وإني لأتذكر أن هذا الرئيس أرسل (مرة) إلى ملك فاس هدية سنية مشتملة على خمسين عبداً أسود، وخمسين أمة كذلك، وعشرة خصيان، واثني عشر من جمال الركوب، وزرافة وعشر نعامات وستة عشر من سنانير الزباد (قطاط الغالية) ورطل من المسك الخالص، وآخر من الزباد (الغالية) ورطل ثالث من العنبر الأشهب، ونحـو ستمائـة جلد حيـوان يـدعى اللمط (المهـا) تُصنـع منه دروع خفيفة جداً، قيمة كل جلد منها بفاس ثمانية مثاقيل. وتُقدّر قيمة العبيد السود بعشرين مثقالاً للرأس، والإماء بخمسة عشر مثقالاً للواحدة، والخصيان بأربعين مثقالاً للواحد. وتبلغ قيمة الجمال في بلاد هذا الرئيس خمسين مثقالاً للجمل، وسنانير الزباد مائتي مثقال للسنور، والمسك والزباد والعنبر الأشهب ستين مثقالاً للرطل من كل واحد منها. وكان في هذه الهدية أشياء أخرى لم أُسجّل عددها، كالتمور السكرية وبعض توابل أتيوبيا.

كنت حاضراً عندما حُملت هذه الهدايا الفخمة، وكان الذي قدّمها له زنجياً قصيراً غليظاً، بربري اللسان والعادات فعلاً، حاملاً رسالة من سيده خاطها في إحدى ثنايا ردائه، وطلب من الملك أن يحلّ الخياطة بنفسه ليبرهن عن الاحترام الذي يكنّه لسيده، لأنه لم يرد أن يضع يده على رسالة أقسم ألاّ يمسّها. ضحك الملك كثيراً من سلوك هذا الرجل، وحلّ أحد كتّابه خياطة الثنية التي فيها الرسالة، وكانت محررة بأسلوب معقّد غامض على طريقة الخطباء القدماء، وزاد في الطين بلة الكلمة التي ألقاها السفير الزنجي بصوت جهوري، فلم يتمالك الملك والحاضرون من الضحك، لكنهم ستروا وجوههم بأيديهم أو بأطراف ثيابهم. ومع ذلك أمر الملك بأن يُكرم هذا الرسول غاية الإكرام خلال الأيام القليلة التي قضاها عنده، وأنزله عند إمام الجامع الكبير وأجرى النفقة عليه وعلى الأربعة والعشرين شخصاً من أصحابه وغلمانه، إلى أن أعاده إلى بلاده.

جبل غُجْدَامَة

غجدامة جبل متاخم للجبل المتقدم، لكنه غير مسكون إلا في منحدره الشمالي، أما المنحدر المطلّ على الجنوب فخال تماماً. وسبب ذلك أن ملك مراكش ابرهيم، هزمه تلميذ المهدي[92] أشنع هزيمة وفرّ إلى هذا الجبل، فرقّ السكان له وأرادوا أن يعينوه، لكن الحظ خانهم وصبّ تلميذ المهدي جام غضبه عليه فأحرق البيوت والقرى، وقتل بعض الناس وطرد الآخرين من الجبل.

يُقيم بالقسم المسكون من الجبل قوم من أرذل الناس يرتدون جميعاً الأسمال ويتجرون في الزيت، ومن هذه التجارة يعيشون. ولا ينبت هناك شيء غير الشعير وشجر الزيتون. ويملك هؤلاء القوم كثيراً من الماعز والبغال المتناهية في القصر، لأن الخيول قصيرة القامة جداً. وتحمي طبيعة الجبل حرية هؤلاء السكان.

تِسَاوِينْ

تتكوّن تساوين من جبلين أحدهما بجوار الآخر، يبتدئان من تخوم الجبل السابق غرباً، وينتهيان عند جبل تكوداست. يسكنهما قوم فقراء جداً، لأنه لا ينبت هناك غير الشعير والدخن. وينبع في هذين الجبلين نهر يجري في سهل بديع، لكن أهل البلاد لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً في هذا السهل لأنه في قبضة الأعراب. وقد آن الأوان للحديث عن تادلا.

---

(92) يقصد ابراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي، وعبد المؤمن بن علي الموحدي تلميذ محمد بن تومرت. والإشارة إلى الحروب التي وقعت في نهاية دولة المرابطين وانتهت بزوال ملكهم عام 540/1145م.

ناحيَةُ تَادْلا

تادلا إقليم غير شاسع، يبتدىء من نهر العبيد وينتهي عند نهر أم الربيع عند منبعه، كما ينتهي جنوباً بين جبال الأطلس، وشمالاً في المكان الذي يلتقي فيه وادي العبيد ونهر أم الربيع. وتمثّل هذه الناحية تقريباً شكل مثلث، لأن النهرين اللذين ينبعان من الأطلس يجريان نحـو الشمال ويقترب أحدهما من الآخر إلى أن يلتقيا(93).

تَفْزة، حاضرةُ تادلا

تفزة هي حاضرة تادلا، بناها الأفارقة في منحدر الأطلس على بعد نحو خمسة أميال من السهل، ولها سور مبني بنوع من الحجر الكلسي المدعو عند أهل البلدة بتفزة، ومن ثم جاءت تسمية المدينة.

سكانِ تفزة كثيرون أثرياء، وفيها نحو مائتي دار لليهود، كلهم تجار أو صنّاع، يَقْصد تفزة عدد وافر من التجّار الغرباء ليشتروا منها بعض المعاطف السود التي تنسج قطعة واحدة بغطاء الرأس، ويسمى هذا اللباس

(93) الواقع أن أم الربيع يجري من الشمال إلى الجنوب الغربي، ووادي العبيد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. وتدل الأماكن التي سيتحدث عنها المؤلف هنا أنه كان يدخل في تادلا الكتلة الجبلية غرب دادس العليا، وكتلة مكونة أيضاً التي يجاوز ارتفاعها 4000 متر، والتي يسكن الأمكرانيون في سفوحها الجبلية.

البرنس، يباع عدد منه في إيطاليا وإسبانيا حيث يوجد بكثرة. ويباع بتفزة على الخصوص أدوات مصنوعة بفاس، كالأقمشة والسكاكين والسيوف والسروج والشكائم (اللجم) والقلنسوات والابر وأدوات الخياطة. فإذا أراد التجار بيع هذه الأشياء عن طريق المبادلة سَهُل عليهم ذلك، لأن لأهل البلاد بضائع محلية مختلفة، كالرقيق والخيل والبرانس والنيلة والجلد والقرطبي إلخ، وإذا أرادوا بيعها نقداً كان عليهم أن يخفّضوا الثمن كثيراً وتؤدّى لهم القيمة حينئذ ذهباً بقطع شبيهة بالمثاقيل لكنها غير مسكوكة. ولا تروج نقود الفضة في هذه الناحية.

يرتدي رجال تفزة لباساً حسناً، وكذلك نساؤهم، وهن جميعاً ظريفات. وفي المدينة عدد وافر من المساجد والأئمة والقضاة.

وكانت تفزة في القديم تُحكم على شكل جمهورية، وبعد ذلك حدثت فيها خلافات وانقسامات، وراح الناس يقتتلون فيما بينهم حتى إنه في أيام شبابي قَدِم رؤساء فريق منهم إلى فاس وطلبوا من الملك التفضّل بمساعدتهم على العودة إلى مدينتهم، وفي مقابل ذلك تكفّلوا له بالعمل على نشر نفوذه هنالك. اهتبل الملك تلك الفرصة وأصحبهم ألفي فارس خفيف وسبعمائة من رماة البنادق المختلفة، كلهم راكبون على الخيل. وكتب فضلاً عن ذلك إلى أعراب من رعاياه يقال لهم زعير[94] يستطيعون تهييء نحو أربعة آلاف فارس، يأمرهم بمساندة رؤساء هذا الفريق متى احتاجوا إليهم. وعين الملك لهذه الحملة فارساً مغواراً يدعى الزرانكي.

بعد أن حشد هذا القائد جيشه أخذ يهاجم تفزة، لأنه وجد الفريق المعادي قد تحصّن في المدينة، واستغاث بجيرانه من أعراب بني جابر، وهم نحو خمسة آلاف فارس. ولما رأى القائد ذلك، ترك في الحال حصار المدينة

(94) هكذا في الأصل بالهاء: زهير، ولعل الصواب زعير لأنهم القبيلة القوية الشهيرة بالقرب من بلاد تادلا.

وأخذ يحارب الأعراب، فهزمهم جميعاً بعد ثلاثة أيام وبقي سيد المعركة. وحينما رأى أهل تفزة ألّا أمل لهم في مساعدة خارجية بادروا بإرسال مفاوضين لاقتراح السلم، ووعدوا بأن يعوّضوا الملك مصاريف الحملة ويؤدّوا له زيادة على ذلك عشرة آلاف مثقال كل سنة، وقبلوا أن يعود الفريق الذي غادر المدينة إليها شريطة ألّا يتدخّلوا في أي نشاط إداري أو أية مصلحة.

أعلم القائد من كانوا معه في الخارج بفحوى المفاوضات فأجابوه: «نحن نعرف يا سيدي قيمة الفرصة التي أتيحت لنا، أَدْخِلنا إلى المدينة ونحن نتعهّد لك بدفع مائة ألف مثقال على الفور، وحتى أكثر من ذلك. وسوف لا نرتكب أي تعسّف ولا ننهب أي منزل، وإنما سنلزم خصومنا بأداء مداخيل ممتلكاتنا التي استغلّوها خلال ثلاث سنوات، والتي نريد أن ندفعها لك تعويضاً عن كل النفقات التي بذلت لصالحنا. وتبلغ هذه المداخيل ثلاثين ألف أوقية على الأقل. ثم اننا سنمكّنك من محصول المدينة الذي يبلغ نحو عشرين ألف مثقال. وبعد ذلك نستخلص من اليهود جزية سنة أو سنتين إلى حدود عشرة آلاف مثقال».

ما كاد القائد يسمع هذه المقترحات حتى أرسل إلى أهل المدينة يقول لهم:

«لقد وعد الملك النبلاء المنفيين بأن يساعدهم بكل ما يمكن، لذلك فهو يفضل أن يكون حكم المدينة بأيديهم لا بأيديكم على أي حال. غير أنني أعلمكم أنكم إذا أردتم تسليم مدينتكم إلى الملك فلن يلحقكم أي أذى، وإذا تشبثتم بعنادكم فإن لدي بعون الله ورعاية الملك من الوسائل ما يكفي لإرغامكم على أداء كل ما يجب أداؤه».

لما أعلن هذا الخبر حدث شقاق في صفوف السكان، منهم من أراد الخضوع للملك، ومنهم من أراد الحرب، حتى إنهم شهروا السلاح ليقاتل بعضهم بعضاً. جاء الجواسيس إلى القائد يخبرونه بما حدث، فعبأ على

الفور نصف جيشه وأمر رماة البنادق المختلفة بمهاجمة المدينة، ودخلها بعد ثلاث ساعات دون إراقة قطرة دم من رجاله. ذلك أن الجماعة التي اختارت الخضوع للملك تجمعت وقصدت أحد أبواب المدينة الذي كان مسدوداً بجدار من الطين، وأخذت تحطمه من الداخل في حين كان القائد يفعل مثل ذلك من الخارج، لأنه لم يكن أحد فوق الأسوار يمنعهم من ذلك، ولأن الناس في داخل المدينة كانوا يواصلون القتال إلى أن فتح الباب. ولما دخل القائد إلى المدينة رفع راية الملك على السور وفي وسط الساحة، وأرسل فرسانه يقومون بدورية حول المدينة ليمنعوا من أراد الفرار منها، ونشر في الحين قراراً باسم ملك فاس يمنع تحت طائلة الاعدام أي واحد مهما كان مدنياً أو عسكرياً من ارتكاب أية عملية نهب أو قتل، فعاد الهدوء فوراً إلى المدينة، وسقط جميع رؤساء الفريق المعادي في الأسر. أخبر القائد هؤلاء الرؤساء أنهم سيبقون في الأسر إلى أن يتم تعويض الملك عن جميع ما أنفقه طوال شهر على هذه الفرقة من الفرسان، وتبلغ النفقة اثني عشر ألف مثقال. دفع نساء الأسرى وأقاربهم هذا المبلغ وكاد يطلق سراحهم، فإذا رجال الفريق الموالي للملك يأتون للمطالبة بتعويضهم عن مداخيل أملاكهم مدة ثلاث سنوات. أجابهم القائد أنه لا دخل له في هذه المسألة، وأن عليهم أن يعرضوا خلافهم على الفقهاء ليثبتوا حقهم، غير أنه من الممكن أن يحتفظ بخصومهم في السجن تلك الليلة. وقال الأسرى للقائد هل تخلف وعدك يا سيدي؟ فقد وعدتنا أن تطلق سراحنا بعد أن نعوض الملك! فأجابهم القائد: اني لا أخلف وعدي، فلست أحتفظ بكم الآن في السجن لحساب الملك، ولكن لحساب من يطالبونكم بأموالهم، وسنتصرف حسب ما يقضي به القضاة والفقهاء، وربما كان ذلك في صالحكم.

اجتمع في صبيحة اليوم التالي مجلس الفقهاء والقضاة بمحضر القائد، وتناول المدافعون عن السجناء الكلام فقالوا: أيها السادة، لقد احتفظ أقرباؤنا بأموال خصومهم حقاً، لكن ذلك وقع بسبب أن أجداد هؤلاء

الخصوم احتفظوا بأموال أجداد سجنائنا مدة تزيد على عشرين سنة. فأجاب ممثل الفريق الخصم: أيها السادة! لقد مر أكثر من مائة وخمسين سنة على الأحداث التي أشاروا إليها، ولم تبق في شأنها شهادة ولا بينة، وعقب على ذلك ممثل السجناء بقوله: الحجة ممكنة أيها السادة، لأن القضية معلومة لكافة الناس. فأجاب الآخر: لا يمكن اعتبار الشهرة العامة حجة، فمن يعرف مدة الزمن الذي احتفظ فيه أجداد الذين أمثلهم بالأموال المذكورة؟ وربما كان لذلك التصرف ما يبرره، إذ يقال ويشتهر أيضاً أن أجداد السجناء ثاروا ضد ملك فاس، وأن تلك الأموال كانت تخص الخزينة الملكية.

تظاهر القائد حينئذ بالشفقة على السجناء خدعة وقال لوكيل خصومهم: لا ترهقوا هؤلاء السجناء المساكين! فأجابه: قد يبدو لكم أنهم مساكين يا سيدي القائد، ولكن لا يوجد من بين هؤلاء المساكين من لا يستطيع أن يجد خمسين ألف مثقال. وعندما تزاح عنهم الأغلال سترونهم يطاردونكم. لقد أخذتموهم على حين غرة، لذلك لم تجدوا عندهم نقوداً. ولما سمع القائد هذا الكلام أخذه الجزع فجأة وفض المجلس متظاهراً بالرغبة في تناول وجبة الغداء، وأمر باحضار السجناء أمامه وقال لهم: أريد أن ترضوا خصومكم، والا أرسلتكم إلى فاس حيث ستلزمون بأداء ضعف ذلك. عند ذلك أرسل الأسرى في طلب نسائهم وأمهاتهم وقالوا لهن: حاولن أن تتخلصن من هذه الورطة، فقد زعموا أننا في غاية الغنى وليس لنا ثمن ما أخبروا به القائد. وهكذا لم تمض ثمانية أيام حتى حمل لخصوم الأسرى بمحضر القائد ثمانية وعشرون ألف مثقال على شكل خواتم وأساور وغيرها من حلي النساء، لأن النساء أردن أن يظهرن خدعة أنهن لا يملكن غير ذلك. ولما تم الأداء قال القائد للسجناء: «أيها النبلاء، لقد كتبت إلى الملك في هذه المسألة وآسف لأني كتبت، إذ لا أستطيع اطلاق سراحكم قبل أن يأتيني جوابه، وسوف تحررون على أي حال لأنكم سددتم ما وجب عليكم للجميع. فاصبروا اذن على ما أصابكم».

استدعى القائد مستشاريه تلك الليلة وقال لهم: كيف يمكننا أن نستخلص مالاً آخر من هؤلاء الخونة دون أن يتهمنا السكان بالخداع واخلاف الوعد؟ فدبر كاتب هذه السطور مكيدة وقال: سيدي القائد! تظاهر غداة غد بأنك تلقيت رسالة من الملك يأمرك بقطع رؤوس هؤلاء القوم، وتظاهر في نفس الوقت بالشفقة عليهم، وعدم الرغبة في ارتكاب حماقة قتلهم، وقل بأنه يبدو لك من الأفضل والحالة هذه أن ترسلهم إلى فاس!

وكتبنا في الصباح رسالة زعمنا أنها بخط الملك، وأمر القائد باحضار جميع السجناء، وعددهم اثنان وأربعون رجلاً، وقال لهم مبدياً تأثراً عميقاً: أيها السادة النبلاء! وصلني خطاب الملك حاملاً خبراً سيئاً. أرى أن جنابه لا يعرف حقيقة ما قمتم به ويعتبركم ثواراً ضد التاج، وهذا هو السبب الذي من أجله أمرني بأن أضرب أعناقكم. واني لآسف على ذلك، لأن الجميع سيظن أنني أخلفت وعدي، لكنني لست سوى خادم ولا يسعني إلا أن أمتثل لما أمرت به. أخذ البؤساء يبكون ويطلبون العفو من القائد، فتظاهر هو أيضاً بالبكاء وقال لهم: «لا أرى أفضل لكم ولي لأتخلص من جميع المسؤوليات المتعلقة بأعمالكم من ارسالكم إلى فاس، فقد يعفو عنكم الملك أو يرى رأيه فيكم وسأرسلكم بعد حين مع مائة فارس».

زاد حينئذ انتحاب الأسرى وتضرعهم إلى الله والقائد. وإذاك تقدم شخص ثالث إلى القائد وقال له: «مولاي، ان صاحب الجلالة الملك أوفدك هنا نيابة عنه بحيث يمكنك القيام بما تراه أنسب فتريث قليلاً لترى ما هي امكانيات هؤلاء النبلاء، وهل يستطيعون أن يدفعوا شيئاً من المال لإنقاذ أرواحهم، ثم أخبر الملك بأنك وعدتهم ألا تقتص منهم، وتوسل إلى جلالته أن يعفو عنهم كرامة لمنزلتك عنده، فربما مال الملك لصالح المال».

أخذ السجناء التعساء يتوسلون إلى القائد أن يعمل بهذه النصيحة،

ويقولون انهم سيدفعون عن طيب خاطر إلى الملك ما يشاء، ويزيدون على ذلك هدايا عظيمة للقائد. تظاهر هذا الأخير بأنه قبل ذلك عن كره، ثم فاجأهم بقوله: ماذا يمكنكم أن تدفعوا إلى الملك؟ فقال أحدهم: ألف مثقال، وقال آخر: خمسمائة، وثالث: ثمانمائة. فأجاب القائد بأنه لا يريد أن يكتب إلى الملك بمثل هذه المبالغ الضئيلة، ومن الأفضل أن تذهبوا إلى فاس فربما قبل الملك اقتراحاتكم! تضرعوا إلى القائد وما زالوا يستعطفونه إلى أن قال لهم: أنتم اثنان وأربعون نبيلاً في غاية الثروة، فإذا قبلتم أن تؤدوا ألفي مثقال عن كل فرد كتبت بذلك إلى الملك ورجوت خلاصكم، وإلا أرسلتكم إلى فاس! قبل السجناء عن طيب خاطر أن يجمعوا المبلغ كاملاً شريطة أن يشارك كل واحد بحسب مقدرته، فأجابهم القائد: «افعلوا ما شئتم» وطلبوا مهلة خمسة عشر يوماً، وتظاهر القائد بالكتابة إلى الملك من جديد. وبعد مرور اثني عشر يوماً صرح القائد بأن الملك عطف عليه وقبل الصفح عنهم وأطلعهم على خطاب مزور. وفي الأيام الثلاثة التالية حمل أهل السجناء المبلغ ذهباً، وقدره أربعة وثمانون ألف مثقال، فأمر القائد بوزن هذا الذهب وعجب كثيراً من وجود مثل ذلك العدد في مدينة صغيرة كهذه عند اثنين وأربعين شخصاً. وأطلق سراح السجناء في الحال، وكتب إلى الملك بتفاصيل كل ما جرى طالباً منه أن يأمره بما عليه أن يفعل.

بعث الملك في الحين اثنين من كتابه مع مائة فارس لاستلام هذا المبلغ، فحازاه ورجعا تواً إلى فاس. وبعد ذلك قدم النبلاء المذكورون إلى القائد هدية قدرها نحو ألفي مثقال خيلاً وعبيداً ومسكاً معتذرين بأنهم لم يبق لديهم مال نقداً، شاكرين اياه جزيل الشكر على أن أنقذ حياتهم. وهكذا بقيت هذه الناحية خاضعة لملك فاس، تحت حكم القائد الزرانكي الذي سيقتله الأعراب بعد ذلك غدراً، ويحصل ملك فاس من هذه الناحية على خراج سنوي يبلغ عشرين ألف مثقال.

لقد أسهبت قليلاً في هذه القصة الطويلة لأنها وقعت بمحضري وشاركت فيها، ولأنني ربحت فيها أيضاً دريهمات بما دبرت من حيلة، ورأيت فيها لأول مرة مثل ذلك المبلغ من الذهب. وأعلم أن ملك فاس لم يرقط مثل هذا المبلغ، لأن هذا الملك المسكين الذي يجبى إليه كل عام نحو ثلاثمائة ألف مثقال لم تتوفر لديه قط في الخزينة مائة ألف ولا كانت أيضاً لأبيه. وترون من خلال هذه الحكاية أية خدعة وأية مناورة يلجأون إليها لابتزاز الأموال، وكان هذا الحادث عام 915. وأغرب من هذا حالة شخص آخر يهودي أدى وحده من المال أكثر مما أداه النبلاء مجتمعين، لأنه أعلن عن استغراق ذمته. وكان ذلك سبباً في الحكم على اليهودي شرعاً بغرامة تبلغ خمسين ألف مثقال لأنهم حابوا الفريق المناوىء للملك. وكنت مع الأمين المنتدب حينما استلم هذه الغرامة.

أفْزَا، مدينةٌ في تَادْلاَ

أفزا[95] مدينة صغيرة على بعد نحو ميلين من تفزا، تشتمل على قرابة خمسمائة كانون، وقد بنيت على تل في سفح الأطلس. يسكنها عدد كثير من المسلمين واليهود، وتصنع فيها البرانس بكثرة، وأهلها جميعاً تجار أو فلاحون يحكمهم أهل تفزة. نساء هذه البلدة ماهرات جداً في خدمة الصوف: يصنعن منه البرانس والأكسية الفاخرة، فيكسبن هكذا من المال أكثر مما يكسبه الرجال. يمر بين أفزا وتفزا نهر يدعى درنة، ينبع من الأطلس ويمر بين تلال قبل أن يسيل في السهل إلى أن يصب في نهر أم الربيع. ويوجد في هذه التلال على ضفة النهر حدائق في غاية الجمال مليئة بجميع أنواع الأشجار المثمرة التي تشتهيها الأنفس. وأصحاب هذه الحدائق في غاية الكرم والظرف، بحيث يدخل كل تاجر غريب إلى حدائقهم فيأكل من ثمارها ما يشاء.

---

(95) يدعو مارمول هذه المدينة (تبزة)، ويقول انها في عصره (1543) عانت كثيراً من ويلات الحرب، ويفترض وجودها في موقع تغزيت عند خروج نهر درنة إلى السهل.

يبطىء أهل أفزة كثيراً في انجاز ما يعدون بتقديمه من بضاعة، وهكذا تعود التجار أن يؤدوا ثمن البرانس المطلوبة مسبقاً، على أن يتوصلوا بها بعد ثلاثة أشهر، لكن عليهم أن ينتظروها سنة.

ذهبت إلى هذه المدينة في الوقت الذي جاء جيش ملكنا إلى تادلا فخضعت له في الحين. وفي المرة الثانية التي جاء إليها القائد، أهدوا إليه خمسة عشر فرساً وخمسة عشر عبداً، كل عبد يمسك بزمام حصان، كما أهدوا إليه مائتي رأس من الغنم وخمس عشرة بقرة، فاعتبر القائد أهل أفزة مخلصين للملك.

آيْتْ عْتَابْ، مدينةٌ في تَادْلاَ

آيت عتاب مدينة أسسها الأفارقة في منحدر جبل شاهق على بعد عشرة أميال غربي المدينة السابقة(96)، وهي كثيرة السكان، عامرة بالنبلاء والفرسان. ولما كانت تصنع بها كمية عظيمة من البرانس فإن التجار الغرباء يكثرون فيها على الدوام. يرى الثلج باستمرار في قمة الجبل المشرف على المدينة، وجميع الشعاب المجاورة مليئة بالكروم والبساتين الجميلة، ولا يباع أي ثمر لكثرة ما هنالك من ثمار. والنساء شديدات البياض والسمن والظرف، متحليات بحلي الفضة، سود العيون والشعر. والسكان ذوو نخوة فائقة، لم يخضعوا قط لملك فاس لما استولى على تادلا ولم يدينوا له بالطاعة، وإنما انتخبوا نبيلاً منهم قائداً لهم، وبعد أن جهزوا ألف فارس تجرأوا على الوقوف في وجه قائد الملك الزرانكي وحاربوه بعنف إلى أن كاد عدة مرات يفقد كل ما حصل عليه، فأرسل الملك أخاه على رأس جيش لمساعدة قائده لكن دون جدوى. واستمرت الحرب ثلاثة أعوام إلى أن سم يهودي رئيس الثوار بايعاز من الملك، فاستسلمت المدينة حينئذ عام 921.

(96) الصواب: أنها على بعد 40 ميلاً من مدينة أفزا، في الجنوب الغربي منها.

آيْتْ عِيَاضْ، مدينةٌ بنفس الاقليم

آيت عياض(97) مدينة واقعة على جبل صغير في الأطلس من تأسيس الأفارقة، فيها نحو ثلثمائة كانون. وهي مسورة من ناحية واحدة هي التي تتجه إلى الجبل، وليس لها سور من الجهة التي تشرف على السهل، لأن الصخور كافية لحمايتها. وتبعد عن المدينة السابقة بنحو اثني عشر ميلاً. وفي داخل المدينة مسجد صغير لكنه في غاية الجمال، حفرت حوله قناة تشبه ساقية ماء. يسكن هذه المدينة نبلاء وفرسان، ويرى فيها أيضاً عدد كثير من التجار الغرباء والقاطنين، وكذلك من اليهود الذين يشتغل بعضهم بالتجارة وبعضهم بالصناعة. وتنبع في المدينة عدة عيون تجتمع مياهها لتكون جدولاً يسيل تحتها، وتقوم على ضفتيه بساتين عديدة للخضر والفواكه تنتج أصنافاً جيدة من العنب والتين، وفيها كذلك أشجار جوز باسقة، بينما تمثل حدور الجبل أرضاً مغروسة بأجمل أشجار الزيتون.

نساء هذه المدينة لطيفات أكثر منهن جميلات، يلبسن لباساً أنيقاً ويتزين برشاقة بحلى الفضة خواتم وأساور وغيرها من أنواع الزينة.

أرض السهل خصبة كذلك تنتج كل أصناف الحبوب، وأرض الجبل جيدة لإنبات الشعير ورعي الماعز. وكانت مدينة آيت عياض في أيامنا هذه ملجأ للثائر رحمون بن كيحزان إلى أن مات. وذهبت إليها عام 921 فأقمت بمنزل إمام المدينة.

---

(97) يوجد اليوم فعلاً سوق الخميس لأولاد عياض على بعد نحو عشرين كيلوميتراً شمال غربي آيت عتاب.
انظر ما علاقة القاضي عياض المؤلف الشهير بأولاد عياض هؤلاء، فقد ولي القضاء فعلاً بمدينة داي الواقعة في موقع مدينة بني ملال الحالية بتادلا!

سْكِيمْ، جبلٌ بنفس الإقليم

جبل سكيم، ولو أنه ينظر إلى الجنوب، يعتبر مع ذلك من جبال تادلا، يبتدىء غرباً من تخوم جبل تساون ويمتد شرقاً إلى جبل مغران حيث ينبع نهر أم الربيع(98)، ويتاخم جنوباً جبال دادس. سكان هذا الجبل فرع من شعب زناكة خفيفو الحركات أقوياء أبطال في الحرب، سلاحهم حراب صغيرة وسيوف مقوسة وخناجر، ويستخدمون أيضاً الحجارة فيقذفونها بحذق كبير وقوة عظيمة. وهم في حرب دائمة مع أهل تادلا، بحيث إن تجار الناحية لا يستطيعون قطع الجبل بدون اذن مرور وأداء مبالغ باهظة. والأماكن المسكونة فقيرة وبعيدة بعضها عن بعض حتى إنك قلما تجد ثلاثة بيوت أو أربعة مجتمعة. يملك الأهالي العدد العديد من الماعز والبغال القصيرة في حجم الحمير. تذهب هذه الحيوانات لترعى في غابات الجبل، لكن الأسد تفترس بعضها وتبتر أعضاء الكثير منها. ولا يخضع أهل هذه البلاد لأي رئيس، لأن جبلهم في غاية الصعوبة والوعورة بحيث أصبح منيعاً لا يرقى إليه أحد. وفي أيامنا هذه أراد القائد الذي فتح تادلا أن يشن غارة على هذه البلاد، فعلم أهلها بذلك وكونوا جماعة من الشجعان كمنوا بهدوء قرب صخرة تحاذي مسلكاً صغيراً كان على العدو أن يمر منه، ولما رأوا أن الفرسان توغلوا كثيراً في منحدر الجبل خرجوا من كل جانب من جوانب مكمنهم وقذفوهم بالحراب والحجارة الضخمة. كانت المعركة قصيرة لأن القائد لم يستطع الصمود أمام الهجوم ولا الفرار إلى الامام أو الخلف، واصطدم الفرسان ببعضهم بطبيعة الحال في هذا الممر الضيِّق، حتى إن الكثير منهم تردَّوا بخيولهم من أعلى الصخرة فاندقت أعناقهم، وقتل آخرون بحيث لم ينج منهم أحد من القتل إلا وقع في الأسر فلقي

---

(98) يبدو أن الأمر اختلط على المؤلف هنا، فمنبع نهر أم الربيع يقع في الأطلس المتوسط بالقرب من عين اللوح بين خنيفرة وآزرو. وربما قصد الحسن الوزان أحد روافد نهر أم الربيع، وهي كثيرة.

أسوأ مصير، إذ أخذهم المنتصرون مغلولين إلى منازلهم، فمثلت بهم نساؤهم كعلامة على الاذلال الشنيع، وذلك لأن الرجال يترفعون عن قتل الأسرى ويضعونهم بين أيدي النساء.

حقاً ان أهل هذه البلاد لم يجرؤوا على الذهاب إلى تادلا منذ هذا الحادث، لكنهم ليست لهم كبير حاجة بها، لأن جبلهم ينتج كمية كبيرة من الشعير، والماشية كثيرة جداً، وعيون الماء أكثر من الدور عدداً، فلا ينقصهم سوى مواد التجارة العادية.

جبل مَغْرَانْ

يبعد مغران قليلاً عن الجبل السابق الذي ينظر نحو الجنوب إلى بلاد فركلة[99] في تخوم الصحراء، يبتدىء تقريباً عند هذا الجبل غرباً وينتهي في الشرق عند سفوح جبال دادس، ويوجد الثلج دائماً في قمته. يملك سكانه عدداً وافراً من الماشية بحيث لا يمكنهم الاستقرار في أي مكان، فيتخذون لذلك أكواخاً من لحاء الشجر مثبتة على عصي طويلة رقيقة، وسقوفها من قضبان مقوسة على شكل نصف دائرة، تشبه مقابض السلال التي تعودت النساء في ايطاليا على حملها فوق ظهور البغال عندما يسافرن. وكذلك ينقل هؤلاء الجبليون أكواخهم على البغال، فيذهبون بدوابهم وعائلاتهم تارة هنا وتارة هناك. وحيثما وجدوا العشب أقاموا إلى أن ترعى الدواب كل ذلك النبات. والواقع أنهم يستقرون في جهة ما خلال فصل الشتاء ويبنون شبه اصطبلات منخفضة مغطاة بأغصان الشجر يخبئون فيها حيواناتهم بالليل. ومن عادتهم أن يوقدوا ناراً شديدة لا سيما قرب الزرائب لتدفئة البهائم. وتهب الريح أحياناً فتحمل النار إلى الزرائب فتحرقها، لكن البهائم سرعان ما تخرج منها، لأنهم لا يحيطون الاصطبلات بأي سور

---

(99) بل تدغة.

توقعاً لمثل هذا الحدث. وليس بناء الزرائب في الواقع بـأحسن من بناء الأكواخ التي تحدثنا عنها آنفاً. وتحدث الأسود والذئـاب أضراراً فاحشة. أما عادات هؤلاء الجبليين ولباسهم فإنها لا تختلف عن عادات ولباس الجبليـين السابقين، والفرق الوحيد هو أن هؤلاء القوم يسكنون أخصاصاً، وأولئك يسكنون دوراً مسورة.

وقد مررت بهذه البلاد عام 917 أثناء رجوعي من درعة إلى فاس.

جبل دَادَسْ

دادس هو الآخر شاهق بارد مكسو بالغابات، يبتدىء غرباً عند جبل مغران وينتهي في تخوم جبل أدخسان، كما يتاخم جنوباً سهل تدغة. طول جبل دادس نحو ثمانين ميلاً، وعلى قمته أطلال مدينة قديمة ما زال يظهر آثارها على شكل جدران سميكة مبنية بحجر يحمل بعضه كتابات لا يفهمها أحد. يعتقد السكان أن هذه المدينة من بناء الرومان، لكنني لم أجد في تواريخ افريقيا مؤلفاً يقول ذلك أو يذكر هذه المدينة. غير أن الشريف الصقلي(100)، تحدث في كتابه عن مدينة تدعى تيدسي في تخوم سجلماسة ودرعة، ولكنه لم يذكر أنها بنيت في جبل دادس، ومع ذلك نعتقد أنها هي هذه، إذ لا توجد مدينة غيرها في هذه المنطقة.

سكان هذا الجبل بصراحة لا قيمة لهم، يسكن معظمهم في كهوف رطبة ويقتاتون بالشعير وبالعصيد المصنوع كذلك من دقيق الشعير المطبوخ في الماء المملح، كما قلناه عند حديثنا على حاحا. ولهم عدد غير قليل من الماعز والحمير. وفي الكهوف التي تأوي إليها هذه الدواب كثير من ملح

---

(100) يقصد الشريف الادريسي مؤلف نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ومعلوم أن الادريسي ألف هذا الكتاب لملك صقلية روجر النورماندي. انظر عن تيدسي درعة وتيدسي سوس كتاب الاستقصا، 8:5 (هامش).

البارود. وأعتقد أنه لو كان هذا الجبل مجاوراً لايطاليا لأغل سنوياً خمسة وعشرين ألف مثقال فأكثر، لكن هؤلاء الدهماء لا يعرفون قيمة ملح البارود. لباسهم رديء لدرجة أن معظم أجسامهم عار، ومنازلهم كريهة منتنة برائحة الماعز القذرة التي تحشر فيها. ولا يوجد بهذا الجبل كله قصر ولا مدينة مسورة، وإنما يتجمع الناس في قرى مكونة من دور مبنية بحجر دون طين ومغطاة بصفائح رقيقة سوداء شبيهة بالصفائح المستعملة في بعض جهات ايطاليا بكونتي أسيز وفبريانو. وباقي السكان يقيمون بالكهوف كما ذكرنا. ولم أر قط مثل ما في هذا الجبل من براغيث!

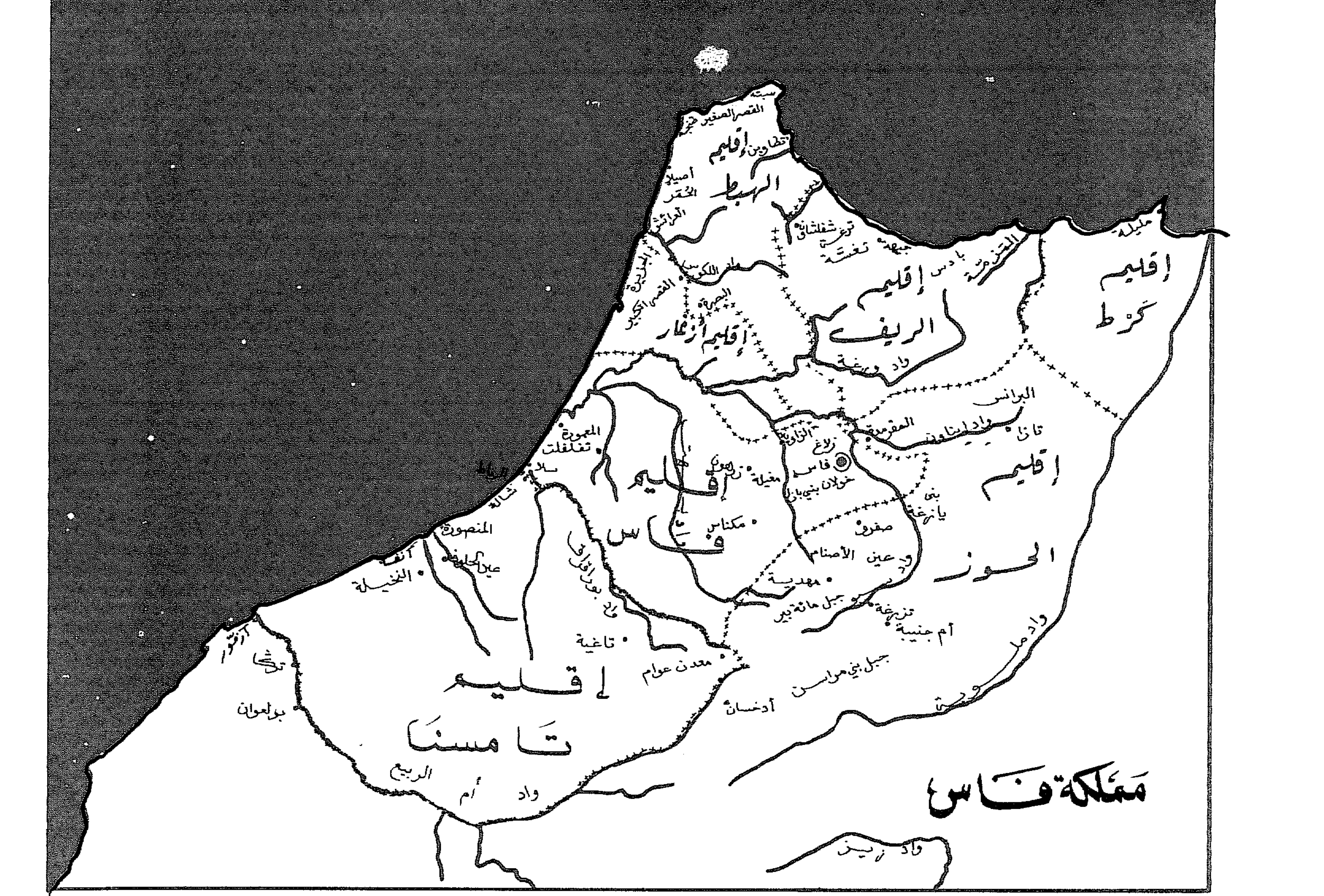
الرجال غادرون متلصصون سفاكون يقتلون الرجل من أجل بصلة، فتنشب بينهم خصومات عنيفة لأدنى سبب. وليس لهم قاض ولا امام ولا من له أية كفاية في أي شيء. والتجار لا يقصدون هذا البلد لأن أهله يعيشون في بطالة، ولا يمارسون أية صناعة، وينهبون المسافرين. وإذا ما جاء بعض التجار معززين بجواز مرور من بعض الرؤساء المحليين يحملون بضاعة تافهة لهؤلاء الجبليين، ألزموهم بأداء ربع ثمن البضاعة كحق للمرور.

والنساء كريهات المنظر كالشياطين، لباسهن أسوأ من لباس الرجال، وحالتهن أقبح من حالة الحمير، لأنهن يحملن على ظهورهن الماء الذي يستقينه من العيون، والحطب الذي يحتطبنه من الغابة دون أن يسترحن ولو ساعة من نهار.

والخلاصة أنني لم أندم على ذهابي إلى أي مكان بافريقيا غير هذا المكان! وقد كنت مضطراً إلى المرور بهذا الجبل للذهاب من مراكش إلى سجلماسة، امتثالاً لما أمرت به وذلك في سنة 918.

القسم الثالث

مملكةُ فَاس


مملكة فاس
إقليم الهبط
إقليم الريف
إقليم أزغار
إقليم كرط
إقليم الحوز
إقليم فاس
إقليم تامسنا
سبتة
القصر الصغير
تطاوين
أصيلا
الزاوية
فاس
زلاغ
مكناس
مغيلة
صفروف
عين الأصنام
مهدية
تازا
البرانس
المقرمدة
مليلة
بادس
جبل بني مراسن
أم جنينة
تزرغة
معدن عوام
تاغية
المنصورة
النخيلة
أنفا
بولعوان
واد أم الربيع
واد ملوية
واد زيز
وادي ورغة
وادي إيناون
أدخسان
سلا
الرباط
المعمورة
تغلفلت

توطئة

تبتدىء مملكة فاس من نهر أم الربيع غرباً لتنتهي إلى نهر ملوية شرقاً. وفي الشمال يحد قسم منها بالبحر المحيط وسائرها بـالبحر المتوسط.

تنقسم هذه المملكة إلى سبعة أقاليم، هي تامسنا، ومنطقة فاس، وأزغار، والهبط، والريف، وكـرط، والحوز. وكان لكل اقليم منها في القديم إمارته الخاصة، وحتى اقليم فاس لـم يكن في الأول قاعدة حكومة ملكية. وقد أسس مدينة فاس ثائر شيعي[1]، وظلت السلطة في يد أسرته مدة تقرب من مائة وخمسين سنة[2] ولم يظهر اسم مملكة فاس إلا عندما سيطرت أسرة بني مرين واتخذوا من فـاس قاعـدة لملكهم وحصن دفاعهم[3] لأسباب تذكرها تواريخ المسلمين.

وسأصف لكم الآن هذه المملكة اقليماً اقليماً ومدينة مدينة كما عملته فيما أعتقد أنه أقرب إلى الكمال حتى الآن.

---

(1) يشير إلى إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي فر من العباسيين في وقعة فخ الشهيرة، وجاء إلى المغرب فبايعته قبيلة أوربـة وغيرها بمدينة وليلي في جبل زرهون عام 172 هـ / 788 واختلف المؤرخون في مؤسس مدينة فاس، هل هو ادريس الأول هذا، أم ابنه ادريس الثاني؟ والمشهور أن هذا الأخير هو الذي أسس مدينة فاس عام 192 هـ / 808.

(2) يمكن اعتبار هذا الرقم صحيحاً لأن الفترة الأخيرة في دولة الادارسة كانت مضطربة، يختلط فيها نفوذهم بنفوذ المتغلبين عليهم من الرؤساء المحليين أنصار الفاطميين أو المروانيين الأندلسيين. ولم تنته دولة الادارسة نهائياً إلا بمقتل الحسن بن كنون عام 985/375، فتكون مدة دولتهم 203 سنة.

(3) كان ذلك عام 1248/646.

مملكة فاس

تَامَسْنَا

تامسنا اقليم تابع لمملكة فاس، يبتدىء غرباً عند أم الربيع وينتهي إلى أبي رقراق شرقاً، والأطلس جنوباً وشواطيء البحر المحيط شمالاً[4]. طول هذا الإقليم من الغرب إلى الشرق ثمانون ميلاً، ومن الأطلس إلى المحيط نحو ستين ميلاً. وهو في الحقيقة زهرة هذه الناحية كلها، كان فيه نحو أربعين مدينة وثلثمائة قصر يسكنها عدد من قبائل البربر. وثار هذا الإقليم عام 323 للهجرة بتحريض داعية مبتدع يدعى حاميم بن من الله[5]، أقنع الشعب بألا يؤدي إلى ملوك فاس خراجاً ولا طاعة لجورهم، ولكونه أيضاً نبياً، بحيث لم يمض وقت قصير حتى أصبحت في يده السلطتان الروحية والزمنية في هذا الإقليم، فقام بحرب ضد هؤلاء الملوك الذين كانوا آنذاك منهمكين في حرب زناتة، واضطروا إلى التفاوض

---

(4) لا تخلو هذه الحدود من انحرافات، والحدود الحقيقية واضحة على الخريطة.

(5) اختلط الأمر هنا على المؤلف. فحاميم المتنبيء الكذاب ظهر بجبال غمارة قرب تطوان عام 925/313 واستمرت فتنته هناك سنتين إلى أن قتل بقصر مصمودة جوار طنجة عام 927/315.

انظر: **العبر** لابن خلدون 6:428-435؛ **والاستقصا** للناصري 1:175.

أما تامسنا فثارت بها قبائل برغواطة بزعامة المتنبى الكذاب صالح بن طريف عام 743/125.

انظر أيضاً: **العبر**، 6:428-435؛ **والاستقصا**، 2:14-18.

معه على أن يتركوا له التصرف في تامسنا ويحتفظوا هم بملك فاس، وتعهد كل فريق بألا يزعج الآخر. فحكم حاميم خمساً وثلاثين سنة واحتفظ خلفاؤه بأمر الإقليم زهاء مائة سنة. لكن بعد أن أسس الملك يوسف بن تاشفين مع قبيلة لمتونة مدينة مراكش، عمل فوراً على أن يستولي على بلاد تامسنا، فبعث إليها عدداً من العلماء السنيين يعظون أهلها ويحاولون انقاذهم مما هم فيه من زندقة وإرجاعهم إليه دون حرب، فتجمعوا في مدينة آنفا مع أميرهم حفيد الداعية (البرغواطي) المذكور آنفا، وقرروا قتل العلماء الوافدين عليهم ونفذوا قرارهم. وبعد ذلك جندوا جيشاً من خمسين ألف مقاتل عازمين على طرد قبيلة لمتونة من مراكش وناحيتها. ولما علم بذلك يوسف غضب غضباً لم يغضب مثله قط، وجمع جيشاً عظيمًا دون أن ينتظر مجيء العدو إلى مراكش، ولم تمض ثلاثة أيام حتى قطع نهر أم الربيع ووصل إلى تامسنا. ولما رأى البرغواطيون هذا الجيش زاحفاً إليهم بذلك القدر من الحماسة، أخذهم الفزع وعدلوا عن القتال، وعبروا نهر أبي رقراق في اتجاه مدينة فاس تاركين إقليمهم. أباح الملك يوسف حينئذ هذا الإقليم وسكانه لجيشه، فأصبح طعمة للنار والدم والنهب وتقتيل للكبار والصغار حتى الأطفال الرضع، وقد خرب هذه البلاد طوال الشهور الثمانية التي قضاها فيها، حتى لم يبق ظاهراً من المدن التي كانت قائمة غير بعض الأطلال. وزيادة على ذلك فإن ملك فاس حين علم بتأهب أهل تامسنا لعبور نهر أبي رقراق والسير إلى جهة فاس، عقد هدنة مع الزناتيين وقصد النهر على رأس جيش عرمرم، حيث واجه ملك تامسنا الشقي الذي كانت جنوده منهوكة جوعاً وبؤساً، وهو يريد عبور النهر، لكن الممر قطع عنه من قبل ملك فاس، فاضطر الأشقياء المطاردون اليائسون أن يتفرقوا في الغابات بين صخور يصعب اجتيازها. وقد أحاطت بهم جنود الملك وحاصرتهم إلى أن هلكوا بإحدى الطرق الثلاث: منهم من غرقوا في النهر، ومنهم من ترددوا من أعالي الصخور فدقت أعناقهم، ومنهم من تمكنوا من الخروج من الماء فوقعوا بين أيدي رجال الملك وضربت أعناقهم بالسيف،

وهكذا أخذ عدد سكان تامسنا يتناقص إلى أن قضي عليهم نهائياً في ظرف عشرة أشهر. ويقدر عدد الهالكين بمليون نسمة رجالاً ونساءً وأطفالاً. ورجع الملك يوسف اللمتوني إلى مراكش ليصلح من أمر جيشه ويهيئه لمهاجمة ملك فاس، بعد أن ترك تامسنا مأوى للأسد والذئاب والبوم[6].

ظلت تامسنا مهجورة مائة وثمانين سنة إلى الوقت الذي رجع فيه المنصور من مملكة تونس وصحب معه بعض الفرق من قبائل الأعراب مع رؤسائهم وأسكنهم تامسنا، فمكثوا فيها خمسين عاماً إلى أن ذهب الملك عن آل المنصور. وكان سقوط هذه الأسرة كارثة عظمى على الأعراب الذين وقعوا في فقر مدقع، وطردهم ملوك بني مرين من هذا الإقليم، وأعطوه لقبائل زناتة وهوارة جزاء لما لقوه منهم من مناصرة، لأنهم كانوا جميعاً يؤازرونهم ضد ملوك مراكش الموحدين. وهكذا أصبح الزناتيون والهواريون يتصرفون في هذا الإقليم، وتكاثروا فيه حتى إنهم اليوم، وربما كان ذلك منذ مائة سنة، يخيفون ملوك فاس ويرعدون فرائصهم، إذ يقدر أن عددهم يصل إلى ستين ألف فارس ومائتي ألف راجل.

لقد ترددت كثيراً على هذا الإقليم، وسوف أحدثكم عنه بتفصيل.

أنفَا، مدينةٌ في تَامَسْنَا

أنفا مدينة عظيمة أسسها الرومان في شاطىء البحر المحيط على بعد نحو ستين ميلاً شمال الأطلس، ونحو ستين ميلاً شرق أزمور[7]. وكانت

---

(6) هذه المعلومات عن تخريب تامسنا خاطئة كسابقاتها عن حاميم المتنبىء. والمعروف أن المرابطين اللمتونيين الذين حاربوا برغواطة بتامسنا إلى أن قضوا تماماً على بدعتهم كانوا بقيادة عبد الله بن ياسين الذي قتل في المعركة يوم 24 جمادى الأولى 8/451يوليوز 1059، ثم بقيادة خلفه أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي استأصل شافة برغواطة ومحا أثر دعوتهم من المغرب قبل أن يرجع إلى الصحراء في السنة التالية ويستخلف على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين. انظر: **العبر**، 6:428-434، **والاستقصا**، 2:17-20.

(7) تقع أنفا (الدار البيضاء الحالية) غربي القسم القريب إليها من الأطلس، وشمال شرقي مدينة أزمور.

هذه المدينة في غاية الحضارة والازدهار، لأن أرضها خصبة تصلح لجميع أنواع الحبوب، وتمثل في الواقع أجمل منظر في افريقيا كلها: يحيط بها من جميع الجهات، ماعدا الشمال على شاطىء البحر، سهل فسيح يمتد على مسافة نحو ثمانين ميلاً. وكم كان في داخل أنفا من مساجد ودكاكين في غاية الحسن، وقصور شامخة يمكن رؤيتها والتأكد منها الآن من خلال الآثار الباقية فيها! وكم كان فيها أيضاً من بساتين وكروم! وما زالت لحد الآن تجنى منها كميات عظيمة من الثمار، لا سيما البطيخ والخيار التي يبدأ نضجها في منتصف أبريل. وقد اعتاد الناس أن يحملوا هذه الثمار إلى فاس، لأن نضجها فيه يتأخر.

وكان سكان أنفا يتأنقون جداً في لباسهم بسبب العلاقات الوثيقة التي تربطهم بالتجار البرتغاليين والانجليز، كما كان من بينهم رجال مثقفون ماهرون، لكن سببين اثنين عملا على تعاسة السكان ودمارهم. أولهما أنهم أرادوا العيش أحراراً دون أن تتوفر لهم الوسائل اللازمة، والثاني أنهم كانوا يسلحون في مينائهم الصغير زوارق خفيفة يقومون على متنها بالإتلاف والتخريب في شبه جزيرة قادس، وعلى طول الشواطىء البرتغالية، لدرجة أن ملك البرتغال قرر تدمير أنفا، فأرسل إليها لهذا الغرض أسطولاً مكوناً من خمسين سفينة محملة بالجنود والمدفعية العظيمة. ولما رأى السكان الأسطول قادماً إليهم أخذوا أنفس ما يملكون من متاع، واجتمعوا كلهم وفروا إلى الرباط وسلا تاركين مدينتهم خالية. وقد تأهب رئيس الأسطول للحرب وهو لا يعلم شيئاً مما جرى، لكنه عندما لم ير أحداً خرج لمدافعته، أدرك ما حدث وأمر جنوده بالنزول إلى البر، فتسارعوا في الدخول إلى أنفا ولم يمض يوم واحد حتى نهبوها وخربوها تخريباً تاماً، ثم أحرقوا المنازل وهدموا الأسوار في نقط متعددة[8]. وبقيت أنفا مهجورة خربة إلى الآن. ولما ذهبت إليها لم أستطع امساك العبرات، لأن معظم

---

(8) كان هذا عام 1468/872.

البيوت والدكاكين والمساجد ما زالت قائمة، تقدم أطلالها للأنظار مشهداً جديراً بالرثاء. فهناك بساتين خالية استحالت إلى غابات، وما زالت مع ذلك تنتج بعض الفواكه. وهكذا أدى عجز ملوك فاس وعيوبهم إلى أن تصل أنفا إلى مثل هذه الحالة التي لا أمل معها في أن تسكن من جديد أبداً.

مدينةُ الـمَنْصُورَة

المنصورة[9] مدينة صغيرة بناها المنصور الموحدي ملك مراكش في سهل جميل جداً على بعد ميلين من البحر المحيط، ونحو خمسة وعشرين ميلاً من الرباط ونحو هذه المسافة تقريباً من أنفا. كان فيها نحو أربعمائة كانون، ويمر بالقرب منها نهر صغير يدعى كير. تقوم على ضفاف هذا النهر بساتين عديدة وكروم كثيرة، لكنها اليوم خالية مهجورة. ذلك لأنه لما خربت أنفا غادر السكان المنصورة مسرعين كذلك، ملتجئين إلى الرباط خوفاً من البرتغاليين، تاركين مدينتهم خالية. وما تزال جدرانها قائمة سالمة إلا في بعض النقط التي هدمها أعراب تامسنا.

مررت بهذه المدينة فرق قلبي لها، إذ بالإمكان إعادة إعمارها بسهولة، ويكفي إعادة بناء المنازل، لكن هؤلاء المتوحشين من أعراب تامسنا لا يريدون أن تعود إليها الحياة لشدة خبثهم وتعسفهم.

مدينةُ النّخْيلَة

النخيلة[10] مدينة صغيرة مبنية في وسط تامسنا، كانت في القديم آهلة بالسكان أيام المبتدعين (البرغواطيين)، وتقام بها كل سنة سوق يشد إليها

---

(9) ما تزال القصبة المنصورية معروفة حتى اليوم بين الرباط والدار البيضاء، إلا أن المنصورة التي تحدث عنها الوزان هنا قد يكون موقعها أبعد من ذلك قليلاً إلى الداخل على ضفاف نهر نفيفيخ الذي يدعى في مجراه الأعلى (دير)، ويمكن أن يكون محرفاً عن (كير).

(10) ما يزال مكان النخيلة معروفاً بهذا الاسم حتى اليوم، جنوبي مدينة الرباط على نحو 40 كيلومتراً منها في الطريق المؤدية إلى الرماني فوادي زم.

الرحال جميع أهل تامسنا. وكان سكان النخيلة في غاية الغنى لاتساع أرضهم التي تشتمل من كل جانب على خمسين ميلاً من السهول. تذكر كتب التاريخ أنه في عهد أولئك المبتدعين بلغت وفرة القمح درجة جعلت الناس يستبدلون أحياناً نعلين بحِمل جمل كبير من قمح. وقد خربت هذه المدينة كغيرها من مدن تامسنا عند مجيء يوسف (بن تاشفين). ومع ذلك ما تزال بادية للعيان آثار منها، كبقايا بعض الأسوار، وصومعة كانت في وسط مسجد، وبساتين وأماكن كروم، وأشجار قديمة لم تعد تحمل تمراً.

يترك أعراب تامسنا أدواتهم الفلاحية بالقرب من هذه الصومعة عندما ينتهون من حرثهم، ويقولون ان ولياً دفن هناك، فلا يأخذ أحد أدوات غيره خوفاً من نقمة هذا الولي.

وقد مررت بالنخيلة مراراً لا عدد لها ولا حصر، لوقوعها في الطريق المؤدية من الرباط إلى مراكش.

مدينةُ أدَنْدُونْ

أدندون مدينة صغيرة مبنية بين تلال على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من الأطلس وخمسة وعشرين ميلاً من المدينة السابقة. كل هذه التلال صالحة لزراعة القمح، وتنبع بالقرب من سور المدينة عين ماء في غاية الجودة، يحيط بها عدد كثير من النخل القصيرْ الذي لا يثمر. ويمر ماء العين بين صخور ليجري في واد يقال ان فيه مناجم كان يستخرج منها الحديد بكثرة، ويظهر ذلك أيضاً في طعم الماء. ولم يبق من هذه المدينة غير آثار قليلة، كأسس الجدران، وبعض السواري المنهارة. وقد دمرت فعلاً كغيرها من المدن في حرب البدعيين (البرغواطيين).

تَكِّيتْ

تكّيت مدينة صغيرة من بناء الأفارقة على ضفة نهر أم الربيع في مجاز الطريق المؤدية من تادلا إلى فاس. كانت كثيرة السكان وافرة الحظ من

الحضارة والثروة لأنه يوجد بالقرب منها طريق تخترق الأطلس وتنفذ إلى الصحراء.

وكان جميع أهل تخوم هذا القسم من الصحراء يأتون إلى تكيت لشراء القمح، وخربت هذه المدينة أيضاً في حروب المبتدعين (البرغواطيين)، ثم عاد إليها العمران بعد مدة طويلة، غير أنها لم تعد سوى شبه قرية يخزن فيها الأعراب حبوبهم ويكلون حراستها إلى السكان. ليس فيها دكاكين ولا صناع، باستثناء بعض الحدادين الذين يصلحون الأدوات ويحذون الخيل، وقد تلقى هؤلاء الناس من سادتهم الأعراب أمراً بحسن استقبال جميع الغرباء الذين يمرون بمدينتهم. ويؤدي التجار رسم مرور مقداره «غيوليو»(11) عن كل حمل كتان أو قماش ينقلونه معهم، ولا يؤدون شيئاً عن الماشية والخيل.

مررت بهذه المدينة مراراً فلم تعجبني، ولكن أرضها في الواقع جيدة تكثر فيها الحبوب والماشية.

عَيْــن الحَلُّوف

هي مدينة صغيرة لا تبعد عن المنصورة إلا قليلاً، مبنية في سهل ترى فيه بعض أشجار الغبيراء وبعض الأشجار الشوكية الأخرى التي تعطي ثماراً مستديرة تشبه العناب، إلا أنها صفراء اللون، نواتها أكبر من نواة الزيتون، ومذاق لبها غير جيد(12)، وتحيط بهذه المدينة مستنقعات تكثر فيها السلاحف البرية والمائية والضفادع الضخمة، وهي حسبما سمعت من بعضهم غير سامة.

---

(11) عمله إيطالية صغيرة كالدرهم.

(12) لعله يقصد العناب البري المعروف بالنبق.

لم يذكر أحد من المؤرخين الأفارقة هذه المدينة، لقلة أهميتها ولا شك، أو لأنها دمرت منذ عهد سحيق. وما أظن أن الأفارقة هم الذين أسسوها، بل الذي يظهر عليها أنها من بناء الرومان أو شعب آخر غريب عن افريقيا[13].

الرِّبَاط

الرباط مدينة كبيرة أسسها في الأزمنه الحديثة المنصور ملك مراكش وخليفتها، ويمر على طولها من جهة الشرق نهر أبي رقراق حيث يصب في البحر. وقد بنيت قصبة المدينة عند مصبه. فهي على النهر من جهة وعلى البحر من جهة أخرى[14].

تشبه هذه المدينة مراكش في أسوارها وأبنيتها، لأنها بنيت من قبل المنصور لنفس الغرض، إلا أنها أصغر بكثير من مراكش إذا ما قورنت بها. وإليكم سبب تأسيس الرباط: لقد كان المنصور آنذاك يحكم كل اقليم غرناطة وقسمًا من أسبانيا، ونظراً لبعد هذه البلاد عن مراكش، خطر ببال الملك أنه لن يتمكن من نجدتها بسهولة إذا هاجمها النصارى، لذلك رأى أن يبني مدينة على شاطىء البحر بالذات حيث يمكنه المقام مع جنوده طوال الصيف. وأشار عليه بعضهم بالإقامة في سبتة، وهي مدينة واقعة في مضيق جبل طارق، لكن الملك لاحظ أنها ليست بالمدينة التي تستطيع أن تكفي لتخييم جيش مدة ثلاثة شهور أو أربعة، بسبب عقم الأرض في هذه المنطقة، كما أنه فكر في أن سكان سبتة، قد ينزعجون كثيراً من إقامة الجنود ورجال الحاشية بين أظهرهم، فبنى مدينة الرباط في بضعة أشهر،

---

(13) لم يبق اليوم أي أثر لمدينة بضاية الحلوف الواقعة على بعد 15 كلم جنوب المنصورية.

(14) المشهور أن رباط الفتح أو رباط سلا من تأسيس يعقوب المنصور الموحدي عام 1198/594، وهناك روايات مختلفة عن أصل الرباط وتأسيسها، انظرها عند عبد الله السويسي، **تاريخ رباط الفتح** ص. 6و49 و51.

وزودها بالمساجد والمدارس وكل أنواع القصور والدور والدكاكين والحمامات ومخازن الأدوية. وشيد خارج الباب المشرف على الجنوب صومعة مماثلة لصومعة مراكش، لكن بمطلع أكثر عرضاً بكثير إذ يمكن لثلاثة فرسان أن يصعدوا إليها جنباً إلى جنب. ويقال انه يمكن من أعلاها رؤ ية سفينة في عرض البحر على مسافة كبيرة جداً، ولا شك عندي أنها بسبب ارتفاعها من أجمل ما يمكن مشاهدته من أبنية الدنيا.

أراد الملك أن يستوطن المدينة عدد كثير من الصناع والعلماء والتجار، فأمر بأن يمنح كل ساكن فيها تعويضاً علاوة على ما تدر عليه مهنته من ربح. وقد أدى انتشار هذا الخبر إلى اجتذاب أناس كثيرين من كل الأصناف ومختلف المهن، بحيث أصبحت الرباط بعد قليل من أشرف المدن واغناها في افريقيا كلها. إذ كان لسكانها دخل مزدوج: التعويض المقرر، وما يربحونه في معاملاتهم مع العسكريين ورجال الحاشية الملكية. وكان المنصور يقيم بهذه المدينة من بداية شهر ابريل إلى شهر شتنبر. ولما كانت الرباط مشيدة في مكان يفتقر للماء الجيد، لأن ماء البحر يدخل إلى النهر ويحمله المد إلى مسافة اثني عشر ميلاً فيه، ولأن مياه الآبار مالحة، جلب المنصور الماء من عين تبعد عن المدينة بنحو اثني عشر ميلاً بواسطة قناة محكمة البناء على أقواس شبيهة بتلك التي ترى في ايطاليا كلها، لا سيما قرب روما، وتنقسم هذه القناة إلى فروع عديدة، يحمل بعضها الماء إلى المساجد، وبعضها الآخر إلى المدارس والقصور الملكية والسقايات العمومية المقامة في جميع الأحياء.

وبعد وفاة المنصور أخذت هذه المدينة في التدهور حتى إنه لم يبق منها سوى العشر، فالقناة البديعة قطعت ودمرت أثناء الحروب التي شنها الملوك المرينيون ضد أسرة المنصور. والرباط اليوم في أسوأ حال لم يصل إليها قط. وأعتقد أنه من المتعذر جداً العثور فيها على أربعمائة دار مسكونة قرب القصبة وبعض الدكاكين الصغيرة، وفضلاً عن ذلك فهي مهددة

باستيلاء البرتغاليين عليها. وفعلاً فإن جميع ملوك البرتغال السابقين صمموا العزم على غزوها علمًا بأنهم إذا ملكوها سهل عليهم احتلال المملكة. غير أن ملك فاس زود هذه المدينة بالأقوات الوافرة وساندها بكل ما في مستطاعه.

وقد ذهبت إلى الرباط فأخذتني الشفقة عليها، لما كانت عليه في القديم وما آل إليه أمرها الآن.

شَالَّة

شالة مدينة صغيرة بناها الرومان بالقرب من نهر أبي رقراق، على بعد نحو ميلين من البحر وميل واحد من الرباط، بحيث أن من يريد الذهاب من شالة إلى البحر لا بد له من أن يمر بالرباط. لكن هذه المدينة خربت في حروب مجوس (برغواطة). وقد أعاد المنصور بعد ذلك بناء أسوارها، وشيد فيها زاوية فاخرة، وقصراً لسكنى جنوده، وجامعاً في منتهى الجمال مع قاعة بديعة الزخرف بالرخام المنحوت والفسيفساء والنوافذ ذات الزجاج الملون. ولما دنا أجل المنصور عبر في وصيته عن رغبته في أن يقبر بتلك القاعة، وبعد وفاته نقل جثمانه من مراكش ودفن فيها، ووضع على قبره رخامتان، واحدة عند رأسه وأخرى عند رجليه، نقشت عليهما أبيات رائقة لمختلف الشعراء تعبر عما خلفه موت هذا الملك من لواعج الأسى. ثم احتفظ ملوك هذه الدولة بعادة إقبارهم في هذه القاعة، وسار على ذلك ملوك بني مرين في عهد ازدهار دولتهم.

وقد ذهبت إلى هذه القاعة فرأيت فيها ثلاثين قبراً لهؤلاء الملوك، انتسخت كل ما كتب عليها، وذلك عام 915 للهجرة.

مَعْدَنْ عَوَّامْ

هذه المدينة بناها في أيامنا أحد أمناء الخليفة عبد المومن على ضفة نهر أبي رقراق، وذلك لأنه لاحظ وجود منجم حديد هناك يتردد الناس عليه

كثيراً[15]. وتقع على بعد عشرة أميال من الأطلس، بينها وبين الجبل غابة كثيفة جداً تكثر فيها الأسود الضخمة والفهود. وقد ظلت هذه المدينة في غاية التحضر والعمران طوال حكم أبناء مؤسسها (الموحدين)، مزدانة بمنازل جميلة ومساجد وفنادق، غير أن ذلك لم يدم إلاّ وقتاً قصيراً، لأن حروب بني مرين أدت إلى خرابها، فقتل بعض السكان وأسر البعض، وفر آخرون منهم إلى شالة. وإنما وقع ذلك لأن السكان استسلموا لأحد ملوك بني مرين دون أن ينتظروا إغاثة ملك مراكش، في نفس الوقت الذي وصل فيه أحد قواد جيش الملك الموحدي لنصرة هؤلاء القوم الذين ثاروا حينئذ على الأمير حاكم المدينة حتى اضطر إلى الفرار. وبعد بضعة أشهر قدم ملك بني مرين نفسه على رأس جيش جرار في طريق زحفه إلى مراكش فهرب ذلك القائد في الحين واستسلمت المدينة بدون قيد ولا شرط، فخرّبها الملك وقتل سكانها[16]. ومن ثم إلى الآن لم تسكن مدينة معدن عوام، لكن أسوارها وصوامع مساجدها ما زالت قائمة. رأيتها في الوقت الذي تصالح فيه ملك فاس مع ابن عمه وذهبا معاً إلى تاغية لأداء القسم على ضريح أحد صلحائهم المدعو مولاي بوعزة، وذلك عام 920.

تَاغْيَة

تاغية مدينة قديمة بناها الأفارقة بين جبال الأطلس، بردها قارس، وأراضيها الزراعية هزيلة وعرة، والغابات الرائعة المحيطة بها عرين لأسود كاشرة. لا ينبت القمح في هذه البلاد إلا قليلاً، لكن يكثر فيها الماعز

---

(15) يعرف حتى اليوم هذا المعدن في الجانب الشمالي لجبل عوام الواقع على بعد 25 كيلومتر شمال خنيفرة، قريباً من فرع برأس وادي بهت بعيداً عن أبي رقراق. وتبدو كذلك عبارة «في أيامنا هذه» غير مناسبة للخليفة عبد المومن الذي سبق عصره عصر المؤلف بقرون.

(16) زحف يعقوب بن عبد الحق المريني إلى مراكش سنة 1262/660.

والعسل. وهذه المدينة بسيطة جداً، دورها مبنية بناء رديئاً دون جير، وفيها ضريح ولي عاش في عصر الخليفة عبد المومن، يقال ان له كرامات عديدة ضد السباع، ومكاشفات عجيبة. وقد ترجم له ترجمة حافلة عالم يدعى التادلي(17) وذكر كراماته واحدة واحدة واعتقد شخصياً بعدما قرأت قصة تلك الكرامات أن الرجل كان يتصرف بفن سحري أو باستعمال بعض الأسرار التي كانت له ضد الأسود. وشهرة هذه التصرفات وتقديس العامة لهذا الولي الصالح هما السببان اللذان جعلا الناس يشدون الرحال إلى هذه المدينة بكثرة، فيخرج أهل فاس لزيارة هذا الضريح بعد عيد الفطر من كل سنة، في جموع كثيرة رجالاً ونساء وأطفالاً وكأنهم جيش زاحف، يحمل كل واحد خيمته على ظهر دابته، بحيث تكون جميع البهائم محملة بالخيام والأشياء الأخرى الضرورية للمعاش. تتألف كل مجموعة من مائة وخمسين خيمة، وتستغرق الرحلة خمسة عشر يوماً ذهاباً وإياباً، لأن تاغية تقع على مسافة مائة وعشرين ميلاً من فاس. وقد كان أبي يأخذني معه لزيارة هذا الضريح، ولما بلغت مبلغ الرجال ذهبت إليه مرات للوفاء بنذور نذرتها عندما تعرضت لخطر الموت بسبب الأسود.

زَرْفَة

كانت زرفة(18) إحدى مدن تامسنا التي أسسها الأفارقة في سهل فسيح وجميل جداً، حيث يوجد الكثير من الجداول والعيون. ويحيط

---

(17) هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات المتوفى عام 1229/627 مؤلف كتاب التشوف إلى رجال التصوف المطبوع بالرباط سنة 1958 . وتحمل ترجمة الشيخ أبي يعزى (= مولاي بوعزة) يلنور بن ميمون رقم 77 ، ص. 195-205 .
وقد جاء عالم تادلي آخر بعد عصر الحسن الوزان هو أحمد بن قاسم الصومعي التادلي المتوفى عام 1604/1013 فألف كتاباً ضخمًا خاصاً بترجمة مولاي بوعزة سماه **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**. مخطوط م. ع. بالرباط 591 د.

(18) لا يعرف لهذه المدينة اسم ولا أثر.

بأطلال هذه المدينة العدد العديد من أشجار التين فتتراءى من بعيد وكأنها غابة. وتكثر الأشجار في كل الضواحي، كالقرانية وأشجار تدعى ثمارها في رومة «الكرز البحري»[19]، كما تكثر أيضاً تلك النباتات الشوكية التي تعطي ثمراً يسمى بالعربية «النبق» وهو أصغر من الكرز وطعمه يشبه طعم العناب (الزفزوف). وتظهر كذلك في جميع هذه السهول شجيرات الدوم التي تعطي ثمراً غليظاً بحجم زيتون اسبانيا لكن مع نواة كبيرة ومذاق غير لذيذ، بل يشبه تقريباً مذاق الزعرور قبل نضجه.

تهدمت هذه المدينة في حروب الزنادقة (البرغواطيين). ويزرع الآن أعراب تامسنا أرضها فيحصلون على غلات طيبة تبلغ أحياناً خمسين ضعف ما زرعوا.

(19) هو ما يسمى في المغرب حب الملوك.

إقْلِيم فَاس

يبدأ إقليم فاس من غرب نهر أبي رقراق، ويمتد شرقاً إلى نهر إيناون، وينتهي بينهما شمالاً عند نهر سبو، وجنوباً عند سفح الأطلس. هذا الإقليم عجيب حقاً بوفرة حبوبه وثماره ومواشيه. وتقوم فوق جميع رباه قرى كثيرة وكبيـرة جداً، لأن السهول قليلة السكان بسبب الحروب الماضية، غير أن بعض الأعراب الفقراء يعيشون بها في مداشر، ولا سلطة لهم هنا إطلاقاً، وانما يزرعون الأرض مناصفة مع أهل فاس أو مع الملك ورجال حاشيته. لكن أرياف سلا ومكناس يزرعها أعراب من الأشراف والنبلاء الذين هم مع ذلك من خدام الملك.

وسأحدثكم الآن عما يستحق الذكر في هذا الإقليم:

سَلا

سلا مدينة أزلية بناها الرومان وتغلب عليها القوط. ولما دخلت الجيوش الإسلامية إلى هذه المنطقة سلمها القوط إلى طارق (بن زياد) قائد هذه الجيوش. وبعد تأسيس مدينة فاس انضوت سلا تحت سلطة ملوكها. وقد بنيت هذه المدينة على شاطىء المحيط في موقع جميل، غير بعيدة عن الرباط بأكثر من ميل ونصف، ويفصل نهر أبي رقراق بين المدينتين. بيوت سلا مبنية على طريقة القدماء، مزينة كثيراً بالفسيفساء وأعمدة الرخام،

ومساجدها كلها في منتهى الجمال والزخرفة. وتنطبق هذه الأوصاف أيضاً على الدكاكين الواقعة تحت أروقة كبيرة جميلة. وعندما يمر المرء أمام عدة دكاكين، يجد قوساً مبنياً على ما يقال ليفصل بين حرفة وأخرى.

أستنتج من ذلك أن سلا تملك من الترف والبذخ ما يضفي عليها طابع مدينة عريقة في الحضارة، بالإضافة إلى أن ميناءها الجيد مهبط التجار المسيحيين من مختلف الجنسيات، من جنويين وبندقيين وانجليزيين وفلاماندين، لأنه كان يستعمل كميناء لكل مملكة فاس. وقد تعرضت هذه المدينة لهجوم أسطول ملك قشتالة عام 670 للهجرة[20] فهرب السكان ودخلها النصارى غير أن مقامهم بها لم يدم أكثر من عشرة أيام، إذ هاجمهم بغتة يعقوب (بن عبد الحق) أول ملوك بني مرين، ولم يكونوا متأهبين لذلك ولا ظانين أن الملك سيتخلى عن الحملة التي يخوضها آنذاك ضد تلمسان وبذلك تم استرداد المدينة وقتل كل من وجد بها من المسيحيين، ولجأ الباقون إلى سفنهم وفروا بها. وهذا هو السبب الذي جعل الملك يعقوب وجميع من أتى بعده من بني مرين يتمتعون بالحظوة عند سكان هذه المناطق.

وعلى الرغم من سرعة استرجاع سلا، فإنها بقيت منذئذ أقل سكاناً وأهمية. وتوجد في المدينة كلها، لا سيما قرب السور المحيط بها، دور عديدة خالية تحتوي على أعمدة جميلة جداً ونوافذ من الرخام مختلفة الألوان، لكن الأهالي اليوم لا يقدرونها حق قدرها.

وضواحي سلا كلها رملية إلا بعض الأراضي الزراعية التي ينبت فيها القليل من القمح، غير أن البساتين كثيرة، وكذلك الحقول التي تنتج كمية عظيمة من القطن. ومعظم سكان المدينة حائكون يصنعون ثياباً من القطن في غاية الرقة والجمال. وتصنع كذلك بسلا كمية وافرة من المشط

---

(20) بل عام 658 حسب المصادر العربية الأخرى. انظر أ. الناصري، **الاستقصا**، 1:3 .

تباع في جميع مدن مملكة فاس، إذ توجد بجوار هذه المدينة غابة معمورة بأشجار البقس وغيرها من الأنواع الأخرى العديدة الصالحة لهذا العمل.

يعيش الناس الآن في سلا عيشة طيبة جداً، إذ يوجد فيها حاكم وقاض وعدد من الموظفين الآخرين أمثال موظفي الجمارك وضرائب المعاملات التجارية، لأن عدداً كثيراً من التجار الجنويين يأتون إليها ويعقدون فيها صفقات هامة، ويلقون من الملك عناية خاصة لأن تجارتهم تحقق له أرباحاً ضخمة. ولهؤلاء التجار مخازن سواء في فاس أو في سلا، ويتعاونون عند شحن بضائعهم فيعمل الواحد منهم لحساب الآخر. ولقد رأيتهم في معاملاتهم مخلصين ومهذبين جداً، ينفقون أموالاً عظيمة لاكتساب صداقة الأمراء ورجال الحاشية، ولا يفعلون ذلك جشعاً واستغلالاً لهم، بل ليتمكنوا من العيش اللائق في تلك البلاد الغريبة. وكان بسلا في عهد شبابي وجيه جنوي معظم بصفة خاصة يدعى مسير طوماسو دي مرينو، وهو رجل عاقل خير حقاً، وغنيّ جداً، يقدره الملك ويحبه كثيراً. عاش في فاس ثلاثين سنة، ولما وافته المنية أمر الملك بنقل جثته إلى جنوة تنفيذاً لوصيته. وقد خلف هذا الرجل عدداً من الأولاد كلهم أغنياء متمتعون بالحظوة عند الملك وحاشيته كافة.

فنزارة

ليست فنزارة بالمدينة الكبيرة. ولكنها بنيت في سهل جميل جداً من طرف أحد الملوك الموحدين على بعد نحو عشرة أميال من سلا. والسهل كله خصيب تجود فيه الحنطة وغيرها من الحبوب... وتوجد في خارج المدينة بقرب الأسوار سقايات في منتهى الجمال من بناء أبي الحسن (المريني) ملك فاس. وفي أيام أبي سعيد آخر ملوك بني مرين[21] كان أحد أعمامه

(21) ليس أبو سعيد آخر ملوك بني مرين، وانما آخرهم ابنه عبدالحق الذي ثار عليه الشعب وقتله عام 1465/869. انظر أ. الناصري، **الاستقصا**، 4:99-101.

المدعو سعيداً أسيراً عند ملك غرناطة عبد الله، فتوسل الأسير إلى ابن أخيه أن يلبي طلباً تقدم به هذا الملك، لكن أبا سعيد رفض. عمد الملك عبد الله إلى إطلاق سراح سعيد وأرسله مع جيش كثيف ونفقات حربية عظيمة ليحارب ملك فاس ويقضي عليه، فحاصر سعيد مدينة فاس بمساعدة بعض الجبليين من الأعراب، ودام الحصار سبعة أعوام خرب أثناءها قرى ومدناً وقصوراً في جميع أنحاء المملكة، ثم تفشى الطاعون في جيشه فهلك هو وفريق من جنده. وذلك عام 918 للهجرة[22] والمدن التي خربت في هذه الفترة لم تعمر بعد ذلك، ولا سيما فنزارة التي اقطعت لشيوخ الأعراب الذين ساعدوا سعيداً ليسكنوها.

المَعْمُورَة

المعمورة مدينة صغيرة أسسها أحد ملوك الموحدين على مصب نهر سبو، لكن على بعد ميل ونصف من المكان الذي يصب فيه النهر في البحر، وعلى بعد اثني عشر ميلاً من سلا[23] وليست ضواحي المعمورة إلّا سهلاً رملياً.

وقد أسست المدينة تحمي المصب وتحول دون دخول سفن الأعداء إلى النهر. وفي جوار المدينة غابة بها أشجار باسقة تثمر بلوطا طويلاً غليظاً بحجم برقوق دمشق. هذا البلوط أرق قليلاً من الكستناء وأحلى منه مذاقاً وأكثر نعومة. وقد اعتاد الأعراب المجاورون لهذه الغابة أن يحملوا منه كميات عظيمة على جمالهم إلى فاس ويحققوا بذلك الربح الوفير. لكن خطر الأسود فيها عظيم، وكثيراً ما تفترس الدواب والناس الذين لم يعتادوها،

---

(22) انقلب ترتيب الأرقام بدون شك عند النسخ أو الترجمة، إذ مدة حكم أبي سعيد هي 800-823 . وتسمي مصادر أخرى الثائر عبد الله بن أحمد الوطاسي، أخا السلطان أبي سعيد. انظر أ. الناصري، **الاستقصا**، 4:93-94 .

(23) بل تبعد مدينة المعمورة عن سلا باثنين وعشرين ميلاً.

لأنها أكثر أسود افريقيا ضراوة. وقد دمرت مدينة المعمورة منذ مائة وعشرين سنة على أثر محاربة سعيد لملك فاس[24].

وفي سنة 921 أرسل ملك البرتغال اسطولاً ضخمًا لبناء حصن عند مصب النهر[25] وشرعوا في البناء بمجرد وصولهم، وأقاموا جميع الأسس وبدءوا في تشييد الجدران والأبراج، في حين كان معظم الأسطول راسياً في الميناء. وعلى حين غرة داهمهم أخو ملك فاس فقتل منهم ثلاثة آلاف ومزقهم كل ممزق، لا لعدم مقدرتهم ولكن لاضطراب صفوفهم، وإليكم ما حدث: في إحدى الليالي قبل طلوع الفجر نزل ثلاثة آلاف برتغالي من سفنهم بقصد الاستيلاء على مدفعية ملك فاس. وقد أخطأوا خطأ فاحشاً حين قدروا أن هذا العدد القليل من المشاة يستطيع أن يقوم بمثل هذه العملية الحربية، في حين كان خصمهم يتوفر على خمسين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان. لكن البرتغاليين ظنوا أنه قبل أن يتنبه أحد من مخيم عدوهم إلى ما يجب عمله للرد على هجومهم الخاطف يمكنهم أن يسحبوا المدفعية إلى الحصن الذي كان على مسافة نحو ميلين من مكان المدفعية. وكان يقوم على حراسة هذه المدفعية ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف رجل، إلا أنهم كانوا جميعاً نائمين عند الفجر. وقد نجحت العملية لدرجة أن البرتغاليين سحبوا قطع المدفعية إلى مسافة ميل تقريباً ففطنوا بهم، وحدثت جلبة أيقظت كل المحلة، فأخذوا السلاح بسرعة وانقضوا على البرتغاليين الذين تحلقوا على الفور في شكل دائرة، وتابعوا سيرهم دون أن يفقدوا شجاعتهم وهم يدافعون عن أنفسهم، ولم يصبهم أي ذعر عندما وجدوا أنفسهم مطوقين من جميع الجهات، بعدما رأوا الطريق تقطع

---

(24) يؤكد هذا ملاحظتنا في الهامش السابق 22 من اختلاط ترتيب الأرقام على الناسخ أو المترجم.

(25) نزلت القوات البرتغالية بساحل المعمورة يوم الأحد 12 جمادى الأولى 921 هـ/24 يونيه 1515. وسمّي الحصن الذي بنوه (سان جان دي معمورة).

عليهم، بل ان الإقدام والحمية اتاح لمقدمة جيشهم أن تشق لنفسها ثغرة بالقوة، وكادوا ينجون رغم جيش عدوهم لولا أن بعض الموالي العلوج الذين كانوا يعرفون اللغة البرتغانية صاحوا بهم أن يلقوا السلاح، وان أخا الملك يؤمنهم على حياتهم، ففعلوا ما أمروا به، لكن المغاربة الحانقين لم يريدوا أن يأسروا منهم واحداً وقتلوهم جميعاً ولم ينج منهم إلّا ثلاثة أو أربعة بفضل حماية بعض قواد جيش أخي الملك.

أصبح القائد حاكم الحصن حينئذ في حالة يأس قصوى لأن زهرة جنده كانت من بين القتلى، فطلب النجدة من القائد العام الذي كان يرابط خارج مصب النهر في سفن تحمل على ظهرها عدداً من النبلاء والفرسان البرتغاليين. لكن السفن لم تستطع الدخول إلى النهر الذي كان الحرس الملكي يقوم على حمايته ويقصف بمدفعيته القوية السفن البرتغالية فيغرق بعضها. وفي هذه الأثناء وصل خبر موت ملك اسبانيا إلى البرتغاليين، فأرادت أعداد كثيرة من السفن التي كان الملك الهالك قد بعث بها أن ترجع إلى بلادها. وفضلاً عن ذلك فان قائد الحصن أخلاه حين يئس من الحصول على أية نجدة، والسفن الراسية بالنهر لم ترد البقاء في مكانها، فهلك ثلثاها تقريباً عند الخروج، إذ حاولت أن تبتعد عن الضفة التي تقذف منها المدفعية محاذية الضفة الأخرى فغاصت في الرمل، لأن ذلك الجانب من النهر كان قليل العمق، فانهال عليهم المغاربة وقتلوا الكثير منهم، وارتمى الآخرون في النهر آملين أن يلتحقوا بالسفن سباحة، لكنهم غرقوا أو قتلوا كما قتل الأولون. واحرقت السفن وقذف بمدفعيتها في الماء، فصار لون النهر أحمر بالدم في منطقة المعركة مدة ثلاثة أيام. ويقال إنه قتل في هذه الحملة عشرة آلاف من النصارى. وبعد ذلك أمر ملك فاس بالبحث في النهر فوجدوا فيه أربعمائة قطعة مدفعية من البرونز[26]. وقد

---

(26) تؤيد المستندات البرتغالية رواية هذه الكارثة ضدهم، مع اختلاف بسيط في التفصيلات ولكنها لا تشير إلى وجود سفن إسبانية.

حدثت هذه الهزيمة النكراء لسببين راجعين إلى عدم الانضباط، يعود الأول إلى البرتغاليين الذين أرادوا الاستيلاء على مدفعية عدوهم بعدد قليل من الرجال ودون تقدير قوات الخصم. والثاني أن ملك البرتغال الذي كان بإمكانه أن يرسل اسطولاً كاملاً على نفقته التامة وتحت قيادة ضباطه الخاصين به، أراد أن يضيف إليه أسطول القشتاليين. ويحدث دائمًا في مثل هذه الحال ــ وهذه قاعدة مطردة ــ انه إذا تحرك جنود أميرين ضد جنود أمير واحد، كان الهوان والهزيمة من نصيب جنود الأميرين بسبب اختلاف الأوامر وتضارب الآراء التي لا تتفق أبداً. ويرى ملوكنا الأفارقة أن من بوادر النصر أن يرى جيش أمير واحد يخوض المعركة ضد جيشين لأميرين مختلفين.

وقد حضرت في هذه الحرب كلها وشاهدتها عن كثب، ثم قمت على أثرها برحلة إلى القسطنطينية.

تَفَلْفَلْتْ

تفلفلت[27] مدينة صغيرة مبنية في سهل رملي على بعد نحو خمسة عشر ميلاً شرقي المعمورة، واثني عشر ميلاً من المحيط. ويمر بالقرب من هذه المدينة نهر قليل الأهمية، على ضفافه غابة تؤوي أسوداً شرسة جداً أكثر من التي تحدثنا عنها من قبل، تضر كثيراً بالمارة لا سيما الذين يقضون الليل هناك. لكن يوجد خارج المدينة على الطريق الكبيرة المؤدية إلى فاس مدشر صغير مهجور به بناء تعلوه قبة، يقال ان البغالين والمسافرين يذهبون ويبيتون فيه بعد أن يحموا الباب بسياج من الأشـواك والأغصان التي يجمعونها من هنا وهناك. وقد كان هذا المكان فندقاً يوم كانت تفلفلت مأهولة. وقد هجرت المدينة أيضاً أثناء حرب سعيد.

---

(27) يقترب هذا الاسم من «تيفلت» القرية القائمة اليوم بين سلا والخميسات، إلا أن تفلفلت، على ما يظهر من كلام مرمول، كانت تقع غرب تيفلت عند ملتقى واد زيلي بواد تيفلت، غير بعيدة عن ديار بني مالك من قبيلة سفيان الشهيرة بالغرب.

مَكْنَاس

مكناس مدينة كبيرة أسستها قبيلة مكناسة فسميت باسمها. وتبعد عن فاس بنحو ستة وثلاثين ميلاً، وعن سلا بخمسين ميلاً[28] وعن الأطلس بخمسة عشر ميلاً. وتضم حوالي ستة آلاف كانون، وسكانها متكاثفون جداً، وقد عاش هؤلاء السكان مدة مديدة آمنين متحدين طوال عهد بداوتهم، لكن بعد ذلك حدثت فتن وتكونت أحزاب، فتغلب بعضهم على بعض وفقد المغلوبون مواشيهم ولم يستطيعوا المقام في البادية فاجتمعوا وبنوا هذه المدينة.

تقع مكناس في سهل بديع جداً، ويمر بالقرب منها نهر صغير، وتحيط بها على مسافة ثلاثة أميال حدائق عديدة تنتج ثماراً ممتازة، لا سيما السفرجل، وهو غليظ جداً طيب الرائحة، والرمان الغريب حجمًا وجودة إذ لا نواة له ويباع بثمن بخس. ويكثر بها البرقوق الأبيض والدمشقي، حتى إن الحمل منه يباع بخمسة أو ستة (بيوتشيات)[28م] ويجنى العناب (الزفزوف) بكثرة كل عام، فيؤكل يابساً في الشتاء وتحمل منه كمية طيبة إلى فاس لبيعها. ويوجد بكثرة كذلك التين وعنب الكرم المعروش إلّا أنه يؤكل طرياً، ويفرز التين نوعاً من الدقيق عندما يراد تجفيفه لادخاره، وكذلك العنب لا يكون لذيذ الطعم إذا أكل يابساً. وتنتج هذه المنطقة مقادير وافرة من المشمش والخوخ لدرجة أنهم يكادون يرمونها، والحق أن هذا الخوخ ليس بجيد، فهو كثير الماء ويكاد يكون أخضر. أما الزيتون فتجنى منه مقادير لا حد لها ولا نهاية، ويباع القنطار منه بمثقال ونصف، أي ما يعادل مائة رطل ايطالي. والحاصل أن الأراضي المحيطة بمكناس خصيبة جداً، تجبى منها كميات وافرة من الكتان يباع معظمها في فاس وسلا.

---

(28) بل تبعد عنها بثمانين ميلاً.

(28م) لم يرد هنا في الطبعة الأولى تحديد لقيمة هذه الفئة من العملة الايطالية ــ ولكن ورد في الحاشية 27 من مملكة تلمسان (ج ٢) أن قيمة هذه الفئة نحو 7 سنتيم ذهب ــ المشرف.

والمدينة في داخلها حسنة الترتيب والتنسيق، فيها مساجد جميلة، وثلاث مدارس للطلبة، ونحو عشر حمامات في غاية السعة. ويعقد السوق خارج المدينة قرب الأسوار كل يوم اثنين، فيحج إليه عدد كثير من أعراب المناطق المجاورة، يأتون بأبقارهم وأغنامهم وسائر أصناف الماشية، ويحملون كذلك السمن والصوف، ويباع كل ذلك بأبخس الأثمان.

وفي أيامنا هذه أعطى الملك مدينة مكناس للأمير(29) ليكون قسم منها من اقطاعه، ويقدر ما يجبى منها ومن ناحيتها بما يشكل تقريباً ثلث كل ما تنتجه مملكة فاس. ولكن مكناس تضررت كثيراً في الماضي من الحروب التي نشبت بين أمراء هذه النواحي، وقد كلفتها كل حرب خسارة تتراوح ما بين ثلاثين وأربعين ألف مثقال، وحوصرت المدينة مزاراً عديدة، ودام الحصار في كل مرة ست أو سبع سنوات.

وفي أيام شبابي عندما بويع ملك فاس الحالي(30)، ثار ضده أحد أبناء عمه وأيده سكان مكناس التي كان عاملاً عليها في عهد الملك السابق، فزحف الملك إلى مكناس بجيشه وحاصرها نحو شهرين، ولما امتنع السكان من الاستسلام عمد الملك إلى إتلاف ممتلكاتهم، وبلغت الخسائر خمسة وعشرين ألف مثقال. فتصوروا مبلغ الضرر الذي سببته ست سنوات أو سبع من الحصار. وأخيراً قام بعض المؤيدين للملك بفتح أحد أبواب المدينة، وصمد بشجاعة أمام هجوم المتمردين ومكن الملك من الدخول إلى مكناس، فاسترجعت المدينة وحمل الثائر(31) سجيناً إلى فاس لكنه تمكن بعد ذلك من الفرار.

---

(29) لعله يقصد السلطان محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي، وأخاه الأمير الناصر.

(30) بويع محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي بعد وفاة أبيه محمد الشيخ الوطاسي سنة 1504/910.

(31) لعله زيان الوطاسي الذي سيتصالح بعد ذلك مع ابن عمه السلطان، وسيدافع البرتغاليين عن مدينة آزمور 1508/914.

والحاصل أن مكناس مدينة جميلة ذات موارد عظيمة وأسوار جيدة، حصينة جداً، تتمتع بماء طيب يجلب إليها بواسطة قناة من مسافة ثلاثة أميال خارج المدينة، وتوزع القناة المياه على القصبة والمساجد والحمامات، والطواحين كلها خارج المدينة على مسافة نحو ميلين. وأهل مكناس شجعان كجنود، مهذبون لكن ذكاءهم غير صاف. وكلهم تجار أو نبلاء أو صناع. وليس من أهل المدينة من لا يستنكف عن أن يحمل البذور بنفسه على دابته لينقلها إلى من يفلح أرضه. وهم يكرهون كثيراً أهل فاس دون أن يعرف سبب واضح لذلك.

لا تخرج نساء النبلاء من بيوتهن إلا ليلاً، فيسترن وجوههن ولا يرغبن في أن يراهن أحد محجّبات أو سافرات، لأن أزواجهن شديدو الغيرة لدرجة خطيرة حين يتعلّق الأمر بنسائهم، ولا تعجبني هذه المدينة لأن أرضها تكون مبلّلة وموحلة في فصل الشتاء.

جَامِعْ الحَمَّام

هي مدينة قديمة مبنية في السهل قرب حمام، على بعد نحو خمسة عشر ميلاً جنوبي مكناس، وثلاثين ميلاً غربي فاس، وعشرة أميال من الأطلس، وتقع على طريق المسافرين من فاس إلى تادلا. وقد احتل الأعراب أراضيها الزراعية لأنها دمرّت بدورها في حروب سعيد. ولا يزال قائمًا من أطلالها جميع السور المحيط بها تقريباً، وجدران كل الأبراج والمساجد ولو أن سقوفها قد سقطت.

خميس مْطَغْرَة

خميس مطغرة[32] مدينة صغيرة أسّسها الأفارقة في بادية زواغة، على

(32) لا يُعرف موقع هذه المدينة اليوم، إلا أن مارمول ذكر أن خميس مطغرة واقع على الطريق بين فاس ومراكش على بعد نصف المسافة بين فاس وجامع الحمام ـــ أي 15

بعد خمسة عشر ميلاً غربي فاس. تربتها خصبة جداً، وتقوم حول المدينة على مسافة نحو ميلين أغراس جميلة من الكروم والتين، لكنها أعيدت كلها لحالتها الطبيعية، لأن هذه المدينة خرّبت أثناء حرب سعيد وأصبحت جميع أراضيها مهجورة طوال نحو مائة وعشرين سنة. ومنذ أن قَدِم قسم من أهل غرناطة إلى موريطانيا، أخذت المدينة تعمّر من جديد، وغرس (حولها) كثير من أشجار التوت الأبيض، لأن الغرناطيين من كبار تجّار الحرير. كما غرس قصب السكر، إلا أنه لم تستخلص منه فوائد كبيرة مثل ما كان يستخلص منه عادة في الأندلس. وقد كانت هذه المدينة قديماً متحضّرة جداً، خلافاً لما هي عليه الآن، لأن معظم سكانها أصبحوا فلاحين.

بْني بَازِيلْ

بني بازيل مدينة صغيرة بناها الأفارقة أيضاً على نهر صغير، في وسط الطريق الذاهب من فاس إلى مكناس، على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً غربي فاس[33]. ولهذه المدينة بادية شاسعة تجري فيها جداول كثيرة وينابيع غزيرة، ولا يكاد يسكنها غير الأعراب الذين يزرعون فيها الشعير والكتّان. أما المزروعات الأخرى فلا يمكن أن تنجح لأن الأرض محصبة مغمورة دائماً بالماء. وقد كان بضواحي بني بازيل حدائق كثيرة حسبما يظهر من آثارها الباقية. لكن المدينة خُرّبت كغيرها من المدن في حروب سعيد، وظلت مهجورة مدة تناهز مائة وعشرة أعوام، إلى أن رجع الملك (محمد الوطاسي البرتغالي) من دكالة، فأرسل طائفة من السكان الذين أجلاهم عن تلك البلاد إلى مدينة بني بازيل ليعمّروها وهم قوم خشنون لا يقيمون فيها إلا على مضض.

ميلاً ــ وأنها كانت آهلة بالموريسكيين الذين غادروا غرناطة بعد سقوطها في يد الإسبان، كما ذكر الوزان هنا.

(33) يحدد مرمول موقع بني بازيل على وادي النجا بالقرب من منبعه.

فاس، المدينةُ العُظمي
عاصمةُ مُوريطَانْيا كُلِّها

أسّس مدينة فاس أحد الشيعة أيام الخليفة هارون الرشيد عام 185 للهجرة[34]. وسُمّيت هذه المدينة فاساً لأنه عُثر في أول يوم شرع في حفر الأرض لإرساء الأسس على كمية من الذهب تحمل بالعربية اسم فاس[35]. وهذا في نظري هو السبب الحقيقي لهذه التسمية. ومع ذلك يرى البعض أن المكان الذي أُسّست فيه المدينة كان يحمل اسم فاس

---

(34) المعروف أن المدينتين المتميزتين اللتين تكوّنت منهما فاس أسّسهما ادريس بن ادريس: الأولى على الضفة اليمنى الشرقية للنهر في يوم الخميس 3 ربيع الأول عام 192/ 6 يناير 808، والثانية على الضفة اليسرى الغربية أوائل ربيع الثاني عام 193/ آخر يناير 809.

وقد عثر على درهم ضرب بفاس عام 185/ 801، أي في نفس التاريخ الذي ذكره الوزان. ودلّت أبحاث جديدة على أن فاساً الأصلية على الضفة اليمنى للنهر أسّسها ادريس بن عبد الله بعد أن بايعه برابرة زرهون بثلاثة أشهر، عام 172/ 789. وبعد عشرين عاماً أسّس ادريس بن ادريس المدينة المقابلة لها على الضفة اليسرى للنهر وسمّاها «العليا»، ثم جاء العرب من الأندلس فسكنوا المدينة القديمة وسمّيت باسمهم، وجاء عرب القيروان فسكنوا المدينة الجديدة وسمّيت باسمهم.

(35) كلام غير معقول، وربما اختلط الأمر على راميزيو أو غيره من نساخ **وصف إفريقيا** فحرفوا «فاس من ذهب» إلى «كمية من ذهب».

وصنع فاس ذهبي لادريس بن ادريس أو عثوره على فاس أثناء حفر أسس المدينة وتسميتها فاساً لذلك مشهور عند المؤرخين، انظر مثلاً ابن أبي زرع، **القرطاس**، ص 45؛ الجزنائي، **زهرة الآس**، ص 18.

بسبب النهر الذي يخترقها، إذ النهر بالبربرية يقال له «ساف»[36] فقلب هذا اللفظ.

ومهما يكن من أمر، فإن مؤسس فاس كان يدعى ادريس، وهو من أقرباء الخليفة هارون (الرشيد)، لأن ادريس من أحفاد علي ابن عم محمد (عليه السلام) وزوج (ابنته) فاطمة. فهو يتّصل إذن بالرسول من جهة الأب والأم معا، بخلاف هارون الذي لا يتّصل بمحمد (عليه السلام) إلا من جهة واحدة هي جهة جدّه العباس عم محمد (عليه السلام). وعلينا أن نعرف أن هاتين الأسرتين حرمتا من السلطة لأسباب مذكورة في التواريخ القديمة، ولم تأت الخلافة إلى هارون إلا عن طريق الاغتصاب والاحتيال. ذلك أن أحد أجداده، وكان داهية خارق الذكاء، تظاهر بمساندة آل علي والدعوة لرجوع الخلافة إليهم، وأرسل الدعاة تحت هذا الستار إلى العالم كله، فكان ذلك سبب انتقال الخلافة من بني أمية إلى أبي عبد الله السفّاح أول خليفة (عباسي)، الذي رأى ألاّ يترك هذا الشرف لغيره، ودخل حالاً في نزاع ضد العلويين وراح يمتحنهم علانية، ففرّ أعيانهم، بعضهم إلى آسيا، وبعضهم إلى الهند، وبقي أحدهم بالمدينة لم يهتم به السفّاح لكونه شيخاً متديّناً. ولكن نشأ اثنان من أبناء هذا الرجل وازدادت مكانتهما وحظوتهما عند أهل المدينة، فأراد الخليفة أن يقبض عليهما، واضطر البائسان إلى الفرار.

وقد تمكّن الخليفة من أخذ أحدهما وخنقه، ووصل الثاني المسمّى ادريس إلى موريطانيا[37]، فحظي فيها حظوة كبيرة حتى إنه حصل في

(36) بل «أسيف» ويمكن أن يكون قد حرف إلى فاس بالعربية.

(37) اختلط الأمر على المؤلف هنا. فالأخوان العلويان اللذان اختفيا في المدينة عن أعين السفاح وأخيه أبي جعفر المنصور، هما: محمد النفس الزكية وابراهيم ابنا عبد الله، وقد أعلنا الثورة عام 145 فقُتل أحدهما في المدينة، والآخر بظاهر الكوفة. أما ادريس بن عبد الله فإنه فرّ من العباسيين بعد معركة فخ التي جرت بضواحي مكة عام 169، فلجأ إلى مصر، ومنها إلى المغرب، حيث تمكّن من تأسيس الدولة الإدريسية المستقلة عن خلافة العباسيين.

قليل من الوقت لا على السلطة الزمنية فحسب، ولكن على السلطة الروحية أيضاً، واستقر في جبل زرهون على بعد نحو ثلاثين ميلاً من فاس، وغدت موريطانيا كلها تدفع له الخراج، ومات دون أن يترك ولداً، وإنما ترك زوجته حاملاً، وهي قوطية اعتنقت الإسلام فوضعت ولداً سمّي باسم أبيه ادريس. وأراد السكان أن يكون لهم ملكاً فتربىّ تربية حسنة، ونال عناية فائقة، ولما كَبُر تعلّم تحت رعاية مولى أبيه الشجاع راشد، وأخذ منذ بلغ الخامسة عشرة من عمره يحقق انتصارات مجيدة، ففتح عدة بلدان حتى تكاثر عدد الأسر والجنود التابعين له تكاثراً عظيمًا، وتبين له أن دار مقام أبيه لم تعد تكفيه، وعزم على أن يغادر الجبل ويؤسس مدينة يستقر فيها. وقد جمع لهذه الغاية عدداً من المعماريين والمهندسين فحصوا بدقة كل السهول المجاورة للجبل ونصحوه ببناء المدينة في الموقع الذي بُنيت فيه، كانت هناك عيون عديدة ونهر كبير ينبع من سهل لا يبعد كثيراً عن تلك العيون، ويمر بين تلال صغيرة لينحدر إلى شعاب في غاية الجمال، بعد أن يقطع السهل ويسيل بهدوء وسكينة على مسافة ثمانية أميال، كما كانت هناك غابة كبيرة في الجنوب تنفع المدينة كثيراً وتسد حاجاتها. هذا هو السبب الذي من أجله بُنيت على الضفة الشرقية للوادي مدينة صغيرة تضم حوالي ثلاثة آلاف كانون. وتحتوي على ما هو ضروري نظراً لأهميتها.

ولما مات ادريس بنى أحد أبنائه مدينة أخرى في الجهة الغربية، وهي أقل ضخامة من الأولى واقعة أيضاً على مجرى النهر[38]. ونمت المدينتان مع مرور الزمن حتى لم يعد يفصل بينهما سوى ممر صغير، لأن الأمراء العديدين

---

(38) اختلط الأمر هنا أيضاً على المؤلف، فالمؤسسان لمدينة فاس هما ادريس الأول (على ما يؤخذ من كلام الوزان وأثبته البحث الحديث)، وادريس الثاني المتوفى عام 213/828. وليس هناك من يزعم أن أحد أبناء ادريس الثاني الاثني عشر بنى إحدى عدوتي فاس، إلا أن يكون ترميمًا أو توسيعاً. انظر **القرطاس**، ص 29 - 60.

الذين حكموا كل واحدة منهما بذلوا ما في مستطاعهم لتوسيع مدينتهم. لكن لم تمرّ مائة سنة على تأسيس فاس حتى تكوّنت أحزاب متباينة وظهرت خلافات بين سكان المدينتين، فأصبح لكل واحدة منهما أمير، وقامت بينهم حروب كثيرة استمرت مائة عام.

وبعد ذلك حمل يوسف (بن تاشفين) ملك لمتونة على الأميرين بجيش عظيم، فتمكّن منهما وقتلهما شر قتلة، وهلك معظم سكان المدينتين حينئذ ونهبت العدوتان، وبلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً. وقرر الملك يوسف جمع السكان في مدينة واحدة، وهدم الأسوار التي كانت تفصل المدينتين إحداهما عن الأخرى. وبنى جسوراً على النهر ليسهل العبور من ضفة إلى أخرى. وهكذا أصبحت المدينتان مدينة واحدة قُسّمت إلى عشرة أحياء، أو بتعبير أدق إلى عشر نواح.

والآن، وقد شرحت لكم أسباب تأسيس فاس وكيفية بنائها، سأصف لكم بتفصيل الحالة التي توجد عليها اليوم.

وصف دقيق وسريع لفاس

إن فاساً مدينة كبيرة جداً، تحيط بها أسوار متينة عالية، وتكاد تكون كلها مشيّدة على تلال، بحيث إن وسطها وحده هو المستوي، وليس على الجوانب الأربعة إلا المنحدرات كما قلت. ويدخل الماء إلى المدينة من نقطتين، يمر أحد فروع النهر بالقرب من فاس الجديد جنوباً، ويدخل الفرع الآخر إليها من جهة الغرب، وبعد دخول الماء إلى المدينة يوزّع بواسطة عدد من القنوات، تسوق معظمه لدور السكان ورجال الحاشية الملكية وسائر الأبنية الأخرى. فلكل جامع أو مسجد حقه في هذا الماء، وكذلك الفنادق والملاجىء والمدارس. وتوجد قرب المساجد ميضآت عامة، وهي أبنية مربعة الشكل تحيط بها كنائف ذات أبواب قصيرة، وفي كل كنيف مغسلة يخرج الماء إليها من الجدار ويسيل في ساقية من رخام. وحيث

إن التيار قوي فإن الماء ينظّف الميضأة ويدفع هكذا جميع قاذورات المدينة إلى النهر. وفي وسط بناية الميضأة صهريج عمقه نحو ثلاثة أذرع وعرضه أربعة، وطوله اثنا عشر ذراعاً. وقد صنعت حول الصهريج مجار تصرف الماء الجاري لأسفل المراحيض. وفي فاس نحو مائة وخمسين ميضأة من هذا النوع.

والدور مبنية بالآجر والحجر المنحوت بدقة، ومعظم هذا الحجر جميل ومزدان بفسيفساء بهيجة. وكذلك الأفنية والأروقة (المباحات) مبلّطة بزليج مربّع قديم مختلف الألوان على شكل أواني مايورقة الخزفية. وقد اعتاد الناس أن يصبغوا السقوف بألوان زاهية مثل اللازورد والذهب. وهذه السقوف مصنوعة من خشب ومستوية، ليسهل نشر الغسيل على سطح الدار والنوم فيه صيفاً. وتتألف الدور كلها تقريباً من طابقين، وفي كثير منها ثلاث طبقات، في كل طبقة شرفات كثيرة الزخرفة تسمح بالمرور تحت السقف من حجرة لأخرى، لأن ساحة الدار مكشوفة والحجرات قائمة في كل جوانبها، وهي ذات أبواب واسعة وعالية جداً، ويصنع الأثرياء لهذه الأبواب مصاريع من خشب في غاية الحسن والدقة في النقش، ويجمّلون بيوتهم بخزانات في غاية الظرف مصبوغة على امتداد عرض البيت، يحفظون فيها أثمن الأشياء. على أن بعضهم يفضّل ألاّ يزيد علو هذه الخزانات على ستة أشبار حتى يتمكّنوا من بسط فراشهم فوقها. وجميع الأروقة في هذه الدور قائمة على أعمدة من الآجر مكسوّة بالزليج إلى ارتفاع يزيد قليلاً عن نصف القامة، ونرى في بعض البيوت أعمدة من رخام. ويُبنى عادة بين كل عمود وآخر قوس يغطّى بالزليج، والقناطر الموضوعة بين الأعمدة لتحمل الطبقات العليا مصنوعة من خشب، ومزدانة بنقوش جميلة وأصباغ مختلفة الألوان. ويوجد في كثير من المنازل صهاريج مستطيلة يتراوح عرضها بين ستة أذرع وسبعة، وطولها بين عشرة واثني عشر ذراعاً؛ ويبلغ عمقها ستة أشبار أو سبعة تقريباً. وكلها مكسوّة

بمربّعات الزليج الميورقي. ويبنون في كل جانب من جوانب الصهريج على طوله، سقايات منخفضة مزخرفة بنفس الزليج. وتُزيّن بعض هذه النافورات المائية بخصات من المرمر على ارتفاع نصف قامة مثلما يشاهد ذلك في نافورات أوربا، وعندما يمتلىء حوض كل سقاية يفيض منه الماء إلى صهاريج كبيرة بواسطة قنوات مغطّاة مبلّطة أيضاً بطريقة جميلة. وعندما تمتلىء الصهاريج الكبرى بدورها يخرج منها الماء بواسطة مجار معدّة حولها، ثم ينصبّ في بالوعات صغيرة. وهكذا يجري الماء تحت المراحيض ويذهب إلى النهر. ويُعتنى بالصهاريج دائمًا لتبقى في غاية الصفاء والنقاء، ولا تُستعمل إلا في الصيف، حيث يستحمّون فيها رجالاً ونساء وأطفالاً. ومن عادتهم أيضاً أن يبنوا على سطوح المنازل متنزّهاً يشتمل على عدة حجيرات فسيحة ومزخرفة جداً، تتسلى فيه النساء عندما يُتعبهن العمل، إذ يستطعن من هناك أن يشرفن على المدينة كلها تقريباً.

وفي فاس حوالى سبعمائة جامع ومسجد، والمساجد أماكن صغيرة للصلاة. ويوجد من بين هذه الجوامع خمسون كبيرة حسنة البناء، مزدانة بأعمدة من الرخام أو غيره من الحجر الذي لا يُرى مثله في إيطاليا. وتدعم جميع الأعمدة عوارض مكسوّة بالزليج أو الخشب المنقوش بدقة. وسقوف الجوانب مصنوعة على الطريقة الأوربية، أي من ألواح، والأرض مفروشة بالزليج ومغطّاة بحصر في غاية الجمال، مخيط بعضها إلى بعض بمهارة، بحيث لا يرى شيء من الزليج، والجدران مغطّاة كذلك بحصر، لكن بقدر قامة الإنسان فقط. ولكل جامع صومعة يصعد إليها المكلّفون بالأذان لإعلان أوقات الصلوات العادية، وليس لكل جامع أكثر من إمام واحد يقيم فيه الصلاة، ويتكفّل كذلك بالنظر في مداخيل الجامع، إذ عليه أن يمسك الحساب بدقة، ويوزّع الدخل على الذين يخدمون الجامع، كالمكلّفين بتعهّد المصابيح الموقدة ليلاً، والقائمين بحراسة الأبواب، والمؤذنين الذين يؤذنون للصلاة ليلاً من أعلى الصومعة. وأما الذين

يؤذنون بالنهار فلا يتقاضون أي أجر، إلا أنهم يعفون من كل ضريبة وكلفة كيفما كانت.

وفي المدينة جامع عظيم يدعى جامع القرويين، وهو في غاية الكبر، يبلغ محيط دائرته نحو ميل ونصف ميل، وله واحد وثلاثون باباً كلها كبيرة عالية، وتبلغ المساحة المغطّاة فيه نحو مائة وخمسين ذراعاً طوسكانياً طولاً، وأقل بقليل من ثمانين ذراعاً عرضاً. والصومعة التي يؤذن عليها عالية جداً كذلك. ويحمل السقف ثمانية وثلاثون قوساً طولاً، وعشرون عرضاً. وحول بناية الجامع في الواجهات الشرقية والغربية والشمالية أروقة، عرض كل واحد منها ثلاثون ذراعاً وطوله أربعون ذراعاً. وتوجد تحتها مخازن فيها الزيت وسائر الأشياء الأخرى التي يحتاج إليها الجامع، ويوقد فيه كل ليلة تسعمائة سراج، إذ لكل قوس سراجه. وفي الصف المكوّن من أقواس الوسط، وبالأخص التي تؤدّي إلى المحراب، فيه وحده مائة وخمسون مصباحاً. وهناك ثريات عديدة من البرونز في كل واحدة منها ألف وخمسمائة مصباح، صُنعت من نواقيس بعض المدن المسيحية التي فتحها ملوك فاس. وفي داخل الجامع على طول الجدران يشاهد المرء كراسي مختلفة الأشكال يدرس عليها العديد من العلماء الأساتذة، حيث يلقون على الشعب دروساً تتعلّق بأمور دينه وشريعته. تبتدىء هذه الدروس بعد الفجر بقليل، وتنتهي بعد ساعة من شروق الشمس. ولا تلقى الدروس صيفاً إلا من منتصف الليل إلى الساعة الواحدة والنصف صباحاً، ويتعلّق التعليم (حينئذ) بالعلوم الأخلاقية والروحية المتصلة بالشريعة المحمدية، ولا يتولىّ إلقاءها إلا بعض الناس الخصوصيين، أما الدروس الأخرى فلا تُسند إلا إلى رجال متضلّعين من هذه المواد، يتقاضون عن دروسهم أجوراً عالية حسنة وتقدّم لهم الكتب والإنارة. وليس لإمام الجامع وظيف آخر غير إقامة الصلاة إلا أنه يمسك حساباً مدقّقاً للهبات والأموال التي تقدّم للجامع لفائدة الأطفال الصغار، ويوزّع الإيرادات الموقوفة على

الفقراء، سواء كانت نقوداً أو حبوباً، فتُفرّق على مساكين المدينة بمناسبة كل عيد بمقادير متفاوتة حسب تكاليفهم العائلية.

يتقاضى القابض الذي يجمع إيرادات الجامع مثقالاً في اليوم عن هذا الوظيف الخاص، ويعمل معه ثمانية كتّاب أجر كل واحد منهم ستة مثاقيل في الشهر، وستة مساعدين يستخلصون أثمان كراء الدور والدكاكين وغير ذلك من الإيرادات، وينال كل واحد منهم خمسة بالمائة من المبلغ الذي يحصّله لقاء أتعابه. وللقابض فضلاً عن ذلك نحو عشرين من الأعوان المكلفين بالذهاب إلى الضواحي لكي يقدّموا للفلاحين وللبستانيين وأصحاب الكروم ما يحتاجون إليه، وأجر كل واحد من هؤلاء الأعوان ثلاثة مثاقيل في الشهر.

ويوجد خارج فاس على بعد ميل تقريباً نحو عشرين فرناً للجير، ومثل هذا العدد لأفران الآجر لسد حاجيات بناء الجامع والأملاك التابعة له. وللجامع القرويين دخل يومي يقدّر بمائتي مثقال، يُصرف أكثر من نصفها فيما ذكرت، على أن كل جامع أو مسجد لا مورد له، يستمد من القرويين الكثير من الأشياء التي يحتاج إليها. وفضلاً عن ذلك يقدّم ما هو ضروري للصالح العام في المدينة، لأن الجماعة ليس لها دخل من أي نوع كان. وقد اعتاد ملوك فاس في وقتنا الحاضر أن يقترضوا مبالغ ضخمة من إمام الجامع دون أن يردّوها إطلاقاً.

وفي فاس إحدى عشرة مدرسة للطلاب جيدة البناء كثيرة الزخرف بالزليج والخشب المنقوش، بعضها مبلّط بالرخام، وبعضها بالخزف المايورقي. وتحتوي كل مدرسة على عدة حجر، في هذه مائة حجرة أو أكثر، وفي تلك أقل من هذا العدد، وكلها من تأسيس مختلف ملوك بني مرين. وتمتاز إحدى هذه المدارس (البوعنانية) بروعة فائقة سعة وجمالاً، وهي من بناء السلطان أبي عنان (المريني)، يرى الناظر فيها بركة فاخرة من رخام، سعة خصّتها بطتان من الماء (نحو 1.850 ليتر). ويخترق هذه المدرسة

جدول ماء يسيل في قناة صغيرة مغطّاة أرضها وحواشيها بالرخام والزليج، وهناك ثلاثة أروقة مغطّاة عجيبة المنظر تحيط بها أعمدة مثمنة الأضلاع مثبتة في الجدران، مزدانة بمختلف الألوان. والأقواس الواقعة بين الأعمدة مكسوّة بالزليج والذهب الرفيع واللازورد، والسقف من خشب منقوش بصنع دقيق منتظم. وقد أقيم بين هذه الأروقة والصحن شبه شبابيك من خشب على شكل ستائر، بحيث إن من يوجد بالصحن لا يرى من هو داخل الحجرات المطلة على هذه الأروقة. وجميع الجدران مكسوّة كذلك بالزليج على الارتفاع الذي يمكن للإنسان أن يصله بيده. وفي المدرسة كلها على طول هذه الجدران كتابات شعرية منقوشة تسجّل تاريخ تأسيس المدرسة، وأمداحاً كثيرة لهذه البناية ومؤسسها السلطان أبي عنان. كتبت في زليجات بحروف كبيرة سوداء، على أرضية بيضاء بحيث يمكن قراءتها من مسافة بعيدة جداً. وأبواب المدرسة كلها من البرونز المصنوع بدقة وتزويق كثير، وأبواب الحجرات من الخشب المنقوش. وفي القاعة الكبرى المخصصة للصلاة منبر ذو تسع درجات، مصنوع كله من خشب الأبنوس والعاج، وهو في الواقع تحفة عجيبة.

سمعت من عدد من أساتذة هذه المدرسة الذين يؤكّدون ما سمعوه من شيوخهم، أنه عندما تم بناء هذه المدرسة، أراد أبو عنان أن يطّلع على سجل نفقات هذه المؤسسة، ولم يتصفّح بضع صفحات حتى وجد مجموعاً يقارب أربعين ألف مثقال، فأخذته الدهشة ولم يتابع قراءة السجل ثم مزّقه وألقى به في القناة التي تخترق المدرسة، وأنشد لأحد شعرائنا العرب بيتين يعبّران عن هذا المغزى:

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن   ليس لما قرّت به العين ثمن[39]

---

(39) يظهر أن الأمر هنا اختلط على المؤلف أيضاً، فالذي تمثّل بهذا البيت هو والد أبي عنان، أبو الحسن المريني، بعد أن تم بناء المدرسة الجديدة بمدينة مكناس، وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على هذه المدينة، فجاء من فاس ليقف عليها ويرى عملها

غير أنه كان هناك ناظر يدعى ابن الحاج، ضبط هذه المصاريف ووجد أن مجموعها بلغ أربعمائة وثمانين ألف مثقال. وتشبه سائر مدارس فاس قليلاً هذه المدرسة.

في كل مدرسة أساتذة لمختلف العلوم، فهذا يلقي درسه في الصباح، وذاك في المساء، ويتقاضون جميعاً مرتّبات حسنة أوصى بها مؤسس المدرسة. وكان كل طالب من طلبة هذه المدرسة في الزمن الماضي معفى من مصاريفه ولباسه مدة سبع سنوات، أما الآن فلم يبق له غير السكن، إذ خرب عدد كثير من الأملاك والبساتين التي كانت محصولاتها مخصصة لهذا الغرض أثناء حروب سعيد. ولم يبق اليوم سوى دخل بسيط يمكّن من الاحتفاظ بالأساتذة الذين يتقاضى بعضهم مائتي مثقال، وبعضهم مائة، وبعضهم أقل من ذلك. ولعل هذا أحد الأسباب التي أدّت إلى انخفاض القيمة الفكرية، ليس في فاس وحدها ولكن في جميع مدن افريقيا.

لا يسكن في هذه المدارس سوى بعض الطلبة الغرباء عن المدينة، الذين تتكفّل بمعاشهم صدقات أهل فاس ونواحيها. وإذا اتّفق أن قُبِل فيها طالب فاسي كان وحيداً. وعندما يريد أستاذ أن يلقي درسه، يبدأ أحد الطلبة بقراءة النص، ثم يشرحه الأستاذ ويضيف إليه بعض تأويلاته الشخصية، منبهاً إلى ما فيه من صعوبات. ويتناقش الطلبة أحياناً فيما بينهم أمام الأستاذ حسب موضوع الدرس.

البيمارستانات والحمامات الموجودة بمدينة فاس

يوجد بفاس بيمارستانات عديدة لا تقل حسناً عن المدارس التي سبق ذكرها. وكان الغرباء قديماً يُعطون السكن بها لمدة ثلاثة أيام، ويوجد

وصنعها، فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها، وجيء بالرسوم المتضمّنة للتنفيذات اللازمة لها، فغرّقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها وأنشد البيت المذكور هنا. انظر أ. الناصري، **الاستقصا**، 3: 177.

عدد كبير من البيمارستانات خارج أبواب المدينة، تقل جمالاً عن التي في داخلها. وكانت هذه البيمارستانات غنية جداً إلا أنه في أيام حرب سعيد عندما كان السلطان في أشد الحاجة إلى المال، أشاروا عليه ببيع إيراداتها وأملاكها. ولما رفض السكان بيعها تقدم أحد وكلاء الملك وأفتاه بأن هذه البيمارستانات إنما أسست بفضل الصدقات التي قدّمها أسلاف الملك الحالي الذي يوشك أن يفقد مملكته، فيستحسن والحالة هذه بيع تلك الأملاك لصد العدو المشترك، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها سهُل شراؤها من جديد. وهكذا بيعت هذه الأملاك. وتوفي الملك قبل أن يحصل شراء أي عقار جديد، وبقيت البيمارستانات فقيرة محرومة تقريباً من وسائل العمل. ومع ذلك فإنها تستضيف اليوم بعض الفقهاء الغرباء وأشراف المدينة، حفاظاً على الغرف لتبقى في حالة جيدة. وليس لمرضى الغرباء في أيامنا هذه غير بيمارستان واحد لا طبيب فيه ولا علاج. ولا يجد المريض المسكين فيه غير حجرته وطعامه ومن يخدمه إلى أن يموت أو يشفى من مرضه. وفي هذا البيمارستان حجرات مخصصة للحمقى، أي أولئك المجانين الذين يقذفون بالحجر أو يرتكبون أنواعاً أخرى من الأذى، يقيّدون فيها بالأغلال والسلاسل. وحواجز هذه الحجرات من جهة الممر وداخل البناية مسوّرة بعوارض خشبية متينة جداً. وإذا رأى المكلّف بتقديم الطعام للحمقى هياج أحدهم انهال عليه بضربات متوالية من عصا يحملها معه دائماً لهذا الغرض. وقد يقترب بعض الغرباء من هذه الحجرات فيناديه الحمقى ويشكون إليه استمرار حجزهم في السجن رغم شفائهم من حمقهم، وما يتعرضون له من كثرة سوء معاملة حرّاسهم كل يوم. وإذا صدّق المار كلام أحدهم واتّكأ على جانب نافذة حجرته، مدّ الأحمق إليه يده وأمسك بتلابيبه ولطخ بيده الأخرى وجهه بالغائط، لأن هؤلاء الحمقى، وإن كانت لهم ميضآت، يتغوّطون غالباً في وسط الحجرة، وعلى الحراس أن ينظّفوا هذه الأقذار باستمرار. ولذلك فإنهم ينبّهون الغرباء أن يأخذوا حذرهم ولا يقتربوا كثيراً من هذه الحجرات. وأخيراً فإن هذا

البيمارستان[40] يتوفر على كل ما يحتاج إليه من كتّاب وممرضين وحرّاس وطبّاخين وغيرهم ممن يهتمون بالمرضى، ويتقاضى كل واحد من هؤلاء المستخدمين أجراً حسناً، ولقد عملتُ وأنا شاب كاتباً في هذا البيمارستان مدة عامين، حسبما هو معتاد عند صغار الطلبة، وكانت هذه الوظيفة تدرّ علي مبلغ ثلاثة مثاقيل في الشهر.

في فاس مائة حمام جيدة البناء حسنة الصيانة، بعضها صغير وبعضها كبير، وكلها على شكل واحد، أي أن في كل واحد منها ثلاث حجرات أو بالأحرى ثلاث قاعات. وفي خارج هذه القاعات غرف صغيرة مرتفعة قليلاً يصعد إليها بخمس درجات أو ست، حيث يخلع الناس ثيابهم ويتركونها هناك. وفي وسط القاعات صهاريج على شكل أحواض، إلا أنها كبيرة جداً. وإذا أراد أحدهم أن يستحم في أحد هذه الحمامات، دخل من أول باب إلى قاعة باردة فيها صهريج لتبريد الماء إذا كان ساخناً جداً، ومن ثم نفذ من باب ثان إلى قاعة ثانية أشد حرارة بقليل، حيث يقوم الخدم بغسل جسمه وتنظيفه. ومن هنا يدخل إلى قاعة ثالثة شديدة الحرارة ليعرق بعض الوقت، حيث يوجد مرجل محكم البناء يسخن فيه الماء، ويغترف منه بحذق في دلاء من خشب. ولكل مستحم الحق في أخذ دلوين من الماء الساخن، ومن رغب في أكثر من ذلك أو أراد أن يغسل أعطى الخادم (بيوتشيين) أو (بيوتشو)[41] واحداً على الأقل، وأعطى أيضاً صاحب الحمام (كواطرينين)[42] اثنين لا أكثر.

يسخن الحمام بالزبل، ويعمل عند الحماميين غلمان وبغالون يجوبون أرجاء المدينة ليشتروا الزبل من الاصطبلات وينقلوه إلى خارج المدينة، ثم يجعلوه أكداساً ويتركوه ليجف شهرين أو ثلاثة أشهر، وبعد ذلك يُستعمل

(40) يظهر أن المقصود بيمارستان سيدي فرج المعروف بهذا الاسم حتى أيامنا هذه.

(41) انظر قيمة هذه العملة الإيطالية في الهامش رقم 28م المتقدم.

(42) كواطريني (Quattrini): عملة إيطالية قيمتها نحو 8 سنتيم ذهب.

كالحطب في تسخين القاعات وماء الحمامات. وللنساء كذلك حماماتهن الخاصة، إلا أن الكثير منها يُستعمل للرجال والنساء؛ للرجال أوقات معيّنة بين الساعة الثالثة والرابعة عشرة، أو أكثر أو أقل بحسب الفصول، ويخُصص باقي اليوم للنساء. فإذا دخلن إلى الحمام مدّ حبل على عرض الباب للإشعار بذلك حتى لا يدخله رجل. وإذا أراد أحدهم أن يقول شيئاً لزوجته فعليه أن ينادي إحدى مستخدمات الحمام، وهن زنجيات، لتقوم بمهمة التبليغ.

ومن عادة سكان المدينة أيضاً رجالاً ونساء أن يأكلوا في الحمامات ويتسلّوا فيها غالباً بمختلف ضروب التسلية، ويغنّوا بأعلى أصواتهم. ويدخل إليها معظم الشبان عراة دون أن يستحيي بعضهم من بعض، لكن الرجال المحترمين وذوي الحيثيات منهم يأتزرون بمئزر ولا يجلسون في القاعات المشتركة، بل ينفردون في حجر خاصة مزخرفة يحتفظ بها في حالة نظافة جيدة لاستقبال الشخصيات السامية.

نسيت أن أذكر أن غلمان الحمام عندما يغسلون أحداً يطلبون منه أن يضطجع ثم يقومون بتدليكه، تارة بأدهان منشّطة، وتارة بأدوات خاصة تزيل كل الأوساخ، وإذا غسلوا أميراً أضجعوه على بساط من لبد وأسندوا رأسه على شبه وسادة من خشب مغطّى باللبد أيضاً. ويوجد في كل حمام حلاقون عديدون يؤدّون للحمّامي مبلغاً معيناً ليحتفظ لهم بآلاتهم ويسمح لهم بممارسة حرفتهم.

ومعظم هذه الحمامات ملك للمساجد والمدارس تؤدّي لها كراء مرتفعاً يبلغ المائة والمائة والخمسين مثقالاً، أو أقل أو أكثر بحسب حجم المكان.

ويجب ألّا نغفل ذكر عادة الغلمان المستخدمين في هذه الحمامات بإقامة حفل سنوي على الشكل التالي: يستدعون جميع أصحابهم ويذهبون إلى خارج المدينة، مصحوبين بموسيقيين ينفخون في النفير والمزمار، وبعد

ذلك يقتلعون بصلة زنبق يضعونها في إناء جميل من نحاس، يغطّونه بسماط صغير حديث العهد بالغسل، ثم يعودون إلى المدينة قاصدين باب الحمام على أصوات العزف، حيث يضعون البصلة في سلة يعلّقونها على الباب قائلين: «سيكون هذا سبب ازدهار الحمام إذ سيقصده الكثير من الناس». وفي نظري يبدو أن هذا ينبغي أن يسمّى قرباناً على شاكلة ما كان يفعله الأفارقة القدامى يوم كانوا وثنيين، واستمرت هذه العادة حتى وقتنا هذا.

ونجد كذلك بعض أسماء الأعياد التي كان النصارى يحتفلون بها، وما زال الناس يستعملونها اليوم، غير أنه لم يعد أحد يعرف لأي سبب لا يقع الاحتفال بأي عيد منها. وفي كل مدينة يلاحظ بعض الاحتفالات والعادات التي خلّفها النصارى منذ كانوا يحكمون افريقيا. وإذا سنحت الفرصة فسأشير إليها.

الفنـــادق

يوجد بفاس مائتا فندق، بنيانها في غاية الاتقان، بعضها فسيح جداً، كالتي تقع بجوار الجامع الكبير. وتتألف كلها من ثلاث طبقات، منها ما يشتمل على مائة وعشرين غرفة، ومنها ما يشتمل على أكثر من ذلك. وفي كل فندق صهريج وميضأة ببالوعاتها لاستفراغ القاذورات، ولم أر قط في إيطاليا أبنية مثلها، إلا مدرسة الإسبانيين الموجودة في بولونية[43]، وقصر الكردينال سان جورج في روما، وتفتح كل أبواب الغرف على ممر.

لكن على الرغم من حسن هذه الفنادق وسعتها فإنها تمثل سكناً كريهاً، لخلوها من الأسرة والفرش. فصاحب الفندق يقدم للمكتري غطاء

---

(43) مدينة في شمالي إيطاليا سبق للحسن الوزان أن درس في معاهدها اللغة العربية.

ملاحظة: أرقام الهوامش 44-45-46-47 أسقطت من الأصل، لذلك فإن الهامش رقم 43 يتبعه الهامش 48 ولا بتر.

وحصيراً ينام عليه، وإذا أراد هذا أن يأكل فعليه أن يشتري طعاماً ويقدمه للطبخ. ولا يسكن الغرباء وحدهم هذه الفنادق، بل جميع الرجال الأرامل من أهل المدينة الذين لا منزل لهم ولا أهل، يسكن الغرفة واحد منهم أو اثنان، ويعتنون بفراشهم بأنفسهم ويطبخون طعامهم. وأسوأ ما في هذا الأمر مساكنة رهط يقال لهم «الهيوى»، وهم رجال يرتدون ثياب النساء ويتحلون بحليهن. يحلقون لحاهم ويقلدون النساء حتى في طريقة كلامهن. وماذا عساي أقول في أسلوب كلامهم؟ إنهم يتغنجون أيضاً. ولكل واحد من هؤلاء الأنذال صاحب يتسراه ويعاشره كما تعاشر المرأة زوجها. ولهؤلاء الناس أيضاً في الفنادق زوجات أخلاقهن كأخلاق المومسات في مواخير أوربا، ولهم كذلك ترخيص بشراء الخمر وبيعه دون أن يزعجهم موظفو الحاشية.

يختلف إلى هذه الفنادق دائمًا أولئك الذين يعيشون أشنع عيشة، يغشاها بعضهم للسكر، وبعضهم لاتيان شهوتهم مع باغيات مرتزقات، وبعضهم الآخر يكون بمنجاة من الحاشية بسبب تصرفات غير شرعية ووضيعة يحسن أن نضرب صفحاً عن ذكرها.

لأرباب الفنادق أمين، ويؤدون بعض الاتاوات للنقيب، بالإضافة إلى أنهم ملزمون عند الاقتضاء بأن يقدموا إلى جيش الملك أو الأمراء عدداً كثيراً من مستخدميهم لطبخ الطعام للجنود، لقلة المختصين في مثل هذه الخدمة.

ولولا ما يلزم المؤرخ من قول الحق لأغفلت بكل سرور هذا القسم من وصفي وفضلت السكوت عن اللوم الذي تستحقه هذه المدينة التي نشأت فيها وترعرعت. والواقع أن مملكة فاس، إذا استثنينا هذا العيب، تضم أناساً هم أشرف خلق الله بافريقيا كلها، ولا علاقة لهم إطلاقاً مع أمثال أرباب الفنادق الذين سبق ذكرهم، فهؤلاء لا يخالطون إلا الأراذل من أسفل الأسافل، ولا يكلمهم أي فقيه أو تاجر أو صانع محتشم،

ويمنعون من الدخول إلى الفنادق القريبة من الجامع، وإلى الأسواق والحمامات والبيوت الخاصة. ويمنعون بالأحرى من الاشراف على الفنادق المجاورة للجامع التي يسكنها تجار من درجة سامية، ويتمنى لهم الموت جميع الناس، لكن لما كان الأمراء يستخدمونهم لحاجات الجيش كما ذكرت، فإنهم يتركونهم يعيشون تلك العيشة الكريهة.

الطواحين

يوجد بداخل فاس قرابة أربعمائة طاحونة، أعني أبنية مشتملة على أرحاء يمكن أن يبلغ عددها ألف رحى، إذ تتكون كل طاحونة من قاعة كبيرة ذات أعمدة تضم أحياناً أربع أو خمس أو ست أرحاء. ويطحن قسم من سكان الضواحي قمحهم في المدينة، ويوجد بعض الباعة يدعون الدقاقين، لهم طواحين يستأجرونها، يشترون الحب ويطحنونه، ثم يبيعون الدقيق في دكاكين مستأجرة كذلك، فيحصلون من هذه المهنة على ربح وفير، لأن جميع الصناع الذين لا تكفيهم وسائلهم لامتيار الحبوب يشترون القمح ويطحنونه في بعض الطواحين الخاصة بأبناء المدينة مقابل (بايوتشي) لكل كيل (رودجيو). وجل هذه الطواحين في ملك الجوامع والمدارس، والقليل منها في ملك الخواص، وكراؤها مرتفع يبلغ مثقالين لكل رحى.

صناع مختلفون، ودكاكين، وأسواق

نقابات الحرفيين بفاس مفصول بعضها عن بعض، وأشرفها يوجد حول الجامع (القرويين) وبالقرب منه. وهكذا يشغل العدول حوالي ثمانين دكاناً، بعضها ملتصق بالجامع، وبعضها مقابل له، وفي كل دكان عدلان.

وإلى الغرب من ذلك نحو ثلاثين دكاناً للكتبيين، وإلى الجنوب بائعو الأحذية الذين يشغلون قرابة مائة وخمسين دكاناً، يشترون الأحذية والخفاف بالجملة من الخرازين، ثم يبيعونها بالتقسيط. ولا يبعد

عنهم كثيراً الخرازون الذين يصنعون أحذية الأطفال، ويبلغ عدد دكاكينهم نحو خمسين دكاناً. وفي شرقي الجامع مكان باعة أواني النحاس والصفر، وأمام الباب الرئيسي للجامع في الجهة الغربية يوجد باعة الفواكه الذين يشغلون نحو خمسين دكاناً يبيعون فيها فواكههم. وبعدهم الشماعون الذين يصنعون من الشمع أجمل أشكال رأيتها في حياتي، ثم العقادون، إلا أن دكاكينهم قليلة.

وبعد ذلك تجد بائعي الأزهار يبيعون الليمون والحامض أيضاً، وعندما ترى كل هذه الأزهار الكثيرة الأنواع تخالك تشاهد أجمل المروج وأكثرها نضرة في العالم، أو تنظر حقيقة إلى لوحة مزخرفة بمختلف الألوان. ويبلغ عدد دكاكينهم نحو العشرين، لأن الذين تعودوا شرب النبيذ يحبون دائماً أن تكون الأزهار بقربهم.

ويأتي بعد الأزهار بائعو اللبن الذين تزادن دكاكينهم بآنية الميورقي المزخرفة، يشترون اللبن من البقارين الذين يعلفون الأبقار لهذه التجارة ويرسلون كل صباح اللبن في أوعية من خشب مطوقة بالحديد، ضيقة جداً في فمها وعريضة في قعرها، فيبيعه اللبانون في دكاكينهم، وما بقي لهم منه في المساء والصباح، اشتراه منهم تجار ليصنعوا الزبد من بعضه، ويتركوا البعض الآخر يتحمض ليبيعوه للزبائن لبناً حامضاً ورائباً. واعتقد أنه يباع يومياً في فاس خمسة وعشرون بطة من اللبن الطري والحامض.

يأتي بعد اللبانين بائعو القطن الذين يبلغ عدد دكاكينهم ثلاثين. وإلى الشمال منهم بائعو مصنوعات القنب كالحبال وأزمة الخيل والخيوط والشرائط الرفيعة. يأتي بعد ذلك صانعو النطق الجلدية والخفاف والأزمة الجلدية المطرزة بالحرير للخيل أيضاً. وتجد بعدهم صانعي المشدات الذين يصنعون أغمدة السيوف والمواسي وأغطية صدور الخيل، فبائعي الملح والجبص يشترونهما بالجملة ويبيعونهما بالتقسيط، ثم بائعي الأواني الخزفية ذات الصنعة المتقنة والألوان الزاهية، لبعضها لون واحد، ولبعضها الآخر

لونان، ويبلغ عدد دكاكينهم مائة. وبعد ذلك يأتي بائعو الشكم واللجم والأحزمة والسروج والركابات. ولهم نحو ثمانين دكاناً. ثم نصل إلى مجمع الحمالين، ويبلغ عددهم ثلاثمائة حمال، ولهم أمين أي رئيس، يختار كل أسبوع من يجب عليهم أن يشتغلوا ويكونوا رهن إشارة الجمهور طوال الأسبوع. يجمع هؤلاء الرجال ماربحوه من مال في صندوق له عدة مفاتيح محفوظة عند كل رئيس مجموعة. ويقسم المال بين الذين اشتغلوا عندما ينتهي الأسبوع. ويحب هؤلاء الحمالون بعضهم بعضاً كالاخوة، فإذا مات أحدهم وترك طفلاً صغيراً، تكفلوا جميعاً بالمرأة إلى أن تتزوج مرة ثانية إذا رغبت في ذلك، واهتموا بعطف وحنان بالأولاد إلى أن يبلغوا السن الذي يمكنهم من القيام ببعض الأعمال. وإذا تزوج أحد الحمالين أو ولد له دعا جميع أصحابه إلى وليمة، وأعطاه كل واحد منهم هدية مقابل ذلك. ولا يمكن لأحد أن يمارس مهنة حمال قبل أن يدعو جميع أصحابه إلى وليمة وإذا لم يفعل فلن يتقاضى ـ عندما يشتغل ـ أكثر من نصف حصة الآخرين. وقد حصل هؤلاء الحمالون من الملوك على امتياز اعفائهم من أية ضريبة أو تكليف، ولا يؤدون شيئاً لاصحاب الأفران مقابل خبز عجينهم. وإذا ارتكب أحدهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام فإنه لا ينفذ عليه الحكم أمام الجمهور. ويشتغل هؤلاء الناس وهم لابسون ثياباً قصيرة ذات لون واحد، ويلبسون خارج أوقات عملهم مايشاؤون. وبالجملة فإنهم أناس يتحلون بالاستقامة والأخلاق الحسنة.

وبعد مجمع الحمالين يوجد مكان أمين الأمناء والقضاة الذين لهم سلطة على جميع المواد الغذائية. ويقوم في وسط هذه الساحة سياج من قصب مربع الشكل يباع فيه الجزر واللفت اللذان يستحسنهما الناس في فاس كثيراً لدرجة أنه لا يمكن شراؤهما مباشرة من الزراع باستثناء بعض الأشخاص المعينين الذين يؤدون ضريبة خاصة للجمرك. وتجد هناك في كل يوم خمسمائة حمل من الجزر واللفت، وأكثر من ذلك

أحيـانـاً، يبـاع منهـا كمية هـائلة. ومـع أن هـذين النـوعـين من الخضـر مـرغـوب فيهـما كثيـراً كـما قلت، فـإنهما يبـاعـان عـادة بثمن بخس، أي ثلاثون أو على الأقل عشرون رطلاً بـ (بيوتشو) واحد. ويباع الفول الأخضر في موسمه بثمن رخيص جداً. وتقوم حول الساحة دكاكين تباع فيها الشعيرية، وأخرى تصنع فيها كرات صغيرة من اللحم المفروم تقلى في الزيت مع كثير من التوابل، حجم كل كرة حجم تينة عادية، ويباع الرطل منها بستة (كواطرينيات)، وتصنع من لحم البقر بدون شحم.

ويأتي بعد هذه الساحة إلى جهة الشمال سوق الخضـر، حيث يباع الكرنب ونوع من اللفت وسائر الخضر التي تؤكل مع اللحم، ويضم هذا السوق نحو أربعين دكاناً. ثم يأتي سوق الدخان حيث تباع الفطائر المقلية في الزيت (الاسفنج) التي تشبه ذلك الخبـز المعسول الذي يباع في روما. ولبائعي الفطائر في دكاكينهم عدة آلات وغلمان، لأنهم يصنعونها بعناية فائقة، ويبيعون منها يومياً كمية كبيرة، فتؤكل عند الفطور، لا سيما أيام الأعياد وقبل أيام الصيام. وتؤكل مع اللحم المشوي أو العسل، أو مع حساء قبيح يصنع هكذا: يدق اللحم ويطبخ ثم يدق من جديد ويصنع منه حساء سائل يصبغ بتراب أحمر.

ولا يصنع في فاس الشواء بالسفود، بل يبنى فرنان أحدهما فوق الآخر، وتوقد النار في الفرن الأسفل حتى إذا سخن الفرن الأعلى أدخلت فيه الخرفان كاملة من فتحة في أعلاه لئلاً تحترق الأيدي. وهكذا ينضج اللحم بكيفية جيدة مكتسباً لوناً جميلاً وطعماً لذيذاً، إذ لا يصيبه دخان ولا لهيب مشتعل. ويستمر هذا الطهي بنار معتدلة الليل كله، ويشرع في الصباح في بيع هذا اللحم المشوي. ويباع كل يوم من الفطائر والخرفان المشوية أكثر من مائتي مثقال، لأن هناك خمسة عشر دكاناً لا تشتغل طوال اليوم إلا بذلك.

ويباع كذلك اللحم والسمك المقليان ونوع آخر من خبز خفيف مصنوع من أشرطة أغلظ من (لازاني الايطالية) ومعجون بالسمن، ويؤكل كذلك بالزبد والعسل. وتباع الأكارع عادة مطبوخة. ومن عادة الفلاحين أن يتناولوا في نفس الدكاكين هذه الأطعمة الغليظة في الصباح الباكر قبل أن ينصرفوا إلى أشغالهم في الحقول.

ويأتي بعد هؤلاء باعة الزيت والسمن المالح والعسل والجبن الطري والزيتون والليمون (الحامض) والجزر والكبر المصبر، ودكاكينهم مليئة بأواني الخزف المايورقي، تفوق قيمتها قيمة ما تحويه من بضاعة. وتباع جرار الزبد والعسل بالمزاد، والدلالون حمالون مختصون يكيلون الزيت عندما يباع بالجملة. وتسع هذه الجرار مائة وخمسين رطلاً، والخزافون ملزمون بصنعها في حجم هذه السعة تماماً، فيشتريها منهم رعاة المدينة ويملأونها ثم يبيعونها من جديد بفاس.

وعلى مسافة قريبة يوجد الجزارون في نحو أربعين دكاناً مرتفعة على شكل دكاكين الحرف الأخرى، يفصلون اللحم ويزنونه في الموازين. ولا تذبح البهائم في دكاكين الجزارين، بل في مجزرة بجوار النهر حيث تسلخ وتحمل إلى الدكاكين بواسطة حمالين تابعين للمجزرة. ولكن قبل أن تحمل الذبائح لا بد من عرضها على المحتسب الذي يأمر بفحصها ويسلم بطاقة مكتوباً عليها السعر الذي يجب أن يباع به اللحم. ويلزم الجزار أن يلصق هذه البطاقة على اللحم بحيث يتمكن الجميع من رؤيتها وقراءتها.

ونجد بعد الجزارين سوق الأقمشة الصوفية الغليظة البلدية محتوياً على نحو مائة دكان. وإذا أتى أحدهم بقطعة قماش لبيعها، فعليه أن يسلمها لدلال يضعها على كتفه ويذهب من دكان إلى آخر منادياً على الثمن. وعدد هؤلاء الدلالين ستون. تبتدىء الدلالة في منتصف النهار وتنتهي في وقت متأخر من المساء. يتقاضى الدلال (بيوتشين) اثنين عن كل مثقال، ويحقق تجار هذا الصنف أرباحاً طيبة.

ويأتي بعد ذلك صقالو الأسلحة من سيوف وخناجر ورماح الخ، ويقوم بعضهم بصقلها وبيعها، ثم الصيادون الذين يصطادون السمك من نهر فاس والنهر الذي يمر بضواحيها (سبو)، ويبيعون أسماكاً كبيرة في غاية الجودة بثمن بخس، أي بثلاثة (كواطرينيات) للرطل. ومن المعتاد أن يصطاد هنا سمك ممتاز (الشابل) يدعى (لاتشيا) في روما، يبتدىء صيده في أوائل أكتوبر، وينتهي في أبريل، كما سنذكر ذلك بالخصوص في معرض كلامنا عن الأنهار.

ثم تجد بعد الصيادين صانعي أقفاص الدجاج، يصنعونها من القصب ولهم أربعون دكاناً، لأن كل واحد من سكان المدينة يقتني عدداً كبيراً من الدجاج يسمنه، وحرصاً على النظافة لا يترك هذا الدجاج طليقاً في البيت، بل يسجن في هذه الأقفاص الكبيرة.

ويوجد بعيداً من هناك بائعو الصابون السائل، ودكاكينهم المجتمعة قليلة، لأنها توجد في كل الأحياء، ولا يصنع هذا الصابون في المدينة، بل في الجبال المجاورة، وينقله الجبليون والبغالون ثم يبيعونه لاصحاب هذه الدكاكين.

وعلى مسافة أبعد من ذلك نجد باعة الدقيق، ودكاكينهم المجتمعة كذلك قليلة لأنها متفرقة في كل الأحياء؛ ثم جماعة بذور الحبوب والخضر، وقد يبيعون قدراً يسيراً منها للأكل، إذ لا يبيع أحد من أهل المدينة حبوبه. وفي هذا السوق عدد كثير من الحمالين لهم بغال وخيول بالبرادع، يحملون عادة على كل دابة (رودجيو) ونصفاً، لكن في ثلاثة أكياس بعضها فوق بعض، وعليهم أن يزنوا هذه الحبوب.

وبعدهم باعة التبن في نحو عشرة دكاكين، ثم السوق الذي يباع فيه خيط الكتان وتحلج أليافه. يقوم هذا السوق في بناء كبير تحيط به أربعة أروقة، في أحدها باعة نسيج الكتان، والمستخدمون الذين يزنون الخيط، وفي الرواقين الآخرين النساء اللواتي يبعن هذا الخيط، وهو هنا كثير جداً.

ويقوم ببيع الخيط أيضاً دلالون يعرضونه في السوق. يبتدىء البيع ظهراً وينتهي عصراً، فتباع منه كميات ضخمة. وقد غرس في وسط ساحة السوق عدد من أشجار التوت لنشر الظل، ويذهب الناس إليه أحياناً بقصد التسلية، ولا يمكن الخروج منه إلا بجهد جهيد لكثرة ما به من نساء يختصمن في غالب الأحيان، ويتحول سبابهن إلى عراك وقذف بأشنع ما يمكن من الشتائم فيضحكن الحاضرين.

ولنرجع الآن إلى الجزء الغربي الممتد من جوار الجامع إلى الباب المؤدي إلى طريق مكناس. فإذا سرت من سوق الدخان على خط مستقيم، وجدت صانعي الدلاء الجلدية التي تستعمل في المنازل التي بها آبار، ويشغلون نحو أربعة عشر دكاناً. ثم صانعي الظروف التي يخزن فيها الدقيق والقمح، ولهم نحو ثلاثين دكاناً، ثم الإسكافيين وبعض الخرازين الذين يصنعون نعالاً خشنة للفلاحين وعامة الشعب، ويشغلون نحو مائة وخمسين دكاناً. وبعدهم صناع التروس والدرقات الجلدية على الطريقة الافريقية، التي نرى بعضها في أوربـا، ثم الذين يغسلون الثياب، وهم من فقراء القوم، لهم معامل ثبتت فيها أوان كالأحـواض في الكبر، يقصدهم الذين ليس لهم خادمات في بيوتهم ويسلمون إليهم القمصان والأغطية وغيرها من الثياب لغسلها، فيقوم هؤلاء الرجال بتنظيفها بعناية كاملة، وينشرونها على الحبال لتجف كما هي العادة في ايطاليا، ثم يطوونها بمهارة، ويجعلون هذا الغسيل في غاية النقاء والبياض لدرجة أن صاحبه لا يتعرف عليه إلا بصعوبة. ولهم نحو عشرين دكاناً هنا، لكن دكاكينهم المتفرقة في كل الأزقة وبعض الأسواق الصغيرة تنيف على المائتين.

ويأتي بعد ذلك صانعو قرابيس سروج الخيل، ولهم عدة دكاكين في الحي الشرقي (بل الغربي) في اتجاه مدرسة السلطان أبي عنان؛ ثم الحرفيون الذين يزخرفون الركابات والمهاميز واللجم، ويشغلون نحو أربعين دكاناً، وينجزون أعمالاً عجيبة. ولعل أحدكم رأى بعض هذه الأشياء في ايطاليا

أو في غيرها من البلدان المسيحية. وبعدهم الحدادون الذين لا يصنعون سوى الركابات والشكائم والقطع الحديدية المزخرفة لطقوم الخيل؛ ثم صانعو جلود السروج الذين يجعلون لكل سرج ثلاث زوائد بعضها فوق بعض، أوسطها هو الأرق، وأسفلها أقل زينة، وكلها من جلد الماعز القرطبي. ومصنوعات هؤلاء السراجين عجيبة هي أيضاً، كما يمكن أن يدرك ذلك فيما يشاهد منها بايطاليا. ولهم نحو مائة دكان. تليها دكاكين صانعي الرماح، وهي مستطيلة يمكن أن تصنع داخلها رماح طويلة.

وبعد ذلك توجد القصبة المتميزة بشارع في غاية الجمال، يمتد من الباب الغربي إلى قصر مشيد تسكنه أخت الملك أو غيرها من أقاربه.

ونشير إلى أن هذا الوصف للأسواق يبتدىء من الجامع الكبير، وقد تحدثت عما يتصل به منها، مرجئاً الكلام عن سوق التجار إلى الأخير حتى لا ينقطع سياق هذا الوصف.

سوق التجار

هذا السوق شبه مدينة صغيرة مسورة بجدران ينفتح فيها اثنا عشر باباً، يعترض مدخل كل باب منها سلسلة تمنع الخيل وسائر الدواب من الدخول إليه. وينقسم هذا السوق إلى خمسة عشر حياً، اثنان مخصصان للخرازين الذين يصنعون أحذية للأعيان لا يمكن المصناع ولا للجنود ولا لرجال الحاشية أن ينتعلوا مثلها وفي هذا المستوى من جمال الصنعة. وهناك حيان آخران مخصصان لتجار الأقمشة الحريرية، ويبيع بعضهم الجدائل والطرر الخاصة بطقوم الخيل وغيرها من أنواع الزينة، ويشغلون نحو خمسين دكاناً، بينما يبيع الآخرون الحرير الملون لتطريز القمصان والوسائد الخ. ولهم نفس عدد الدكاكين بالتقريب.

وتجد بعد هؤلاء التجار صانعي نطاقات النساء، وهي صوفية ضخمة قبيحة، ويعمل بعض الصناع نطاقات من حرير، إلا أنها قبيحة

كذلك، لأنها مصنوعة من ضفائر غليظة بحجم أصبعي رجل، ويمكن استخدامها بسهولة لربط سفينة.

يأتي بعد ذلك حيان آخران يشغلهما تجار الأقمشة الصوفية، أي المستوردة من أوربـا، وكلهم أندلسيون. وتباع هنا أيضاً أقمشة حريرية وقلنسوات وحرير خام. ويوجد بعيداً من هنا صانعو الفرش والوسائد الصيفية وبعض البسط الجلدية الصغيرة.

ثم يأتي مكتب محصلي الضرائب، لأن هذه الأقمشة تباع هي أيضاً بالمزاد، ويحملها المكلفون ببيعها إلى مستخدمي الضريبة لختمها، ثم ينادي الدلالون عليها أمام دكاكين التجار. وعدد الدلالين نحو الستين، ومبلغ الضريبة (بايوتشو) عن كل قطعة قماش.

وبعد ذلك يحتل الخياطون ثلاثة أحياء، بعدها حي خاص بالعمال الذين يكفون بضفائر حواشي الثياب التي تتخذ منها عمائم الرؤوس، ثم حيان لتجار الكتان وتجار القمصان والأقمشة النسائية، وهؤلاء أغنى تجار فاس لأن مبيعاتهم وأرباحهم تفوق ما يحققه غيرهم من التجار مجتمعين. وبعيداً من هنا في حي آخر تصنع جميع ما تُزيَّن به البرانس من بلوطات (حريرية) وغيرها؛ ثم في حي آخر تباع ملابس من القماش الأوربـي وينادي عليها الدلالون عادة كل مساء، وأقصد هنا الملابس المستعملة التي يأتي بها أهل المدينة ليبيعوها عندما تصبح بالية أو لأي سبب آخر.

وأخيراً هناك حي آخر يعاد فيه بيع القمصان القديمة المصنوعة من الكتان، والأغطية والفوط الخ. وبالقرب من هذا المكان بعض الدكاكين الصغيرة يباع فيها بالمزاد الزرابي وأغطية الفرش.

لمحة عن الأزقة
المسماة قيصرية باسم قيصر

تسمى كل هذه الأزقة قيصاريات، وهو اسم قديم مشتق من قيصر أكبر ملوك عصره بأوربا، وجميع ساحل موريطانيا كان خاضعاً أولاً للرومان، ثم للقوط، وكل واحدة من هذه المدن كانت تحتوي على سوق يحمل هذا الاسم، ويؤول ذلك المؤرخون الأفارقة بالكيفية التالية: كان للموظفين الرومانيين والقوطيين فنادق ومخازن مبعثرة هنا وهناك في المدينة، يخزنون فيها ما يجبونه من المدينة من ضريبة واتاوات، وغالباً ما كان السكان ينهبون هذه المستودعات. لذلك فكر أحد الأباطرة في إحداث شبه مدينة صغيرة داخل كل مدينة يجتمع فيه التجار المتميزون بقدر من الأهمية إلى جانب بضائعهم ويخزن فيها الموظفون المكلفون بالضرائب كل ما حصلوا عليه، حتى يكونوا على يقين بأن أهل المدينة إذا أرادوا الذود عن ثرواتهم الخاصة فإن عليهم أيضاً أن يدافعوا عن ثروة الامبراطورية ويصونوها، إذ لن يغضوا الطرف عن النهب دون أن تلحقهم مضرته. وقد شوهد ذاك مراراً في ايطاليا، حيث كان الجنود الذين يحاربون لمصلحة فريق يبدؤون بنهب أموال الخصم عندما يدخلون المدينة، ثم ينهبون دور أصدقائهم عندما لا تكفيهم الغنيمة الماخوذة من العدو.

العطارون وغيرهم من الحرفيين

يقوم إلى جانب هذه القيصرية بجهة الشمال منها سوق العطارين في زقاق ضيق يشتمل على نحو مائة وخمسين دكاناً. والزقاق مغلق من طرفيه ببابين جميلين لا تقل متانتهما عن ضخامتهما. ويتكفل العطارون بنفقات حراس يتجولون ليلاً بالفوانيس والكلاب والأسلحة. وهناك تباع المواد المتعلقة بالعطارة والطب، ولكن لا تهيأ فيه الأشربة ولا المراهم ولا المعاجين، وذلك لأن الأطباء يعدون الأدوية في منازلهم، ثم يرسلونها إلى

دكاكينهم، حيث يسلمها مستخدموهم مقابل وصفة طبية، ومعظم دكاكين الأطباء مجاورة لدكاكين العطارين. وغالبية السكان الشعبيين لا يعرفون الأطباء ولا الطب. وللعطارين دكاكين كثيرة الزخرف ذات سقوف جميلة وخزائن، ما أظن أن في العالم كله سوقاً للعطارين مثله. حقاً لقد رأيت سوقاً عظيمة جداً للعطارين في طوريس إحدى مدن فارس، غير أن الدكاكين فيها عبارة عن أروقة شبه مظلمة مع أنها مبنية بأناقة وبأعمدة من رخام. إني أفضل كثيراً سوق فاس الملائم بضيائه على سوق طوريس المظلم. ويأتي بعد العطارين صانعو الأمشاط من البقس وغيره من الخشب الذي ذكرناه آنفاً.

ونجد إلى جانب العطارين من جهة الشرق صانعي الابر في نحو خمسين دكاناً؛ ثم دكاكين الخراطين، وهي قليلة، لانتشار عدد منهم بين مختلف المهن؛ ثم بعض دكاكين الدقاقين وباعة الصابون والمكانس المتاخمة لسوق الخيط، ولا يزيد عددها على عشرين، لأن بعضها الآخر متفرق في أماكن أخرى حسبما سنذكره.

ويقع بين باعة القطن وباعة الخضر الصانعون لأغطية الفرش والشبكات أي التي تزين بها الخيام. وبالقرب منهم تجار آخرون يبيعون الطيور التي تؤكل، والعصافير التي تغني، وليس لهم إلا القليل من الدكاكين، ويطلق على هذا المكان سوق الطيريين. ويباع الآن في أغلب هذه الدكاكين حبال من القنب وخيوط.

ويأتي بعد ذلك صانعو القباقب التي ينتعلها الأعيان عندما تكون الأزقة موحلة، وهي جيدة الصنع مزخرفة مصفحة بالحديد موشاة بغطاء من جلد مطرز بالحرير، ولا يستطيع أفقر الناس من الأعيان أن ينتعل منها ما يقل ثمنه عن مثقال، ومنها ما يساوي مثقالين، ويبلغ ثمن بعضها عشرة وحتى خمسة وعشرين مثقالاً. وتصنع هذه القباقب عادة من خشب التوت الأسود أو الأبيض، وقد تصنع من خشب الجوز والليمون والعناب.

والقباقب المصنوعة من هذين النوعين الأخيرين من الخشب أكثر جمالاً وأناقة، لكن التي تصنع من التوت تدوم مدة أطول.

ثم تجد صانعي الأسلحة، وهم بعض مسلمي اسبانيا، ولا يتعدى عدد دكاكينهم العشرة، وبعدهم خمسون دكاناً لصناع المكانس، يصنعونها من سعف الدوم، كالتي تصدر من صقلية إلى روما. ويحمل هؤلاء الصناع مكانسهم إلى المدينة في قفاف كبيرة، ويبادلون بها النخالة أو الرماد أو بعض الأحذية المثقوبة. فالنخالة تباع للبقارين، والرماد لقصاري الخيوط، والأحذية المثقوبة عادة للإسكافيين. وبعيداً من هناك يوجد الحدادون الذين لا يصنعون سوى المسامير، ثم العمال الذين يصنعون أواني كبيرة من خشب لها شكل الدلاء، لكن سعتها تساوي برميلاً (نحو 58 ليتر). ويصنعون أيضاً مكاييل للحب يراقبها الأمين مقابل (كارينو) لكل كيل.

وبعد ذلك تجد باعة الصوف الذين يشترون جلود الغنم من الجزارين، وعملهم أنهم يغسلونها وينزعون منها الصوف ثم يدبغونها، لكنهم لا يعالجون إلا جلود الغنم، أما جلود الماعز والبقر فتدبغ في مكان آخر، وتشكل حرفة خاصة. ثم تجد صانعي القفاف والعقل لربط الخيل حسب عادة افريقيا، وتتاخم دكاكينهم دكاكين الصفارين. وبجوار صناع المكاييل يوجد صناع آلات حلج الكتان والصوف. وفيما وراء ذلك يقام سوق كبير فيه أناس من مختلف الحرف، من بينهم من يبردون الأدوات الحديدية، كالركابات والمهاميز، لأنه ليس من عادة الحدادين أن يبردوا مصنوعاتهم. ويتلوهم المعلمون الصناع الذين يخدمون الخشب، فلا يصنعون منه إلا الأشياء الكبيرة، كعرائس العجلات والمحاريث ودواليب الطواحين وغير ذلك من الأدوات المعتادة.

ويأتي بعد ذلك الصباغون الذين يوجدون جميعاً قرب النهر، وفي سوقهم صهريج جميل جداً، تغسل فيه ربطات خيوط الحرير، فالبياطرة

الذين يصفحون بالحديد سنابك الخيل وغيرها من الدواب؛ فالصناع الذين يثبتون أقواس الفولاذ على قاذفات السهام. وأخيراً نجد العمال الذين يلمعون نسيج الكتان، وبهم تنتهي أسواق قسم من المدينة، أي القسم الواقع في الجهة الغربية. وكان هذا القسم في القديم مدينة مستقلة كما أسلفنا، أنشئت بعد المدينة الأولى الواقعة على الضفة الأخرى من النهر إلى جهة الشرق.

القسم الثاني
من مدينة فاس

القسم الشرقي من المدينة متحضر جداً كذلك، يشتمل على أبنية في غاية الجمال، وعلى جوامع ومدارس، إلاّ أنه في الحقيقة غير مزود كالقسم الآخر بأناس من مختلف طوائف الحرف، فلا تجد فيه مثلاً تجاراً ولا خياطين ولا خرازين، باستثناء بعض باعة القماش والأشياء الخشنة. وفيه سوق صغير للعطارين لا يزيد عدد دكاكينه على الثلاثين. وبقرب أسوار المدينة يعمل صانعو الآجر وتقوم أفران الفخارين. وتجد تحت ذلك سوقاً كبيراً يباع فيه الفخار الأبيض، أي غير المطلي، كالقصعات والقدور المختلفة إلخ؛ وساحة فيها دكاكين لخزن الحبوب؛ وسوقاً آخر واقعاً تماماً أمام باب الجامع الكبير (جامع الأندلس) ومبلطاً كله بالآجر، وهناك دكاكين لمختلف الفنون والمهن. تلك هي الأسواق المختلفة المخصصة للحرف التي تكلمنا عنها، لكن هناك أيضاً دكاكين متفرقة في هذا القسم من المدينة ومنفصل بعضها عن بعض، ماعدا دكاكين البزازين والعطارين التي لا توجد إلاّ مجتمعة في أماكن خاصة.

يوجد بفاس خمسمائة وعشرون داراً للنساجين، وهي أبنية كبيرة ذات طبقات عديدة وقاعات فسيحة كقاعات القصور، تضم كل قاعة عدداً كثيراً من عمال نسج الكتان. وليس لأصحاب هذه المعامل أية آلة، بل هي ملك للمعلمين النساجين الذين لا يدفعون سوى كراء القاعات. هذه

هي الصناعة الرئيسية بفاس، يقال انها تكفل العمل لعشرين ألف عامل، ويشتغل مثل هذا العدد في الطواحين.

وهناك أيضاً مائة وخمسون معملاً لقصاري الخيوط، يقوم معظمها بجوار النهر، وتحتوي على عدد كثير من المراجل والجفان المبنية لغلي الخيط ولأغراض عرضية أخرى.

وفي المدينة مستودعات كبيرة ينشر فيها الخشب من مختلف الأنواع، ويقوم بهذا العمل عبيد مسيحيون يعطيهم أسيادهم ما يقتاتون به بدلاً من المال الـذي يربحونه، ولا يمنحونهم وقتاً للراحة غير نصف يوم الجمعة من الظهر حتى المساء، فضلاً عن نحو ثمانية أيام موزعة على السنة بمناسبة أعياد المسلمين.

وفيها أيضاً دور عمومية تمارس فيها البغايا مهنتهن بثمن بخس، تحت حماية رئيس الشرطة أو حـاكم المدينة. كما يتعاطى بعض الرجال دون أن يثير غيظ البلاط مهنة «البغاء»[48]، فيتخذون في بيوتهم نساء عاهرات وخموراً يبيعونها، بحيث يستطيع كل واحد أن يتناول من ذلك ما شاء بكل طمأنينة.

تحتوي فاس على ستمائة عين، وهي صهاريج طبيعية محاطة بجدران وأبواب تكون مغلقة، ويوزع ماؤ ها لمختلف الحاجات على الدور والجوامع والمدارس والفنادق. وهذا الماء مرغوب فيه أكثر من ماء النهر الذي يجف أحياناً لا سيما في الصيف. أضف إلى ذلك أنه عندمـا يراد تنـظيف

---

(48) وردت في النص الفرنسي بصيغة «التبغي» وكأنها من التبغ، وذلك مخالف لما يعرف تاريخياً من تأخر دخول التبغ إلى المغرب إلى ما بعد أكثر من قرن، ومخالف أيضاً للسياق، لذلك نظن أن الكلمة قد حرفت في إحدى الترجمات عن «الديوثي» أو شبه ذلك مما يفيد عمل هؤلاء الأدنياء الذين يتحدث عنهم المؤلف، ولذلك جعلنا «البغاء» مكانها، (انظر عن تاريخ دخول الدخان إلى المغرب كتابنا الحركة الفكرية 1 .266-246).

القنوات، يجب تحويل مجرى النهر خارج المدينة، وبذلك تعود الناس جميعاً استعمال ماء العين. وعلى الرغم من وجود ماء النهر في منازل الأعيان، فإنهم يبعثون في الصيف من يستقي لهم ماء العين، لأنه أكثر برودة وعذوبة، وهم يفعلون عكس ذلك في الشتاء. ومعظم هذه العيون في غرب المدينة وجنوبها، لأن القسم الشمالي كله واقع في جبل من حجر كلسي، حيث توجد حفر عميقة (مطامير) تحفظ فيها الحبوب سنين عديدة وتبلغ سعة بعضها أكثر من مائتي مد من الحبوب. ويعيش سكان هذا المكان، وهم فقراء، من كراء هذه المطامير، وقدره السنوي مد واحد عن كل مائة مد.

والقسم الجنوبي للمدينة يكاد يكون غير مسكون، ويحتوي على كثير من البساتين المليئة بمختلف الأشجار المثمرة الممتازة، كالبرتقال والليمون الحامض والأترج، وبالأزهار الجميلة كالياسمين والورد الدمشقي والوزال المجلوب من أوربا الذي يستحسنه المغاربة كثيراً. وتزدان هذه البساتين بأروقة جميلة وصهاريج وأحواض يحيط بها الياسمين والورد وزهر الليمون. وعندما يمر المرء في فصل الربيع بجوار هذه الرياض يشم نفحات عبقة منبعثة من كل جانب لا تقل أثراً في نفسه عما تمتلىء به عينه من جمالها وبهجتها. كأن كل روض منها جنة من جنان الدنيا، وقد اعتاد الأعيان أن يقيموا بها من أوائل إبريل إلى نهاية شتنبر.

وفي القسم الغربي للمدينة المجاور للقصر الملكي تشاهد القصبة التي أسست أيام ملوك لمتونة، ويمكن أن تقارن مساحتها الكبيرة بمساحة مدينة. وقد كانت قديماً مقر إقامة عمال فاس وأمرائها قبل أن تصبح المدينة عاصمة المملكة. ومنذ أن أسس ملوك بني مرين فاس الجديد(49) لم تعد

---

(49) أسس أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق المدينة البيضاء (فاسا الجديد) عام 1276/674 .

القصبة سوى دار مقام للعامل. وفيها جامع جميل[50] بني أيام كانت كثيرة السكان. وقد اندثرت معالم القصور التي كانت بها في أيامنا هذه وصار مكانها بساتين، ولم يبق منها سوى قصر واحد يسكنه العامل، وأبنية أخرى لأسرته. وهناك أماكن خاصة مجهزة بمقاعد يعقد فيها العامل جلساته للنظر في القضايا والحكم بين الناس. وتضم القصبة كذلك سجناً مبنياً على شكل كهف، سقفه معقود على أعمدة عديدة، وهو فسيح جداً يمكن أن يسع ثلاثة آلاف شخص، ليس فيه أية حجرة مفصولة أو سرية، لأنه ليس من العادة بفاس أن يوضع أحد في زنزانة. ويخترق القصبة جدول ماء لحاجات العامل والترفيه عليه.

القضاة وكيفية الحكم والتسيير

ليس بمدينة فاس غير قليل من صغار الضباط الوزاريين، وبعض القضاة المكلفين بشؤون العدالة. والعامل هو صاحب السلطة المشرف على القضايا المدنية والجنائية. وهناك قاض مكلف بالأحكام الشرعية، أي بتطبيق القوانين المستخرجة من كتب الفقه الإسلامي، وقاض آخر يعتبر كنائب للقاضي السابق، مكلف بمسائل الزواج والطلاق والنظر في الشهادات، ومؤهل كذلك للاطلاع على جميع الأسباب المتعلقة بهذا القضاء. ثم يأتي المفتي الذي يستفتى في المسائل الفقهية، ويرجع إليه في الأحكام التي أخطأ القضاة فيها، أو استندوا على قول مرجوح لبعض الفقهاء.

ويستفيد العامل أموالاً طائلة من الغرامات التي تفرض في كل وقت. وربما كانت أشد عقوبة تطبق على المجرم هي جلده بمحضر العامل مائة جلدة أو مائتين أو أكثر. وبعد الجلد يقوم الجلاد بوضع سلسلة من

(50) هو جامع أبي الجنود الحالي.

الحديد في عنق المحكوم عليه ثم يطوف به في المدينة كلها عارياً تماماً إلّا من سروال قصير يستر عورته. يحضر عملية التطويف هذه قائد الشرطة، ولا ينقطع صوت الجلاد أثناءها عن إعلان نوع الجريمة المقترفة ثم يلبس المجرم ثيابه ويعود إلى السجن. وقد يقع التطويف بعدد من المحكوم عليهم مطوقين جميعاً بسلسلة واحدة، ويأخذ العامل مثقالاً وربع مثقال عن كل محكوم عليه، بالإضافة إلى بعض المغارم المعينة عن كل سجين يؤديها له بصفة خاصة طائفة من التجار والصناع المعينين لهذا الغرض. ومن بين الموارد التي يتمتع بها العامل دخل جبل يستفيد منه ألف مثقال في السنة. ومن المعلوم أنه مطالب بأن يقدم إلى الملك أيام الحرب ثلاثمائة فارس يقوم بالانفاق عليهم ما دامت الحرب قائمة.

ولا يتقاضى القضاة الشرعيون أي أجر أو تعويض، لأن ذلك محظور في الشريعة الإسلامية، فلا يجوز للقاضي أن يأخذ أي مرتب عن عمله، غير أنهم يتعَيشون من موارد أخرى، إذ هم مدرسون وأئمة في بعض المساجد، وكذلك الحال بالنسبة للمفتين، وللوكلاء الذين هم جهال وعاميون. وللقضاة مكان يسجنون فيه الناس الذين عليهم دين أو ارتكبوا جنحاً خفيفة غير مهمة.

وفي فاس أربعة رؤساء للشرطة لا أكثر، يقومون بدوريات من منتصف الليل إلى الساعة الثانية صباحاً، ولا يتقاضون هم أيضاً أي أجر غير حصيلة المغارم المفروضة على من يلقون عليه القبض. وتقدر قيمتها بحسب مدة السجن ونوع العقوبة التي يعاقب بها المقبوض عليهم. لكن هؤلاء الرؤساء للشرط، يستطيعون أن يتخذوا حانات ويمارسوا مهنة (البغاء) والتدييث. وليس للعامل قاض ولا كاتب، وانما ينطق بالاحكام بصوت عالٍ كما يشاء.

ولا يدير شؤون الجمرك والضريبة التجارية سوى موظف واحد، يؤدي يومياً ثلاثين مثقالاً للخزينة الملكية، ويضع أمام كل باب من أبواب

المدينة حراساً وكتاباً يتقاضون المكوس عن كل البضائع القليلة الأهمية في الأبواب، ويصحب البضائع الأخرى حرس من الباب إلى مكتب الجمرك. ويتقاضى الحراس والكتاب بعض التعويضات بحسب كمية البضائع، ويذهب هؤلاء الحراس أحياناً إلى خارج المدينة لملاقاة البغالين حتى لا يخفوا شيئاً من البضاعة، وإذا أخفوا شيئاً أدوا عنه أضعاف الرسوم مضاعفة. والسعر العادي لهذه الرسوم هو مثقالان عن كل مائة مثقال، لكن فيما يخص ثمار الغبيراء التي تجلب منها كميات كبيرة، يؤدى عنها ربع قيمتها. ولا يؤدى شيء عن الخشب والقمح والبقر والدجاج، كما لا يؤدي في الأبواب شيء عن الأغنام المجلوبة إلى فاس، لكن يدفع في المجزرة عن كل خروف (بايوتشيان) اثنان، وثالث للمحتسب الذي هو رئيس الأمناء. وكثيراً ما يتجول هذا الموظف في المدينة على ظهر جواده مخفوراً باثني عشر رامياً لمراقبة الخبز، وتفقد أوزان الجزارين وما يبيعون من بضاعة، فيأمر بوزن الخبز، وإذا لم يجد فيه الوزن المطلوب قام بتفتيته قطعاً صغيرة ونزل على عنق بائعه بلكمة تتركه متورماً متوجعاً. وإذا تكررت المخالفة أمر بجلد البائع أمام الجمهور.

ويسند الملك وظيفة المحتسب إلى الأعيان الذين يطلبونها منه، ولم تكن تسند في القديم إلّا لذوي الكفاءة والسمعة الطيبة، أما الآن فأصبح الملوك يكلونها إلى أناس عاميين وجهال.

طريقة اللباس

وأهل فاس، أعني الأعيان منهم، أناس محترمون حقاً، يرتدون في الشتاء ملابس من قماش الصوف المستورد من الخارج، تتكون من سترة ضيقة جداً لها نصف أكمام توضع فوق القميص، وفوقها عباءة واسعة مخيطة من أمام، ويغطون كل ذلك ببرنس، ويجعلون على رؤوسهم قلنسوة تشبه ما يضعه بعض الناس على رؤوسهم في ايطاليا ليلاً، لكن بدون

ما يغطي الأذنين. ويلفون حول القلنسوة عمامة من كتان تدور مرتين حول الرأس وتمر تحت الذقن. ولا يلبسون الجوارب في أقدامهم، ولا يغطون سيقانهم بشيء فوق الحذاء، اللهم إلا ما كان من سراويل الكتان. وإذا أرادوا ركوب الخيل في الشتاء انتعلوا أحذية كبيرة. وأما عامة الناس فيلبسون السترة والبرنس، لكن بدون العباءة المذكورة، ولا يضعون على رؤوسهم سوى تلك الطاقيات التي لا قيمة لها.

ومن عادة العلماء والأعيان المتقدمين في السن أن يلبسوا سترات عريضة الأكمام مثل ما يلبسه نبلاء البندقية من ذوي المناصب السامية. وأخيراً فان الفقراء من العامة يرتدون ثوباً أبيض من نسيج صوف البلاد الخشن، وبرانسهم من نفس النسيج.

ولباس النساء جميل جداً، إلّا أنهن لا يرتدين في أيام الحر سوى قميص يحزمنه بنطاق لا يخلو من قبح؛ ويلبسن في الشتاء ثياباً عريضة الأكمام ومخيطة من أمام كثياب الرجال. وعندما يخرجن يلبسن سراويل طويلة تستر كل سيقانهن، وخماراً على عادة نساء الشام يغطي الرأس وسائر الجسم، ويحجبن الوجه كذلك بقطعة من قماش لا تظهر منها إلّا عيونهن. ويضعن في آذانهن أقراطاً كبيرة من ذهب مرصع بحجارة كريمة بديعة، وفي معاصمهن أساور من ذهب كذلك، سوار في كل ساعد، قد تبلغ زنته مائة مثقال (نحو 350 غرام). وتتحلى نساء غير الأعيان بأساور من فضة، ويضعن (خلاخل) مثلها في أرجلهن.

العادات المتعلقة بالطعام

من عادة السكان في التغذية أن يتناولوا اللحم الطري مرتين في الأسبوع، لكن الأعيان يأكلونه مرتين في اليوم حسب شهيتهم. يتناولون ثلاث وجبات في اليوم، وجبة خفيفة جداً في الصباح مركبة من خبز وفواكه

وحساء سائل من دقيق القمح، ويأخذون في الشتاء بدل الحساء رغيفاً من حنطة محشواً بلحم مملح ينضج معه. ويتناولون عند الظهر أيضاً أكلاً خفيفاً كالخبز والسلطة والجبن أو الزيتون، لكن هذه الوجبة تكون في الصيف أكثر تغذية. ويتناولون في المساء أشياء خفيفة كذلك، كالخبز مع البطيخ أو العنب أو اللبن، لكنهم في الشتاء يأكلون اللحم المطبوخ مع طعام يسمى الكسكسو، يصنعونه من دقيق مبلل يحول إلى حبيبات في حجم حبات الكزبرة، تنضج في قدر ذات ثقوب (= كسكاس) تسمح بطلوع بخار من قدر أخرى ثم يخلط هذا الدقيق المتبخر بعد نضجه بالسمن ويسقى بالمرق. وليس من عادتهم أن يأكلوا اللحم المشوي. تلك طريقة معيشة عامة الناس. أما علية القوم كشيوخ الأعيان والتجار ورجال الحاشية فان معيشتهم أفضل من ذلك وأكثر لطفاً. لكن بالمقارنة مع طريقة العيش التي يسلكها نبلاء أوربا تبدو عيشة الأفارقة بئيسة حقيرة، لا من قلة كمية الأغذية فحسب، ولكن أيضاً من العادات الخشنة المضطربة. إنهم يأكلون على الأرض فوق موائد منخفضة، بدون فوط ولا أغطية من أي نوع، ولا يستعملون أية أدوات غير أيديهم. وإذا أكلوا الكسكسو تناوله جميع المدعويين في صحن واحد بدون ملاعق، ويكون المرق واللحم معاً في قدر من فخار يتناول كل واحد منها قطعة اللحم التي تروقه ويضعها أمامه دون تقطيع. ولا يستعمل السكين، وانما تمسك قطعة اللحم باليد وينهش منها بالأسنان بقدر المستطاع. انهم يسرعون في الأكل، ولا يشرب أحد منهم قبل أن يشبع؛ فإذا شرب عب طست ماء سعتها «بوكال»(51) تلك هي العادة الشائعة، ولو أن هناك في الواقع بعض العلماء الذين يتمتعون بمستوى معيشة أفضل. وبالجملة فان أحط نبيل في ايطاليا يعيش في بذخ يفوق ما عليه أكبر أمير افريقي.

---

(51) ليتران إلّا ربعاً بالتقريب.

العادات المتبعة في الزواج

تراعى في الأعراس العادات التالية: إذا أراد رجل أن يتزوج، فبمجرد ما يعده أب بتزويجه بنته، يستدعي أبوه، ان كان على قيد الحياة، أصحابه للاجتماع في المسجد، ويحضر معه عدلان يكتبان العقد ويحددان شروط الصداق بحضور الخاطب والمخطوبة. ويقدم في العادة المدنيون من متوسطي الحال ثلاثين مثقالاً نقداً وجارية سوداء قيمتها خمسة عشر مثقالاً، وقطعة قماش من نسيج الحرير والكتان ذات ألوان مختلفة متقاطعة، ومناديل صغيرة من حرير يغطى بها الرأس. وتقضي العادة أيضاً بأن يقدم زوج أحذية مطرزاً بطريقة جميلة جداً، وزوجين من القباقب المطرزة كذلك بصنع عجيب، وعدداً من حلي الفضة، وأشياء أخرى كالأمشاط والعطور والمراوح الأنيقة. وإذا تم العقد برضا الطرفين، استدعى الخاطب جميع الحاضرين لتناول طعام الغداء معه، وقدم لهم الفطائر والمشوي والعسل. ويستدعي أبو المخطوبة من جهته أصحابه لتناول الطعام. وإذا أراد الأب أن يهدي لابنته بعض الثياب الجميلة فعل ذلك مكارمة منه، إذ لا يلزمه صرف شيء غير النقود التي يدفعها للزوج[52]، إلّا أنه يستحيى ألّا يضيف شيئاً إلى هذا المبلغ. واليوم يصرف الأب أو الولي زيادة على الثلاثين مثقالاً التي هي قدر الصداق، مبلغاً من مائتين إلى ثلاثمائة مثقال لتجهيز الزوجة بما يلزم من ملابس وأثاث البيت، لكن لا يعطى عقار ولا كروم ولا أرض مزروعة. وتقضي العادة أن تقدم هدية مركبة من ثلاثة أثواب من جوخ رقيق، وثلاثة أخرى من حرير أو «تفتة» أو مخمل أو دمقس، وعدد من القمصان وأغطية الفراش المطرزة والموشاة حواشيها بالحرير، ومخدات مطرزة ووسائد. وتهدى كذلك ثمانية فرش، أربعة منها

---

(52) هكذا في النص الفرنسي، وهو تحريف ولا شك بزيادة اللام قبل الزوج، ولعل الأصل: «. . . النقود التي يدفعها الزوج». وهذا هو مشهور مذهب مالك الجاري به العمل في المغرب والأندلس.

للزينة توضع فوق الخزائن في كل طرف من الغرفة، وأربعة مغطاة بنسيج صوفي خشن تستعمل للنوم، بالإضافة إلى فراشين مبطنين بجلد يستعملان كذلك لتزيين الغرفة، وزربية صوف طويل من نحو عشرين ذراعاً، وثلاثة أغطية وجهها من جوخ وظهرها من كتان، وما بينهما محشو بالصوف. وعند النوم يطوى هذا الغطاء شطرين بحيث يكون أحدهما فوق الآخر، لأن طوله يقل قليلاً عن ثمانية أذرع. وعلاوة على ذلك تقدم ثلاثة أغطية للسرر غلافهـا من حرير جميل التطريز من الجهتين، وبداخلها كتان محشو قطناً، وغطاء آخر أبيض الغلاف محشو بالقطن، لكنه خفيف للصيف. وأخيراً يقدم سجف (حائطي) من صوف رفيع مقسم إلى مستطيلات صغيرة مطرزة على نموذج علم سفينة أو غير ذلك من النماذج. ولهذا «الحائطي» شرائط ملسنة من جلد مذهب علقت عليها خصل من حرير مختلفة الألوان. وقد ثبت على كل خصلة منها زر حريري ليمكن تعليق هذا السجف على الحائط. هذا ما يضاف إلى المهر، وربما أضيف إليه أكثر من ذلك. وقد افتقر كثير من الأعيان على أثر هذه الأعراس. ويعتقد بعض الايطاليين أن الرجال في افريقيا هم الذين يقدمون المهر للنساء، ولكنهم لا يعرفون شيئاً كثيراً في هذا المجال.

وعندما يذهب الزوج ليأخذ زوجته إلى منزله، يدخلها أولاً في صندوق من خشب مثمَّن الأضلاع ومغـطى بثياب جميلة من الحـرير والديباج، ويحمل الحمالون هذا الصندوق على رؤوسهم. ويتكون الموكب من أصدقاء أبوي الزوجة والزوج، مع المزامير والأبواق والطبول وحملة المشاعل العديدة، يتقدم الموكب أصدقاء العروس حاملين مشاعلهم ويتبع الزوجة أصدقاء والدها.

يمر الموكب بالسوق الكبير قرب الجامع، وعندما يصلون يودع الزوج والد الزوجة وأهلها، ويدخل تواً إلى بيته لينتظر زوجته في غرفته. ويرافق العروس أبوها وأخوها وخالها إلى باب تلك الغرفة، ويسلمونها جميعاً إلى أم

الزوج. وما ان تدخل الزوجة إلى الغرفة حتى يضع الزوج قدمه على قدمها، ثم يخلو بها في الغرفة. وفي هذه الأثناء يشتغل أهل المنزل بتهييء طعام العرس، بينما تقف امرأة بباب الغرفة حتى تفتض العروس ويسلم لها الزوج ثوباً ملطخاً بالدم، فتذهب المرأة، والثوب في يدها، إلى المدعوين تعلن لهم بأعلى صوتها أن العروس كانت بكراً. وبعد أن يقدم أهل الزوج الطعام إلى هذه المرأة تذهب مع نساء أخريات لمقابلة أم العروس، فتستقبل بحفاوة ويقدم لها الطعام مرة أخرى.

وإذا اتفق أن العروس لم تكن بكراً ردها الزوج إلى أبيها وأمها، وفي ذلك عار كبير عليهما، لا سيما وأن جميع المدعوين ينصرفون دون أكل.

وهناك ثلاث ولائم في العرس، الأولى ليلة الزفاف والثانية في الليلة التالية ولا يستدعى لها غير النساء، والثالثة بعد أسبوع، ويحضرها أبو الزوجة وأمها وجميع أقاربها. ومن العادة أن يبعث أبو الزوجة في ذلك اليوم بهدايا هامة إلى دار الزوج تتكون من حلويات وخرفان كاملة. ويخرج العريس من بيته بعد سبعة أيام، فيذهب تواً لشراء كمية من السمك يحملها إلى بيته، ويسلمها إلى أمه أو إلى امرأة أخرى لترميها على قدمي العروس، ويعتبرون ذلك من أسباب اليمن، وهي عادة قديمة.

وفضلاً عن هذه الولائم الثلاث التي تكون في بيت الزوج، تقام وليمتان أخريان في بيت الزوجة، الأولى في الليلة السابعة ليوم رواح الزوجة إلى زوجها، يدعو إليها الأب أصدقاء الأسرة، ويعمل أن يستمر الفرح والرقص طوال الليل. وفي اليوم التالي تأتي النساء المتخصصات في تجميل العرائس، فيمشطن شعرهن ويزين خدودهن بالحمرة، ويخضبن أيديهن وأرجلهن بالسواد مع رسوم جميلة، لكن هذه الأصباغ لا تدوم طويلاً. وفي هذا اليوم تكون الوليمة الثانية، فتوضع العروس فوق منصة ليشاهدها الجميع، ويقدم الطعام للسيدات اللواتي قمن بتجميلها.

وعندما تصل العروس إلى بيت زوجها، يرسل إليه أصدقاؤه الحميمون أوعية كبيرة مملوءة فطائر، وأخرى مثلها عسلاً، وخرفاناً كاملة مشوية، فيدعو العريس عدداً من الناس يوزع عليهم الهدايا، ويستمر الرقص طوال الليل على أنغام الموسيقيين والمنشدين، ويتناوب الغناء والعزف في نحو مائة من الألحان العذبة اللطيفة. وفي كل مرة يرقص راقص واحد، فإذا انتهى من رقصه أخرج من فمه قطعة نقود ورمى بها على بساط المغنين. وإذا أراد أحد الأصدقاء أن يكرم الراقص دعاه لأن يجثو على ركبتيه أمامه وألصق على وجهه قطعاً من نقود ينزعها المغنون بعد ذلك فوراً. وترقص النساء بمعزل عن الرجال، ولهن حفلاتهن الراقصة ومغنياتهن وعازفاتهن.

كل شيء يجري هكذا إذا كانت العروس عذراء، فإذا سبق لها الزواج كانت حفلة العرس أقل أبهة. وتقضي العادة في مثل هذه الحال أن يأكلوا لحوم البقر والغنم، والدجاج المطبوخ المضاف إليه مختلف الخضر. توضع أمام المدعوين اثنتا عشرة قصعة كبيرة فوق مائدة مستديرة من خشب، يكفي طعامها عشرة أو اثني عشر شخصاً.

تلك هي عادات الأعيان والتجار. أما وجبة الطعام لعامة الناس فيقدم فيها ثريد مصنوع من خبز خفيف يشبه الشرائط ويغمس في مرق لحم مقطّع قطعاً كبيرة. يقدّم الثريد في إناء كبير تسبح فيه قطع اللحم، ويأكل المدعوون بأيديهم دون ملاعق، بمعدل عشرة أشخاص حول كل إناء.

ومن عادتهم أيضاً أن تقام وليمة عند ختان الولد، ويكون ذلك في سابع يوم بعد ولادته، يستدعي الأب في ذلك اليوم أصدقاءه والحلاق فيطعمهم. وعندما ينتهي الأكل يقدم كل واحد من المدعوين هدية للحلاق، مثقالاً أو مثقالين أو أكثر أو أقل حسب مستواه، فيلصقها على وجه غلام الحلاق الذي يذكر اسم المتبرّع ويشكره. وبعد ذلك يقوم

الحلاق بختان الطفل، وتقام في الأخير حفلة يرقصون فيها على نحو ما ذكر آنفاً. وإذا كان المولود أنثى قلَّ استشارهم بها.

عادات أخرى متّبعة في الأعياد وطريقة البكاء على الموتى

لا تزال بفاس بقايا من بعض الأعياد التي خلّفها المسيحيون، ينطق فيها الناس بكلام لا يعرفون له معنى. ففي ليلة ميلاد المسيح يأكلون نوعاً من ثريد مصنوع من خضر متنوعة كالكرمب واللفت والجزر وغيرها، ويطبخون عدة أنواع من الخضر مجتمعة على حالها دون تقطيع، كالفول والحمص وحبوب القمح، ويأكلون هذا الطعام في تلك الليلة كما لو كان حلوى لذيذة. ويضع الأطفال في اليوم الأول من السنة أقنعة على وجوههم ويتوجهون إلى الأعيان يطلبون منهم الفواكه وهم ينشدون أغانيهم الصبيانية. وفي يوم القديس يوحنا توقد نيران كثيرة من التبن في جميع الأحياء. وعندما تأخذ أسنان الطفل في الظهور، يستدعي أبواه أطفالاً آخرين لوليمة، ويسمّون هذا الحفل «دانتسيا» وهو الاسم اللاتيني بالذات. وهناك عدد عديد من عادات أخرى وطرق التكهن بالغيب شاهدت مثلها في روما وغيرها من مدن ايطاليا.

أما الأعياد المشروعة المقررة في الشريعة المحمدية، فلينظر القارىء فيما يلي بهذا الكتيب ما ذكرناه عن الشريعة والعقيدة في الديانة الإسلامية.

تجتمع النساء إذا مات لهن زوج أو أب أو أم أو أخ، مرتديات لباساً خشناً، ويلطّخن وجوههن بسواد دخان القدور ثم يستدعين أولئك الأنذال الذين يتجولون وهم لابسون ثياب النساء، ليضربوا على دفوف مربعة ويرتجلوا أنظاماً حزينة مبكية في رثاء الميت. وفي آخر كل بيت تصيح النساء ويخدشن صدورهن وخدودهن حتى يسيل منها الدم بغزارة، وينتفن شعورهن نائحات مولولات. يدوم ذلك سبعة أيام، وبعد أربعين يوماً يستأنفن نحيبهنّ لمدة ثلاثة أيام. تلك هي عادة العامة، أما الأعيان فحزنهم

أخف، يبكون موتاهم دون ندب ولا خدش، ويحضر أصدقاؤهم لتقديم التعازي، ويأيتهم الطعام من جميع الأقارب كهدية، لأنهم لا يطبخون أي طعام ما دام الميت في الدار. ولا تسير النساء في موكب الجنازة ولو كان الميت أباً لهنّ أو أخاً. أما طريقة غسل الميت ودفنه والصلاة عليه فمذكورة في الكتيب المذكور آنفاً.

الحمَام

يهتم كثير من الناس في فاس بالحمَام، ويجدون في العناية به متعة كبيرة، فيقتنون منه أعداداً كثيرة جميلة الشكل مختلفة الألوان. يعيش هذا الحمام في سطوح المنازل داخل أقفاص تشبه خزائن العطّارين، ويفتح هواة الحمام هذه الأقفاص مرتين في اليوم، مرة في الصباح وأخرى في المساء، ويشعرون بسرور لا حدّ له وهم ينظرون إلى الحمام يطير، والذي يستمر طيرانه مدة أطول تكون قيمته عندهم أكثر. وقد يحدث اختلاط حمام قفص مع حمام قفص آخر فيؤدي ذلك أحياناً كثيرة إلى خصام بين الهواة وعراك بالأيدي. ومن الناس من يثبتون شركاً صغيراً في رأس عصا طويلة يمسكونها بأيديهم على سطوحهم، فيتصيدون بشركهم كل ما مرّ بهم من حمام. وهناك في وسط سوق الفحامين سبعة دكاكين أو ثمانية يباع فيها هذا الحمام.

طرق اللعب

لا يوجد بين الناس المهذبين من ذوي البيئات الحسنة غير لعبة واحدة هي لعبة الشطرنج تبعاً لعادة أسلافهم. وهناك لعب أخرى، لكنها مستهجنة لا يمارسها إلا رعاع القوم.

يجتمع الشبان في أوقات معينة من السنة، فيحمل أهل زقاق منهم العصي ليحاربوا أهل زقاق آخر. وقد يشتد الخصام بينهم فيأخذون

السلاح ويموت عدد من كل فئة، لا سيما في أيام الأعياد، حيث يجتمع الشبان في ظاهر المدينة. وبعد انتهاء الاشتباك يأخذون في التراشق بالأحجار حتى لقد يعجز رئيس الشرطة عن تفريقهم والحجز بينهم، إلا أنه يلقي القبض على البعض منهم ويدخلهم إلى السجن، ثم يجلدون ويطوفون في المدينة. وفي الليل يخرج كثير من المتنطعين مجتمعين مسلحين إلى ظاهر المدينة، فيتجولون في البساتين والحقول، حتى إذا لقوا متنطعين من زقاق معاد لهم، وقع شجار عنيف بينهم، لأنهم يكنون بعضهم لبعض عداوة قاتلة بصفة دائمة، وكثيراً ما يتعرضون للعقاب الصارم.

شعراء الملحون

يوجد بفاس أيضاً كثير من الشعراء الذين ينظمون الشعر باللغة العامية في مختلف الموضوعات، ولا سيما في الحب. يصف بعضهم حبه للنساء، وبعضهم حبه للغلمان، فيذكر دون حياء ولا خجل اسم الغلام الذي يهواه.

ينظم هؤلاء الشعراء كل سنة بمناسبة عيد مولد محمد ـ عليه السلام ـ قصائد في مدحه، فيجتمعون في الصباح الباكر من يوم العيد في ساحة المحتسب ويصعدون إلى المنصة التي يجلس عليها، ثم يأخذ كل واحد منهم في إنشاد قصيدته أمام جمهور غفير من الناس. ومن قُضي له منهم بالتفوق في النظم والإنشاد، بويع أميراً للشعراء تلك السنة واعترف له بذلك. وفي عصر ازدهار الدولة المرينية، كان الملك يدعو علماء المدينة وأدباءها إلى قصره، للاحتفال بفحول الشعراء، ويأمر كل واحد منهم بإنشاد قصيدته المولدية بين يديه أمام الجميع. (فيتبارون) ويصعد المنشد على منصة عالية، وحسب ما يقضي به رجال أكفاء يعطي الملك الفائز من الشعراء مائة مثقال وفرساً وجارية، ويخلع عليه الكسوة التي يكون لابساً لها. كما يأمر لكل واحد من الآخرين بخمسين مثقالاً، بحيث ينصرفون جميعاً

بهدايا غير أن هذه العادة انقرضت منذ مائة وثلاثين عاماً بسبب انحطاط الدولة.

مدارس الأطفال

توجد قرابة مائتي مدرسة (كتّاب) للأطفال الراغبين في تعلّم القراءة، في كل مدرسة قاعة كبيرة بمدرَّجات تستعمل كمقاعد للأطفال، ولا يعلّمهم المعلم القراءة والكتابة في كتاب، بل في ألواح كبيرة يكتب عليها التلاميذ. ودرس كل يوم عبارة عن آية من القرآن، فيختمون القرآن في سنتين أو ثلاث، ثم يستأنفون ذلك عدة مرات، إلى أن يحذقه الطفل جيداً ويحفظه عن ظهر قلب. يحصل على ذلك بعد سبع سنوات على أبعد تقدير. وبعد ذلك يقوم المعلم بتعليم الأطفال شيئاً من قواعد الكتابة، ولو أن هذه المادة مثل النحو وسائر العلوم تدرس في مدارس كبرى.

يتقاضى المعلمون أجراً زهيداً، لكن عندما يصل الطفل إلى بعض السور القرآنية يكون على أبيه أن يقدّم للمعلم هدية من الهدايا. حتى إذا ختم الطفل القرآن وحفظه كله، أقام الأب وليمة كبيرة دعا إليها جميع التلاميذ، وألبس الطفل لباساً فخمًا وكأنه ابن أمير، وأركبه متن جواد أصيل ثمين يعيره إياه أمير المدينة الملكية (فاس الجديد)، كما يعيره اللباس أيضاً. ويركب الأطفال الآخرون متون الخيل ويصحبونه إلى قاعة الاحتفال، وهم ينشدون أناشيد في تمجيد الله (تعالى) ورسوله محمد ـ عليه السلام ـ ثم تكون الوليمة التي يحضرها أصدقاء الوالد، ويقدم كل واحد منهم هدية للمعلم، كما يقدم له الطفل المحتفل به كسوة جديدة، تلك هي العادة المتبعة.

ويحتفل هؤلاء الأطفال أيضاً بعيد المولد النبوي، ويلزم آباءهم أن يرسلوا شمعة إلى المدرسة، فيأتي كل طفل بشمعته، ويحمل بعض الأطفال شمعة تزن ثلاثين رطلاً أو أكثر أو أقل. وهي شموع جميلة مزخرفة جداً، مزدانة أطرافها بفواكه عديدة من شمع، توقد في مطلع الفجر وتطفأ عند

بزوغ الشمس. ومن عادة المعلم أن يدعو بعض المسمعين لينشدوا أمداحاً نبوية، وينتهي الحفل بمجرد طلوع الشمس. وهذا أحسن مورد لمعلمي المدارس، لأنهم قد يبيعون من الشمع ما قيمته مائة مثقال أو أكثر من ذلك بحسب عدد تلاميذهم. ولا يؤدي أحد منهم كراء عن هذه المدارس، لأنها أوقاف وصدقات جارية على أرواح الواقفين. أما فواكه تلك الشموع وأزهارها فتعطى هدايا للأطفال والمنشدين.

ولأطفال هذه المدارس، كتلاميذ المدارس الكبرى، عطلة يومين في الأسبوع، لا يكون فيهما تعليم ولا دراسة

العرافون

لن أقول شيئاً عن بعض الصناع، كالدباغين الذين لهم مكانهم الخاص بالقرب من مجرى ماء كبير تقع معاملهم على طوله، وعددها كثير. يؤدون عن كل جلد دبغوه ضريبة قدرها (بايوتشان) اثنان، ويجتمع من هذه الضريبة ألفا مثقال[53]. ولن أتكلم أيضاً عن الحلاقين وغيرهم من الصناع، لأنني أشرت إليهم في وصف القسم الأول من فاس، مع أن عددهم أقل مما ذكرته في تلك المناسبة.

وسأحدثكم عن العرّافين الكثيرين، وهم أصناف ثلاثة:

يتألف الصنف الأول من الذين يتعاطون خط الرمل، فيرسمون عليه أشكالاً ويؤدى لهم عن كل رسم بحسب الموارد المتوفرة للشخص ووفقاً للعادة.

ويضم الصنف الثاني العرافين الذين يجعلون الماء في قدر لماع، ويرمون فيه قطرة زيت فيصير شفافاً، ويزعم العرافون أنهم يرون فيه كما

---

(53) أي أن عدد الجلود المدبوغة نحو 120,000.

يرون في المرآة جماعة من الشياطين القادمين بعضهم خلف بعض، كأنهم كتائب جيش تعسكر وتضرب الخيام، ويسلك بعض هؤلاء الشياطين طريق البحر وبعضهم طريق البر. وعندما يرى العرّاف أنهم قد استراحوا يطلب منهم ما يود معرفته، فيجيبونه بإشارات باليد أو العين. فانظروا إلى حماقة من يثقون بمثل هذه الأشياء! ويضع هؤلاء العرافون أحياناً القدر بين يدي طفل عمره ثمانية أعوام أو تسعة، ويسألونه هل رأى الجني الفلاني أو غيره، فيجيبهم الطفل الساذج بنعم، لكنهم لا يدعونه يتكلم وحده. ويثق الكثير من البلهاء بهؤلاء العرافين لدرجة أنهم ينفقون عندهم أموالاً طائلة.

ويشتمل الصنف الثالث من العرافين على نساء يوهمن العامة أنهن يرتبطن بصداقة مع شياطين من أنواع مختلفة، يسمين بعضهم بالشياطين الحمر، وبعضهم بالشياطين البيض أو السود. وعندما يطلب منهن أن يتنبأن بشيء من الأشياء يتطيبن بعطور مختلفة الروائح، فيدخل فيهن الشيطان الذي دعونه حسب زعمهن، ويغيرن حينئذ أصواتهن ليوهمن أنه المتكلم بفمهن. والشخص الذي أتى لشيء يريد أن يعرفه، سواء كان رجلاً أو امرأة، يطلب ذلك من الروحاني بكثير من الاعتبار والضراعة. فإذا حصل على الجواب ترك هدية للشيطان وذهب إلى حال سبيله. لكن الناس الذين يتمتعون بالاستقامة فضلاً عن العلم والخبرة يسمون هؤلاء النساء مساحقات، وهو معنى «فريكاتريس» باللاتينية لأنهن في الواقع يمارسن تلك العادة الشنيعة وتساحق إحداهن الأخرى، الأمر الذي لا استطيع التعبير عنه بعبارة أكثر حشمة. فإذا كانت امرأة جميلة من بين اللواتي أتين لاستشارتهن عشقنها كما يعشق شاب فتاة، وطلبن منها، وكأن الشيطان نفسه هو الذي يتكلم، قبلات غرامية في مقابل الثمن. وتقبل المرأة في أغلب الأحيان ظناً منها أنها ترضي الروحاني بذلك. وتطلب كثير من النساء اللواتي ينشرحن لهذه اللعبة من العرّافات الدخول في طائفتهن،

فيتظاهرن بالمرض ويستدعين إحداهن، وكثيراً ما يقوم الزوج الأبله بهذه المهمة. هنالك يعبّرن عن رغبتهن للعرافة، فتخبر الزوج بأن شيطاناً دخل إلى جسم امرأته، وإذا كان حريصاً على صحتها فلا بد له من أن يسمح لها بالانتساب إلى طائفة العرافات والعمل معهن بحرية، فيصدق الزوج الغبيّ ذلك ويقبل. ويزيد في غباوته أنه يصنع وليمة فخمة لجميع العرافات. وبعد تناول الطعام تقوم كل واحدة منهن إلى الرقص، ويحتفلن على أنغام جوق من الزنوج (كناوة)، ثم يترك الرجل زوجته تذهب إلى المغامرة. لكن هناك من الأزواج من يخرجون الأرواح من أجسام نسائهم بضربات عصي قوية، ومن يتظاهرون بأنهم أيضاً أصابهم مس من الشيطان فيخدعون العرافات مثلما خدعن نساءهم.

السحرة

هناك صنف آخر من العرافين يدعون المعزمين، أي السحرة، يعتبرون قادرين تماماً على إنقاذ من اعتراهم مس من الشيطان، لسبب واحد هو أنهم يوفقون أحياناً في ذلك، وإذا لم يوفقوا زعموا أن الشيطان كافر أو أن الأمر يتعلق بروح سماوية، ويكون التعزيم بالطريقة التالية: يكتبون بعض الحروف، ثم يرسمون دوائر فوق تنور أو غيره، ويخطون على يد المجنون أو جبينه بعض الإشارات، ويعطّرونه بمختلف العطور وبعد ذلك يشرع الساحر في الرقية، ويسأل الروحاني كيف دخل الجسم، من أين أتى، ومن هو، وما اسمه، ويأمره في الأخير بالذهاب.

وهناك أيضاً صنف آخر من الناس يعمل وفق قاعدة تدعى الزايرجة[54] أي مخاطبة الأرواح، لا يربطون عملياتهم بنصوص، بل يعتبرونها جزئاً من العلوم الطبيعية. والحقيقة أن هؤلاء القوم يعرفون كيف

---

(54) في النص الفرنسي «زيرجية»، وصححه المعلق في الهامش رقم 224 بأنه «زيرجة» ويسميها ابن خلدون في **المقدمة** (ص 950) زايرجة العالم.

يجيبون جواباً صائباً عن كل سؤال يطرح عليهم، غير أن القواعد الزايرجية متناهية الصعوبة، ويجب أن يكون المرء منجمًا ممتازاً ورياضياً ليعرف طريقة استعمالها. وقد شاهدت في بعض الأحيان أشكالاً من الزايرجية تطلب إنجازها اليوم كله من الصباح إلى المساء في فصل الصيف. وإليكم طريقة الاستعمال: ترسم عدة دوائر متحدة المركز، ويرسم في الأولى صليب تسجل في أطرافه الأربعة الجهات الأصلية الأربع: الشرق والغرب والشمال والجنوب، ويكتب القطبان في المركز عند تقاطع الخطوط، والعناصر الأربعة في داخل الدائرة. ثم تقسم هذه الدائرة الأولى إلى أربعة أرباع، وتقسم كذلك الدائرة التالية إلى أربعة، وبعد ذلك يقسم ربع كل دائرة إلى سبعة أقسام، تكتب في كل واحد منها حروف عربية كبيرة. أي ثمانية وعشرون أو سبعة وعشرون حرفاً في كل عنصر. وتثبت الكواكب السبعة في الدائرة الأخرى، وصور البروج الاثني عشر في الدائرة التالية، وشهور السنة اللاتينية الاثنا عشر في الدائرة بعدها، ومنازل القمر الثمانية والعشرون (نعني المنازل الفلكية) في الدائرة التالية، وأيام السنة الثلاثمائة والخمسة والستون في الدائرة الأخيرة.

وحينئذ يؤخذ حرف واحد من السؤال المطروح، وتضرب قيمته العددية في كل ما ذكر آنفاً، إلى أن يحدد العدد المناسب لهذا الحرف. ثم يقسم هذا العدد بطريقة خاصة، ويوضع الحرف بعد ذلك في مكان من الجدول الزيجي حسب طبيعة هذا الحرف وحسب العنصر الذي يوافقه، مع التثبت في ذلك بواسطة عمليات ضرب وقسمة وقياس لمعرفة ما إذا كان الحرف مناسباً للعدد المتوصل إليه. ويصنع بهذا الحرف بحسب الطريقة السابقة، ويستمر العمل هكذا إلى أن تحدد ثمان وعشرون منزلة، أي ثمانية وعشرون حرفاً. عندئذ تركب الكلمات التي تتألف منها جملة الجواب عن السؤال المطروح. وتصاغ الجملة دائمًا في قالب بيت من البحر الأول من أبحر الشعر العربي المسمى بالطويل، والمتّركب من ثمانية أوتاد واثني

عشر سبباً، حسب العروض العربي الذي تحدثنا عنه في قواعد اللغة العربية بالجزء الأخير من هذا الكتيب. وهذا البيت المكون من الحروف المجموعة بهذه الطريقة يعطي جواباً صحيحاً لا شك فيه، فهو يعبر أولاً عن السؤال المطروح، ثم عن جواب المنجّم. ولا يحدث أي خطأ في هاتين النقطتين. والواقع أن هذه العملية السحرية عجيبة حقاً. أما بالنسبة لي شخصياً فإني لم أر قط ما يعتبر كشيء طبيعي وتبين لي أنه خارق للعادة وإلهي كهذا العمل الزايرجي[55].

ولقد شاهدت عملية زايرجة في صحن المدرسة البوعنانية بفاس، وهذا الصحن مبلط بالرخام الأبيض الرقيق الناعم، طوله من كل جانب خمسون ذراعاً. وقد استعمل ثلثا الصحن في كل ماتطلبته الكتابة على رسم الزايرجة، وقام بتخطيطها ثلاثة أشخاص، عمل كل واحد منهم في جزء منها، ومع ذلك تطلّب العمل يوماً كاملاً لإنجازه. وشاهدت زايرجة أخرى في تونس قام بها أستاذ ماهر شِرح أبوه قواعد هذه العملية في ثلاث مجلدات. وقليل جداً من يعرف هذه القواعد. ولم أر منهم في حياتي كلها سوى ثلاثة، اثنين بفاس وواحد بتونس. وقرأت أيضاً شرحين في هذا الموضوع، أحدهما من تأليف المرجاني والد المعلم الذي رأيته في تونس، والثاني للمؤرخ ابن خلدون.

ومن أراد معرفة هذه القاعدة وشرحها، كلفه ذلك أقل من خمسين مثقالاً، لأنه إذا ذهب إلى تونس القريبة من ايطاليا وجد فيها هذا الكتاب. وقد رغبت عن تعلم القاعدة الزيجية كسلاً مني، مع أن ذلك كان متيسراً لدي، إذ كان عندي متسع من الوقت، والشيخ راغب في تعليمي إياها بالمجان. ولكن الذي منعني من ذلك بالخصوص هو أن هذه القاعدة وسواها من علم التنجيم حرام في نظر فقهاء الشريعة الإسلامية، وتكاد

---

(55) انظر: جدول زايرجة العالم في مقدمة ابن خلدون، بين صفحتي 960 و961.

تعتبر مروقاً من الدين. حقاً إن كل كتب الحديث النبوي عامرة بنصوص تبيِّن عدم جدوى التكهن بالغيب، وأنه لا يعلم أمور المستقبل وأسراره إلا الله وحده. لذلك فإن الساهرين على شؤون المسلمين يلجؤون أحياناً إلى سجن من يتعاطون مثل هذه الأعمال، ولا ينقطعون عن التضييق عليهم.

القواعد والخصائص المتبعة عند بعضهم في شأن الشريعة المحمدية

يوجد بفاس بعض الأشخاص الذين يحملون اسم الصوفية، أي علماء الأخلاق وشيوخها، يسيرون على قوانين خارجة عما شرّعه محمد ـ عليه السلام ـ يعتبرهم البعض سنيين، ولا يعتبرهم كذلك آخرون. غير أن العامة تعتقد أنهم أولياء صالحون. وعلى سبيل المثال، تمنع الشريعة الإسلامية الغناء أو تلحين أية قصيدة غرامية، بينما يبيحها هؤلاء. ويشتمل مذهبهم على عدة طرق، لكل طريقة قواعدها الخاصة، ورئيسها المدافع عنها، وفقهاؤها الذين يؤيدون مبادئها، وكتبها العديدة المتعلقة بالحياة الروحية.

نشأ التصوف بعد ثمانين عاماً من وفاة محمد ـ عليه السلام ـ، على يد مؤسسه الأشهر حسن بن أبي الحسن البصري(56) الذي بدأ يلقّن بعض مبادىء التصوف لتلاميذه دون أن يكتب شيئاً. وبعد مرور مائة سنة ظهر رجل آخر عظيم الشأن في هذا المضمار، هو الحارث بن أسد البغدادي(57)، فألّف كتاباً لطيفاً شرح فيه لجميع مريديه تفاصيل مذهبه. وبعد ذلك أخذ الفقهاء الذين يوجهون أعمال الخلفاء ينكرون على هذه

---

(56) هو الحسن بن يسار (لا ابن أبي الحسن) تابعي، ولد بالمدينة وعاش في كنف علي بن أبي طالب ثم انتقل إلى البصرة، وبها مات عام 110 هـ.

(57) هو الحارث بن أسد المحاسبي من أكابر الصوفية في القرن الثالث الهجري، ولد ونشأ بالبصرة ومات ببغداد عام 243. هـ. ألّف كتباً كثيرة في التصوف، أشهرها آداب النفوس، وشرح المعرفة.

الطائفة ويدينون كل من يسلك هذا السبيل. وبعد ثمانين عاماً أعيد تكوين التصوف من جديد على يد رجل عظيم تبعه كثير من المريدين وأخذ يدعو لمذهبه علناً، فاتفق الفقهاء كلهم مع الخليفة على قتله هو وأتباعه، وأن تقطع رؤوسهم جميعاً. ولما علم الشيخ بهذ النبأ كتب إلى الخليفة يطلب منه التكرم بالإذن لعقد مناظرة مع الفقهاء، فإذا خرج منها مغلوباً قبل الموت راضياً، وإذا استطاع أن يبرهن على أن طريقته أفضل من طريقتهم، فليس من الإنصاف أن يهلك عدد كثير من الأبرياء المساكين بسبب تهمة مفتراة لا أساس لها. رأى الخليفة هذا الكلام حقاً فقبل الطلب، وذهب العالم إلى المناظرة، وانتصر على جميع الفقهاء بدون عناء، حتى إن الخليفة غيّر رأيه وبكى، وانتسب إلى هذه الطريقة وظل يؤيدها طوال حياته. وأسّس للصوفيين زوايا ومدارس، وازدهرت الحركة الصوفية مائة سنة أخرى، إلى أن جاء من آسيا الكبرى ملك شاه أمبراطور السلاجقة، وهو من أصل تركي. فاضطهد هذه الطريقة، وفرّ الصوفيون من وجهه، بعضهم إلى القاهرة، وبعضهم إلى الجزيرة العربية، وظلوا مشردين عشرين سنة إلى أن تولى الملك شاهلشاه[58] حفيد ملك شاه، وكان مستشاره على درجة عالية من الذكاء يدعى نظام الملك[59] من أتباع هذه الطريقة الصوفية، فجددها وساندها وأرسى قواعدها حتى تمكّن من إقامة مصالحة بين الفقهاء والصوفية، بفضل عالم كبير جداً يدعى الغزالي، ألّف في هذه العلوم (الشرعية والصوفية) كتاباً ممتازاً في سبعة أجزاء. ونتج عن هذا الوفاق أن حمل الفقهاء اسم العلماء وحفظة شريعة الرسول ــ عليه السلام ــ بينما سمي الصوفية رجال الحقيقة الباحثين عن أسرار الشريعة.

---

(58) بعد وفاة ملك شاه بن ألب أرسلان عام 485 هـ. اضطربت الأحوال فولي الملك بعده أبناؤه محمود وبركيارق ومحمد، وحفيده ملك شاه الذي يمكن أن يكون المقصود هنا ولو أن ملكه لم يدم إلا شهوراً قليلة، 498 هـ.

(59) اختلط الأمر هنا على الحسن الوزان ، فنظام الملك الحسن بن علي كان وزيراً لملك شاه واغتيل في نفس السنة التي مات فيها الملك 485 هـ.

وقد قضى التتر على هذه الوحدة عام 656 للهجرة ،غير أن الانفصام الناتج عن ذلك لم يكن له أثر سيىء على التصوف، لأن آسيا وافريقيا كانتا مليئتين بالمريدين الصوفيين، ولم يدخل في هذه الطريقة آنذاك إلا رجال مشاركون في جميع العلوم، فتضلعوا بصفة خاصة من القرآن الكريم ليستطيعوا الدفاع عن المذهب الصوفي والرد على المذاهب المعادية له.

ومنذ مائة عام أصبح كل جاهل يريد أن يكون صوفياً بدعوى أنه لا حاجة إلى تعلم مذهب مادامت العناية الإلهية تنير كل قلب طاهر بمعرفة الحقيقة، وبدعاوي أخرى لا قيمة لها كذلك.

لهذا أعرض الصوفية عن جميع أوامر الدين، سواء منها المستحبة والواجبة، ولم يعودوا يتقيدون من الشعائر إلاّ[60] بما يمارسه العلماء، بل راحوا بعكس ذلك يتمتعون بكل الملذات التي تعتبر مباحة في مذهبهم. وهكذا يقيمون مآدب كثيرة ينشدون فيها أناشيد غرامية ويرقصون رقصاً طويلاً. ويحدث أحياناً في هذه اللقاءات أن يمزق أحد الحاضرين ثيابه تأثراً بما ينشده المنشدون أو بسبب الأفكار الطائشة التي قد تخطر ببال أناس فقدوا كل اتزان. ويقول هؤلاء القوم حينئذ انهم مكتوون بلهب الحب الإلهي، وما أظن شخصياً إلا أنهم مكتوون بالإسراف في الطعام، لأن الواحد منهم يأكل ثلاثة أضعاف ما يكفي لشخص واحد: أو أنهم على ما يبدو لي أكثر احتمالاً، عندما يطلقون تلك الصرخات المصحوبة بالآهات، إنما يفعلون ذلك من أجل الهوى الذي يكنون لبعض الغلمان المرد. وليس من النادر أن يدعو بعض الأعيان إلى أعراسهم أحد الشيوخ البارزين لهؤلاء المتصوفة مع جميع مريديه. فإذا أتوا الوليمة بدؤوا بتلاوة الأذكار وترتيل الأناشيد، وبعد تناول الطعام يأخذ المسنون منهم في تمزيق ثيابهم، وإذا سقط أحدهم

---

(60) هكذا بالترجمة الفرنسية، ولا يستقيم معنى هذه الجملة مع ما بعدها إلا بحذف أداة الاستثناء.

أثناء الرقص أوقفه حالاً على رجليه أحد الشبان المتصوفين فقبله العجوز في الغالب قبلة شهوانية. ومن ثم جاء المثل السائر على جميع الألسنة بفاس: «مثل مأدبة النساك التي حولتنا من عشرين إلى عشرة». ومعنى ذلك أن كل مريد حدث يعرف ما ينتظره ليلاً بعد الرقص.

ويسمى هؤلاء الصوفيون نساكاً، لأنهم لا يتزوجون ولا يعملون ولا يمارسون أية مهنة، بل يعيشون كما اتفق، وفي شرح **مقامات الحريري** الكثير من خصائص هذا الموضوع، ليس من اللائق ذكرها هنا لأسباب عديدة.

قواعد وفرق أخرى مختلفة
سذاجة الجمهور وخرافيته

هناك من بين هذه الفرق ما تعتبر قواعده بدعا عند الفقهاء والمتصوفة، لأنها تختلف عن غيرها، لا من حيث وجهة نظر الشريعة الدينية فحسب، ولكن من حيث العقيدة أيضاً.

فمن الناس من يعتقدون اعتقاداً جازماً أن بإمكان الإنسان أن يكتسب طبيعة الملائكة بالأعمال الصالحة والصيام والورع، ويزعمون أنهم يطهرون الروح والقلب لدرجة تمنعهم من اقتراف الذنوب، حتى ولو أرادوا ذلك. ولكن للوصول إلى تلك الغاية يجب سلوك خمسين درجة في طريق القوم، ويغفر الله لهم ما تقدم من ذنوبهم. يبدأ هؤلاء القوم بصيام عجيب يستحيل عد أيامه، ثم ينغمسون في كل ملذات الحياة متبعين قاعدة صارمة شرحها مؤلف عالم لامع اسمه السهروردي[61]، من سهرورد إحدى مدن خراسان، ويقع كتابه في أربعة أجزاء. وهناك مؤلف آخر يدعى ابن

---

(61) هو عبد القادر بن عبد الله السهروردي الصوفي الشهير، مؤلف كتاب آداب المريدين. توفي عام 562 هـ.

الفارض[62] شرح هذا المذهب كله في قصائد رائقة، لكنها مليئة بالألغاز، حتى ليظن أنها لا تتحدث إلا عن الحب. وقد شرحها الفرغاني[63] واستخرج منها القاعدة التي يجب اتباعها مشيراً إلى الدرجات التي ينبغي اجتيازها. وقصائد ابن الفارض رائقة إلى حد أن مريدي الطرق الصوفية لا ينشدون غيرها في حفلاتهم. ومنذ ثلثمائة سنة لم تستعمل لغة أكثر صفاء من التي استعملها ابن الفارض.

ويؤمن أصحاب هذه المعتقدات بأن الأفلاك العلوية والسماوات والعناصر والكواكب السيارة وسائر النجوم إله واحد، وأن أية عقيدة أو شريعة دينية لا يمكن أن تكون على ضلال، لأن جميع الخلق في نفوسهم على فطرة تحملهم على عبادة من يستحق أن يعبد ويعتقدون أن معرفة الله تعالى تتركز في شخص واحد يسمونه القطب، اختاره الله فشاركه ماهية وشبهه معرفة. ويميزون من بينهم أربعين رجلاً آخرين يدعونهم أوتاداً، وهم أحط من القطب درجة وأقل منه معرفة. وعندما يموت القطب يعين هؤلاء الأربعون قطباً آخر يختارونه من بين سبعين رجلاً. وهناك أيضاً سبعمائة وخمسة وستون من ذوي المقامات لم أعد أذكر ألقابهم، غير أنه إذا مات أحد الرجال السبعين خلفه واحد من هؤلاء. وتقضي قاعدة هذه الطريق أن يسيح كل واحد من هؤلاء القوم في الأرض متستراً عن الناس متظاهراً بأنه مجنون أو عاص مغرق في الآثام أو قرنان. وبهذه الدعوى يهيم الكثير من الدجالين على وجوههم في افريقيا عراة مكشوفي العورة، وهم على درجة منحطة من عدم الاعتدال والاحترام الانساني بحيث يضاجعون النساء أحياناً في الساحات العمومية كما تفعل البهائم. ومع هذا يعتبرهم

---

(62) عمر ابن الفارض الحموي ثم المصري المتوفى عام 632 هـ. أشعر المتصوفين، وسلطان العاشقين. له ديوان شعر مطبوع، جمعه سبطه علي، وشرحه كثيرون متأخرون عن عصر الحسن الوزان.

(63) هو سعد الدين محمد بن أحمد الفرغاني المتوفى في حدود عام 700 هـ. إلا أن المعروف أنه لم يشرح ديوان ابن الفارض كله، وإنما شرح تائيته الشهيرة.

العامة من أولياء الله الصالحين. ويوجد هؤلاء الأنذال بكثرة في تونس، وينتشرون أكثر من ذلك في مصر ولا سيما في القاهرة. ولقد شاهدت بعيني رأسي في ساحة بين القصرين بالقاهرة أحد هؤلاء الأشخاص يستحوذ على امرأة شابة في غاية الجمال كانت قد خرجت من الحمام، فأضجعها في وسط الساحة وواقعها. ولم يكد يقوم عنها حتى أسرع الناس إليها يتمسحون بثيابها وكأنها أداة نسك وعبادة لما لامسها رجل صالح، ويسر الناس بعضهم إلى بعض بأن الصالح إنما تظاهر بمضاجعتها ولكنه لم يقع شيء من ذلك. ولما بلغ الخبر إلى الزوج اعتبره نعمة عظيمة، وحمد الله على ذلك وأقام وليمة وأفراحاً كثيرة على ما أصابه من خير. ولقد هم القضاة والفقهاء بمعاقبة هذا الدنيء بكل الوسائل، لكن العامة كادت أن تفتك بهم، لأنه، كما قلت سابقاً، يتمتع كل واحد من هؤلاء القوم بإجلال كبير عند الجمهور، وينال منه هبات وهدايا ثمينة جداً.

ولقد رأيت أشياء أخرى عديدة من هذا القبيل أستحي من ذكرها.

أصحاب أسرار الحروف، وطوائف أخرى

وهناك مذهب آخر يتبعه بعض من يمكن تسميتهم بأصحاب أسرار الحروف، وهم قوم يصومون صوماً غريباً ولا يأكلون لحم أي حيوان. يتناولون أطعمة خاصة ويلبسون ألبسة متميزة في كل ساعة من ساعات النهار والليل، ويدعون دعوات معينة بحسب الأيام والشهور مبنية على ترتيب عددي. ومن عادتهم أن يحملوا معهم تمائم ملونة نقشت بداخلها حروف وأرقام، يزعمون أنهم بعد ذلك تتجلى لهم أرواح مساعدة تخاطبهم وتمدهم بمعرفة شمولية لأمور هذا الكون. وقد كان من بين هؤلاء المشتغلين بأسرار الحروف فقيه ممتاز يدعى البوني[64] الذي وضع

---

(64) هو أحمد بن علي البوني المغربي المتوفى بالقاهرة عام 622 هـ. من أشهر تآليفه غير ما ذكره الحسن الوزان: **مفاتيح أسرار الحروف، ومصابيح أنوار الظروف؛ وإظهار الرموز، وإبداء الكنوز.**

قواعدهم. وحدد أدعيتهم، وبين طريقة تركيب تمائمهم. وقد قرأت كتبه، وأظن أن هذا العلم أقرب إلى السحر من أسرار الحروف. وأشهر كتب هذا الفن ثمانية، أكثرها انتشاراً **اللمعة النورانية** للبوني، يبين أنواع الصلاة والصيام، وكتاب آخر يدعى **شمس المعارف**، يشرح فيه طريقة صنع التمائم والفائدة التي تجنى منها. ويسمى الكتاب الثالث **سر الأسماء الحسنى**، يعني سر أسماء الله التسعة والتسعين. وقد رأيت هذا الكتاب بروما بين يدي أحد يهود البندقية.

ويوجد في هذه الطائفة نموذج آخر يدعى طريقة السواح يتبعها بعض النساك الذين يعيشون في عزلة، ولا يقتاتون غير الأعشاب والفواكة البرية ولا يعرف أحد العيشة التي يعيشونها بالضبط لأنهم يعزفون عن كل علاقة بشرية. وسأبتعد كثيراً عن الهدف الذي رسمته لكتابي هذا لو أردت متابعة دراسة مختلف الفرق الاسلامية بتفصيل. وعلى من أراد المزيد من الاطلاع أن يقرأ كتاب الأكفاني[65] الذي يتعرض بإسهاب لمختلف الفرق المنبثقة عن الديانة الاسلامية، وعددها اثنتان وسبعون فرقة، تدعي كل واحدة منها أن مبادئها هي المثلى التي تضمن لمتبعها النجاة.

والواقع أنه لا يوجد في عصرنا الحاضر غير مذهبين لهذه الديانة، أحدهما مذهب الأشعري المنتشر في كل افريقيا ومصر والشام والجزيرة العربية وتركيا كلها، والثاني مذهب الامامية المنتشر في جميع بلاد فارس وبعض مدن خراسان، وهو الذي يتبعه (الملك) الصوفي[66]. وقد تسبب هذا المذهب في تخريب آسيا كلها تقريباً، إذ كان سكان تلك الأقطار قبل

---

(65) لعله يقصد هبة الله الأكفاني الدمشقي المتوفى عام 524 هـ. وهو محدث مؤرخ، وربما كان ذلك في كتابه **جامع الوفيات**.

(66) الملك الصوفي هو لقب الشاه اسماعيل بن حيدر مؤسس الدولة الصفوية في ايران (905-930) ومدخل المذهب الشيعي إلى تلك البلاد بالقوة.

ذلك على مذهب الأشعري، فأراد ملك الفرس مراراً عديدة حملهم على مذهبه (الشيعي) بالقوة.

وليس في الحقيقة هناك غير مذهب واحد في الامبراطورية الاسلامية كلها.

الباحثون عن الكنوز

يوجد بفاس أيضاً رجال يدعون الكنزيين، يبحثون عن الكنوز المدفونة في أسس الأبنية الأثرية القديمة. يذهب هؤلاء الحمقى إلى خارج المدينة منقبين في عدد من الكهوف والأطلال لعلهم يجدون فيها هذه الكنوز، لأنهم مقتنعون تماماً بأن الرومان عندما أخذت منهم امبراطورية افريقيا وفروا إلى بلاد بيتيك في اسبانيا، دفنوا في ضواحي فاس عدداً وافراً من الأشياء الثمينة النفيسة التي لم يتمكنوا من أخذها معهم، وسحروها. ولذلك يبحث هؤلاء الكنزيون عن سحرة يكتشفون لهم تلك الكنوز. ولا يخلو الأمر من أناس يزعمون أنهم رأوا في سرداب ذهباً أو فضة لم يستطيعوا أخذه لكونهم لا يعرفون التعزيم اللازم، ولم يكن لديهم البخور الملائم. وبناء على هذا الاعتقاد الباطل ينبش الكنزيون الأرض ويتلفون الأبنية والأضرحة في أغلب الأحيان، وقد ينتقلون لمسافة عشرة أيام أو اثني عشر يوماً من فاس، وبلغ بهم الحال ان أصبحت لديهم كتب تذكر فيها الجبال والمواقع التي دفنت فيها كنوز كثيرة، ويحتفظون بهذه الوثائق وكأنها وحي إلهي.

وقبل خروجي من فاس، أقام هؤلاء الكنزيون لحماقتهم أميناً لهم، وعرضوا على أصحاب الأراضي أن يصلحوا لهم الضرر الناجم عن جميع الحفريات التي يرغبون في القيام بها.

الكيميائيون

لا تظنوا أن عدد الكيميائيين قليل! بل بالعكس، فإن عدد الذين يتعاطون دراسة هذا الفن الجنوني التافه كثير جداً. وهم أكثر الناس قذارة وأنتنهم رائحة بسبب الكبريت وغيره من المواد الكريهة الرائحة التي يعالجونها بأيديهم. يجتمعون مساء كل يوم تقريباً في الجامع الكبير، ويتناقشون في الكشوفات المزعومة. ولهم في هذا الفن كتب عديدة وضعها مؤلفون ممتازون، أهمها كتاب جابر[67] الذي عاش بعد وفاة محمد (عليه السلام) بمائة سنة، وهو على ما قيل يوناني اعتنق الإسلام، وكتابه كله رموز حتى الوصفات التي يقدمها. وهناك مؤلف آخر يدعى الطغرائي[68] الذي عمل كاتباً لأحد سلاطين بغداد، وقد تحدثنا عنه أكثر في **حياة الفلاسفة العرب**[69] وقد ألف في الكيمياء أيضاً شيخ يدعى المغيربي[70] من أصل أندلسي، في شكل قصائد مطولة تشتمل على جميع تفاصيل هذا الفن، شرحها مملوك دمشقي بارع جداً في هذا الفن، لكن الشرح أصعب فهمًا من النص.

---

(67) جابر بن حيان الكوفي المعروف بالصوفي، فيلسوف كيميائي، ألف كتباً كثيرة بلغ عددها على ما قيل 500، ترجم بعضها إلى اللاتينية، وطبع عدد منها بالعربية، مثل **أسرار الكيمياء** و**أصول الكيمياء**. توفي بطوس عام 200 هـ.

(68) مؤيد الدين الحسين بن علي الطغرائي الشهير بقصيدته **لامية العجم**. وزر للسلطان مسعود السلجوقي صاحب الموصل، وقتل في فتنة عام 513. ألف كتباً عديدة في الكيمياء، منها **جامع الأسرار**، و**حقائق الاستشهاد**.

(69) يظهر أن هذا العرض كان معداً ليكون جزءاً من كتاب شامل للمؤلف، إلا أنه وصلنا مستقلاً في نصه اللاتيني، ويترجم لثلاثين شخصية من بينهم الطغرائي.

(70) ذكره ابن خلدون في الفصل الثلاثين من الباب 6 من الكتاب الأول الخاص بعلم الكيمياء من **المقدمة** (ص 977 من طبعة بيروت) فقال: «ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجيء في الشعر، ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة. فلا تكاد تفهم». ولا ندري إن كان هو علي بن عبد العزيز الشهير بابن المغربي المتوفى ببغداد عام 684 هـ.

والكيميائيون صنفان، بعضهم يتابعون البحث عن الإكسير، أي المادة التي تعطي صبغتها لكل معدن أو ركاز، وبعضهم يشتغلون بتجارب لاكثار عدد المعادن بواسطة السبائك. ولكنني لاحظت أن الغرض الذي يجري وراءه هؤلاء القوم كثيراً ما يؤدي بهم إلى تزييف العملة، ولذلك فإن أكثر الموجودين منهم بفاس تنقصهم يد (قطعت قصاصاً).

المشعوذون وآسرو الحيات

وأخيراً يوجد بفاس العديد من هؤلاء السوقة الذين لا خير فيهم ممن يدعون في ايطاليا «تشيور ماطوري» أو المشعوذين. وهم أناس لا قيمة لهم، ينشدون في الساحات قصائد وأغنيات وترهات أخرى لاعبين بالدف والرباب والقيثار وغيرها من الآلات، ويبيعون للأغمار أوراقاً صغيرة كتبت عليها كلمات وعبارات ناجعة في زعمهم للشفاء من كل داء.

يضاف إلى هؤلاء المشعوذين صنف آخر من أحط أصناف البشر، وكلهم من فصيلة واحدة، يجوبون المدينة وهم يرقصون القردة ويحملون الأفاعي في أيديهم وحول أعناقهم، يقومون أيضاً بأشكال من خط الرمل ويخبرون النساء بما سيكون في المستقبل، كما يصحبون معهم بعض فحول الخيل لنزو ما يساق إليهم من الحجور في مقابل أجر.

ويمكنني الآن أن أتابع هذا العرض المفصل لخصائص أهل فاس، إلا أنني أكتفي بأن أقول ان أكثرهم بغيضون لا يحبون الغرباء، مع أن عدد الغرباء قليل بفاس، لأنها تقع على بعد مائة ميل من البحر المتوسط، والطريق بينهما رديئة يعسر سلوكها على الغرباء. وأضيف إلى ذلك أن الأعيان متكبرون جداً لدرجة أن عدداً قليلاً من الناس يستطيعون معاشرتهم. ويصدق نفس الشيء على العلماء والقضاة الذين يأبون حفاظاً على سمعتهم أن يتعاملوا إلا مع بعض الأشخاص فقط.

وخلاصة القول انه مهما كان الأمر فإن فاساً مدينة جميلة مريحة جيدة التنسيق. ويكثر الوحل بفاس خلال فصل الشتاء، بحيث يضطر الناس إلى لبس القباقب المستعملة في البلاد للمرور في الأزقة، مع أنه توجد فوق قنوات الماء أنابيب تمكن من غسل كل الأزقة. وحيث لا توجد قنوات يجمع الوحل ويحمل على الحمير ثم يرمى به في النهر.

أرباض المدينة

يقوم في خارج فاس من جهة الغرب ربض يضم نحو خمسمائة كانون، لكن دوره كلها قبيحة. وهنالك يقطن فقراء القوم كسائقي الجمال والسقائين وحطابي القصر الملكي، إلا أنه توجد به دكاكين عديدة وكل فئات الصناع. كما يقطن فيه جميع المشعوذين والموسيقيين من الدرجة السفلى، وتكثر فيه البغايا، وهن قبيحات خسيسات.

يشاهد في الزقاق الرئيسي لهذا الربض عدد من الحفر المنحوتة بالأزميل، لأن أرضه من الصخر الكلسي، كانت تخزن فيها حبوب أعيان فاس في القديم. ولم يكونوا يسكنون في الربض آنذاك، وإنما كان لهم به حراس يحفظون حبوبهم. ومنذ أن بدأت الحروب وأخذ العدو يستولي على الحبوب، بنيت مخازن بفاس الجديد وأهملت المخازن التي كانت خارج البلد. بعض هذه المخازن في غاية الكبر يسع أصغرها ألف «رودجي» من الحبوب. وتوجد مائة وخمسون مطمورة، كلها مفتوحة الآن. وبما أنه يحدث أحياناً أن يقع بعض الأشخاص في هذه الحفر، فقد أحيطت فوهاتها بجدار صغير. وإذا أراد حاكم فاس أن ينفذ حكم الإعدام على أحد بطريقة سرية أمر بقذفه في هذه المطامير؛ وفي القصبة (السلطانية) باب خاص بهذا الغرض يفضي إلى هذا المكان. وتقوم في هذا الربض قاعات اللعب، إلا أنهم لا يلعبون فيها غير النرد. وهناك أيضاً يمكن بيع الخمر واتخاذ حانة أو ماخور، بحيث يمكن القول ان هذا الربض هو ظرف لجميع أقذار

المدينة، ولا يرى به أحد في الدكاكين بعد الساعة الثامنة مساء[71].

وهناك ربض آخر يسكنه المجذومون يحتوي على مائتي دار تقريباً، ولهم رئيسهم الديني الذي يجمع دخل الأملاك العديدة الموقوفة عليهم لوجه الله من طرف الأعيان وغيرهم من المحسنين. ويقدم إلى هؤلاء المرضى كل ما هو ضروري لهم بحيث لا يحتاجون إلى شيء، ويقوم رؤساؤهم بتخليص المدينة من كل مجذوم، ولهم السلطة لإخراج كل من رأوه مصاباً بهذا الداء من فاس وإسكانه بهذا الربض. وإذا هلك مجذوم ولم يترك وارثاً آل نصف تركته إلى جماعة الربض، والنصف الآخر للشخص الذي دل عليه. وإذا كان للهالك المجذوم أبناء اختصوا بتركة أبيهم. واعلم أنه يعد من المجذومين البرصان الذين تظهر على أجسامهم بقع بيض وغيرهم من ذوي الأمراض المزمنة[72].

ويوجد بعيداً عن هذا المكان ربض آخر[73] يسكنه العديد من البغالين والخزفيين والبنائين والحطابين، وهو صغير يضم نحو مائة وخمسين كانوناً.

وهناك أيضاً ربض آخر كبير[74] على الطريق الواقع إلى الغرب من فاس، يضم نحو أربعمائة كانون، إلا أنه ليس فيه غير أكواخ يقيم بها الفقراء والفلاحون الذين لا يريدون البقاء في البادية أو لا يستطيعون ذلك.

---

(71) كان هذا الربض ــ حسب مرمول ــ يحمل اسم المرس، أي أرض المطامير.

(72) عبر مرمول عن هذا الربض بالمارستان. ويسمى في الاصطلاح المغربي: الحارة، أي حارة المجذومين.

(73) سماه مرمول: الكيفان، أي الكهوف، وبين أن الفقراء يسكنون هناك فعلاً في الكهوف. وما زالت تلك الكهوف معروفة حتى اليوم غربي قبور المرينيين بظاهر فاس.

(74) سماه مرمول سوق الخميس، وحدد موقعه في غرب الربض السابق، على طريق مكناس والقصر الكبير.

ويقع بالقرب من هذا الربض سهل كبير يمتد منه إلى النهر على مسافة نحو ميلين، كما يمتد في اتجاه الغرب على طول ثلاثة أميال، ويقام فيه كل يوم خميس سوق يحج إليه الناس بكثرة سائقين ماشيتهم، ويحمل إليه التجار بضائع مجلوبة من الخارج، فينصب كل واحد منهم خيمته. وتقضي العادة أن يجتمع الأعيان فيه جماعات صغيرة، ويعهدوا لجزار بذبح خروف يقتسمون لحمه تاركين الرأس والأكارع للجزار أجراً له، ويبيعون الجلد لتاجر الصوف. ولا يدفعون إلا ضريبة يسيرة عن البضائع التي تباع بهذا السوق لا حاجة إلى تفصيلها. غير أن الشيء الذي لا أريد أن أغفله هو أنني لم أر في أي مكان آخر، سواء في افريقيا كلها أو آسيا أو ايطاليا سوقاً توجد فيه بضائع بهذا القدر، وذلك شيء يستحيل تقديره.

وفي ظاهر المدينة صخور عالية محيطة بخندق طوله ميلان، يستخرج منه الحجر الذي يصنع منه الجير. وفي الخندق أفران كبيرة يسع بعضها ستة آلاف مد من الجير. ويضطلع بهذا العمل أعيان متواضعون.

وفي ظاهر المدينة أيضاً إلى جهة الغرب يقع نحو مائة كوخ على ضفاف النهر يسكنها القصارون، وتجري عملية غسل الثياب بالطريقة التالية: في فصل الربيع من كل سنة يعمد كل قصار إلى كتانه فيبلله ثم ينشره في مرج مجاور لكوخه، فإذا رأى أنه قد جف، أخذ يستقي من ماء النهر أو السواقي بدلو من جلد له قبضة من خشب ويرش القماس. وفي المساء يجمع كل قصار أقمشته ويحملها إلى بيته أو إلى مكان معد لذلك، وهكذا تحتفظ المروج التي تنشر عليها الأقمشة بغطائها الأخضر الغض طول السنة. ويبهج العين من بعيد منظر بياض تلك الأقمشة على خضرة المروج، بينما يبدو ماء النهر الصافي أزرق بلون السماء، وقد وصف الشعراء ذلك بقصائد رائعة.

مقابر خارج المدينة

يوجد بظاهر فاس ساحات كثيرة معدة لدفن الموتى، وهبها بعض المحسنين ابتغاء مرضاة الله لتكون مقابر. يوضع على جثة الميت، أو بالأحرى على المكان الذي يرقد فيه حجر طويل رقيق ذو ظهر مثلث الشكل. أما الاشراف وذوو الحيثيات، فتقضي العادة أن توضع على قبورهم لوحة من رخام عند الرأس وأخرى عند القدمين، تنقش عليهما أبيات شعرية تسلي عن هذا الانتقال الصعب المرير من الحياة إلى الممات، ويذكر تحتها اسم الهالك وأسلافه ويوم الوفاة وسنتها. وقد عنيت كثيراً بنسخ كل كتابات القبور التي رأيتها، لا في فاس وحدها، ولكن في كل بلاد البربر، وجمعتها في مجلد صغير أهديته إلى أخي الملك الحالي عندما توفي والدهما الملك الشيخ[75]. ومن بين هذه الأبيات كلها ما من شأنه أن يقوي عزائم الناس ويسليهم عن حزنهم، وبعضها بعكس ذلك يزيد في الكآبة والحسرة، لكن لابد من التذرع بالصبر لتحمل هذه وتلك.

مقابر الملوك

يشاهد في خارج فاس أيضاً إلى جهة الشمال قصر فوق تل مرتفع، وهناك توجد أضرحة بعض ملوك بني مرين، وهي في غاية الزينة، شواهدها من مرمر مزخرف بنقوش ومنمق بألوان زاهية، حتى إن هذه الأضرحة لتملأ نفوس المتأملين فيها بالإعجاب[76].

---

(75) توفي محمد الشيخ الوطاسي عام 910/1504، وولي الملك بعده ابنه محمد البرتغالي إلى عام 931/1525. أما الأخ الذي أهدى إليه المؤلف كتابه فلعله أبو حسون الوطاسي الذي سيخلف أخاه بعد وفاته.

(76) ما تزال أطلال قبور بني مرين ماثلة فيما يسميه أهل فاس «القلة» أي قمة «كدية بني مرين».

حدائق وبساتين

تقوم في شمالي فاس وشرقيها وجنوبيها حدائق في غاية الجمال، مليئة بالأشجار المثمرة المختلفة الأصناف. وتشق هذه الحدائق فروع صغيرة من النهر، والأشجار فيها كثيرة حتى ليخيل للناظر إليها من بعيد أنها غابة. أرضها غير محروثة، ومع ذلك تسقى في شهر مايو فتنتج الثمار بوفرة. هذه الثمار جيدة جداً، إلا الخوخ فإن طعمه غير لذيذ. ويقدر ما يباع يومياً في الموسم من الفواكه بخمسمائة حمل، عدا العنب الذي لم أدخله في هذا العدد. وتنقل جميع أحمال هذه الفواكه إلى مكان معين في المدينة، فتؤدى عنها الضريبة وتباع بالمزاد لتجار الثمار الذين يأتون لشرائها. ويباع في نفس هذا السوق العبيد السود، وتؤدي الضريبة عمن يباع منهم.

وتقع في غربي فاس أرض (زواغة) عرضها نحو خمسة عشر ميلاً وطولها نحو ثلاثين ميلاً، تكثر فيها العيون والجداول وتعد من أملاك الجامع الكبير (القرويين). يكتري هذه الأرض بستانيون يزرعون فيها كمية وافرة من الكتان والبطيخ والقرع والخيار والجزر واللفت والكرمب والخس وغيرها من الخضر، حتى إنه ليقدر ما تنتجه هذه الأرض من غلات بخمسة عشر ألف حمل في الصيف، ومثل هذا العدد في الشتاء. غير أن هواء هذه الناحية وخيم، ومعظم سكانها صفر الوجوه، يعانون من حميات شديدة يموت بسببها عدد كثير منهم.

فاس الجديد

يحيط بفاس الجديد من جميع الجهات سوران في غاية الجمال والعلو والمتانة. وقد شيدت هذه المدينة في سهل جميل بجوار النهر، على بعد نحو ميل غربي المدينة القديمة بانحراف يسير نحو الجنوب. يمر بين السورين شعبة من النهر تتجه نحو الشمال وتقع عليها الطواحين. وتنقسم شعبة النهر الأخرى إلى فرعين، يمر أحدهما بين المدينة القديمة وفاس الجديد قريباً

من القصبة، ويتابع الآخر مجراه في الشعب بين الحدائق المجاورة للمدينة القديمة حتى ينفذ إليها من جهة الجنوب. وتمر شعبة النهر الداخلة إلى القصبة بمدرسة أبي عنان.

مؤسس فاس الجديد هو يعقوب بن عبد الحق أول ملوك بني مرين (عام 1276/674)، وكان ملك تلمسان قد تسبب له في كثير من المشاكل سواء بمد يد المعونة لملوك مراكش، أو بالعمل على منع امتداد النفوذ المريني. ولما فرغ يعقوب من حرب مراكش راودته الرغبة في الانتقام من ملك تلمسان، وعزم على محاربته، فوجد أن معاقل مملكته نائية جداً عن تلمسان، وصمم على تشييد هذه المدينة الجديدة وجعلها حاضرة لملكه بدلاً من مراكش العاصمة آنذاك، فتم له ذلك وأطلق على المدينة اسم المدينة البيضاء، إلا أن السكان سموها منذ ذلك الحين فاس الجديد.

أمر الملك بتقسيم هذه المدينة إلى ثلاثة أقسام منفصلة، الأول للقصور المخصصة للملك وأبنائه واخوته، وأراد يعقوب أن يكون لكل هذه القصور بساتينها الخاصة، وبنى بالقرب من قصره جامعاً في غاية الجمال، حسن الزخرف عجيب الهندسة، وأمر أن تبنى في القسم الثاني اصطبلات كبيرة للخيول التي كان يمتطيها بين الباب الغربي والباب المتجه نحو الشرق، ويقارب طول هذا الشارع بقليل ميلاً ونصف ميل[77]، وفيه دكاكين مختلف أصناف التجار والصناع. وبنى بجوار الباب الغربي عند السور الثاني رواقاً كبيراً جداً وحجرات صغيرة عديدة تكون مقراً دائماً لحارس المدينة مع جنوده ومستخدميه، وأراد أن يُبنى بالقرب من هذا الرواق اصطبلان متناهيان في الكبر يسعان بسهولة ثلاثمائة فرس لحراس قصره.

---

(77) بل نصف ميل فقط.

أما القسم الثالث من المدينة فقد أعد لسكنى الحرس الخاص بالملك، وكان يومئذ مؤلفاً من بعض المشارقة (الأتراك) المسلحين بالقسي. لأن استعمال قاذفات (البارود) لم يشع بعد في البلاد، وكانوا يتقاضون مرتباً عالياً من الملك. ويوجد الآن في هذا المكان عدد من الجوامع، وحمامات جميلة جداً كلف تشييدها نفقات باهظة.

ويوجد بقرب القصر الملكي معمل ضرب النقود المسمى (دار السكة. ويتركب من بناية تحيط بساحة مربعة، تشتمل على حجرات صغيرة يشتغل فيها العمال المعلمون، وفي وسط الساحة مكتب يعمل فيه مدير السكة مع محاسبيه وكتبته، لأن السكة في فاس وغيرها مؤسسة تعمل لصالح الملك الذي يختص بفوائدها.

ويقع بقرب دار السكة سوق فيه دكاكين الصاغة، وأمينهم هو الذي يحتفظ بقالب المعادن وأختام النقود، فلا يمكن أن يصنع بفاس خاتم أو أي شيء من الفضة والذهب إذا لم يكن المعدن مختوماً بقالبه. ومن حاول بيع شيء غير مختوم عرض نفسه لخسارة كبرى، الا أن كل شيء مختوم يباع بالسعر العادي ويمكن استعماله للأدوات مثل العملة. ومعظم الصاغة من اليهود الذين ينجزون أعمالهم بفاس الجديد ثم يحملونها إلى المدينة القديمة لبيعها في سوق معد لهم قرب سوق العطارين. ولا يمكن صياغة الذهب ولا الفضة في المدينة القديمة، كما لا يمكن لأي مسلم أن يمارس مهنة صائغ، إذ يقال ان بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساويه وزنها يعتبر ربا؛ ولكن الملوك يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل. ويوجد مع ذلك في المدينة القديمة بعض الصاغة الذين يصنعون الحلي لأهل المدينة فقط، ولا يربحون إلا مقدار أجر عملهم.

ويشغل اليهود في أيامنا هذه جزء المدينة الذي كان مقاماً قديماً لحرس الرماة. وكانت مساكن اليهود قبل ذلك في المدينة القديمة، فكان المسلمون

ينهبون أمتعتهم كلما مات ملك، فلما ولي الملك أبو سعيد[78] نقلهم من المدينة القديمة إلى المدينة الجديدة بعد أن ضاعف عليهم الجزية، وبها يقيمون اليوم، ويشغلون شارعاً طويلاً وعريضاً جداً، فيه دكاكينهم ومعابدهم. وقد تكاثر السكان اليهود حتى إنه لم يعد بالامكان معرفة عددهم، لا سيما بعد أن طردهم ملوك اسبانيا، وهم محتقرون من طرف الجميع، لا يحق لأي واحد منهم أن ينتعل أحذية، وانما يلبسون نعالاً من قش، ويتعممون بعمائم سود. ومن أراد منهم أن يضع قلنسوة فعليه أن يخيط عليها قطعة من ثوب أحمر. وتبلغ الجزية المضروبة على يهود فاس أربعمائة مثقال في الشهر تؤدى للخزينة الملكية.

وأخيراً فإن فاساً الجديد تزود خلال مائة وأربعين سنة[79] بأسوار متينة وقصور وجوامع ومدارس، وبجميع التحسينات التي يمكن أن تنالها مدينة ما. وأظن أنه أنفق على هذه التجميلات أكثر مما كلفه بناء الأسوار المحيطة بها.

وقد أقيم على النهر بظاهر المدينة نواعير كبيرة جداً تنقل الماء منه إلى أعلى سور أعدت فيه قنوات تحمل الماء إلى القصور والبساتين والجوامع. وقد صنعت هذه النواعير في عصرنا أي منذ نحو مائة سنة، إذ كان الماء قبل ذلك يصل إلى المدينة بواسطة قناة تنطلق من مسافة عشرة أميال[80]، وكانت القناة تمر على أقواس متقنة البناء، يقال انها بنيت حسب تصميمات معلم جنوي، كان تاجراً مقرباً كثيراً إلى الملك في ذلك العهد. وصنع النواعير اسباني، وهي والله شيء عجيب، لا سيما تلك الخاصية المتمثلة في

---

(78) أبو سعيد عثمان المريني ولي الملك من عام 800 إلى 823هـ.

(79) ظن المعلق في الترجمة الفرنسية أن المؤلف أخطأ بذكر 140 سنة، وصححه في الهامش بـ240 سنة اعتباراً للمدة الفاصلة بين تاريخ تأسيس فاس الجديد وعصر الحسن الوزان. وليس الأمر كذلك، لأن القرن التاسع هـ كان عصر فراغ بالنسبة للعمران.

(80) يعني عين عمير الواقعة جنوبي فاس.

أنه مهما كانت قوة تيار الماء فانها لا تدور أكثر من أربع وعشرين دورة في اليوم والليلة.

بقي أن أقول انه لا يسكن في فاس الجديد إلا قليل من الأعيان، بقطع النظر عن أقارب الملك وبعض أفراد حاشيته. وباقي السكان من الرعاع الذين يحترفون الحرف الوضيعة، ذلك أن ذوي السمعة الطيبة والمنزلة الرفيعة يأنفون من العمل في البلاط ولا يرضون حتى بتزويج بناتهم لرجال الحاشية.

الحياة العادية في بلاط ملك فاس

لا يوجد من بين كافة ملوك افريقيا من ولي الملك أو الامارة بانتخاب من الشعب، أو باستدعائه لذلك من اقليم أو مدينة. ولا يستطيع أي حاكم زمني ـ باستثناء الخليفة ـ أن يدعي المشروعية طبقاً للشريعة الإسلامية. لكن بعد أن ضعفت سلطة الخلفاء، أخذ جميع رؤساء القبائل الذين كانوا يعيشون في الصحاري يهاجمون البلاد المأهولة، ثم فرض مختلف الملوك سلطتهم ضداً على شريعة محمد (عليه السلام) وعلى رغم الخلفاء. ذلك ما حدث في المشرق، حيث جاء الأتراك والأكراد والتتر والغز من الشرق ونصبوا منهم ملوكاً، وكذلك بالنسبة للمغرب حيث أسس شعب زناتة مملكة، وتبعه شعب لمتونة فالموحدون فالمرينيون، ملكوا بالتعاقب. حقاً اَن لمتونة جاءت لنجدة شعوب المغرب وانتشالها من أيدي المارقين (البرغواطيين). وبذلك أصبح هؤلاء الملوك أصدقاء الشعب، لكنهم أخذوا يمارسون سلطة جبارة كما رأينا.

كل هذا يوضح كيف أن الملوك في أيامنا لم يعينوا لا بموجب وراثة حقيقية ولا بحسب انتخاب من طرف الشعب أو كبار الشخصيات أو قائد الجيش. وإنما يعمد كل أمير قبل موته إلى إرغام أهل الحل والعقد وأقوى أفراد الحاشية على مبايعة ابنه أو أخيه خلفاً له بأداء القسم على ذلك، وفي

كثير من الأحيان لا يبر هؤلاء بقسمهم، ويحدث دائماً تقريباً أن يعينوا ملكاً من يعجبهم أكثر من غيره. وهذه هي الطريقة التي يعين بها ملك فاس. وما إن يتم الاعتراف به ملكاً حتى يعين مستشاره الكبير من بين أعيان حاشيته وأكثرهم نبلاً، ويخصص له ثلث ايراد مملكته، ثم يختار كاتباً لا يقتصر عمله على الكتابة، بل يكون خازن ماله وكبير خدمه. وبعد ذلك يعين رؤساء الخيالة المكلفين بحراسة المملكة، وكثيراً ما يقيم هؤلاء في البادية مع فرسانهم. ثم ينصب في كل مدينة عاملاً يستغل ايرادها مقابل التزامه بالانفاق على عدد معين من الفرسان يكونون تحت أوامر الملك، أي على أهبة التجنيد كلما احتاج الملك إلى حشد الجيوش، ثم يعين قواداً وأمناء للقبائل التي تسكن الجبال والأعراب الخاضعين له، فالقواد يحكمون وفق الأعراف المختلفة لهذه القبائل، والأمناء يجبون الضرائب، وعليهم أن يتخذوا حساباً دقيقاً للمدفوعات العادية والغير العادية. ويسمي الملك بعد ذلك قواد الرحى الذين يدعون بلغة البلاد (البابوية) «كوسطوديس»، لكل واحد منهم قصر أو قرية أو قريتان يستمد منها مورداً لمعاشه الخاص، وليكون دائماً على استعداد لمرافقة الملك إلى الحرب. ويتعهد الملك أيضاً فرساناً خفافاً يعيشون على نفقته في الحملات العسكرية، لكنه لا يمدهم في حالة السلم بغير القمح والسمن واللحم من بيته، وهي المواد الضرورية لهم طوال السنة، مع قليل من المال. ولكن يكسوهم مرة في العام. ولا يكلف هؤلاء الفرسان بخيلهم لا في البادية ولا في الحاضرة، لأن الملك يؤدي كل ما هو ضروري. وسواس الخيل من العبيد النصارى الذين يحملون قيوداً ثقيلة في أرجلهم ويركبون جمال الأحمال عند مسيرة الجيش.

وللملك أيضاً مندوب مكلف بالجمال على الخصوص، يشرف على الرجال الذين يرعون الابل ويقسم المراعي بينهم، ويقدر عدد ما يحتاج إليه الملك من هذه الدواب وعلى كل جمال أن يكون له دائماً جملان معدان للحمل عندما يصدر إليه الأمر بذلك.

ويأتي بعد ذلك العلاف المكلف بجمع المؤن اللازمة للملك

والجيش، وصيانتها، وتوزيعها، ولديه من الخيام الكبيرة عشر أو اثنتا عشرة لخزن الأقوات، ويستبدل الجمال باستمرار لنقل التموين الضروري حتى لا يشكو الجيش. ويعمل مستخدمو المطابخ تحت امرته.

وهناك أيضاً قائد للاصطبلات يعتني بجميع خيول الملك وبغاله وجماله، ويأخذ من العلاف ما يلزمه للدواب ولجميع المستخدمين المكلفين بشؤونها؛ ومندوب للحبوب مكلف بنقل الشعير وكل ما هو ضروري لعلف الدواب، يساعده كتاب ومحاسبون لضبط حساب توزيعاته، ويقدم تقريراً بذلك لكاتب الملك.

وللملك خمسون فارساً تحت امرة قائد، مكلفون بالاشعار بالضرائب من قبل كاتب الملك وباسم الملك؛ وقائد آخر ذو مكانة متميزة هو رئيس الحرس الخاص بالملك، له صلاحية اصدار الأمر باسم الملك للموظفين المكلفين بمهمات القتل ومصادرة الأموال وتطبيق قرارات العدالة. ويستطيع أن يلقي القبض على الشخصيات المهمة ويدخلهم السجن، ويطبق العقوبات الشرعية عليهم إذا أمره الملك بذلك.

وبجانب الملك مستشار، وهو خادم وفي، يحتفظ بالخاتم الملكي، ويكتب الرسائل الضرورية ويختمها بيده بهذا الخاتم.

ويوجد رهن اشارة الملك عدد كبير من الخدم، لهم قائد خاص مكلف بتعيينهم وطردهم، وتحديد أجور مختلفة لهم بحسب أعمالهم. يحضر هذا القائد دائمًا عندما يستقبل الملك أحداً، ويقوم تقريباً مقام الحاجب.

وتحت اشراف الملك أيضاً قائد للقوافل، مهمته الاشراف على نقل الخيام التي تؤوي فرسان الملك الخفاف. ولا بد من الاشارة إلى أن أخبية الملك تحملها البغال وخيام الجنود تحملها الجمال.

وهناك فرقة حملة الاعلام، يحملونها ملفوفة أثناء السير إلا واحداً منهم يحمل علمًا منشوراً مرفوعاً في مقدمة الجيش. ويقوم جميع حملة الاعلام كرواد بالتأكد من خط السير ومشارع الأنهار ومسالك الغابات.

وللملك طبالون كثيرون مزودون بطبول من نحاس على شكل جفان كبار عريضة من أعلى ضيقة من أسفل مع جلد ممدود على أعلاها. يحمل كل طبل حصان رحل، ويعادل بثقل موازن لأنه ثقيل جداً. وخيول الطبالين أجود الخيول وأكثرها سرعة، إذ يعتبر فقدان طبل من هذه الطبول عاراً كبيراً. تدوي هذه الطبول دوياً مفزعاً، ويسمع دويها من مسافة بعيدة، فترتجف الخيول والرجال منها، وتقرع بعصب الثور.

لا يتعهد الملك النافخين في الأبواق بالنفقة، لأن أهل المدن ملزمون بتقديم عدد منهم، كلهم على نفقتهم. ويستعملون لعزف الألحان وتستعمل ألحان الأبواق عند بسط موائد الملك، وعند الهجوم في الحرب.

وهناك رئيس للتشريفات يقف دائمًا عند قدمي الملك عند ما يعقد مجلساً أو يستقبل أحداً، ليحدد للناس مجالسهم ويجعلهم ينطقون واحداً بعد آخر حسب مراتبهم وشرفهم. ويتكون معظم حشم الملك من الاماء السود، ومثل هذا العدد من الوصائف والجواري. وهناك أيضاً بعض الاماء المسيحيات، منهن اسبانيات وبرتغاليات. وكل النساء تحت اشراف الخصيان الذين هم أيضاً عبيد سود.

ان لملك فاس مملكة كبيرة، ولكن ليس له سوى دخل صغير، لا يكاد يبلغ ثلاثمائة ألف مثقال، ولا يصل إلى يده حتى خمس هذا المبلغ، لأن الباقي ينفق في الأوجه التي ذكرناها. وفضلاً عن ذلك فان نصف هذا الدخل يتكون من حب وماشية وزيت وسمن. وتجبى هذه الضرائب على وجوه شتى، ففي بعض الأماكن يؤدى عن كل مساحة أرض يمكن أن يحرثها زوج من الثيران في اليوم مثقال وربع مثقال، وفي أماكن أخرى يؤدى نفس المبلغ عن كل كانون، وفي جهات غيرها يؤدى نفس المبلغ عن رأس كل رجل جاوز الخامسة عشرة من عمره، وفي بعض الأماكن يؤدون عن هذا وذاك. وليس هناك أعباء مالية أخرى غير الضريبة التجارية التي هي مرتفعة في المدن.

واعلم أنه يحرم في الشريعة المحمدية على الأمراء أن يجبوا ضريبة غير الزكاة المفروضة. فكل من ملك مائة مثقال نقداً، وجب عليه ما دامت في ملكه أن يؤدي عنها للملك مثقالين ونصف مثقال. وكل من حصد من أرضه عشرة مكاييل (موتشيل) من الحبوب وجب عليه أن يخرج عشرها زكاة(81). وتنص الشريعة على أن هذه الزكاة تدفع للخليفة ليستعملها في حاجاته الخاصة وللصالح العام، وليستفيد منها في اغاثة المساكين والمرضى والأرامل، وفي الجهاد ضد العدو.

لكن منذ اختفاء شيوخ الاسلام، اتخذ الملوك، كما قلنا، تدابير جبرية. ولم يكفهم اغتصاب تلك الايرادات جملة وانفاقها بحسب هواهم، بل أضافوا إليها ضرائب جديدة، بحيث لا يوجد في افريقيا كلها سوى القليل من الفلاحين الذين يستطيعون توفير ما يلزمهم ضرورة من لباس وطعام. ونتج عن هذه الحال أنه لم يعد هناك رجل عالم وشريف يقبل أن يقيم علاقات عائلية مع الملوك الزمنيين، أو يأكل معهم على نفس المائدة، وبالأحرى أن يقبل منهم عطية أو هدية. وتعتبر أموال أولئك الحكام أحقر مما لو كانت أموالاً مسروقة.

ويتصرف ملك فاس أخيراً بكيفية مستمرة في ستة آلاف من الفرسان الراتبين، وخمسمائة من القذافين، وخمسمائة من حملة البنادق، كلهم راكبون في تشكيلة منتظمة دائماً، متأهبون لتنفيذ جميع الأوامر الملكية. وإذا خيم الملك بظاهر المدينة في أيام السلم خيموا على بعد ميل من معسكر الملك، وإذا كان الملك بفاس لم يحتج إلى حرسه. وإذا اقتضى الأمر تجريدهم لحرب أعدائه الأعراب، لم يكتف بفرسانه الستة الآلاف، بل استخدم الطائعين له من الأعراب كأعوان، يجمع منهم العدد الكثير على نفقتهم الخاصة. ولهؤلاء الأعراب في الحرب حنكة تفوق حنكة فرسانه بكثير.

---

(81) يخرج عشر الحبوب والثمار إن سقيت بماء المطر، ونصف العشر فقط ان سقيت بما فيه مشقة كالدلاء والآلات.

حفلات البلاط الملكي وأبهته نادرة، لا يقبل الملك اقامتها عن طيب خاطر، لكنها ضرورة يجب أن يخضع لها في الأعياد وفي مناسبات أخرى، هذا بيانها:

عند ما يرغب الملك في الركوب، يخبر رئيس التشريفات باسم الملك سعاة البريد، فينقلون الخبر إلى أهل الملك والقواد وقواد الرحى وسائر الفرسان، فيجتمعون كلهم في الساحة أمام القصر وفي الأزقة المجاورة، وعندما يخرج الملك من القصر يقوم سعاة البريد بتنظيم الموكب. يتقدم حملة الاعلام ويتبعهم أصحاب الطبول، ثم يأتي رئيس الاصطبلات مع مرؤوسيه وخواصه، فالعلاف وأصحابه، فقواد الرحى، فرئيس التشريفات، فكتاب الملك وخازن ماله والقاضي وقائد الجيش. ويأتي الملك بعد ذلك مرفوقاً بالمستشار الكبير وبعض الأمراء. يتقدم بين يدي الملك بعض القواد الراكبين على الخيل، يحمل أحدهم سيفه، والثاني ترسه، والثالث قاذفته. ويسير حول الملك خدامه المسلحون، يحمل أحدهم حربته، وآخر غطاء سرج جواده وزمامه. وعندما يترجل الملك يغطى السرج بهذا الغطاء، ويوضع الزمام فوق اللجام ليقاد الجواد باليد. ويحمل خادم آخر قباقب الملك، وهي أحذية من خشب مزدانة بتطريزات متناهية الجمال، تعد من مظاهر الأبهة والفخامة. ويجيء رئيس الخدم المسلحين وراء الملك متبوعاً بالخصيان. ويشتمل الموكب بعد ذلك على أسرة الملك يتبعها الفرسان الخفاف. ثم القذافون ورماة البنادق.

يرتدي الملك في هذه المناسبة لباساً متواضعاً لائقاً، فالذي لا يعرف الملك لا يصدق أنه هو نفسه، لأن خدامه المسلحين يرتدون لباساً أفخر من لباسه مصنوعاً من أقمشة ثمينة مزخرفة. ولا يضع أي ملك أو أمير مسلم على رأسه تاجاً أو ما يشبهه، لأن الشريعة المحمدية تمنع ذلك.

وعندما يعسكر الملك في البادية، يشرع في اقامة سور الفسطاط الملكي وسط المعسكر، وهو سور من كتان على صورة أسوار قصر بشرفاته،

مربع الشكل، طول كل جهة خمسون ذراعاً. يقام في كل زاوية برج صغير بشرفاته وسقفه، ويعلو سقف كل برج كرة جميلة تبدو كأنها من ذهب. وفي السور أربعة أبواب، يقف عند كل واحد منها حرس من الخصيان. تضرب الأخبية داخل السور، وقد صنع الخباء الذي ينام فيه الملك بكيفية تجعل نصبه وطيه سهلاً يسيراً. وتقام حول السور خيام القواد ويقرب رجال الحاشية إلى الملك، وتضرب حولها عادة خيام قواد الرحى المصنوعة من جلود الماعز كخيام الأعراب. ويوجد في وسط المعسكر تقريباً بيت المؤنة والمطبخ وقاعة الطعام الخاصة بخدم الملك في خيام عظيمة. وتقع غير بعيد منها خيام الفرسان الخفاف الذين يأكلون في مطعم الملك، لكن بطريقة خشنة جداً. ويقع الاصطبل بعيداً قليلاً من هناك، مركباً من مخابىء تصطف فيها الخيل بنظام، بعضها بجوار بعض.

ويخيم بغالو الموكب الملكي خارج المعسكر، حيث تقام دكاكين الجزارين والبزازين وبائعي القديد. أما التجار والصناع الذين يتبعون الجيش فينصبون خيامهم بجانب خيام البغّالين.

ويصير مقام المعسكر الملكي كأنه مدينة حقيقية، تقوم فيها أخبية قواد الرحى مقام الأسوار، لأنها متصلة بعضها ببعض، بحيث لا يمكن الدخول إلى قلب المعسكر إلا من ممرات معينة، وتقوم الحراسة طوال الليل حول السور الملكي. والواقع أن الحراس أناس حقيرون ليس فيهم من يحمل سلاحاً. وتقام الحراسة كذلك حول الاصطبل. غير أنه نظراً لتكاسل الحراس لم يحدث أن سرقت خيول مرات عديدة فحسب، وإنما عثر في داخل السور على أعداء تسللوا إليه للفتك بالملك. ويقضي الملك العام كله تقريباً في البادية، لحراسة مملكته والحفاظ على السلم والمودة بين رعاياه الأعراب. وكثيراً ما يتسلى بالصيد أو لعب الشطرنج.

لا شك في أنني كنت مملاً بعض الشيء في هذا الوصف الطويل الغزير لمدينة فاس، إلا أنه كان من الضروري بالنسبة إلي أن أطنب في الحديث عنها سواء لأن كل الحضارة والاشعاع لبلاد البربر، أو بالأحرى

لإفريقيا كلها مركز في هذه المدينة، أو لأطلعكم تمام الاطلاع بأدق تفصيل على وضعية فاس وقيمتها.

المْقَرْمْدَة

المقرمدة مدينة تقع على بعد نحو عشرين ميلاً شرقي فاس، أسسها ملوك زناتة على ضفة نهر صغير في سهل بهيج جداً، وكانت في الماضي مركزاً رئيسياً لمقاطعة كبيرة متحضرة جداً. تكثر البساتين والكروم على طول النهر، وقد اعتاد ملوك فاس أن يمنحوا محصول هذه المدينة لمراقب نظارهم على الابل، لكنها خربت وهجرت في حروب الأمير سعيد، ولا يظهر منها اليوم غير الجدران، ومقاطعتها مكراة لأعيان من فاس وبعض المزارعين.

قصرُ العُبَّاد

هو قصر مشيد على جبل شاهق، يبعد عن فاس بنحو ستة أميال، ويمكن منه مشاهدة فاس والبادية المحيطة بها. وكان في الأصل مقاماً لناسك يعتبره سكان فاس من الصالحين[82]، لكن ليس حول القصر إلا القليل من الأراضي الصالحة للزراعة، ولذلك فإنه غير مأهول، ودوره خربة، لم يبق منه غير السور والمسجد، مع أن الأرض الزراعية القليلة فيه ملك للجامع الكبير بفاس. أقمت في هذا القصر صيفاً أربع مرات، لأن هواءه جيد معتدل، والمكان المنعزل أصلح لمن يريد الدراسة، ولأن والدي اكترى هذه الأرض من امام الجامع لعدة سنوات.

الزّاوِيَة

الزاوية بلدة صغيرة بناها يوسف ثاني ملوك بني مرين على بعد نحو أربعة وعشرين ميلاً من فاس، وأسس بها زاوية كبرى أوصى أن يدفن

---

(82) هو سيدي أحمد البرنوسي، وضريحه معروف في شمال غربي جبل زلاغ على ارتفاع 759 ميتر.

فيها، لكن القدر لم يشأ ذلك، فقد قتل أمام أسوار تلمسان أثناء حصاره لها. وانهارت الزاوية منذ ذلك الحين وتهدمت، ولم يبق قائمًا بها غير جدران الزاوية، ويحرث أرضها أعراب تكاد زراعتهم تصل إلى أراضي فاس.

خوْلاَن

خولان[83] قصر قديم بني على نهر سبو بعيداً عن فاس بنحو ثمانية أميال إلى الجنوب. ويوجد خارج القصر حمام ماؤه ساخن جداً، وشيد أبو الحسن رابع ملوك بني مرين بناء جميلاً على هذه الحامة. فاعتاد أعيان فاس المجيء إليه مرة في السنة خلال شهر أبريل، لقضاء أربعة أيام أو خمسة في التسلية، غير أنه لا يوجد في القصر من السكان إلا أجلاف من أرذل الناس وأبخلهم.

جبل زَلاَغْ

زلاغ جبل يبتدىء من سبو شرقاً. وينتهي غرباً على بعد نحو أربعة عشر ميلاً منه. وتقع قمته، أي أعلى نقطة فيه، في جهة الشمال على مسافة سبعة أميال من فاس، ومنحدره الجنوبي خال تماماً من السكان، لكن المنحدر المطل على الشمال مليء بتلال ممتازة يقوم عليها عدد لا يحصى من القرى والقصور. وتكاد تكون كل الأراضي الصالحة للزراعة مغروسة بكروم تنتج أجود العنب وأحلى ما ذقت منه في حياتي. وللزيتون وسائر الفواكه التي ينتجها هذا الاقليم نفس الجودة، لأن أرضه جافة. وسكان هذه المنطقة من كبار الأغنياء، ليس فيهم من لا يملك داراً بمدينة فاس. ويكاد يكون لجميع أعيان فاس كروم في زلاغ. وفي سفح الجبل بجهة الشمال كذلك سهول بهيجة وبساتين للخضر والفواكه، لأن نهر سبو

(83) يقصد سيدي حرزام.

يسقيها من الجنوب. ويصنع البستانيون بما لديهم من وسائل نواعير ترفع ماء النهر لتسقي به الأراضي الفلاحية. ومساحة هذه الناحية المحروثة تساوي ما يستطيع أن يحرثه مائتا زوج من الثيران. منحت اقطاعاً لرئيس التشريفات الملكية، غير أنه لا يجني منها أكثر من خمسمائة مثقال في السنة، لأن الزكاة التي تدخل بيت المال تبلغ نحو ثلاثة آلاف كيل من الحبوب.

جبل زَرْهُونْ

يبتدىء جبل زرهون من سهل السايس على بعد عشرة أميال من فاس، ويمتد غرباً على مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً، ويبلغ عرضه عشرة أميال. يبدو هذا الجبل من بعيد مغطى بغابة خالياً من السكان، لكن جميع هذه الأشجار أشجار زيتون، ويعد فيه ما يقرب من خمسين قرية وقصراً، وسكانه أغنياء جداً، لأن هذا الجبل واقع بين مدينتين كبيرتين، فاس في الشرق، ومكناس في الغرب.

تنسج النساء في زرهون أقمشة صوفية على طريقة أهل البلاد، ويتجولن في أبهى زينة بخواتم وأساور من فضة. والرجال في غاية القوة والجرأة، يعهد إليهم باقتناص الأسود في الغابات واهدائها الى ملك فاس. وينظم الملك مشهد صيد الأسد داخل القصبة السلطانية في ساحة واسعة. يرتب في هذه الساحة عدد من صناديق كبيرة يسع كل واحد منها رجلاً يقف داخلها ويتحرك بسهولة. لكل صندوق باب صغير، ويجلس فيه رجل مسلح. وحينئذ يطلق الأسد حراً في الساحة، فيفتح الرجال المسلحون أبواب صناديقهم بالتناوب، مرة هذا ومرة ذاك، ويجري الأسد فوراً نحو الذي يراه، وعندما يقترب منه يغلق الرجل بابه، ويستمر العمل هكذا إلى أن يهيج الأسد هيجاناً شديداً، فيطلق ثور داخل الساحة وتنشب معركة دامية بين الحيوانين. فإذا قتل الثور الأسد انتهى المشهد ذلك اليوم، وإذا قتل الأسد الثور كان على الرجال المسلحين أن يخرجوا من صناديقهم

ويحاربوه، وهم اثنا عشر رجلاً يحملون بأيديهم حراباً في طرف كل منها نصل حديد طوله ذراع ونصف ذراع. وإذا أظهر الرجال تفوقاً على الأسد أمر الملك بنقص عددهم، وإذا تفوق الأسد على الرجال، سدد إليه الملك وأفراد حاشيته قاذفاتهم، ورموه من أعلى الشرفات التي يشاهدون منها ذلك المنظر. وكثيراً ما يحدث أن الأسد، قبل أن يموت، يقتل أحد المحاربين ويجرح الآخرين. وتبلغ الجائزة التي يمنحها الملك لكل محارب عشرة مثاقيل وكسوة جديدة. وهؤلاء الرجال من أهل جبل زلاغ خاصة، وهم ذوو شجاعة عظيمة، والذين يصطادون الأسد في البادية من جبل زرهون.

وَلِيلِي مدينةُ جبلِ زَرْهُونْ

وليلي مدينة أسسها الرومان على قمة هذا الجبل عندما كانوا يحكمون بلاد الأندلس، وهي كلها محاطة بسور من حجر كبير منحوت، تخترقه أبواب عالية عريضة. ويحيط بنحو ستة أميال من الأرض. وقد خرب الأفارقة هذه المدينة كلها تقريباً في زمن قديم، إلا أن ادريس الشيعي لما قدم إلى هذه المنطقة، سارع إلى ترميم المدينة واستقر فيها، فأصبحت في زمن قليل مدينة متحضرة يقصدها الناس بكثرة. لكن بعد موت ادريس هجرها ابنه وراح يبني مدينة فاس كما ذكرناه. ومع ذلك دفن فيها ادريس[84]، وتقدس ضريحه جميع قبائل موريطانيا تقريباً وتحج إليه، لأن هذا الرجل لم يكن أقل من خليفة، وهو من آل محمد (عليه السلام). ولم يبق في المدينة الآن إلا داران أو ثلاث يسكنها أولئك الذين يخدمون الضريح ويحافظون على اقامة الشعائر فيه. والأرض حول المدينة مزروعة بكيفية جيدة، فيها بساتين جميلة وممتلكات مزدهرة، لأن هناك جدولين من

---

(84) يظهر أنه يقصد ادريس بن عبد الله (الأول). وتختلف الروايات القديمة في مدفن ادريس بن ادريس (الثاني) هل هو في وليلي أو في فاس. وسكوت الحسن الوزان عن ضريح ادريس الثاني بفاس قد يشعر بميله إلى أنه غير مدفون بها.

الماء ينبعان من المدينة وينحدران بين تلال صغيرة في شعاب تقع فيها هذه الممتلكات.

قصرُ فِرْعَوْن

قصر فرعون مدينة صغيرة قديمة أسسها الرومان على مسافة تقل قليلاً عن ثمانية أميال من وليلي. ويعتقد سكان زرهون وعدد من المؤرخين اعتقاداً جازماً أن فرعون عزيز مصر في عصر موسى (عليه السلام) هو الذي بنى هذه المدينة وأطلق عليها اسمه. ولا يبدو هذا صحيحاً، لأنه لا يقرأ في أي مكان أن فرعون والمصريين حكموا هذه المنطقة اطلاقاً. لكن هذا الاعتقاد الغبي نتج عن كتاب عنوانه بلغة البلاد أعلام نبوة محمد، ألفه المدعو الكلبي[85]. يزعم هذا الكتاب أنه روي عن محمد (عليه السلام) أن أربعة ملوك حكموا العالم كله. اثنان مؤمنان. وآخران كافران. فالمؤمنان: الاسكندر الكبير وسليمان بن داوود، والكافران: النمرود وفرعون موسى. أما بالنسبة إلي فإن بعض الحروف اللاتينية التي تقرأ على الجدران أكدت لي يقينا بأن مؤسسيها هم الرومان. ويمر حول المدينة نهران صغيران، أحدهما من جهة، والثاني من الجهة الأخرى للمدينة. وكل الشعاب والتلال المحيطة بها مغروسة بالزيتون. ويوجد غير بعيد عنها غابة كبيرة تكثر فيها الأسود والفهود.

الحَجَرُ الأحْمَر

الحجر الأحمر[86] مدينة في سفح هذا الجبل من بناء الرومان، وهي قرية صغيرة قريبة جداً من الغابة، حتى إن الأسود تأتيها وتأكل العظام التي

---

(85) لعله يقصد أبا المنذر هشام ابن الكلبي النسابة الكوفي الشيعي الشهير المتوفى عام 204 هـ تزيد مؤلفاته على 150 منها كثير في السيرة النبوية، لكن لم نقف على كتاب منها بالعنوان المذكور هنا.

(86) يسميها مرمول الدار الحمراء ويعين موقعها في سوق أربعاء خيبر، ولم يبق أثر لذلك كله.

تعثر عليها فيها. وقد اعتاد السكان وجود هذه الأسود وألفوها لدرجة أن النساء والأطفال لا يخشونها. أسوار المدينة عالية مبنية بحجارة ضخمة، إلا أنها متهدمة في معظمها، وأصبحت هذه المدينة اليوم شبه دشرة أو قرية. وتكثر في الأرض المحروثة أشجار الزيتون، وكذلك الحبوب، لأنها بجوار سهل أزغار.

مْغِيلَة

مغيلة مدينة صغيرة قديمة، أسسها الرومان كذلك على قمة هذا الجبل من الجانب الذي يطل على فاس. ولهذه المدينة أرض طيبة في الجبل مغروسة كلها بأشجار الزيتون، وأرض أخرى جميلة في السهل، بها عيون جارية عديدة، تغل كمية كبيرة من القنب والكتان.

قصرُ بْلاَحْيَا

هذا القصر قديم جداً مشيد في سفح الجبل على المحجة الرابطة بين فاس ومكناس. وقد سمي بهذا الاسم لأن سكانه كانوا في غاية البخل، كما هو الشأن في جميع المدن الواقعة في طريق المسافرين. يروى أن ملكاً مر من هناك فاستدعاه أهل القصر لتناول الغداء، قبل الملك الدعوة فذبحوا له بعض الخرفان، وملؤوا الأوعية والقرب لبناً حسب عادة البلاد ليفطر الملك بها في الصباح. ولما كانت القرب كبيرة ظن كل واحد منهم أنه إذا ملىء نصفها ماء لا يفطن به أحد، ففعلوا ذلك. ولما أراد الملك أن ينصرف في الصباح لم تكن له رغبة في الافطار، لكن حاشيته ألحوا عليه في ذلك. وعدما أفرغوا القرب وجدوا أن اللبن ممزوج بالماء. ولما علم الملك بذلك أخذ يضحك وقال: «اعلموا يا أصحابي أن الغرائز الطبيعية لا تزول»، ثم انصرف. ويحرث أراضي هذا المكان أعراب فقراء.

بْني وَارْثِيْنْ

هي ناحية واقعة على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً شرقي فاس[87]، كلها تلال مع أراضٍ جيدة للفلاحة تنتج كميات عظيمة من القمح، والبادية فيها جميلة جداً، والمراعي صالحة تماماً للماشية. في هذه الناحية نحو مائة قرية، لكنها مؤلفة من دور فقيرة والسكان ضعفاء لا يغرسون كرماً ولا يتخذون بساتين ولا أشجاراً مثمرة. وكان من عادة الملك أن يوزع محصولات هذه الناحية على اخوته الذين لا يزالون صغاراً. ولنرجع إلى السكان فنذكر أن لديهم الكثير من القمح والصوف، لكن لباسهم رديء. ولا يركبون غير الحمير، حتى إن جيرانهم أنفسهم يسخرون منهم ويزدرونهم.

(87) اختفى اسم بني وارثين من هذه الناحية، ويظن أنها نجد بني سادن الحالي بين سبو وايناون.

ناحيَةُ السَّايَسْ

السايس ناحية مجاورة لفاس كذلك، تقع على بعد عشرين ميلاً إلى جهة الغرب، كلها سهول. يقال إِنه كان بها العديد من القصور والقرى، ولم يبق منها الآن أي أثر، ولا حتى بقية من بناء، لكن أسماء المواقع المندثرة ما تزال حية.

يمتد هذا السهل على مسافة ثمانية عشر ميلًا نحو الغرب، وعشرين ميلًا نحو الجنوب. وأراضيه ممتازة، لكنها تنتج قمحاً أسود صغيراً. ولا يوجد إلّا القليل من الآبار والعيون في هذه الناحية، وكانت دائمًا في أيدي أعراب يعيشون كقرويين، أي أصبحوا فلاحين مقيمين. وقد اقتطع الملك هذه الناحية إلى سيد قصر فاس وعاملها.

جبلُ تَغَاتّ

يقع جبل تغات على بعد نحو سبعة أميال غربي فاس، وينطق به عادة تغات[88] وهو جبل شاهق لكنه قليل العرض، يمتد شرقاً إلى نهر أبي نصر الصغير، أي على مسافة خمسة أميال. والجانب المطل على فاس كله مغروس بالكروم، وكذلك القمة. والجانب المقابل للسيخ كله أراض محروثة بالقمح.

وتوجد في قمة الجبل عدة كهوف وسراديب يعتبرها الباحثون عن الكنوز أماكن سرية أخفى فيها الرومان عند جلائهم عن هذه الناحية، كما

(88) هي الماعز بالبربرية.

يقال، أشياءهم النفيسة. وفي فصل الشتاء عندما لا يشتغل أحد بالكروم، فإن هؤلاء البلهاء المدفوعين بفضولهم ينهكون أنفسهم بالحفر وتكليف آخرين بحفر الأرض الصلبة الصخرية، ومع ذلك يؤكدون أنه لم يعثر فيها أحد على شيء. وثمار هذا الجبل سيئة المظهر بقدر ما لعنبها من منظر منفر. وتنضج هذه الثمار والأعناب مبكرة قبل المناطق الأخرى.

كُرِيكْرَة

كريكرة[89] جبل مجاور للأطلس على بعد نحو أربعين ميلاً، ينبع منه نهر يسيل نحو الغرب ويصب في نهر بهت. وجبل كريكرة واقع بين سهلين كبيرين، أحدهما من جهة فاس، أي الناحية التي تكلمنا عنها قبل قليل المدعوة السايس، والآخر من جهة الجنوب ويدعى سهل آدخسان[90]. وهناك أراض صالحة جداً للقمح والرعي. هذه السهول في أيدي أعراب يسمون زعير من أتباع الملك. ويخصص الملك في أغلب الأحيان إيراد أحد هذين السهلين لهذا أو ذاك من اخوته. ويغل كل سهل في المتوسط من السنين عشرة آلاف مثقال.

حقاً إن أعراب زعير كثيراً ما يضايقهم أعراب آخرون اسمهم حسين، يسكنون الصحراء وينتجعون في هذه المنطقة صيفاً. وقد تدارك الملك هذا الخطر فأرسل فرساناً ورماة إلى هذه البلاد. وتوجد في هذين السهلين عيون رائقة، وجداول صافية، وغابات تعيش فيها الأسد آمنة وديعة، لدرجة أن أي شخص، رجلاً كان أو امرأة، يستطيع أن يبعدها بالعصا، ولا تؤذي أحداً.

ونتابع الآن وصفنا بذكر ناحية أزغار.

---

(89) وينطق بها الآن تيكريكرة.

(90) آدخسان قصبة مرابطية تبعد عن خنيفرة بـ 8 كيلومتر في جنوبها الشرقي.

أَزَغَارْ، ناحيةٌ من مملكة فاس

تنتهي ناحية أزغار عند المحيط شمالاً، ونهر أبي رقراق غرباً، وبعض جبال غمارة شرقاً، وبعضها عند زرهون وسفح جبل زلاغ؛ وتنتهي جنوباً بجوار نهر بونصر[91].

هذا الإقليم عبارة عن سهل أرضه جيدة، ولذلك سكنته أقوام كثيرة، وقامت فيه مدن وقصور، إلاّ أن هذه الأمكنة قد خربت بسبب حرب نشبت في الزمن القديم، ولا يرى لها اليوم أثر، باستثناء مدن صغيرة قليلة ما تزال قائمة مأهولة. يمتد سهل أزغار على طول ثمانين ميلاً وعرض ستين ميلاً تقريباً، ويخترقه نهر سبو في وسطه. وجميع سكانه من أعراب الخلط المنتمين إلى المنتفق، خاضعون لملك فاس ويؤدون خراجاً مرتفعاً، لكنهم أغنياء مجهزون أحسن تجهيز، يكونون زهرة جيش الملك، وهو لا يستخدمهم إلاّ في الغارات الجدية البالغة الأهمية.

وأخيراً فان هذا الإقليم هو الذي يمد جبال غمارة ومدينة فاس بالطعام والماشية والخيل، وقد اعتاد الملك أن يقيم به طوال فصل الشتاء والربيع، لأن البلد جميل وصحي، وتوجد فيه دوماً كمية كثيرة من الغزلان والأرانب، إلاّ أن الغابات فيه قليلة.

الجُمُعَة، مدينةٌ في أَزَغَارْ

الجمعة مدينة صغيرة أسسها الأفارقة في وقتنا هذا على نهر صغير، في سهل يقع في نهاية هذه الناحية أو الإقليم، يمر بها الذاهبون من فاس إلى

(91) واد مكس الحالي.

العرائش، وهي على مسافة نحو ثلاثين ميلاً من فاس. وكانت هذه المدينة كثيرة السكان متحضرة، لكن حرب سعيد التي تحدثنا عنها كثيراً خربتها، ولا يوجد فيها اليوم سوى مطامير يخزن فيها الأعراب المجاورون حبوبهم تاركين بالقرب منها بعض الخيام لحراستها. وتظهر في خارجها طواحن لطحن تلك الحبوب.

مدينةُ الْعَرَائِش

العرائش مدينة أسسها الأفارقة القدامى على شاطىء المحيط، في المكان الذي يصب فيه نهر اللكوس في البحر. وهي واقعة من جهة على ضفة النهر، ومن جهة أخرى على المحيط. وفي الزمن الذي كانت فيه مدينتا أصيلا وطنجة خاضعتين للمغاربة، كانت العرائش كثيرة السكان، لكن بعد ما سقطت هاتان المدينتان في يد النصارى غدت العرائش مهجورة إلى ما يقرب من عشرين سنة من أيامنا هذه، حيث عزم أحد أبناء ملك فاس الحالي على إعادة تعميرها، فحصنها تحصيناً قوياً، وأقام بها حامية دائمة مزودة بالأقوات اللازمة، لأنه كان شديد الحذر من البرتغاليين. ولهذه المدينة ميناء يصعب اجتيازه جداً لمن يريد الدخول إلى مصب النهر. وبنى ابن الملك أيضاً قصبة يقيم فيها على الدوام قائد ومائتان من القاذفين ومائة من رماة البنادق وثلاثمائة من الفرسان الخفاف.

وفي ضواحي العرائش غيضات ومروج عديدة، يصطاد فيها كثير من سمك الأنقليس (النون) والطيور المائية. وعلى ضفاف النهر غابات كثيفة يعيش فيها الكثير من الأسد والحيوانات المفترسة الأخرى. ومن عادة سكان هذه المدينة منذ الأزل أن يصنعوا الفحم ويرسلوه بحراً إلى أصيلا وطنجة، حتى إن المثل الدارج عند أهل موريطانيا يقول عندما يكون مظهر شيء أحسن من مخبره: «هذا كسفينة العرائش، شراعها من قطن وحمولتها من فحم». ويجنى القطن فعلاً بكثرة من بادية هذه المدينة.

القصرُ الكبير

مدينة كبيرة أسست في عهد المنصور ملك مراكش وخليفتها بأمره[92]. وتروى الواقعة التالية كحدث تاريخي صحيح. فوجىء هذا الملك ذات يوم وهو يصطاد في البادية بمطر شديد وريح عاتية وظلام حالك، حتى افتقد حرسه وتوقف في مكان لا يدري أين هو واضطر إلى أن يقضي الليل بالعراء. وبينما هو كذلك لا يتحرك خوفاً من أن يغوص في المستنقعات، رأى نوراً ووجد أمامه لحسن حظه صياداً تعود أن يذهب لاصطياد سمك الانقليس (النون) من هذه المستنقعات، فقال له المنصور: هل تستطيع أن تدلني على مخيم الملك؟. فأجابه الصياد بأن المخيم يبعد بعشرة أميال من هناك. ولما طلب منه الملك أن يصحبه إليه قال له: «لو كنت أنت المنصور نفسه لما قدتك إليه، لأنني أخشى أن تغرق في المستنقع». فقال الملك: «وماذا يهمك من حياة المنصور؟» فأجاب الصياد: «أوه! يبدو لي أن الملك جدير بالمحبة». فقال الملك: «لقد وصلك منه إذن إحسان كبير» فرد الصياد: «أي إحسان أكبر يمكن أن يناله إنسان من ملك أكثر من العدل والرفق الكامل والعطف الذي يبرهن عنه في حكمه للرعية؟! وبفضل هذا أستطيع أنا الصياد المسكين أن أتمتع بفقري في سلام مع زوجتي وأسرتي الصغيرة. أخرج من كوخي في منتصف الليل، وأعود إليه متى شئت، فلا أجد أحداً يسيء إلي أقل إساءة في هذا الوادي وهذه الأمكنة الخالية، وأنت أيها النبيل، أرجوك أن تقضي هذه الليلة في منزلي، وغداً في الصباح سأكون في خدمتك لأصحبك إلى حيث تريد».

قبل الملك الدعوة وذهب مع الرجل الطيب إلى كوخه. ولما وصلا، رفع الصياد السرج عن فرس الملك وقدم له علفاً كثيراً، ثم طبخ سمك

---

(92) تدل الكتابات والآثار العتيقة على أن مدينة القصر الكبير قديمة جداً، لكنها قد تكون خربت وبنى يعقوب المنصور الموحدي مدينة على أنقاضها، وهو المعروف بجوازاته العديدة إلى الأندلس بقصد الجهاد، وبمآثره العمرانية العظيمة في العدوتين.

أنقليس (نونا) وقدمه للملك الذي كان في هذه الأثناء قد جفف ثيابه بقدر الإمكان قرب نار طيبة متوهجة. ولما كان الملك لا يستطيع أكل السمك فانه طلب من الصياد إن كان عنده قليل من لحم، فأجابه الرجل الفقير: «إن ثروتي يا سيدي تتكون من عنزة وجديها الذي ما يزال رضيعاً، إلاّ أنني أعتقد أن من حسن حظ الحيوان أن يقدم لحمه تشريفاً لمثلك. وإذا لم يخدعني ظاهرك، فيبدو أنك أمير كبير». ولم يلبث أن ذبح الجدي وطلب من زوجته أن تعده شواء، فتعشى الملك وأخذ قسطاً من الراحة إلى الصباح، ثم انطلق من الكوخ مبكراً مع مضيفه اللطيف كدليل. وما كادا يخرجان من المستنقع حتى لقيا جماعة من الفرسان والصيادين مذعورين وهم يبحثون عن الملك ويطلقون صرخات النداء. وقد فرحوا جميعاً برؤية الملك، والتفت المنصور إلى الصياد وعرفه بنفسه وقال له بأنه سيتذكر لطفه دائماً. وفي أثناء توقف الملك بتلك الناحية أمر ببناء قصور مهمة جميلة وعدد من المنازل، ثم أهداها عند انصرافه إلى الصياد مكافأة له، فالتمس منه الصياد أن يسور هذه القصور والدور، الشيء الذي سيدل أكثر على حلمه وكرمه، فكان ذلك، وأصبح الصياد أميراً على المدينة الجديدة الصغيرة التي أخذت تكبر يوماً عن يوم حتى أصبحت في وقت قصير تسع أربعمائة كانون بسبب خصوبة البلاد. وقد تعود الملك أن يقضي الصيف كله في هذه الناحية، فكان ذلك أيضاً سبباً في ازدهار المدينة.

يمر بجوار سور القصر نهر اللكوس الذي يفيض أحياناً حتى يدخل الماء من باب المدينة. وفي القصر كثير من الصناع والتجار، وعدد من الجوامع، ومدرسة أومارستان؛ لكن ليس فيه عين ولا بئر، وانما يستعملون الخزانات (النطفيات). وأهل القصر كرماء أو على الأصح ضعاف العقول، لباسهم حسن، إذ يرتدون قطعاً كبيرة من قماش القطن على صورة غطاء الفرش يلفونها حول أجسامهم.

وتوجد خارج القصر حدائق كثيرة وأراض بها ثمار جيدة. غير أن

العنب غالباً ما يكون رديء الطعم بسبب رطوبة الأرض. ويعقد يوم الاثنين في البادية سوق يقصده أعراب النواحي المجاورة. ومن عادة أهل المدينة أن يذهبوا خلال شهر ماي لاصطياد الطيور بالفخاخ في الضاحية، فيصطادوا كميات كبيرة من اليمام. والأراضي خصبة جداً، تنتج في الغالب ثلاثين ضعف ما زرع فيها، غير أن الناس لا يستطيعون أن يزرعوا سوى منطقة تقارب مساحتها ستة أميال لأن البرتغاليين المحتلين لأصيلا يزعجونهم، إذ أن المدينتين لا تبعد إحداهما عن الأخرى بأكثر من ثمانية عشر ميلاً. ويضايق قائد القصر البرتغاليين كثيراً، إذ تحت تصرفه ثلاثمائة فارس يغير بهم ويتوغل كثيراً إلى أن يصل أحياناً إلى أبواب أصيلا.

ناحيةُ الهَبْط

تبتدىء هذه الناحية جنوباً عند نهر ورغة لتنتهي شمالاً على المحيط، وتتاخم غرباً مستنقعات أزغار، وشرقاً الجبال المشرفة على أعمدة هرقل. ويبلغ عرضها نحو ثمانين ميلاً، وطولها نحو مائة ميل.

هذه الناحية عجيبة حقاً بسبب خصوبتها ووفرة انتاجها، معظمها سهل تخترقه مجاري مياه عديدة. وكانت في قديم الزمان أكثر نبلاً وشهرة منها في أيامنا هذه، ففيها مدن أزلية، أسس بعضها الرومان، وبعضها القوط. وأظن أن هذه الناحية هي التي أطلق عليها بطليموس اسم موريطانيا، غير أنها أخذت تتدهور منذ تأسيس مدينة فاس. أضف إلى ذلك أنه بعد موت إدريس مؤسس فاس، آلت المملكة إلى عشرة من أبنائه اقتسموها مناطق بحسب عددهم، فكانت ناحية الهبط من نصيب أكبر الاخوة. وبعد ذلك ثار عدد من الشيعيين والأمراء المحليين، استعان بعضهم بملوك غرناطة في اسبانيا وبعضهم بملوك القيروان. وقد تغلب عليهم جميعاً وطردهم أحد خلفاء القيروان كان شيعياً أيضاً[93]، وترك في المنطقة بعض قواده وعماله ورجع إلى بلاده. وحينئذ أرسل حاجب قرطبة الكبير[94] إلى موريطانيا جيشاً عرمرماً استولى على الناحية كلها ووصل إلى الزاب، وأخيراً بقيت ناحية الهبط تحت سلطة ملوك فاس.

---

(93) المنتصر هو القائد جوهر الصقلي باسم الخليفة المعز الفاطمي، عام 346 هـ.

(94) هو المنصور بن أبي عامر حاجب خليفة قرطبة الأموي هشام المؤيد.

أَزْجَنْ

أزجن مدينة بناها قدماء الأفارقة على جبل بعيد عن نهر ورغة[95] بنحو عشرة أميال. وهذه الأميال العشرة في سهل توجد به الحقول المحروثة وبساتين هذه البلدة، إلاّ أن معظم الأراضي الفلاحية في الجبل. وتبعد هذه المدينة عن فاس بنحو سبعين ميلاً، وتشتمل على خمسمائة كانون تقريباً. ويمكن أن يعطي هذا الإقليم إيراداً يبلغ عشرة آلاف مثقال، لكن على المستفيد منه أن يجهز لملك فاس أربعمائة فارس للدفاع عن البلاد، لأن البرتغاليين كثيراً ما يشنون الغارات عليها، ويتوغلون في الداخل مسافة أربعين أو خمسين ميلاً.

أزجن مدينة متحضرة جداً، لها صناع يقومون بجميع الأعمال الضرورية. وهي جميلة تكثر فيها صهاريج الماء، وسكانها أغنياء، لكن القليل منهم هم الذين يلبسون لباس المدنيين، ويتمتعون بالامتياز الذي منحهم إياه الملوك القدامى، وهو السماح لهم جميعاً بشرب الخمر، لأن الخمر حرام في الشريعة الإسلامية، وليس منهم من لا يشربه.

بني تَوْدَة

بني تودة[96] مدينة قديمة جداً أسسها الأفارقة في سهل غاية في الجمال على نهر ورغة، بعيدة عن فاس بنحو خمسة وأربعين ميلاً. كان بها قديماً ثمانية آلاف كانون، لكنها كلها خربت باستثناء الأسوار في حرب خلفاء القيروان. ذهبت إليها ورأيت كثيراً من قبور الأشراف وبعض صهاريج الماء المبنية بالحجر، وهي حقاً عجيبة. وتوجد هذه المدينة قريبة من جبال غمارة لا يفصل بينها غير مسافة أربعة أميال تقريباً، وأراضيها خصبة جداً وانتاجها عظيم.

---

(95) بل اللكوس.

(96) هي فاس البالي حالياً.

أَمَرْكُو

أمركو مدينة على قمة جبل بعيدة عن البلدة السابقة بنحو عشرة أميال. يقال ان مؤسسيها هم الرومان، وتوجد هناك فعلاً بعض الأسوار القديمة تقرأ عليها بعض الكتابات اللاتينية. وهذه المدينة مهجورة اليوم، لكن توجد في منحدر الجبل مدينة صغيرة أخرى مسكونة بكيفية ملائمة، وبها كثير من نساجي الكتان العادي.

أراضي البادية المحيطة بأمركو صالحة للفلاحة، ويشاهد من أعلى المدينة في اتجاه الشمال نهران كبيران هما سبو وورغة، ويبعد كل منهما بخمسة أميال. ويزعم سكان أمركو أنهم من الأشراف، ولكنهم بخلاء جهال لا قيمة لهم.

تَنْصُر

تنصر[97] مدينة واقعة على بعد نحو عشرة أميال من أمركو فوق أحد التلال، ومشتملة على ثلاثمائة دار وعدد قليل من الصناع. سكانها ذوو طبيعة خشنة، لا يملكون كروماً ولا حدائق، ولا يزرعون غير الحبوب، إلا أنهم يملكون عدداً غير قليل من الماشية. وتقع هذه المدينة في منتصف الطريق بين فاس وجبال غمارة، وذلك ما يجعل أهلها بخلاء بغضاء إلى أقصى حد.

أكَلاَ

أكلا مدينة قديمة أسسها الأفارقة على نهر ورغة، تحيط بها أراض جيدة يحرثها الأعراب. وقد سبق أن تخربت هذه المدينة في الحروب السابقة، لكن أسوارها ما زالت قائمة على حالها، ويوجد بداخلها بعض الآبار، ويقام في باديتها كل أسبوع سوق حسن جداً يقصده العديد من الأعراب وفلاحي هذه الناحية، كما يقصده كثير من تجار فاس ليشتروا

---

(97) يسميها مرمول «تنزرت» ولا تعرف الآن.

جلود البقر والصوف والشمع، لأن هذه المواد وافرة جداً في هذا الإقليم.

تكثر الأسد في هذا المكان، لكنها جبانة إلى حد أن الأطفال يخيفونها بصراخهم ويطاردونها. ومن هنا جاء المثل الذي يطلقه أهل فاس على كل من يتبجح ويتعاظم وهو جبان: «أنت شجاع كأسد أكلا التي تأكل العجول أذنابها».

نَارَنْجَة

نارنجة[98] قصر بناه الأفارقة على جبل صغير يمر بقربه نهر اللكوس. ويبعد عن أزجن بنحو عشرة أميال. والأراضي المجاورة ممتازة، لكنها ليست في السهل. وعلى ضفاف النهر غابات كثيفة فيها ثمار برية بكميات وافرة، لا سيما الكرز البحري أو الافريقي. وقد سقط هذا القصر بيد البرتغاليين فخربوه، وأصبح حتى الآن مهجوراً قفراً منذ عام 895 للهجرة.

جَزيرَة

هذه جزيرة[99] واقعة في مصب نهر اللكوس على نحو عشرة أميال من المحيط ومائة ميل من فاس[100]. وكان بهذه الجزيرة مدينة صغيرة قديمة هجرت في بداية الحروب مع البرتغاليين. وليس على ضفاف النهر سوى غابة وقليل من الأراضي الفلاحية. وفي عام 894 للهجرة أرسل إليها ملك البرتغال أسطولاً عظيمًا دخل في النهر، وأخذ القائد البرتغالي في بناء قلعة في الجزيرة ظناً منه أنه يستطيع الدفاع عنها والاستيلاء على جميع البلاد المجاورة. ثم ان ملك فاس، وهو والد الملك الحالي، توقع الخطر الذي

---

(98) مكان غير معروف، سماه مرمول «فريكسة».

(99) هكذا تسمى «جزيرة» بالعربية إلى الآن، ويدعوها البرتغال «كراسيوزا»، ويقول عنها المؤرخ الروماني القديم «بلين» بأن الأسطورة تزعم أن بها حدائق «هيسبريس» ذات التفاح الذهبي.

(100) بل 140 ميل.

سيتعرض له بسهولة إذا ترك ذلك القائد يُتمم البناء، فأرسل قوات كبيرة لمنع البرتغاليين من اتمام عملهم، لكن هذه القوات لم تتمكن من الاقتراب بأكثر من ميلين بسبب الرمي المستمر للمدفعية البرتغالية الكثيفة المرعبة. كادت حركة الملك أن تفشل، لكن بعضهم نصحه بأن يأمر بصنع تحصينات من الخشب في وسط النهر، على مسافة نحو ميلين من سافلة الجزيرة. وقطعت الأشجار المجاورة تحت حماية هذه التحصينات. وبعد قليل من الوقت وجد البرتغاليون أن مدخل النهر قد سد في وجودهم بجذوع أشجار ضخمة، بحيث لم يعد باستطاعتهم الخروج بأسطولهم. وثق الملك بالنصر، فعزم على القتال، ثم فكر في أنه سيعرض للخطر أرواح كثير من رعاياه، وسيكون ثمن هذا الانتصار خسائر جسيمة، فدخل في مفاوضات مع قائد الأسطول وتم الاتفاق على أن يدفع هذا الأخير غرامة حربية ضخمة، ويتدخل لدى ملك البرتغال ليرد إليه بنات قائد ملك فاس اللواتي كن أسيرات في عاصمته، وبهذه الشروط يمكن للقائد البرتغالي أن ينسحب مع جنوده دون أدنى إزعاج، فكان ذلك وعاد الأسطول إلى البرتغال(101).

البَصْرَة

البصرة(102) مدينة تمتد على رقعة صغيرة وتحتوي على نحو ألفي كانون. أسسها محمد بن إدريس باني فاس في سهل بين نجدين على مسافة نحو ثمانين ميلاً من فاس وعشرين ميلاً جنوبي القصر. وسميت بالبصرة تذكيراً ببصرة بلاد العرب التي قتل فيها علي رابع الخلفاء (الراشدين) وجد

---

(101) عقدت هذه المعاهدة يوم الخميس 30 رمضان 894 هـ/ 27 غشت 1489 بمدينة تشميش، وربما كانت هي المدينة القديمة المهجورة التي تحدث عنها المؤلف آنفا، والتي ما تزال أطلالها باقية على مقربة من الجزيرة على الضفة اليمنى لنهر اللكوس.

(102) ما تزال أطلال البصرة ظاهرة شمال طريق وزان، على بعد نحو 20 كلم جنوبي القصر الكبير. وقد يكون تأسيسها تم عام 218 هـ/ 833.

إدريس الأعلى[103]. كان لهذه المدينة أسوار جميلة عالية، وكانت متحضرة جداً طوال حكم الأدارسة، فكانوا يتخذونها مقاماً لهم في الصيف لشدة جمال ضواحيها، سواء في السهل أو الجبل. وكان بها قديماً حدائق كثيرة وحقول ممتازة لزراعة القمح قريبة من المدينة، ويخترق نهر اللكوس هذه السهول.

كانت البصرة كثيرة السكان والمساجد، وأهلها كرماء مشهورون، لكن عندما زال حكم الأدارسة نهب أعداؤهم المدينة وخربوها، فلم يبق منها قائمًا غير الأسوار، وكذلك بعض الحدائق التي أمست أشجارها برية لا تثمر بسبب إهمال الأرض.

الحُمَر

الحمر[104] مدينة بناها المدعو علي، ولد محمد الذي تكلمنا عنه آنفاً[105]، على نهر صغير، بعيدة بنحو أربعة عشر ميلاً عن العرائش وستة عشر ميلاً عن جنوبي أصيلا. لم تكن الحمر مدينة كبيرة، لكنها كانت جميلة حصينة، والبادية حولها بهيجة، كلها أراض جيدة واقعة في السهل. وكانت المدينة محاطة بحدائق عديدة وكروم ذات أعناب شهية، ومعظم سكانها ينسجون الأقمشة لأنهم كانوا يجنون كثيراً من الكتان، ثم خلت بعد أن سقطت أصيلا في يد البرتغاليين[106].

أصِيلاَ

كانت أصيلا التي يسميها الأفارقة أزيلا مدينة كبيرة، أسسها الرومان

---

(103) هنا بعض الخلط، إذ البصرة في العراق، ولم يقتل فيها علي، بل قتل في الكوفة المجاورة لها.

(104) الحمر ــ بتخفيف الميم المفتوحة وتشديدها ــ: نوع من الطير. وواد الحمر الحالي بالقرب من واد الريحان.

(105) يريد الأمير علي بن محمد بن إدريس بن إدريس الملقب بحيدرة الذي حكم من عام 221 إلى 234 هـ.

(106) في 7 ربيع الأول 24/876 غشت 1471.

على شاطىء المحيط بعيدة عن مضيق أعمدة هرقل بنحو سبعين ميلاً، وعن فاس بنحو مائة وأربعين ميلاً وكانت هذه المدينة خاضعة لأمير سبتة الذي كان تابعاً للرومان، ثم استولى عليها القوط وأقروا مع ذلك هذا الأمير في الحكم، إلى أن أخذها منهم المسلمون عام 94 للهجرة، واحتفظوا بها طوال عشرين ومائتي سنة، فهاجمها الانجليز بأسطول ضخم، بإيعاز من القوط. وكانت بين الانجليز والقوط عداوة، لأن القوط كانوا مسيحيين والانجليز وثنيين، غير أن القوط تصرفوا بهذه الطريقة ليطردوا المسلمين من أوربا. وقد نجحت عملية الانجليز، فاحتلوا المدينة وأضرموا فيها النار وحكموا السيف في رقاب أهلها. بقيت أصيلا مخربة مهجورة زهاء ثلاثين سنة، إلاّ أنه عندما حكم ملوك قرطبة وخلفاؤها بلاد موريطانيا بعد ذلك، أعادوا بناءها وجعلوها في أحسن حال وأقوى مما كانت عليه في السابق، وأصبح سكانها واسعي الثراء ومثقفين ورجال حرب.

تنتج ناحية أصيلا كثيراً من الحبوب والثمار، لكن المدينة تفتقر كثيراً للحطب بسبب بعدها عن الجبل بعشرة أميال، ولذلك اعتاد الناس أن يستعملوا الفحم المستورد بكثرة من العرائش كما ذكرنا آنفاً. وفي عام 882 للهجرة(107) هاجم البرتغاليون أصيلا على غرة واستولوا عليها وأخذوا كل من وجدوا بها من السكان أسرى إلى البرتغال، ومن بينهم محمد (الوطاسي) ملك فاس اليوم، وكان حينئذ طفلاً في السابعة من عمره، وأسرت معه أخت له في نفس السن، لأن أباهما الذي ثار بإقليم الهبط كان يسكن آنذاك بأصيلا. وبعدما قتل عبد الحق آخر ملوك بني مرين على يد أحد الأشراف من كبار وأعيان فاس، وذلك بمساعدة الشعب الذي اختاره ملكاً، قام المدعو شيخ العبرة(108) محاولاً الدخول إلى فاس والمناداة بنفسه

---

(107) بل في ربيع الأول 24/876 غشت 1471.

(108) هكذا في الترجمة الفرنسية، وهو تحريف في الرسم بدون شك، والمقصود هو محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي الذي حاصر فاسا إلى أن دخلها في أوائل شوال 876 / مارس 1472 وخرج منها الشريف الحفيد الإدريسي المبايع.

ملكاً، فطرده الشريف بكيفية مخزية من فاس، وذلك تحت تأثير رأي مستشاره الأول وحججه، وكان هذا المستشار ابن عم لحا للشيخ (الوطاسي). وبعد ذلك بعث الشريف هذا المستشار إلى تامسنا لتهدئة سكان ذلك الإقليم، فرجع الشيخ في هذه الأثناء بمدد يقدر بثمانية آلاف فارس من الأعراب، وضرب الحصار على فاس الجديد، وتمكن بعد عام من اقتحامه بسبب خيانة جماعة من السكان ظنوا أنهم لن يتمكنوا بعد من الحصول على حاجاتهم الضرورية، وفر الشريف إلى مملكة تونس مع جميع أفراد أسرته. وفي الوقت الذي كان الشيخ يحاصر مدينة فاس، أرسل ملك البرتغال أسطولاً استولى على أصيلا، كما ذكرنا ذلك من قبل.

أخذ الملك الحالي وأخته إذا أسيرين إلى البرتغال، ومكث فيه سبعة أعوام تعلم أثناءها اللغة البرتغالية واتقنها، ثم افتداه أبوه بمال كثير. ومن أجل ذلك لقبوه عندما آلت إليه السلطة بالملك محمد البرتغالي، وحاول مراراً أن يثار من البرتغاليين ويسترجع منهم أصيلا.

هاجم المدينة على حين غفلة في المرة الأولى بجميع جيشه، فحطم قسمًا كبيراً من أسوارها ودخلها وأطلق سراح جميع من كان بها من أسرى المسلمين. غير أن المسيحيين التجأوا إلى الحصن ومكثوا فيه يومين، أنجدهم بعدها بيير نافارو بسفن حربية كثيرة أرغمت مدفعية الملك (الوطاسي) لا على الخروج من المدينة مكرهاً فحسب، بل على أن يرجع مع جيشه من حيث أتوا، وحصن البرتغاليون أصيلا.

وبعد ذلك أعاد ملك فاس الكرة على أصيلا مع جيشه مرتين أو ثلاثاً، لكنه اعتبر أحمق لتماديه في هذا المشروع، لأنه لم يعد ولن يعود ممكناً الاستيلاء على هذه المدينة بقوة السلاح. وقد حضرت في كل مرة قام ملك فاس بمحاولة مهاجمة أصيلا، وعددت أننا تركنا كل مرة خمسمائة قتيل أو أكثر؛ وجرت هذه الحروب فيها بين عام 914 و 921 للهجرة.

طَنْجَة

تدعى طنجة عند البرتغاليين طنجيرة، وهي مدينة عظيمة أزلية،

يزعم بعض المؤرخين ــ خطأ ــ أن بانيها ملك اسمه شداد بن عاد، حكم العالم كله وأراد أن يبني مدينة تشبه أن تكون فردوس الأرض، فبنى السور من البرونز، وجعل سقوف البيوت من الذهب والفضة. وكان يرسل إلى أنحاء العالم كله سعاة يجبون الضرائب، فكانت طنجة من المدن التي تدفع له الضرائب في ذلك العصر. غير أن الثقات من المؤرخين يقولون ان الرومان هم الذين أسسوا طنجة على شاطىء المحيط في الوقت الذي كانوا يحكمون فيه اسبانيا، على بعد ثلاثين ميلاً من أعمدة هرقل (= سبتة)، ومائة وخمسين ميلاً من فاس. ولما حكم القوط اسبانيا ضمت طنجة إلى سبتة، إلى أن سقطت بيد المسلمين، وتم ذلك عندما استولوا على أصيلا.

وما زالت طنجة مدينة متحضرة شريفة مأهولة بأحسن العناصر من السكان، مشتملة على قصور جميلة قديمة وحديثة، غير أن الأرض المحيطة بها لا تصلح لزراعة الحبوب، وانما يوجد بالقرب منها شعب تسقيه مياه عين جارية، وتكثر فيه الحدائق التي تنتج البرتقال والليمون وغيرهما من الثمار. وتشاهد بعض الكروم أيضاً بظاهر المدينة إلا أن الأرض هناك رملية.

عاش سكان طنجة عيشة راضية إلى أن سقطت أصيلا. وعندما بلغهم الخبر أخذ كل واحد منهم أثمن ما يملك وغادر المدينة ملتجئاً إلى فاس، فأرسل قائد ملك البرتغال حينئذ ضابطاً احتلها باسم هذا الملك إلى أن أرسل إليها الملك أحد أقربائه[109]، وهي فعلاً في موقع هام بسبب قربها من جبال غمارة أعداء النصارى.

وقبل سقوط طنجة في يد البرتغاليين بخمس وعشرين سنة، أرسل ملكهم إليها أسطولاً عظيماً، مؤملاً ألا تتوصل المدينة بأية نجدة، لأن ملك فاس كان آنذاك منهمكاً في حرب ضد متمرد سلبه مكناس، غير أن ظن

---

(109) الواقع أن الملك الفونسو الخامس شارك بنفسه في الحملة وأرسل إلى طنجة الدون جواوو فاستولى عليها يوم الأربعاء 11 ربيع الأول عام 28/876 غشت 1471 .

البرتغاليين خاب، وعقد ملك فاس هدنة مع ذلك المتمرد، وأرسل أحد مستشاريه على رأس جنود كثيرة للذود عن طنجة، فهزموا البرتغاليين وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وكان قائد الجيش البرتغالي من بين القتلى، فنقلت جثته في تابوت إلى فاس، وعرضت في مكان مرتفع ليراها الجميع[110].

اغتاظ ملك البرتغال من هذه الهزيمة، وجمع بعد فترة وجيزة أسطولاً آخر لقي نفس الهزيمة وتكبد خسائر جسيمة وأضراراً فادحة، بالرغم عن كون البرتغاليين هاجموا المدينة ليلاً وعلى حين غرة[111]. لكن الذي عجز عنه ملك البرتغال بالقوة حصل عليه أخيراً عندما ساعده الحظ بقليل من الجند ودون إراقة دماء، كما ذكرنا ذلك آنفاً.

حقاً إن ملك فاس محمد (البرتغالي) صمم على استرداد هذه المدينة، لكنه لم يفلح، لأن البرتغاليين دافعوا عنها دائماً بكل حدة وقوة. وقد ذهبت مع الحملة إلى طنجة عام 917 للهجرة[112].

---

(110) في شهر صفر عام 841 / غشت 1437 أرسل ملك البرتغال ايدوارد الأول الدون فيرناندو على رأس حملة ضد طنجة، وكان أبوزكريا يحيى الوطاسي الوصي على العرش والمستبد بالأمر في بداية ملك عبد الحق (بن أبي سعيد المريني) يقود جيشاً عرمرما إلى تفيلالت، فلوى العنان إلى طنجة وألحق بالبرتغاليين هزيمة نكراء، وأسر قائدهم فيرناندو وأبى أن يسلمه إلا في مقابل تحرير سبتة. ولما رفض ايدوارد ذلك سيق ابنه أسيراً إلى فاس، ووضع في قفص من خشب وعرض من أعلى سور فاس الجديد إلى أن مات ووضعت جثته داخل جدار المدينة القديمة. وبعد احتلال البرتغاليين لأصيلا وأسرهم أميرها الوطاسي، افتدى هذا الأمير منهم بعض أهله بجثمان فيرناندو. وقد ساق أحمد الناصري هذا الخبر في **الاستقصا**، (96-95:4) نقلاً عن تاريخ عمانويل بشيء من التغيير.

(111) في أحد الربيعين من عام 868 / دجنبر 1463 قام الملك الفونسو الخامس نفسه بحملة ضد طنجة فكانت كارثة عليه، إذ هاجمه الطنجيون وثارت عاصفة في البحر فتكبد بذلك خسائر جسيمة. ولم يكن حظ حملة ثانية خرجت من سبتة بأحسن من الأولى، فانقلب الفونسو إلى البرتغال مهزوماً مدحوراً.

(112) لم يشر المؤرخون المغاربة إلى هذه الحملة، وذكرها مرمول بتفصيل (230:2).

القصرُ الصَّغِير

أسست هذه المدينة الصغيرة على يد المنصور ملك مراكش وخليفتها، على شاطىء البحر، بعيدة عن طنجة بنحو اثني عشر ميلاً، وعن سبتة بنحو ثمانية عشر ميلاً. أسسها لحاجته إلى العبور إلى الأندلس مع جيشه كل سنة، وكان من الصعب عليه أن يخترق بعض الجبال المجاورة لسبتة والتي تمر منها الطريق المؤدية إلى البحر.

تقع هذه المدينة في سهل جميل يرى منه ساحل الأندلس الذي يواجه هذا الجزء من أفريقيا. وكان القصر الصغير متحضراً جداً، يكاد يكون جميع سكانه بحارة يؤمنون العبور بين بلاد البربر وأوربا، وفيهم كذلك نساجون وتجار أغنياء ومحاربون أقوياء.

وقد قام ملك البرتغال بمهاجمة المدينة على حين غفلة من أهلها واستولى عليها، فأرسل عبد الله[113] ملك فاس جيشاً قوياً انضم إليه كافة أهل فاس تقريباً. وحاصر المدينة نحو شهرين دون جدوى، لأن الفصل كان شتاء والثلج يسقط فوق معسكر الجند، بحيث لم يستطيعوا القيام بأي شيء، ورفع الحصار يوم الثلاثاء (16 صفر عام 863) 2 يناير 1459.

سَبْتَــة

سبتة مدينة عظيمة دعاها الرومان سيفيطاس، وسماها البرتغاليون سوبتة. أسسها الرومان، على أصح الروايات، في مدخل مضيق أعمدة هرقل، فكانت حاضرة موريطانيا كلها لإقامة الحكومة الرومانية بها، ولذلك اعتنى بها الرومان فأصبحت مدينة متحضرة جداً وافرة السكان.

وقد احتلها القوط بعد ذلك وأقاموا بها أميراً، وظل حكمها بين أيديهم إلى أن جاء المسلمون إلى موريطانيا واستولوا عليها، لأن يوليان أمير سبتة أهين إهانة كبرى من لدن لذريق ملك القوط واسبانيا كلها، فاتفق يوليان مع المسلمين وأدخلهم إلى الأندلس، وكان ذلك سبباً في هلاك

---

(113) ملك فاس آنذاك هو عبد الحق بن أبي سعيد المريني.

لذريق وضياع ملكه. احتل المسلمون سبتة، وحكموها باسم خليفتهم الوليد بن عبد الملك المقيم آنذاك بدمشق. ومنذ ذلك العهد حتى السنين الأخيرة، ظلت سبتة تنمو باستمرار، سواء فيما يتعلق بعدد السكان أو بشرف أرومتهم، إلى أن صارت أجمل مدن موريطانيا وأكثرها سكاناً. وكان فيها عدد من المساجد والمدارس، وكثير من الصناع والأدباء والعلماء، وعمال مهرة في المصنوعات النحاسية، كالشمعدانات والجفان والمحابر وغيرها، فكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت من فضة. وقد رأيت بعضها في ايطاليا وكثير من الناس يظنون أنها من صنع دمشق، لكن مصنوعات دمشق في الحقيقة أكثر جمالاً وأحسن صنعاً.

وفي ظاهر المدينة أملاك فخمة وديار في غاية الحسن، لا سيما في مكان يدعى بنيونس[114] لكثرة ما غرس فيه من كروم، لكن البادية هزيلة وعرة، ولهذا السبب كانت المدينة تشكو دائماً من قلة الحبوب. ويرى ساحل الأندلس المطل على المضيق من داخل سبتة وخارجها، ويتعرف على ما فيه من حيوانات، لأنه لا يفصل بين ساحلي المضيق سوى مسافة اثني عشر ميلاً.

لكن المدينة البائسة تضررت كثيراً منذ زمن طويل بسبب عبد المومن الملك الخليفة، لأنها انحازت ضده فاستولى عليها وخربها وقضى على كثير من أشرافها بالنفي الدائم إلى مختلف الجهات[115] ثم لاقت سبتة نفس المصير من لدن ملك غرناطة[116] الذي استولى عليها، ولم يكتف بتخريبها

(114) يسميه السكان اليوم «بليونش» كما كان يسميه بذلك القاضي عياض وغيره من المؤلفين السبتيين القدامى. وهو عبارة عن واد خصيب عجيب خلف سبتة، تنبع فيه عيون ثرة، وتشرف بيوته الضائعة بين الأجنة على مياه المضيق، ويرى بالعين المجردة الساحل الاسباني ومرتفعات جبل طارق وحدوره.

(115) كان ذلك عام 1147/542. انظر ع. ابن خلدون، **العبر**، 484:6؛ أ. الناصري، **الاستقصا**، 102:2.

(116) هو محمد ابن الأحمر (الثالث) المعروف بالمخلوع، والذي دخل سبتة بخيانة من بعض أهلها، هو ابن عمه أبو سعيد صاحب مالقة عام 1303/703.

حتى أجلى أعيانها وأغنياءها إلى غرناطة. وبعد ذلك استحوذ أسطول البرتغال على سبتة عام 818، وفر من كان بها، فدخلها النصارى دون عناء، ومكثوا فيها نحو ثلاثة أسابيع متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها، لكن أبا سعيد (المريني) الذي كان ملكاً على فاس آنذاك تخاذل ولم ينهض لاستردادها، بل بالعكس أتاه الخبر وهو في وليمة والناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال. وقد قضت مشيئة الله أن يقتل هذا الملك بعد ذلك شر قتلة بيد أحد كتابه السابقين الذين كان يثق به كل الثقة، وهلك معه سبعة من أبنائه، لأنه راود زوجة هذا الكاتب عن نفسها، وذلك عام 824 للهجرة، وبقيت مملكة فاس ثماني سنوات بدون سلطان، إلى أن عثر على ابن صغير لأبي سعيد من أم نصرانية فرت إلى تونس ليلة المذبحة، وكان ذلك الطفل هو عبد الحق آخر ملوك بني مرين الذي قتله الشعب أيضاً كما سلف القول.

تِطّاوينْ

تطاوين مدينة صغيرة بناها الأفارقة القدامى على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً من المضيق، وستة أميال من البحر. وقد فتحها المسلمون عندما أخذوا سبتة من يد القوط. ويقال ان هؤلاء لما ملكوا تطاوين سلموا حكمها إلى أميرة عوراء كانت تأتي كل أسبوع إلى المدينة لاستلام موردها، ولما لم تكن لها غير عين واحدة فقد سموا مدينتهم تطاوين، ومعناها عين واحدة باللغة الافريقية[117].

ومنذ فترة من الزمان، هاجم البرتغاليون تطاوين وخربوها[118]، وبقيت خربة زهاء ثمانين سنة، ثم جدد بناءها قائد أندلسي جاء إلى فاس

---

(117) بل تطاوين جمع لكلمة تيط التي هي عين الماء الجارية.

(118) حوالي عام 1400-1399/803. غير أن المسيحيين المهاجمين هم القشتاليون رعايا الملك هنري الثالث. انظر م. داود، **تاريخ تطوان**، 1:82-83.

مع ملك غرناطة عندما سقطت هذه المدينة بيد فيرناندو ملك اسبانيا. وكان هذا القائد محارباً مقداماً حقق أعمالاً بطولية خلال حروب غرناطة، فدعاه البرتغاليون المنظري[119]. وقد أذن له بأن يعيد الحكم إلى المدينة ويتولاه هو بنفسه، فأعاد بناء جميع أسوار تطاوين، وشيد فيها حصناً حصيناً أحاطه بخنادق، وفعل مثل ذلك بأسوار المدينة. وكانت له بعد ذلك حروب لا تنقطع مع البرتغاليين، وكثيراً ما ضيق الخناق على سبتة والقصر وطنجة. وكان معه دائمًا ثلاثمائة فارس، كلهم غرناطيون من نخبة أهل غرناطة، فجعل يجوب أنحاء البلاد بهذا الجيش ويأخذ العديد من المسيحيين يحتفظ بهم كأسرى ويستخدمهم في أعمال التحصين. ولقد شاهدت في إحدى المرات التي ذهبت فيها إلى هذه المدينة ثلاثة آلاف أسير مسيحي لابسين جميعاً سترات من الصوف، ينامون ليلاً مقيدين في الأصفاد داخل سراديب تحت الأرض. وكان هذا الرجل في غاية الكرم، حتى إنه كان يضيف كل غريب يمر بالمدينة، وتوفي منذ أمد قريب كفيفاً، لأنه فقد إحدى عينيه بطعنة خنجر، وذهب بصر العين الأخرى أثناء شيخوخته. وآل أمر المدينة إلى أحد حفدته، وهو الآن رجل ذو اقدام ونجدة.



(119) المنظري منسوب إلى المنظر الذي هو أحد الحصون بضاحية غرناطة. انظر ترجمته مفصلة في المصدر السابق، 107:1 وما بعدها.

جِبَالُ الـهَبْط

في الهبط ثمانية جبال أشهر من سواها، تسكنها (قبائل) غمارة. ولهم جميعاً تقريباً نفس النمط في المعاش والأخلاق، لأنهم ينتسبون للإسلام كافة، غير أنهم يشربون الخمر خلافاً لتعاليم هذا الدين. وهم رجال شداء، صبورون على تحمل التعب والشقاء، لكن لباسهم رديء. يخضعون لملك فاس، ويدفعون له ضرائب ثقيلة لا يستطيعون معها أن يرتدوا لباساً لائقاً، باستثناء البعض منهم، كما سنذكره على الخصوص.

جبلُ رَهُونَة

جبل رهونة مجاور لأزجن، طوله ثلاثون ميلاً وعرضه نحو عشرة أميال. يكثر فيه الزيت والعسل والعنب، ولا يشتغل أهل البلاد بغير صنع الصابون وتصفية الشمع، ويعصرون أيضاً الخمر الأحمر والأبيض لاستهلاكهم الشخصي، ويغل هذا الجبل ثلاثة آلاف مثقال لملك فاس تخصص لعامل أزجن لينفق على أربعمائة فارس يعملون في خدمة الملك.

جبلُ بني فَنْزَكَّارْ

هو جبل[120] يتاخم الجبل المتقدم، طوله نحو خمسة وعشرين ميلاً، وعرضه ثمانية أميال. وهو أكثر سكاناً من السابق. يكثر فيه دباغو جلود البقر والعاملون في حياكة القماش الخشن، ويجنى منه الكثير من الشمع. ويقام يوم السبت سوق كبير تجد فيه كل أصناف التجار وأنواع البضاعة، ويقصده الناس حتى الجنويون لشراء الشمع وجلود البقر وإرسالها إلى جنوة

(120) ينطق بها اليوم بني زكار. ويقيمون على الضفة اليمنى لنهر اللكوس، الذي يفصلهم عن رهونة.

والبرتغال. ويغل هذا الجبل سنوياً ستة آلاف مثقال، يخصص نصفها لعامل أزجن، ونصفها الآخر لبيت مال ملك فاس.

جبلُ بنْي عرُوس

يجاور هذا الجبل القصر الكبير، ويمتد على مسافة ثمانيـة أميال شمالاً، وعشرين ميلاً غرباً. عرضه ستة أميال، وسكانه أشراف وفرسان. كان هذا الجبل كثيف السكان كثير الانتاج، لكن هؤلاء الأشراف طغوا على السكان حتى غادروا الجبل منذ أن استولى البرتغاليون على أصيلا، ولم يبق فيه غير بعض المداشر على المرتفعات، أما الباقي فغير مأهول. وكان دخل الجبل فيماسبق يبلغ عادة ثلاثة آلاف مثقال تدفع لقائد القصر الكبير.

جبلُ حَبِيب

في هذا الجبل ستة قصور أو سبعة، يسكنها أناس كرام محترمون. وذلك أنه بعد سقوط طنجة في يد البرتغاليين جاء عدد كبير من أهلها إلى هذا الجبل واستقروا فيه، لأنه على مسـافة خمسـة وعشرين ميـلاً من مدينتهم. لكن الوضع في هذه البلاد معرض للخطر في جملته، وسائر من سيِّـىء إلى أسوأ بدون انقطاع، نظراً لكون القائد الذي يحرس هذه الناحية يقيم على بعد ثلاثين ميلاً من هناك، بحيث لا يستطيع أن ينجدهم في الوقت المناسب كلما قام البرتغاليون بإغارة وعاثوا في الأرض فساداً.

بنْي حَسَّان

جبل بني حسان شاهق عسير المنال على العدو، إذ فضلاً عن طبيعة الأرض، يتميز رجاله بشدة البأس وعظيم الشجاعة، لم يتحملوا القمع من بعض مواطنيهم فنزعوا من أذهانهم كل كبرياء بقوة السلاح، وغيروا أحوال كثير منهم إلى وضعية حقيرة. ثم إن شاباً من بين هؤلاء الأشراف غضب لكونه أصبح محكوماً من أتباعه القدامى، وامتلأ صدره حقداً عليهم، فذهب إلى اسبانيا وعمل فترة من الزمن أجيراً في خدمة النصارى

إلى أن أصبح محارباً محنكاً. وبعد ذلك رجع وسكن أحد هذه الجبال الذي التجأ إليه أتباعه، فجمع عدداً لا يستهان به من الفرسان ودافع عن الجبل ضد تحرشات البرتغاليين. ولما رأى الملك نشاط هذا الرجل الشجاع أمده بمائة وخمسين من الجنود القاذفين، فحارب بهم أهل الجبل وطرد منه خصومه، لكنه استبد بدخل الجبل الذي هوللملك. غضب الملك وزحف إليه في جيش عرمرم، فندم الرجل في الحين على خطئه، وعفا عنه الملك وأقره على حكم شفشاون وناحيتها. وهكذا أصبح حاكمها الشرعي. وهو من آل بيت محمد (عليه السلام) وحفدة ادريس مؤسس مدينة فاس يعرفه البرتغاليون جيداً ويقدرونه أكبر تقدير، ويدعونه باسمه واسم أسرته علي بن راشد(121).

جبل أنْجَرَة

يبعد هذا الجبل عن القصر الصغير بنحو ثمانية أميال، ويمتد على مسافة نحو عشرة أميال طولاً، وثلاثة أميال عرضاً. فيه أراض صالحة للزراعة، لأن أهل البلاد جردوا الأرض من أشجارها ليصنعوا بها سفناً في القصر الذي كانت توجد فيه دار صناعة السفن. وكان من عادتهم أيضاً أن يزرعوا الكتان، وأن يشتغلوا حائكين أو بحريين. لكن لما استولى البرتغاليون على القصر غادر هؤلاء القوم جبلهم. ومع ذلك لا زالت هناك منازلهم وممتلكاتهم على نفس الحالة التي هي عليها كما لو كانت مسكونة ومزروعة.

وَادْرَاسْ

وادراس جبل شاهق بين سبتة وتطاوين(122) يسكنه رجال ذوو شجاعة فائقة برهنوا عنها بجلاء في الحروب التي دارت بين ملوك غرناطة وملوك اسبانيا، فكان هؤلاء الجبليون يذهبون متطوعين إلى غرناطة ويقومون بما لا يقوم به كل جنود أولئك الملوك مجتمعين. وإلى هذا الجبل يعود أصل

---

(121) يحرف البرتغاليون هذا الاسم ويكتبونه (براشا) وكذلك في الترجمة الفرنسية مفككاً بن رشا.

(122) تبلغ أعلى قمة في مرتفعات وادراس نحو 690 ميتر.

المدعو هلولي[123] الذي شارك في معارك ضارية ضد الاسبانيين، ويتداول الناس في بلاد افريقية والأندلس قصصاً شعبية نثرية وشعرية تشيد بانتصارات هذا البطل، مثلما يوجد في ايطاليا من قصص بطولات رولاند. وقد قتل هلولي في حرب اسبانيا لما انهزم يوسف الناصر (الموحدي) قرب قصر في قطلونيا يسميه المسلمون قصر العقاب، حيث قتل عشرة آلاف محارب من المسلمين، ولم ينج إلا الملك في قلة من أتباعه، وذلك عام 609 للهجرة، الموافق لعام 1160 للميلاد[124]. وبعد هذه الهزيمة للمسلمين أخذ النصارى يحققون انتصارات في اسبانيا، إلى أن استردوا كل المدن التي كانت بيد المسلمين. وقد مرت على هذه الهزيمة 285 سنة هجرية قبل أن تسقط غرناطة بيد ملك اسبانيا.

جبلُ بَنْي كُرْفَطْ

يقع هذا الجبل[125] قريباً من تطاوين، كثير السكان، لكنه قليل الامتداد. أهله ذوو نجدة وخصال حميدة، يخضعون لحكم قائد تطاوين ويطيعونه طاعة عمياء، ويذهبون معه للإغارة على اقليم هذه المدينة الخاضع للمسيحيين، ولذلك لا يؤدون لملك فاس أية اتاوة باستثناء مساهمة صغيرة من أراضيهم الزراعية، وهم بعكس ذلك ينتفعون أكبر انتفاع من جبلهم الذي ينتج من خشب البقس المستعمل من طرف صانعي الأمشاط بفاس، فيستورد منه هؤلاء الصناع كل سنة كمية كبيرة من هذا الجبل.

---

(123) لا نعرف هذا الاسم في عصر الناصر الموحدي. وربما اختلط الأمر على المؤلف، إذ المشهور بالصفات التي ذكرها هو محمد بن يحيى البهلولي الشيخ المتصوف الذي قضى حياته كلها في الجهاد، ونظم فيه قصائد وأزجالاً شهيرة أورد نتفاً منها معاصره ابن عسكر في الترجمة الحافلة التي عقدها للبهلولي في **دوحة الناشر**، صفحة 59-61. وكانت وفاة البهلولي في العقد الثاني من القرن الهجري العاشر.

(124) وقع ذلك يوم الاثنين 12 صفر 16/609 يوليوز 1212، عندما هاجم جيش الروم بقيادة ملوك قشتالة وأركون ونافار في نجد «لاس نافاس دوطولازا» بإقليم جيان، جيش المسلمين المعسكر أمام قصر العقاب بقيادة الناصر الموحدي، فأبيد جيش المسلمين بسوء تدبير الملك ووزيره ابن جامع.

(125) كتب في الترجمة الفرنسية «بني كدافرط» وقبيلة بني كرفط شهيرة اليوم بين مدينتي تطوان والعرائس.

الرِّيف
أحد أقاليم مملكةِ فاس

الريف أحد أقاليم مملكة فاس، يبتدىء من تخوم مضيق أعمدة هرقل، ويمتد شرقاً إلى نهر النكور، أي على مسافة مائة وأربعين ميلاً، وينتهي شمالاً عند البحر المتوسط في القسم الأول منه، ليمتد من هناك جنوباً على نحو أربعين ميلاً حتى الجبال المحاذية لنهر ورغة الواقعة بمنطقة فاس. وهذا الإقليم أرض وعرة مليئة بجبال شديدة البرودة ومغطاة بغابات كثيرة فيها أشجار باسقة مستقيمة تماماً. لا ينبت القمح فيها بكثرة، لكن فيها الكثير من أشجار التين والبرتقال.

سكان الريف شجعان، لكنهم تعودوا السكر والملابس الرديئة. وتقل الحيوانات في هذه البلاد، ما عدا الماعز، والحمير، والقرود التي تعيش في مجموعات كبيرة بهذه الجبال، كما تقل فيها المدن، وكل التكتل السكني المهم في قصور وقرى ذات بيوت حقيرة مكونة من طابق أرضي ومبنية بشكل الاصطبلات التي نراها في أرياف أوربا، سقوفها من قش أو لحا الشجر. وجميع نساء هذه الجبال ورجالها مصابون بتضخم الغدة الدرقية، وليسوا سوى غلاظ جهلة.

تَرْغَة

ترغة مدينة صغيرة من بناء القوط حسب قول بعض المؤلفين. تقع على

ساحل البحر المتوسط بعيدة عن المضيق بنحو ثمانين ميلاً[126]، وتحتوي على مائة وخمسين كانوناً تقريباً. أسوارها ضعيفة في الجملة، وسكانها صيادون يملحون ما يصطادونه من سمك ويبيعونه لتجار الجبل، ويحمل إلى مسافة تناهز مائة وعشرين ميلاً في داخل البلاد. وقد انضبطت هذه المدينة وكثر سكانها، لكن منذ وطئتها أقدام البرتغاليين[127] أخذت تنحط سواء في مظهرها أو في عدد سكانها. وتوجد في ضواحيها غابات تغطي جبالاً وعرة باردة، ينبت فيها الشعير بكمية قليلة لا تكفي حاجات نصف السنة. وأهل هذه البلاد شجعان حقاً، لكنهم خشنون جهال سكيرون، ولباسهم في العادة رديء جداً.

بَادِسْ

بادس مدينة مبنية على ساحل البحر المتوسط يسميها الاسبانيون «فيليس دولاكوميرا»، وتضم زهاء ستمائة كانون. يقول بعض مؤرخينا ان الأفارقة هم مؤسسوها، ويقول آخرون ان القوط هم بناتها. ومهما يكن من أمر فإنها واقعة بين جبلين شاهقين. قرب واد سحيق يتكون فيه نهر عندما ينزل المطر[128]. وفي داخل المدينة سوق يضم العديد من الدكاكين وجامع متوسط الكبر، لكن لا وجود للماء الصالح للشرب. وفي خارج المدينة بئر قريب من ضريح أحد الأولياء[129]، إلا أن شرب مائه ليلاً خطير لكثرة العلق به.

ينقسم السكان قسمين، صيادون، وقراصنة يذهبون في زوارقهم لنهب السواحل النصرانية. والجبال حول بادس شاهقة وعرة فيها خشب

(126) بل 50 ميلاً.

(127) حاول البرتغاليون النزول في ترغة عام 1502/907.

(128) هو تلمبادس.

(129) هو أبو يعقوب البادسي المغراوي المتوفى عام 1333/734.

جيد صالح لبناء الزوارق والسفن الشراعية الحربية. لا يعيش الجبليون إلا من هذا الخشب يحملونه إلى مختلف الجهات، ولا ينبت في بلادهم سوى القليل من القمح، ولذلك يأكلون خبز الشعير في هذه المدينة، ويقتاتون على الخصوص بالسردين وغيره من السمك، لأن الصيادين يصطادون منه كميات وافرة بحيث يحتاجون دائمًا إلى بعض الناس يساعدونهم على جر شباكهم. ولذلك تعود بعض الفقراء أن يذهبوا تقريباً كل صباح إلى ساحل البحر لمساعدة الصيادين الذين يكافئونهم باعطائهم كمية مهمة من السمك الذي يصطادونه، ويعطون منه لجميع الحاضرين هناك. أما السردين فإنهم يملحونه ويرسلونه إلى الجبال. وما زال بالمدينة زقاق طويل يسكنه اليهود وتباع فيه الخمر التي يعدها جميع السكان شراباً رائعاً جداً. ويذهب هؤلاء الناس تقريباً كل مساء يكون الجو صحواً في زوارق صغيرة للتنزه على عرض البحر والتسلي بالشراب والغناء.

ولبادس قصبة جميلة، لكنها ليست متينة جداً، يسكنها الأمير الذي يملك أيضاً خارج القصبة قصراً وحديقة بديعة. وفي خارج القصبة أيضاً بجوار البحر دار صغيرة تصنع فيها الزوارق والسفن الشراعية وبعض المراكب. وقد اعتاد الأمير والمدنيون أن يسلحوا زوارق ويرسلوها إلى بلاد النصارى فيلحقوا بها الكثير من الأضرار. ولذلك قام الدون فرناندو ملك اسبانيا المذكور آنفاً بإرسال أسطول بقيادة بدرو نافارو، فاحتل جزيرة قبالة بادس على بعد ميل من المدينة، وبنى فيها قلعة على صخرة (حجرة بادس) شحنها جنوداً ومؤناً ومدفعية قوية، حتى كان رمي الاسبانيين يقتل الناس في أزقة المدينة وفي الجامع، فاستغاث أمير بادس بملك فاس الذي أرسل عدداً من الجنود المشاة لمهاجمة الجزيرة، لكنهم أرهقوا كثيراً، فهلك بعضهم، وسقط آخرون في الأسر، ورجع البعض إلى فاس مصابين بجراح. وقد احتفظ النصارى بالجزيرة إلى أن أرسل ملك فاس من جديد جيشاً بعد مرور أحد عشر عاماً، فسقطت الجزيرة في أيدي المسلمين بسبب

خيانة جندي اسباني قتل القائد الذي زنى بزوجته، وقتلوا جميع من وجدوا فيها من النصارى ما عدا الجندي الخائن وزوجته، فأكرمهما أمير بادس وملك فاس وكافآهما. وكان ذلك عام 1520 للميلاد. وقد سمعت هذه القصة في نابولي من أناس حضروا احتلال الجزيرة، لكنني كنت بفاس عندما استولى عليها المسيحيون. ويحرس اليوم أمير بادس هذه الجزيرة بكل عناية، يساعده في ذلك ملك فاس، إذ يقع هناك أقرب ميناء على البحر المتوسط إلى فاس، بالرغم من مسافة نحو مائة وعشرين ميلاً الفاصلة بين بادس وفاس.

ومن عادة سفن البندقية أن تأتي إلى بادس مرة أو مرتين في السنة حاملة بضائعها، فتتجر فيها بالمبادلة والبيع نقداً، بالإضافة إلى أنها تنقل البضائع وحتى الركاب المسلمين أنفسهم من هذا الميناء إلى تونس، وأحياناً إلى البندقية أو حتى الاسكندرية وبيروت.

يِلِّيشْ

يليش مدينة صغيرة على ساحل البحر المتوسط، بعيدة عن بادس بنحو ستة أميال. ميناؤها جيد إلا أنه صغير، تلتجىء إليه السفن الكبيرة الذاهبة إلى بادس عندما يهيج البحر. وبجوار المدينة عدة جبال مغطاة بغابات كبيرة من الصنوبر. والمدينة في أيامنا هذه مهجورة بسبب القراصنة الاسبان. لا يرى فيها غير بعض أكواخ للصيادين الذين يوجدون في حالة استنفار باستمرار، فلا يكادون يلمحون زورقاً قادماً حتى يخفوا إلى الجبل، وسرعان ما يعودون مع عدد كبير من الجبليين للدفاع عن أنفسهم.

تَغَسّة

تغسة مدينة صغيرة كثيرة السكان، تقع على نهر صغير على بعد ميلين عن البحر، وتشتمل على أقل من خمسمائة كانون، لكن ليس بها

سوى مساكن رديئة. وسكانها كلهم صيادون، وملاحون يحملون الميرة إلى المدينة، لأن الأراضي كلها جبال وغابات. وهناك جملة حسنة من الكروم والأشجار المثمرة، وما سوى ذلك تافه. لا يأكل أعيان تغسة غير خبز الشعير والسردين والبصل. وقد أقمت مرة في هذه المدينة ثلاثة أيام، فلاحظت أن رائحة السردين تفوح من الجدران والأزقة، وبدت لي هذه الأيام الثلاثة كأنها ثلاثة أشهر بسبب ما كانت عليه المدينة وأهلها من شناعة وقذارة.

جبهة

جبهة مدينة صغيرة ذات أسوار جيدة، أسسها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً من بادس. يسكنها الناس تارة ويهجرونها أخرى بحسب الموارد المتوفرة لدى المكلفين بحكمها وحراستها، ويحيط بها إقليم وعر تكثر فيه العيون والغابات. وفي الضواحي بعض الكروم والأشجار المثمرة. وليس في هذه البلدة بناء ولا مسكن لائق باستثناء السور المتقن البناء.

المَزَمَّة

كانت المزمة[130] مدينة كبيرة واقعة فوق جبل صغير على ساحل البحر المتوسط بالقرب من حدود اقليم كرط. يقع في أسفلها سهل كبير، عرضه نحو عشرة أميال، وطوله ثمانية وعشرون ميلاً من الشمال إلى الجنوب، ويمر نهر نكور في وسطه فاصلاً بين الريف وكرط. يسكن هذا السهل أعراب يحرثون أرضه ويحصدون منه كميات عظيمة من القمح، يبلغ نصيب أمير بادس منها زهاء خمسة آلاف مكيال (موكجيا).

وكانت هذه المدينة قديماً في غاية الحضارة كثيرة السكان، دار مقام لأمير هذا الإقليم، لكنها دمرت ثلاث مرات. خربها أول مرة خليفة

---

(130) يرى الأستاذ محمد الفاسي أن المزمة هي مدينة الحسيمة الحالية.

القيروان الذي غضب على أمير المزمة حين امتنع من أداء الخراج المعتاد، فسقطت المدينة في يده ونهبها وأحرقها وقطع رأس أميرها وأرسله إلى القيروان على رأس رمح، عام 318 للهجرة. وظلت المدينة مهجورة خمسة عشر عاماً قبل أن يقوم بعض الأمراء بإعادة تعميرها تحت رعاية خليفة القيروان، لكن ملك قرطبة حسده على ذلك، لأن المدينة لم تكن تبعد بأكثر من ثمانين ميلاً عن حدوده البحرية، وهي مسافة عرض البحر الفاصل بين مالقة الواقعة في مملكة الأندلس، وهذه المدينة الواقعة بموريطانيا. بدأ ملك الأندلس يحاول أخذ الخراج فقوبل بالرفض، وأرسل أسطولاً احتل المدينة في فترة وجيزة، لأنه لم يكن هناك أي مدد ينتظر من الخليفة بسبب بعد القيروان عن المزمة بألفين وثلاثمائة ميل، حتى إنه قبل أن يصل طلب المدد إلى القيروان كانت المدينة قد سقطت ودمرت وحمل أميرها أسيراً إلى قرطبة، حيث بقي هناك إلى أن مات. والمزمة الآن خربة، لكن أسوارها قائمة سالمة، ويرجع تاريخ تدميرها الأخير إلى عام 872 للهجرة.

جبل بْني كُرِيرْ

سنتحدث الآن عن بعض جبال الريف، فجبل بني كرير يسكنه فرع من غمارة، وهو مجاور لترغة. يمتد على طول عشرة أميال تقريباً. فيه غابات وكروم وبساتين الزيتون، وسكانه فقراء مدقعون، يلبسون الثياب الحقيرة، ولا يملكون من الماشية إلا القليل، ويصنعون كثيراً من الخمر والدبس. ولا ينبت الشعير إلا بقلة في البلاد.

جبل بْني مَنْصُور

يمتد هذا الجبل على مسافة خمسة عشر ميلاً طولاً وأربعة أميال عرضاً، وتكثر فيه الغابات والعيون. سكانه أولو بأس شديد، إلا أنهم فقراء، لأن جبلهم لا ينتج غير العنب، لكنهم يملكون شيئاً من الماعز،

ويقيمون مرة في الأسبوع سوقاً لم أر فيه غير البصل والثوم والزبيب والسردين المملح، وقليل من الشعير والدخن يصنعون منه الخبز. وهم على ساحل البحر تحت سلطة أمير بادس.

جبلُ بَقُّويَة

يمتد هذا الجبل على طول أربعة عشر ميلاً وعرض ثمانية أميال تقريباً، ويسكنه قوم أغنى قليلاً من الجبليين الآخرين، ومنظّمون تنظيمًا محكمًا. يملكون بعض الخيول لأن جبلهم يضم حوله أراضي جيدة، ولا يؤدّون كثيراً من الخراج لأن ولياً مدفوناً في بادس أصله من بلاد بقوية.

جبل بني خالد

تمر الطريق المؤدية من بادس إلى فاس بهذا الجبل، وهو بارد جداً مليء بالغابات، فيه عيون مياه شديدة البرودة، وسكانه خاضعون لأمير بادس، وهم لصوص سفاكون بسبب فقرهم والضرائب التي تثقل كواهلهم[131].

بني منصور

يمتد هذا الجبل على مسافة ثمانية أميال تقريباً، ويبعد عن الساحل كالجبلين السابقين. سكانه شجعان أشدّاء، لكنهم دائمًا سكارى، يجنون كثيراً من العنب وقليلاً من الحبوب. تذهب نساؤهم خلف قطعان ماعزهم ليرعينها، ويقمن بالغزل في أثناء ذلك. وليس فيهن واحدة وفيّة لزوجها.

بني يوسف

طول هذا الجبل اثنا عشر ميلاً تقريباً، وسكانه فقراء يرتدون أحقر لباس من كل الآخرين، لأنه لا ينبت أي شيء حسن في جبلهم، عدا

---

(131) موطن بني خالد اليوم في الشمال الغربي لبني زروال، بعيد جداً عن الطريق المباشر بين بادس وفاس، وقد يكون المؤلف سها أو أخطأ.

القليل من الدخن الذي يخلطونه مع بزور العنب ويستخرجون منه دقيقاً يصنعون منه خبزاً أسود كريهاً شنيعاً حقاً. يأكلون عادة البصل كثيراً، ومياه عيونهم كدرة، إلا أنهم يملكون كمية كبيرة من الماعز يُعتبر لبنها بالنسبة لهم غذاء ثميناً.

جبلُ بْني زَرْوِيلْ

لهذا الجبل الذي غُرس فيه الكثير من الكروم[132] أرض طيبة صالحة للزيتون وغيره من الأشجار المثمرة، وسكانه فقراء خاضعون لأمير شفشاون الذي يفرض عليهم اتاوات ثقيلة، بحيث لا يستطيع هؤلاء أن يوفّروا شيئاً مما يدرّه عليهم نبيذهم. يقيمون مرة في الأسبوع سوقاً لا يُعرض فيه غير التين المجفّف والزبيب والزيت، ويذبحون عادة كثيراً من التيوس والعنزات المسنّة التي لم تعد صالحة للنتاج.

جبلُ بني رْزينْ

يكاد يكون هذا الجبل ملاصقاً للبحر المتوسط في ضواحي ترغة، ويعيش سكانه في سعة وأمن، لأن جبلهم حصين وخصيب. لا يؤدّون أي خراج، ويجنون القمح والزيتون ويملكون كروماً كثيرة. أرضهم جيدة لاسيما منحدرات الجبل، ونساؤهم يرعين الماعز ويحرثن الأرض.

جبلُ شَفْشَاوَنْ

هذا الجبل[133] أحسن جبال افريقيا كلها، فيه مدينة صغيرة مليئة بالصنّاع والتجّار، يقيم بها أمير يحكم العديد من قبائل هذه الجبال، وفي

---

(132) لعله يقصد أحد جبال بني زروال المعروفة شمال فاس، والتي ألّف فيها محمد البشير الفاسي كتاباً مفيداً طُبع بالرباط عام 1962. انظر فيما يأتي «جبل» بني وزروال والهامش رقم 140.

(133) كتب في الترجمة الفرنسية «ششاون» وهو تحريف بدون شك. وإنما هو شفشاون منذ عهد تأسيس المدينة به في القرن العاشر إلى اليوم. كما ينطق به أيضاً الشاون.

عهده بدأ ازدهار هذه البلاد. ثار هذا الأمير المدعو سيدي ابن راشد على ملك فاس، وشنّ كذلك حرباً لا هوادة فيها على البرتغاليين. لا يؤدّي سكان هذه المدينة وهذا الجبل أي خراج للأمير، لأن معظمهم جنود مشاة أو فرسان؛ ولا ينبت هناك غير القمح مع كثير من الكتان؛ وتوجد غابات كثيرة وعدد لا يحصى من العيون. ولباس سكان البلاد حسن جداً.

بنْي جبْارَة

هذا الجبل وعر جداً شديد الارتفاع[134]، تمر بعض الجداول الصغيرة في سفحه المغطّى بالكروم وأشجار التين، ولا ينبت فيه القمح. يرتدي السكان لباساً رديئاً، ويملكون عدداً وافراً من الماعز وبعض الثيران القصيرة التي تشبه بقامتها عجولاً عمرها ستة أشهر. ويقام هناك سوق كل أسبوع، لكنه يكاد يكون خلواً من البضائع مع أنه يأتي إليه تجار فاسيون وبغّالون يحملون الثمار إلى فاس. وكان الجبل إقطاعاً لأحد أقارب الملك، يغلّ نحو ألفي مثقال في السنة.

جبلُ بنْي يَرْزُو

كان هذا الجبل كثير السكان، فيه مدرسة لطلبة علم الكلام أُعْفِيَ السكان بسببها من الضرائب، إلى أن جاء أحد الطغاة معاناً من قِبَل ملك فاس، فخرّبه واستحوذ عليه وعلى المدرسة التي وجد فيها كتباً تبلغ قيمتها أربعة آلاف مثقال، وقتل رجالاً محترمين معظّمين، وذلك عام 918 للهجرة.

تيزرن

تيزرن[135] جبل مجاور للجبل السابق، فيه عيون عديدة وغابات وكروم. وتظهر فيه على الخصوص آثار بناء قديم اخالهُ من صنع الرومان،

---

(134) يبلغ ارتفاع جبل سوكنا في بني جبارة 1.614 متر.

(135) عند مرمول: «تيزيران» وهو الاسم المعروف حتى اليوم.

ولذلك ترى الباحثين عن الكنوز الذين تحدّثنا عنهم آنفاً يقومون بالتنقيب فيه. وسكان الجبل جهلة، والضرائب تفقرهم.

بْني بُوشِيبتْ

هذا الجبل في غاية البرودة والوعورة، لا تنبت فيه حبوب ولا يمكن اقتناء الماشية بسبب البرد والجفاف. أشجاره في حالة لا تتمكّن الماعز معها من أن تقتات بها. وتُجنى منه كمية كبيرة من الجوز تتموّن منه فاس والمدن المجاورة. وكل العنب الذي يُجنى هنا أسود، يُصنع منه زبيب جميل غليظ شديد الحلاوة، كما يُصنع منه الكثير من الدبس المطبوخ وتُعصر كمية عظيمة من الخمر. يلبس الناس كلهم عباءة قصيرة من الصوف. من نوع الأغطية الرديئة التي يستعملها التجّار في إيطاليا للف الأقمشة التي يحملونها من مدينة إلى أخرى. ولهذا اللباس المخطط بالأسود والأبيض قلنسوة يضعها هؤلاء القوم على رؤوسهم، فيكونون في أعين من يراهم أشبه بالبهائم منهم بالناس.

ولا يجد تّجار الجوز والزبيب الذين يأتون من فاس إلى هذا الجبل في الشتاء ما يقتاتون به خبزاً ولا لحمًا، ما عدا البصل والسردين المملّح فقط، وثمنهما مرتفع جداً في هذه البلاد. ويقتات الناس بالدبس المطبوخ وحساء الفول ويعتبرونهما أحسن قوت، ويأكلون هذا الدبس مع الخبز.

جبل بْني وْلِيدْ

هذا الجبل شاهق[136] صعب المسالك، سكانه أغنياء لأن لهم كروماً كثيرة ذات عنب أسود يصنعون منه الزبيب، وأراضي مغروسة بكميات ضخمة من اللوز والزيتون. أضف إلى هذا أنهم لا يؤدّون أي

(136) يبلغ ارتفاع جبل درنكل في بني وليد 1.602 ميتر.

خراج لملك فاس، ما عدا ربع مثقال تقريباً عن كل مدشر، الأمر الذي يسمح لهم بالذهاب إلى فاس بأمان للبيع والشراء. وإن أساء أحد إليهم ومرّ أحد أقربائه بجبلهم منعوه من الرجوع إلى بيته ما لم يقع التكفير عن تلك الإساءة.

يرتدي الرجال لباساً حسناً ويتزيّنون بالحلي. وكل مذنب نُفي من فاس يلقى الأمان عندهم، بل ويُعفى من النفقات ما دام مقيماً بين أظهرهم. ولو كان هذا الجبل يعترف بسلطة ملك فاس، لأمكنه أن يجبى منه ستة آلاف مثقال، لأنه يضم ستين قرية كلها غنية.

جبلُ مَرْنِيسَة

يُتاخم هذا الجبل الجبل السابق، ويرجع أصل سكانه إلى نفس أصل بني وليد[137]، ويضاهونهم غنى وحرية وشرفاً؛ لكنهم يختلفون عنهم من حيث العادات في أن كل امرأة أصابتها إهانة من زوجها مهما كانت ضئيلة، فرّت إلى الجبال الأخرى تاركة أولادها وتزوجت من رجل آخر. وهذا هو السبب الذي يجعل الرجال في الغالب يحملون السلاح وتكون بينهم مشاجرات دائمة. وإن جنحوا للصلح فلا بد أن يدفع من تبقى المرأة عنده للزوج الأول ما أنفقه في زواجه، وهم متشدّدون في هذا الأمر، ولهم قضاة مختصّون منهم، بحيث إنهم لا يكتفون بسلخ الخصوم المساكين، ولكن ينتزعون قلوبهم.

آيَشْتُــومْ

آيشتوم[138] جبل شاهق بارد جداً، فيه عيون عديدة وكروم ذات عنب أسود، وتين ممتاز وسفرجل فريد في كبر حجمه وبهائه ورائحته،

---

(137) يرى ابن خلدون أن مرنيسة من نفزاوة، والقبائل المجاورة لها من جهة الغرب صنهاجية.

(138) ما يزال هذا الاسم يطلق اليوم على إحدى القرى في شمال المغرب عند قبيلة متيووا على الضفة اليمنى لنهر ورغة بالقرب من واد كزار.

وكذلك الليمون الحامض، لكن أشجار الليمون توجد بالسهل عند قدم الجبل. وهناك أيضاً عدد كثير من أشجار الزيتون تعطي كميات وافرة من الزيت. والسكان معفون من كل الاتاوات، غير أنهم يقدّمون كل سنة على سبيل الملاطفة لملك فاس هدايا حسنة وافرة، ويمكنهم بذلك أن يذهبوا إلى فاس في أمان تام لشراء القمح والصوف والقماش. وهم يلبسون في الواقع لباس الأشراف، لاسيما أهل القرية الرئيسية حيث يقيم معظم الصنّاع والتجّار والأعيان.

جبل بنْي يَدَّرْ

هذا الجبل كبير جداً كثير السكان، لكنه لا يُنتج سوى العنب الأسود الذي يصنع منه الزبيب والخمر. وكان سكانه في القديم معفين من الضرائب، لكنهم كانوا بسبب فقرهم يقتلون الغرباء ويسلبونهم، ولذلك أخضعهم أمير بادس معاناً بقوات ملك فاس وسلبهم حريتهم. وفي هذا الجبل قرابة خمسين قرية لائقة جداً، إلا أنه لا يُستخرج من مجموعها أربعمائة مثقال في السنة.

جبل لُوكَايْ

هو جبل صعب المسالك شديد الارتفاع(139)، سكانه أثرياء جداً لأنه يُنتج كثيراً من العنب الذي يُصنع منه الزبيب، والتين واللوز والزيتون والسفرجل والليمون. وحيث إن هذا الجبل يقع على بعد خمسة وثلاثين ميلاً من فاس، فإن أهله يبيعون جميع فواكههم في هذه المدينة.

يوجد في جبل لوكاي أعيان وفرسان متكبّرون إلى أقصى حد، بحيث لم يقبلوا قط أداء أية إتاوة، فالطبيعة والجبل يحميانهم حماية تامة.

---

(139) تدعى صنهاجة لوكاي اليوم صنهاجة مصباح، ولم يبق محتفظاً باسم لوكاي غير قمة الجبل التي يبلغ ارتفاعها 1629 ميتر.

يقبلون جميع المنفيين من فاس ويُرحّبون بهم ما عدا الزناة، لأن هؤلاء القوم غيورون لا يرغبون في وجودهم بينهم، ويسمح لهم الملك بذلك بسبب الربح الوفير الذي يقدّمه هذا الجبل لمدينة فاس.

بْني وَزَرْوَالْ

يمتد هذا الجبل(140) ثلاثين ميلاً طولاً وخمسة عشر ميلاً عرضاً تقريباً، وينقسم إلى ثلاثة جبال أخرى، تجري بينها وبين الجبلين السابقين أنهار صغيرة. وأهل هذه البلاد شجعان مقدامون، لكن قائد ملك فاس يثقل كاهلهم بالضرائب، فيؤدّون عشرة آلاف مثقال في السنة.

هذا الجبل خصيب حقاً، يُنتج العنب والزيتون والتين والكتّان، وتُصنع فيه كميات عظيمة من الخمر والدبس المطبوخ والزيت ونسيج الكتان الخشن، فيُستخرج من كل ذلك المال اللازم لأداء هذا المبلغ إلى القائد الذي يقوم نوابه ومستخدموه في عين المكان باستمرار، لسمل عيون هؤلاء الجبليين.

عدد القرى والمداشر (في هذا الجبل) لا يُحصى، يضم بعضها مائة كانون، وبعضها مائتين. ويمكن تقدير عدد التجمعات السكنية بنحو مائة وعشرين ما بين قرية ومدشر. وهؤلاء القوم في حرب دائمة مع جيرانهم، فيكثر القتلى بينهم، ويفرض الملك غرامة على الطرفين، بحيث تكون هذه الحروب دخلاً للملك. وفي هذا الجبل مدينة صغيرة متحضّرة جداً تحتوي على كثير من الصنّاع، وتحيط بها أغراس كثيرة من الكروم وأشجار السفرجل والليمون تحمل ثمارها إلى فاس. وتُصنع في هذه المدينة كمية

(140) ينطق بها اليوم «بني زروال»، لكن كتب التراجم القديمة تتحدث عن الوزروالبين، كما تتحدث عن الزرويليين، الأمر الذي يؤكد ما ذهب إليه الحسن الوزان من وجود جبلين لبني زرويل ولبني وزروال.

صالحة من الثياب، وفيها قضاة ومحامون، لأنه عندما يقام السوق يجتمع فيه أناس كثيرون من الجبال المجاورة.

وتوجد بهذا الجبل، في بطن واد، فرجة تشبه باب كهف يخرج منها لهب عظيم باستمرار، لاحظتُ أن كثيراً من الغرباء يقصدون هذا الوادي لمشاهدة هذه النار، ويلقون فيها أغصاناً وقطعاً من الخشب فتحترق على الفور. وهذا أعجب شيء شاهدته من بين الظواهر الطبيعية، ويعتقد بعض الناس أن هذه الفرجة هي فم جهنم.

جبلُ بنْي وَرْيَاكُلْ

يُتاخم هذا الجبل(141) سابقه، لكن سكانها يعيشون في عداء مستمر. وعند قدم الجبل سهل جميل جداً، يحاذي إقليم فاس ويخترقه نهر ورغة. وتُستخرج من هذا الجبل كمية كبيرة من الزيت والقمح والكتان، ويُصنع فيه الكثير من القماش، غير أن الملك الصالح يضع يده دائمًا على أموال الأفراد الخصوصيين، بحيث إن الذين يُفترض فيهم أن يكونوا أغنى الناس هم في الحقيقة أفقر الناس بسبب جور الملك. وهؤلاء القوم بطبيعتهم أشدّاء شجعان، يكونون نحو اثني عشر ألف مقاتل، وقراهم عظيمة يقل عددها قليلاً عن ستين.

بنْي احْمَد

يمتد هذا الجبل على طول ثمانية عشر ميلاً، ويبلغ عرضه سبعة أميال. وهو وعر جداً، تظهر فيه بعض الغابات وكثير من الكروم والزيتون

(141) يفرّق النسابون بين بني ورياكل هؤلاء (بالكاف المعقودة) المستقرين على ضفاف نهر ورغة وبين بني ورياكل (بالكاف العادية) فريق من قبيلة بطوية على ساحل البحر المتوسط، وكلاهما من صنهاجة.

والتين، لكن ليس فيه من الأرض الصالحة للزراعة إلا القليل. يثقل ملك فاس كاهل هؤلاء السكان بالمغارم، ويوجد حول الجبل وعلى منحدراته جداول صغيرة وعيون، لكن ماءها مرٌّ عكر تكاد تكون رواسبه كلها كلسية. وجميع الناس هنا تقريباً مصابون بتضخّم الغدة الدرقية كما ذكرنا ذلك عند غيرهم، وكلهم يشربون خمراً صرفاً تعتّق مدة خمسة عشر عاماً، لكنها تُصنع بعد تخمير قليل، ويصنعون أيضاً نبيذاً غير مخمّر، كما يصنعون كمية وافرة من الدبس المطبوخ ويضعونه في جرار ضيّقة القعر عريضة الفوهة. ويُعقد السوق مرة في الأسبوع، حيث تباع كميات عظيمة من الخمر والزيت والزبيب الأحمر. ويعيش هؤلاء الجبليون في فقر مدقع يتجلّ في لباسهم، وتوجد بينهم عداوات قديمة، وهم مسلّحون باستمرار.

جبلُ بْني جَنْفَنْ

يُتاخم هذا الجبل الجبل السابق ممتداً على نحو عشرة أميال، ويجري بينهما نهر صغير، لكن سكانه كلهم سكّيرون يعبدون الخمر، ولا يُجنى من هذا الجبل أي نوع من الحبوب، وإنما يُنتج كميات ضخمة من العنب. وفيه الكثير من الماعز الذي يُحتفظ به دائمًا في الغابات، ولا يؤكل غير لحم التيس أو العنز. وأستطيع أن أتحدّث عن هذا الجبل لأنني كنت على اتصال بهؤلاء الجبليين خلال فترة طويلة من حياتي، إذ كان لأبي أملاك في هذا الجبل، إلا أنه كان يعاني الشدائد لاستخلاص محصول أراضيه الزراعية وكرومه، لأن هؤلاء القوم يماطلون كثيراً عند الأداء.

جبل بْني مَسْكلْدة

يجاور هذا الجبل الجبل السابق ونهر ورغة، ويصنع جميع سكانه الصابون، لأنهم يستخرجون من جبلهم كمية كبيرة من الزيت، لكنهم لا يعرفون كيفية صنع الصابون الصلب. وتمتد سهول كبيرة عند سفح

الجبل هي في أيدي بعض الأعراب الذين هم في حرب مع سكان الجبل في أغلب الأحيان. ويفرض ملك فاس على هؤلاء الجبليين ضرائب جسيمة يجد الذرائع دائمًا للزيادة فيها.

يوجد من بينهم عدد من علماء الشريعة الإسلامية لهم طلاب كثيرون، يُلحقون أكبر الضرر بهذه الجبال، لاسيما في الأماكن التي يستقبلون فيها بالترحاب، فهم يعاقرون الخمر سراً وينهون الناس عن شربها لأنها حرام فلا يثق بهم أحد. ولا تُفرض على أهل البلاد ضرائب ثقيلة، لأنهم ينفقون على الفقهاء والطلبة.

جبل بنْي وَمُودْ

يُتاخم هذا الجبل إقليم فاس إلا أن النهر فاصل بينهما، ويصنع أيضاً جميع سكان الجبل الصابون، ويستخلص الملك من هذا الصنع ستة آلاف مثقال. وليس بهذه البلاد أكثر من خمس وعشرين قرية، والأراضي الزراعية في كل منحدرات الجبل جيدة. والماشية كثيرة، إلا أن الماء قليل. والحاصل أن جميع السكان أغنياء، يذهبون كل مرة إلى فاس يوم انعقاد السوق، فيبيعون فيه جميع منتجاتهم بربح وفير. ولا ينبت بهذا الجبل أي شيء غير ضروري للحياة البشرية، ويبعد عن فاس بعشرة أميال[142].

---

(142) لم يبق بنو ومود معروفين بهذا الاسم اليوم. وقد أكّد مرمول وجودهم بضاحية فاس على بعد ثلاثة مراحل اسبانية منها، أي أقل من 17 كيلومتر، وذكر أنهم يقدّمون أربعة آلاف مقاتل. وربما كان النهر المقصود هنا هو ايناون، والحياينة هم الذين حلّوا محل بني ومود.

كَـــرْطْ
سادس إقليم في مملكة فاس

لقد وصفنا منطقة الريف ومدنها وأشهر جبالها، وسنتابع الكلام عن كرط سادس إقليم في مملكة فاس.

يبتدىء كرط[143] غرباً عند نهر ملولو[144] وينتهي شرقاً لدى نهر ملوية، وجنوباً في جبال واقعة على تخوم بعض صحراء نوميديا، بينما يحاذي البحر المتوسط شمالاً من نهر نكور إلى ملوية. ويمتد في الجنوب من نهر ملولو[145] إلى جوار جبال الحوز[146]، حيث ينحدر حدّه نحو البحر بمحاذاة وادي نكور.

يبلغ طول هذا الإقليم نحو خمسين ميلاً، وعرضه نحو أربعين ميلاً. وهو شديد الوعورة شديد الجفاف، شبه صحراء نوميديا، ويقل فيه السكان، لاسيما منذ أن استولى الإسبان على أهم مدنه كما سأذكره لكم.

---

(143) كرط: أحد مراسي نكور، على ما عند البكري في **المسالك والممالك** ـ ص 91 ـ ونكور هو صالح بن منصور الحميري فاتح هذا الإقليم الشمالي من المغرب أيام الوليد بن عبد الملك الأموي، فسمي باسمه، ونزل بتلمسان وعلى يده أسلم بربرها من صنهاجة وغمارة ثم ارتدّ أكثرهم. ولا نعرف متى حل اسم كرط محل نكور في الإطلاق على هذا الإقليم.

(144) بل نهر نكور.

(145) أحد روافد ملوية.

(146) يعني المرتفعات الجبلية شرق تازا.

مْلِيلَـــة

مليلة[147] مدينة كبيرة قديمة، أسّسها الأفارقة على رأس خليج بالبحر المتوسط، وفيها نحو ألفي كانون. وقد كانت مزدهرة جداً لأنها كانت عاصمة المنطقة، ولها إقليم كبير يُنتج كمية هامة من الحديد والعسل، ومنه اشتقّ اسمها مليلة الذي يعني العسل في لغة الأفارقة[148].

وفي القديم كان يصاد في المرسى نفسه صدف اللؤلؤ، وكانت مليلة حيناً من الدهر خاضعة للقوط، لكن المسلمين فتحوها بعد ذلك وهرب القوط إلى الأندلس التي تبعد عن المدينة بمائة ميل، وهو عرض البحر في هذا المكان.

وقد أرسل ملك اسبانيا في هذه الأزمنة الحديثة أسطولاً لحصار مليلة، لكن السكان أُعلموا به قبل وصوله، فطلبوا النجدة من ملك فاس الذي كان مشغولاً بحرب ضد قبائل تامسنا، فأرسل إليهم كتيبة خفيفة. أما أهل مليلة الذين كانوا على معرفة تامة بأهمية الأسطول الاسباني، فانهم خافوا ألّا يقدروا على التصدّي للهجوم، فأخلوا المدينة فارّين بأمتعتهم إلى جبال بطوية. ولما رأى ملك فاس ذلك أضرم النار في جميع المنازل وأحرق المدينة عقاباً لأهلها ونكاية في المسيحيين. وكان ذلك عام 896 هجرية. ولما وصل الأسطول بعد الحريق ورأى النصارى المدينة خالية دمّرتها النيران، سقط في أيديهم، لكنهم أبوا أن يتركوها من أجل ذلك، فبنوا فيها حصناً. ورمّموا شيئاً فشيئاً كل أسوارها، وهم اليوم مالكوها.

---

(147) هكذا ورد عند الوزان، وهو الأصل في تسمية هذه المدينة المغربية: مليلة (على وزن سفينة) على ما عند الصديق بن العربي في كتاب المغرب (ص 106) ثم حرفت بالاستعمال فصارت تدعى مليلية.

(148) العسل بالبربرية «تامنت» ومليلة تحريف عربي لكلمة تامليلت بمعنى موقع مدرج، وكذلك كانت مليلة مبنية على منحدر صخري.

غِسَاسَة

تبعد هذه المدينة عن السابقة بنحو عشرين ميلاً، وقد كانت محصّنة جداً ومحاطة بأسوار متينة، لها ميناء حسن. كان من عادة سفن البندقية أن تقصده قديماً، وتبرم صفقات تجارية هامة مع أهل فاس تدرّ عليهم أرباحاً وافرة. لكن سوء الطالع أراد أن يكون لملك فاس في بداية حكمه مشاكل خطيرة مع أحد أبناء عمه، فاضطر إلى أن يمكث في مواجهته مع جميع جنده. وابتكر فرناندو ملك اسبانيا مخططاً لاحتلال غساسة فأخذها بدون عناء، لأن ملك فاس لم يتمكن من إنجاد المدينة، وفرّ أهلها عنها قبل سقوطها.

تَزُوطَة

تزوطة بلدة من بلاد كرط، واقعة على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من غساسة إلى الداخل، وهي مبنية على ربوة عالية جداً، لها درب صغير يؤدّي إليها ويدور حول الهضبة. وليس بداخل المدينة ماء غير ماء الخزّان. وكان مؤسسو تزوطة من أسرة بني مرين قبل أن يُصبحوا ملوك البلاد، يحفظون فيها حبوبهم وأمتعتهم، وبذلك كانوا يستطيعون الانتجاع في الصحاري بكل طمأنينة، إذ لم يكن في ذلك العصر أعراب في كرط. لكن ما إن استلم بنو مرين مقاليد الحكم حتى تركوا إقليم كرط لبعض جيرانهم مهتمين بأقاليم أكثر أهمية، إلى أن زحف يوسف بن يعقوب بجيشه على ملك تلمسان، فقيّده حصارها، وثار عليه أمير تزوطة في جميع جنده لاستلاب بعض ممتلكات الملك. استنفر الملك جيشاً أرسله بقيادة أحد اخوته لمحاربة الثائر، فاتّجه الجيش نحو تزوطة وحاصرها طوال شهرين تقريباً، إلى أن سقطت وخرّبت بأمر من ملك فاس، وظلت خربة إلى أن استولى الاسبانيون على غساسة، فطلب أحد قوّاد ملك فاس، وهو من أصل أندلسي وعلى جانب كبير من الشجاعة، أن يُؤذن له بإعادة بناء

تزوطة، وأذن الملك بذلك فأعيد بناء المدينة. وتقوم اليوم بين نصارى غساسة ومسلمي تزوطة حرب دائمة وغارات متوالية، تكون الدائرة يوماً فيها على هؤلاء ويوماً على أولئك.

مدينة أمَــجَّاوْ

أمجاو مدينة صغيرة جاثمة فوق جبل عال على بعد نحو عشرة أميال غربي تزوطة، بناها الأفارقة على مسافة نحو ستة أميال من الساحل، وسكانها نبلاء كرماء، وعند قدم الجبل الذي بنيت عليه المدينة سهل يُنتج القمح، وفي جميع الجبال المجاورة مناجم حديد يعمر العمال المشتغلون فيها العديد من المداشر والقرى.

آلت إمارة هذه المدينة إلى فارس شاب مقدام ينتمي إلى أسرة الموحّدين الملكية، وكان أبوه فقيراً جداً ينسج الكتّان فعلّم ابنه هذه المهنة. أحسّ هذا الشاب بسمو نفسه وعرف نبل محتده، فترك أقمشته وذهب إلى بادس، حيث التحق بجيش أميرها كفارس عادي ليتعلم المهنة العسكرية. ولما كان أيضاً يحسن العزف على العود، فإن الأمير استخدمه كذلك موسيقياً في بلاطه. وفي هذه الأثناء أراد أمير تزوطة أن يشنّ غارة على النصارى، وطلب من أمير بادس أن يُنجده ببعض الفرسان، فبعث إليه بثلاثمائة فارس، من بينهم هذا الشاب النبيل. وقد برهن صاحبنا في هذه الموقعة وفي غيرها على شجاعة عظيمة وعزيمة قوية، لكن الأمير لم يقدّره قدره ولم يعترف إلا بقيمته كموسيقي. تألّم الشاب من ذلك وترك الأمير، واستدعى بعض أصحابه من فرسان كرط فساعدوه على الاستيلاء على قلعة أمجاو. وبقي معه خمسون فارساً كان ينفق عليهم عدد من أصدقائهم الجبليين معتمدين على مواردهم الشخصية. وحينئذ أرسل أمير بادس ثلاثمائة فارس وألف راجل لإخراجهم من القلعة، لكن هذا الشاب النبيل مع بعض رجاله تمكّن من هزيمتهم، فطارت شهرته لدرجة أن ملك فاس أقرّه

في الحكم وصرف إليه المعونة التي كـان بيت المال يقدّمها لأمراء بادس لحماية المملكة ضد الاسبان. وقد تعلّم الغاربة من هذا الرجل كيف يدافعون عن أنفسهم، الأمر الذي جعل ملك فاس يضاعف له الأجر. ويسوس هذا القائد مائتي رجل يعادلون أكثر من ألفين من فرسان قواد الأمراء المجاورين له.

جبل كَبْدَانَة

يمتد هذا الجبل من غساسة إلى نهر ملوية شرقاً، ومن البحر المتوسط إلى صحراء كرط جنوباً، وكان معموراً بكثير من الرجال الأغنياء الأبطال، منتجاً لكميات عظيمة من العسل والشعير والماشية، لجودة أرضه، ولكون جميع المناطق المجاورة له هي عبارة عن مراع فسيحة، غير أنه لما سقطت غساسة بيد الاسبان، لم يستطع هؤلاء الجبليون أن يستقرّوا في بلادهم، لأن قراهم كانت متباعدة جداً بعضها عن بعض ومنقسمة على نفسها، فتركوهـا وأحرقـوا بيوتهم بـأيديهم وذهبـوا بأمتعتهم إلى جبـال أخرى فسكنوها.

جبل بني سعيد

يمتد هذا الجبل من غساسة إلى نهر النكور غرباً، أي على مسافة نحو أربعة وعشرين ميلاً، وتتقاسمه عدة قبائل، كلها غنية ومكوّنة من رجال شجعان وكرماء جداً، حتى إن التجار والمسافرين الذين يقصدون هذا الجبل لا ينفقون شيئاً من أموالهم. وتستخرج من الأرض كمية كبيرة من الحديد، وينبت فيها كثير من الشعير. والماشية وفيرة بسبب السهل الكبير الذي يستغلّه أهل البلاد والذي لا يشكو أبداً من قلة الماء. ولا يدفع السكان أية ضريبة، ولكل عامل في المعدن داره قرب المنجم مع ماشيته ومعمله الذي يصفي فيه الحديد، وينقل التجار هذا الحديد إلى فاس في

شكل سبائك، لأن عمال المعادن لا يعرفون كيف يحوّلونه إلى قضبان. وما لا يباع منه يُستخدم آلات كالمجارف والفؤوس والمناجل، وكذلك لصنع أسلحة لهؤلاء الفلاحين، إذ لا يمكن استخلاص الفولاذ من هذا الحديد.

جبل أزْكَنْكَنْ

يُتاخم هذا الجبل[149] بلاد غساسة من ناحية الجنوب، ويحتوي على عدد كثير من الرجال الشجعان الأثرياء، لأن إنتاجه لا يقل عن إنتاج الجبال السابقة، وله مزية أخرى هي أن صحراء كرط تقع في سفحه، بحيث إن سكان هذه الصحراء يقومون بتجارة كبيرة مع هؤلاء الجبليين. وقد ظلّ جبل أزكنكن هو الآخر مهجوراً من سكانه على أثر سقوط غساسة.

جبل بْنِي تُوزِينْ

يتاخم هذا الجبل الجبل السابق من جهة الجنوب، ويمتد على مسافة نحو عشرة أميال بين صحراء كرط ونهر النكور. ولهذه الكتلة الجبلية نحو ستة عشر ميلاً، تحيط بها السهول من جهة، والسكان أحرار يزرعون أرضهم دون أداء أية إتاوة، لا لقائد تزوطة، ولا لأمير أمجاو، ولا لأمير بادس؛ لأن عندهم من الفرسان ضعف ما عند هؤلاء الثلاثة جميعاً، فضلاً على ما لهم من دالة على أمير أمجاو بسبب مساعدتهم إياه في تقلّد إمارته. ويجاملهم أيضاً ملك فاس لأنهم أصدقاء أسرته منذ القديم قبل أن تصبح أسرة مالكة.

لذلك فإن أحد هؤلاء الجبليين، وهو رجل عالم ذو مكانة كبيرة كان

---

(149) يقع جبل أزكنكن مباشرة جنوبي تزوطة، على بعد 27 كلم من مليلة.

يشتغل بمهمة وكيل بفاس، استطاع أن يصون حرية مواطنيه، إذ كثيراً ما كان يذكّر الملك بفضائل أجداده. وكانت هذه الصداقة مع بني مرين أكبر من ذلك أيضاً في الزمن القديم لأن أم أبي سعيد، ثالث ملوك هذه الدولة، كانت بنت وجيه كبير من هذا الجبل[150].

جبل وَرْدَانْ

يتاخم هذا الجبل الجبل السابق من الشمال، ويمتد على طول نحو اثني عشر ميلاً باتجاه البحر المتوسط، وعلى عرض ثمانية أميال حتى نهر النكور، وسكانه شجعان أثرياء كالسابقين، يقيمون يوم السبت سوقاً كبيراً على ضفة نهر صغير، يلتقي فيه معظم فلاحي كرط، ويأتي إليه كذلك عدد مهم من تّجار الحديد. وتتم المبادلات التجارية بأجهزة الخيل وبالزيت في مقابل الحديد، إذ لا تنتج بلاد كرط الكثير من الزيتون، ولا يفكر أحد هنا في صنع الخمر، لأنهم لا يشربونها ولو أنهم مجاورون للريف الذي يعاقر سكانه الخمر. وقد ظلّ سكان الجبال حيناً من الدهر أتباعاً لأمير بادس، لكنهم حصلوا من ملك فاس، بفضل عالم خطيب منهم، على أن تكون ضريبتهم حسب تقديرهم، ولذلك تراهم يقدّمون للملك كل عام عدداً من النقود والخيل والخدم، لكنهم لم يعودوا يقبلون الخضوع لأمير بادس.

صحراء كَرْطْ

تنقسم منطقة كرط إلى ثلاثة أقسام، يشمل الأول المدن وإقليمها، والثاني الجبال التي تحدّثنا عنها ويحمل سكانها إجمالاً اسم بطوية، والثالث صحراء تبتدىء شمالاً عند البحر المتوسط، وتمتد جنوباً إلى صحراء منطقة

(150) يبدو أن أم أبي سعيد المريني المولود عام 675/1276، هي عائشة بنت أحد رؤساء أعراب الخلط (؟).

الحوز، وتتاخم غرباً الجبال المذكورة آنفاً، وتنتهي شرقاً على نهر ملوية. يبلغ طولها نحو ستين ميلاً، وعرضها ثلاثين. وكلها جافة وعرة لا يوجد فيها ماء إلا في ملوية. ويعيش في هذه الصحراء عدد وافر من الحيوانات التي لا يوجد مثلها إلا في صحراء ليبيا المتاخمة لنوميديا. ومن عادة الكثير من الأعراب أن يقيموا بها في الصيف قرب ملوية، وكذلك القبيلة التي تدعى البطالسة[151]، وهي شرسة تملك عدداً عظيماً من الخيل والغنم والإبل. وكثيراً ما يكون هؤلاء الرعاة في حرب مع من يجاورهم من الأعراب.

(151) المطالسة حالياً.

الحَوْزْ
سابعُ إقليم في مملكة فاس

يعتبر اقليم الحوز ثلث مملكة فاس، ويمتد من نهر زاع شرقاً إلى نهاية نهر تيكريكرة غرباً، أي على مسافة نحو مائة وتسعين ميلاً. كما يمتد عرضاً على مائة وأربعين ميلاً أو أكثر، لأن جميع عرض جزء الأطلس المقابل لموريطانيا واقع في هذا الاقليم. ويشتمل الحوز أيضاً على قسم كبير من السهول المتاخمة لليبيا. وفي الزمن الذي احتل فيه عبد الحق، أول ملوك بني مرين، موريطانيا والمناطق المجاورة لها، وزع هذه الأراضي بين أفخاذ قبيلته وبين أبنائه الأربعة؛ وكان أولهم يدعى أبا بكر، والثاني أبا يحيى، والثالث أبا سعيد، والرابع يعقوب بويع ملكاً لأنه هو الذي طرد الموحدين ملوك مراكش وقضى عليهم. وقد مات أسلافه الثلاثة قبل أن يحتلوا مراكش فلم يتلقبوا بلقب الملوك(152).

وهكذا خصصت أربعة أقاليم لأبناء عبد الحق، والأقاليم الثلاثة التي لم تقسم بعد قسمت إلى سبعة أقسام خصصت لفروع قبيلة بني مرين الأربعة، ولقبيلتين أخريين من أقاربهم المجاورين لهم، فنتج عن ذلك أن

---

(152) بعد مقتل رأس الاسرة المرينية الأمير عبد الحق بن محيو خلفه أربعة من أبنائه بالتتابع: أبو سعيد عثمان، فأبو معرف محمد، فأبو يحيى أبو بكر، فأبو يوسف يعقوب المنصور. ويذكرون أن عدد أبناء عبد الحق تسعة، وبنت هي العاشرة، انظر أ. الناصري، **الاستقصا**، 3 :5-20.

اعتبر اقليم الحوز مقابلاً لثلاثة أقاليم، إذ كان عدد المشاركين في هذا التوزيع عشرة، والأقاليم الموزعة سبعة. وكان الأمير عبد الحق أول من قسم هذه الأقاليم إلى نفس العدد من الأقسام، وهو الذي اعتبر أن الحوز هو القسم الرئيسي، كما سنرى ذلك عندما نصفه مدينة مدينة وجبلاً جبلاً، وموقعاً موقعاً.

تَوْرِيرْتْ

هي مدينة قديمة بناها الأفارقة على تلٍ مرتفع قرب نهر زاع. تحيط بها أراض زراعية جيدة، لكنها لا تمتد بعيداً لمحاذاتها صحراء وعرة جافة، وتتاخم هذه الصحراء من الشمال صحراء كرط، ومن الجنوب صحراء الظهرة، ومن الشرق صحراء أنكاد حيث تبتدىء مملكة تلمسان؛ ومن الغرب صحراء تفراطة المتاخمة لمدينة تازا.

كانت توريرت مدينة متحضرة آهلة بالسكان، تحتوي على نحو ثلاثة آلاف كانون، وعلى قصور جميلة ومساجد مبنية بالحجر الكلسي، غير أنه لما استولى بنو مرين على مملكة الغرب أصبحت هذه المدينة موضع نزاع وميدان حروب عديدة. فقد رغب المرينيون في أن تتبع توريرت مملكة فاس، بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضموها إلى مملكتهم، فأدى ذلك إلى أن احتلها بنو مرين ودمروا قسمًا كبيراً منها كان يسكنه أعداؤهم. ولما اشتغلوا بعد ذلك بحروب مراكش واستأثرت بهم حوادثها الخطيرة حتى لم يعودوا يولون أمر توريرت كبير اهتمام، وثب عليها ملك تلمسان فاستردها وخربها ونهب الجانب الذي كان يسكنه أعداؤه منها. وما كاد يعقوب المريني يستولي على مراكش حتى أسرع إلى توريرت واستردها، وهكذا استبدلت توريرت رؤساءها عشر مرات في ظرف خمسين سنة، تارة تخضع لملك فاس، وتارة لملك تلمسان، إلى أن دمرت أخيراً وهجرت في الحرب الأخيرة التي شنها أحمد حادي عشر ملوك بني مرين بفاس، عام 780

للهجرة. وبعد ذلك أقطعوها لأحد رؤساء الأعراب، ورأى سكانها القليلون أنهم بعد أن هدتهم تلك الحروب أصبحوا تحت رحمة هؤلاء الأعراب، فغلبهم اليأس وعزموا على الهجرة وترك المدينة، وذات ليلة فروا إلى ندرومة، وهي مدينة تابعة لملك تلمسان. وبقيت توريرت خالية موحشة كما نراها اليوم. وما زالت لحد الآن أسوارها وأبراجها وبيوتها قائمة سليمة لم تتهدم منها غير السقوف.

هَدَّاجِيَة

كانت هداجية مدينة صغيرة من بناء الأفارقة في موقع يشبه الجزيرة، إذ يصب بالقرب منها نهر ملول في نهر ملوية. وكانت قديماً مدينة كثيرة السكان متحضرة، لكنها أخذت في الانحطاط منذ أن فتح العرب المغرب، لمجاورتها صحراء الظهرة، حيث تعيش قبائل من الأعراب الأشرار. وقد دمرت هداجية تماماً بعد تدمير توريرت، ولم يبق منها سوى الجدران التي ما تزال ماثلة حتى اليوم.

كُرْسِيف

هو قصر قديم جداً مشيد فوق صخرة قرب نهر ملوية، على بعد نحو خمسة عشر ميلاً[153] من توريرت. وكان هذا القصر قصبة قبيلة بني مرين، تخزن فيه حبوبها عندما كانت تسكن الصحراء، ثم تحول إلى مقر إمارة على يد أبي عنان خامس ملوك بني مرين[154]. ولا يوجد في السهل الذي يحيط بهذا القصر سوى القليل من الأراضي الزراعية، ليس فيها غير بعض البساتين الصغيرة المغروسة بالكروم وأشجار الخوخ والتين. ونظراً لوقوع

---

(153) بل 25 ميلاً.

(154) بل هو سابع ملوك بني مرين، ولي الملك من عام 1348/749إلى عام 1358/759.

هذا القصر في قلب الصحراء، فإن هذه البساتين في مثل هذا المكان، تبدو وكأنها جنة آدم.

وسكان كرسيف خشنون ليس لهم أدنى تربية، عملهم الوحيد هو حراسة الحبوب المخزونة في القصر لحساب سادتهم الأعراب. ومنظر هذا القصر بشع من الخارج كأنه خربة محروقة، جدرانه متهدمة سوداء، وكذلك جميع المنازل المكسوة بحجارة سوداء.

مدينة دَبْدُو

دبدو مدينة قديمة أسسها الأفارقة على منحدر جبل شاهق منيع جداً باستحكاماته الطبيعية. ويسكن المدينة فرع من شعب زناتة. وينزل من حدور الجبل عدد كثير من مجاري المياه تمر بداخل دبدو. وتقع المدينة على بعد خمسة أميال من السهل، غير أنه لا يظن أنها على بعد أكثر من ميل ونصف عندما ينظر المرء إليها من سفح الجبل، ويمتد الدرب المؤدي إليها في منعرجات لابد من تتبعها في جانب الجبل. وجميع الممتلكات المزروعة واقعة على المرتفعات، لأن السهل المحيط بها قاحل تماماً. وهناك بعض الحدائق الصغيرة على ضفاف جدول يجري في سفح الجبل. ولا تسد المزروعات القائمة على المرتفعات حتى نصف حاجات سكان المدينة، ولذلك يجلب إليها القمح من بلاد تازا.

وقد بنيت دبدو لتكون معقلاً لفرع من قبيلة بني مرين على أثر تقسيم مناطق الغرب على يد عبد الحق. وآلت المنطقة التي تقع فيها دبدو إلى قبيلة تدعى بني ورتاجن، وما تزال تملكها حتى الآن. ولما فقد بنو مرين مملكة فاس، حاول الاعراب المجاورون انتزاع إمارة دبدو من بني ورتاجن، لكن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم ببسالة بفضل معونة المسمى موسى بن حمو أحد رجال هذه القبيلة، فاضطر الأعراب إلى عقد معاهدة معه، وبقي موسى أميراً على المدينة بقية حياته. وخلفه من بعده ابن له يدعى أحمد كان يشبه

أباه من جميع الوجوه. وخلف أحمد هذا ابنه محمد الذي كان حقاً من رجال الحرب البارزين، وغزا قبل توليه الحكم عدة مدن وقصور في سفح الأطلس نحو الجنوب على تخوم نوميديا. ولما آل إليه حكم مدينة دبدو زينها بعدد من البنايات، ووصل بها إلى مستوى عال من الازدهار. وقد أبدى كثيراً من الأريحية والبشاشة تجاه الغرباء وأبناء السبيل الذين يمرون بهذه المدينة، وعامل كل واحد منهم معاملة شريفة، وغمرهم بإحسانه، وقام بنفقاتهم أحسن قيام، إلى أن طار صيته بين العديد من القبائل.

ولم يعدم أناساً نصحوه بانتزاع تازا من يد ملك فاس، ووعدوه بأن يمدوه بكل ما يحتاج إليه من معونة لتحقيق ذلك، وتم حبك المؤامرة التالية: يذهب محمد في يوم من أيام السوق إلى تازا، في زي رجل جبلي، متظاهراً بشراء ما يحتاج إليه كسائر الناس، فينقض المتآمرون حينئذ على قائد تازا ويسهل الأمر، لأن السكان سيساعدونهم. غير أن المؤامرة افتضحت، وبادر ملك فاس، وهو (محمد) الشيخ أبو الملك الحالي، بالزحف إلى دبدو لاحتلالها، ومعه أكثر ما أمكنه أن يجمع من الجند. ولما وصل إلى سفح الجبل رتب جيشه للقتال، لكن الجبليين الذين كان عددهم ستة آلاف تراجعوا مكراً وخديعة، وتركوا قسمًا من جنود الملك يتوغلون في منعرجات الجبل الضيقة التي يعسر الخروج منها. ولما وصلوا إلى حيث أراد الجبليون، انقض هؤلاء بحماسة وقوة على جنود الملك المرهقين بالتعب. ولما كانت الطريق ضيقة وعرة فإن جنود الملك عجزوا عن صد الهجوم ولجأوا إلى الفرار فكان بعضهم يمنع البعض من التقهقر، وأخذوا يسقطون من أعلى الصخور فدقت أعناق أكثر من ألف رجل، وأناف عدد قتلاهم على ثلاثة آلاف.

لم يتخل الملك عن مشروعه على أثر الفشل، وقرر القيام بهجوم عام على المدينة بما كان لديه من خمسمائة من قاذفي السهام، وثمانمائة من أصحاب البندقيات الخفيفة. وقد أدرك محمد أنه لن يستطيع الدفاع عن

نفسه، وفكر في أن يستسلم للملك، فتزيًا بزي رسول وتقدم إلى خباء الملك ليسلمه خطاباً كتبه بيده باسم أمير دبدو، وهو الأمير نفسه، ولم يكن أحدهما يعرف الآخر. أمر الملك بأن يقرأ الخطاب وطلب من الرسول رأيه في أميره، فأجابه: «أعتقد أن أميري مجنون حقاً، لكن الشيطان يستطيع أن يضل الكبار والصغار!» فصاح الملك قائلاً: «والله لو سقط في يدي كما أتمنى ذلك لسلخت جلد ظهره ومزقته حياً ارباً اربا!» فأجاب الرسول: «لو ارتمى بين قدمي جنابك ملتمساً العفو والصفح عن خطيئته فكيف تعامله؟» فرد الملك قائلاً: «في مثل هذه الحالة، وحياتي لو أنه برهن هكذا عن اعترافه بالإساءة إلي، فإني لن أصفح عنه فحسب، ولكنني سأربطه معي بروابط القرابة، وأزوج اثنتين من بناتي بـاثنين من بنيه، وأقره في حكمه، وأضيف إلى ذلك ما أراه أهلاً له من صلات، لكنني لا اخاله فاعلاً ما دام مجنوناً». فقال الرسول: «انه سيفعل ذلك إذا أكد جنابكم وعـده بمحضر من أعيان الحاشية!» قال الملك: «أظن أن الكفاية حاصلة في الأشخاص الأربعة هنا، فهذا كاتبي الأول، والثاني قائدي العام، والثالث صهري، وذلك الشيخ الكريم هو قاضي قضاة فاس وشيخ الجماعة بها. فلما سمع محمد هذا الكلام ارتمى بين قدمي الملك قائلاً: «هذا هو المذنب الذي لا ملجأ له إلا عفوك!» ذهل الملك والحاضرون وعجبوا مما حدث. وقال له الملك: «لست والله مجنوناً كما كنت أحسب!» ثم ضمه إليه وقبله ليشعره بأنه قبل مصاهرته، وأمر فوراً باحضار اثنتين من بناته فزوجهما من ابني محمد، ثم تناولا طعام العشاء معاً. وفي الغد رحل الملك بمحلته راجعاً إلى فاس، ومعه صهراه ولدا أمير دبدو.

وقد عانت جيوش فاس الأمرين في هذه الحركة، لأنها وقعت في شهري يونيه ويوليه، ولأن البادية شديدة الحر والجفاف على مسافة ثمانين ميلاً الفاصلة بـين دبدو وتازا، بحيث لا يوجـد الماء إلا في ثـلاثـة معسكرات، فاضطر الجنود إلى الاسراع لقطع هذه المناطق الحارة، ومات

الكثير منهم من شدة الحر في الذهاب والاياب، وذلك عام 904 للهجرة. وكان هذا الشيخ الأمير بقيد الحياة عام 921 حينما خرجت من فاس ونزلت عنده في دبدو، فأحاطني بعناية فائقة بسبب رسائل التوصية التي كنت أحملها من الملك ومن أحد اخوته زوج احدى بنات هذا الأمير. وأقمت هناك يومين فسألني خصوصاً عن حاشية ملك فاس واخوته.

مدينة تَازَا

تازا مدينة كبيرة لا يقل نبلها عن قوتها، وتعيش في رخاء على أرض خصبة. أسسها الأفارقة القدماء على بعد نحو خمسة أميال من الأطلس، وتبعد تقريباً عن فاس بنحو 50 ميلاً، وعن البحر المحيط بـ 130 ميلاً، وعن البحر المتوسط بـ 7 أميال[155] مروراً بصحراء كرط عندما يتجه المرء إلى غساسة. تشتمل هذه المدينة على ما يقرب من خمسة آلاف كانون، لكن دورها غير جميلة، باستثناء قصور الأشراف والمدارس والمساجد المبنية بجدران في غاية الاتقان. وينحدر من الأطلس نهر صغير يمر بالمدينة ويخترق الجامع الكبير، ويغير الجبليون أحياناً مجراه عندما يختصمون مع سكان المدينة، ويصرفونه إلى مكان آخر فتتأذى المدينة كثيراً، إذ لا يمكن حينئذ طحن الحبوب ولا الحصول على ماء صالح للشرب، ويضطر السكان إلى الاكتفاء بماء الخزانات العكر. ثم يرد الجبليون الماء إلى المدينة عندما يعود السلام.

تحتل هذه المدينة الدرجة الثالثة في المملكة من حيث المكانة والحضارة، ففيها جامع أكبر من جامع فاس، وثلاث مدارس، وحمامات وفنادق كثيرة، وأسواق منتظمة كأسواق فاس. وسكانها شجعان كرماء

---

(155) يظهر أن خلطاً في الأرقام وقع هنا أيضاً، والصواب أن تقرأ مرتبة هكذا: 80 و 250 و 75 ميلاً.

بالقياس إلى أهل فاس، من بينهم عدد كثير من العلماء والأخيار والأثرياء، لأن أراضيها تنتج أحياناً ثلاثين ضعف مايبذر فيها. وحول المدينة شعب تسقيه جداول ماء في غاية الجمال، وتكثر فيه بساتين تنتج كميات وافرة من ألذ الثمار، وكروم تعطي محصولاً طيباً من العنب الأبيض والأحمر والأسود، يعصر منه اليهود الذين لهم نحو خمسمائة دار في المدينة خمراً في غاية الجودة، يقال انها أجود خمور هذه النواحي كلها. وما زالت تشاهد بتازا قصبة جميلة كبيرة يسكنها عامل المدينة.

ومن عادة ملوك فاس لهذا العهد أنهم يقطعون هذه المدينة لثاني أبنائهم. ومن الواجب ــ والحق يقال ــ أن تكون حاضرة المملكة لطيب هوائها شتاء وصيفا. وكان ملوك بني مرين يقيمون بها الصيف كله، لا لهذا السبب فحسب، ولكن أيضاً لحراسة البلاد وحمايتها من أعراب الصحراء الذين يأتون كل سنة ليمتاروا حاملين تمور سجلماسة قصد استبدالها بالحبوب. ويكسب أهل المدينة ربحاً وافراً من الحبوب التي يبيعونها للأعراب بثمن مرتفع.

وباختصار، فإن تازا محظوظة جداً، سواء فيما يخص المدينة ذاتها أو السكان. وليس فيها شيء مزعج غير الوحل الذي تمتلىء به شتاء.

ذهبت إلى تازا واتصلت بشيخ مشهور عند العامة بالصلاح، وكان واسع الثراء من محصول أملاكه ومن الهبات التي يقدمها له أهل تازا وأهل فاس، ويشد الفاسيون الرحال لزيارته من مسافة خمسين ميلاً[156]. وكنت من الذين يرتابون فيما يفعله هذا الشخص قبل أن أراه، فلما رأيته تبين لي أنه كسائر الناس، لا يعمل إلا أشياء (عادية) تخدع العامة.

ولتازا أراض شاسعة تضم جبالاً كثيرة تسكنها قبائل شتى، حسبما سنفصله.

---

(156) تقدم أن المسافة بين تازا وفاس 80 ميلاً، لا 50.

جبل مْطَغْرَة

هذا الجبل[157] شامخ جداً صعب المرتقى، لأنه مغطى بغابة كثيفة ذات منعرجات في غاية الضيق، يبعد عن تازا بنحو خمسة أميال. وفي أعلاه أراض زراعية جيدة وبعض العيون، ولا يدفع سكانه خراجاً، يحصدون القمح والكتان ويصنعون الزيت. لهم كمية كثيرة من الماشية لاسيما الماعز، وقلما يحترمون ملوكهم. فبعد أن هزموا مرة جنود ملك فاس اختطفوا القائد وطلعوا به إلى جبلهم حيث مزقوه ارباً ارباً تحت أنظار الملك، ولذلك لم يمنحهم الملك قط صداقته التي لم يعتدوا بها شيئاً. وفيهم نحو سبعة آلاف محارب، لأن لهم ما يقرب من خمسين قرية.

جبل غِيَاثَة

يشبه هذا الجبل الجبل السابق في أنه عسير المرتقى، ويقع على بعد نحو خمسة أميال من تازا، مشتملاً على أراض زراعية جيدة في القمة والمنحدرات، تنبت فيها كمية عظيمة من الشعير والكتان. يمتد من الشرق إلى الغرب على مسافة قرابة ثمانية أميال طولاً وخمسة أميال عرضاً. وهناك عدة شعاب مكسوة بغابات تكثر فيها القرود والفهود، ويشتغل السكان بالحياكة، وهم شجعان كرماء، لا يقدرون على الاتجار في السهل لأنهم لا يخضعون لملك فاس ولا يقدمون له أية ضريبة، بسبب كبريائهم وطبيعة جبلهم الذي يمكنهم من الصمود أمام حصار يدوم عشر سنوات، لأنهم يجدون في نفس المكان كل ما يحتاجون إليه، فضلاً عن عينين نضاختين تكونان نهرين.

---

(157) مطغرة اسم قبيلة كبرى من قبائل البربر، انتشر أفرادها في أقطار المغرب الثلاثة، انظر كتابنا الحركة الفكرية، 2 :580.

جبل مْكَّاصَّة

جبل مكاصة[158] صعب موحش مغطى بالغابات، لا ينبت فيه سوى القليل من القمح، لكن يكثر فيه الزيت، وينسج جميع السكان الأقمشة، لأنهم يجنون كمية لا بأس بها من الكتان. وهم شجعان كانوا راجلين أو راكبين، شديدو البياض لأن جبلهم عال وبارد. ولا يؤدون أية ضريبة، ويمكنهم ايواء المنفيين من فاس. يملكون العديد من الحدائق والكروم، ولا يشرب أحد منهم الخمر، ويعطي هذا الجبل حوالي ستة آلاف محارب، لأنه يضم أربعين قرية كبيرة ومزدهرة.

جبل البْرَانْس

يقع هذا الجبل على بعد خمسة عشر ميلاً شمال تازا، وتسكنه قبيلة غنية قوية تملك الكثير من الخيول ولا تؤدي أية ضريبة. ينبت كثير من القمح في هذا الجبل، وتنتشر فيه حدائق وكروم العنب الأسود، لكن لا تعصر فيه خمر. نساء هذا الجبل بيضاوات بدينات يتزين بكثير من حلى الفضة، لأن القوم أثرياء. والرجال غضوبون حقاً وذوو جرأة كبيرة، فالويل لمن يغامر مع نسائهم، وكل إساءة أخرى تتضاءل عندهم أمام هذه الاساءة.

بني وَرْطْنَاجْ (تْسُولْ)

هذا الجبل شاهق صعب المرتقى لما يوجد فيه من غابات وصخور، ويبعد عن تازا بنحو ثلاثين ميلاً، ينبت فيه القمح والكتان والزيتون والليمون الحامض والسفرجل الجميل المعطر، وتكثر فيه البهائم. ما عدا

---

(158) لم تعد مكاصة اليوم سوى قبيلة صغيرة على الضفة اليمنى لواد بوهلو الرافد الجنوبي لنهر ايناون.

الخيل والبقر فإن عددها قليل، والسكان شجعان كرماء، يرتدون لباساً لائقاً كلباس الحضريين، وعدد القرى نحو خمس وثلاثين تعطي ثلاثة آلاف محارب من الشجعان المجهزين أحسن تجهيز.

جبلُ وَبْلاَنْ (بُويَبْلاَنْ)

وبلان[159] جبل شاهق شديد البرودة كثير الاتساع، يقارب طوله ستين ميلاً وعرضه خمسة عشر ميلاً، ويجاور شرقاً جبال دبدو، وغرباً جبل بني يازغة، ويبعد عن تازا بنحو خمسين ميلاً، ويظهر الثلج بقمته في جميع فصول السنة.

وكانت تسكنه في القديم قبيلة كبيرة غنية شجاعة تعيش في حرية دائمة، الى أن طغت فاجتمعت قبائل الجبال المجاورة وتحالفت ضدها، واستولوا على الجبل وقتلوا جميع الرجال، ثم أحرقوا كل القرى، ولذلك فهو الآن خال من السكان.

وحدث أن اعتزلت في قمة هذا الجبل أسرة من أهله عندما رأت طغيان أقربائها الذين انضموا إلى الآخرين ليعيثوا في الأرض فساداً، فاستقرت هناك مع أولادها وقليل من المال الذي كانت تملكه، وعاشت عيشة بسيطة زاهدة، فتركوها وشأنها. وما زال أحفاد هؤلاء القوم يسكنون في نفس المكان. ونظراً لكونهم متأدبين يعيشون مستقيمين، فان لهم مكانة كبيرة عند ملك فاس. وكان هنالك في أيام شبابي شيخ عالم جداً على جانب من الشهرة جعلت ملك فاس يستعمله كوسيط في جميع معاهدات الصلح والاتفاقيات التي يبرمها مع قبائل الأعراب. وكانت الخلافات تعرض عليه كرجل صالح، ولذلك كرهته حاشية الملك أشد كراهة.

---

(159) يعني «بويبلان» باللهجة البربرية «ذا الأبيض» لظهور الثلج في قمته طوال السنة، ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر 3.910 ميتر.

بْني يَسْتِيتَنْ

يخضع هذا الجبل لحكم أمير دبدو، وتسكنه قبيلة من الرعاع، يمشون حفاة ويلبسون اسمالاً حقيرة ويسكنون أكواخاً من قصب. وإذا أراد أحدهم أن يتجول في هذه المنطقة فتل لنفسه نعلاً من أسل (حلفاء)، وقبل أن يتم فتل الزوج الثاني يكون الزوج الأول قد بلي. ومن هنا نتصور كيف يحيا هؤلاء السكان. فهم ذوو متربة، لا ينبت في جبلهم سوى الدخن الذي يصنعون منه الخبز، كما يصلح أيضاً لإعداد أطعمة أخرى. وفي سفح الجبل بساتين تنتج كثيراً من العنب والتمر والخوخ، تنزع النواة من الخوخ ويقسم إلى أربعة أجزاء ويجفف في الشمس، وبذلك يحتفظ به طوال السنة ويعتبر طعاماً شهياً جداً.

وفي منحدرات الجبل مناجم حديد، يعالج فتصنع منه صفائح تحذى بها الخيل، وتستعمل نفس الصفائح كعملة، إذ لا نقود في البلد أو هي نادرة جداً. ومع ذلك فإن هؤلاء الجبليين يحصلون من حديدهم على دخل لا بأس به، لأنهم يبيعون منه كمية كبيرة. ويصنعون منه الخناجر كذلك إلا أنها لا تقطع شيئاً. وتتحلى النساء بخواتم واقراط من حديد، ولباسهن أسوأ من لباس الرجال، يذهبن دائماً إلى الغابة للاحتطاب ورعي الماشية. والتعليم منعدم، فلا أحد يعرف القراءة، وهم يسرحون كالأغنام بدون تفكير ولا ذكاء.

وقد حكى لي قاضي القضاة لدى أمير دبدو حكاية مضحكة تصفهم تماماً، قال: أرسل أمير دبدو إلى هذا الجبل نائباً، وهو رجل ذكي جداً، فعشق فلاحة ولم يدر كيف يقوم بمغامرته الغرامية، لأن المرأة كانت متزوجة ولا يتركها زوجها وحدها أبداً. وذات يوم رآهما ذاهبين إلى الغابة يسوقان دابة لحمل الحطب. ولما وصلا إلى الغابة، ربط الزوج الدابة إلى غصن شجرة، وافترق هو وزوجته يقطعان الحطب. ظل الرجل يرقبهما، ولما ابتعدا ذهب

إلى الشجرة وأطلق الحمار الذي أخذ يبتعد شيئاً فشيئاً بحثاً عن الكلأ. ولما اعتقد الزوج أنه جمع ما يكفي من الحطب، رجع إلى المكان الذي ترك فيه الدابة وأوصى زوجته أن تنتظره هناك. ولما لم يجد الحمار في المكان الذي ربطه فيه، فانه ذهب يبحث عنه وصرف في العثور عليه وقتاً طويلاً. وفي هذه الأثناء حضر السيد النائب، وكان قد اختفى في أحد الأدغال منتظراً نتيجة خدعته، ونال من المرأة ما أراد دون كبير مناقشة. وما كاد ينتهي من عمليته الغرامية حتى أقبل الزوج بالدابة التي وجدها، وقد أضر به الحر والتعب حتى صار يلهث، فلم يبصر العاشق الذي تملص بسرعة، وحمل الحطب على الدابة. ثم انه أراد النوم، فاضطجع في ظل شجرة بجانب امرأته. ولما داعبها كعادته وقعت يده على المكان فوجده نادياً وسألها: «لماذا أنت مبتلة؟» فأجابته المحتالة الصغيرة: «بكيت إذ لم أرك راجعاً، وظننت أن الدابة قد ضلت، فشعرت أختي الصغيرة بذلك وجعلت هي الأخرى تبكي شفقة علي». وثق بها الزوج الغبي وطلب منها أن تطمئن وتكف عن البكاء.

جبل سْلِيلْكُو (سْلِيلْيُو)

هو جبل مكسو بغابة من أشجار الصنوبر الكبيرة، وفيه عيون كثيرة. وليس لسكانه أي بيت من حجر، وإنما كل أكواخه من قصب يستطيعون نقلها من مكان إلى آخر، إذ يضطرون إلى مغادرة الجبل في الشتاء ليعيشوا في السهل. وفي آخر شهر ماي يغادر الأعراب بدورهم الصحراء، وهكذا فإن لأهل هذه البلاد مزيتين في الصعود من جديد إلى جبلهم، الأولى الفرار من وجه الأعراب، والثانية الذهاب إلى طقس بارد يعيشون فيه ويعود بالنفع عليهم وعلى دوابهم، لأن لهم الكثير من الغنم والماعز، وعندما يقترب فصل الشتاء يرجع الأعراب إلى الصحراء لأنها أكثر دفئاً، ولأن إبلهم لا تعيش في المناطق الباردة. وفي هذا الجبل كثير من الأسود والفهود، والقردة التي تشبه عند رؤيتها جيشاً شاكي السلاح لكثرة أعدادها.

وهناك عين عظيمة يتفجر منها الماء بقوة حتى إني رأيت في الفتحة التي يخرج منها حجرة تزن مائة رطل قذف بها التيار إلى الخارج. وهذا هو منبع نهر سبو أكبر أنهار موريطانيا.

جبل بنْي يازْغَة

تسكن هذا الجبل قبيلة غنية محترمة جداً لأدبها وطريقة عيشها، ويجاور الجبل السابق حيث ينبع نهر سبو ويجري قريباً من هناك بين صخور عالية. وقد بنى أهل البلد عبارة عجيبة للمرور من ضفة إلى أخرى. فغرسوا في كل جانب من جانبي النهر عموداً عظيمًا قوياً، وثبتوا بكرة في كل واحد من العمودين، ثم مدوا من جانب لآخر حبالاً غليظة من الأسل تنزلق في هاتين البكرتين، وشدت إلى هذه الحبال سلة عميقة متسعة متينة، تتسع بسهولة لعشرة أشخاص. ومن أراد أن يعبر النهر لا يسعه إلا أن يدخل في السلة، ويجر الحبلين من الطرفين المثبتين بها فينزلقان في البكرتين بسهولة، وهكذا تنطلق السلة نحو الضفة المقابلة. ولما كنت أعبر مرة في هذه السلة حكى لي بعضهم أنه حدث منذ زمن طويل أن أراد أشخاص أن يركبوا في السلة وعددهم أكثر من طاقتها، فأمال فائض الحمل السلة وسقط بعض الناس في النهر بينما تشبث آخرون بالحبال ونجوا بمشقة عظيمة، ولم يظهر بعد ذلك أثر للذين سقطوا في النهر. أرعبتني هذه الحكاية، وقد نصبت العبارة بين قمتي جبلين، بحيث ترتفع عن مستوى النهر بنحو مائة وخمسين ذراعاً، ويبدو الرجل الواقف بجانب الماء لمن ينظر إليه من السلة، وكأن قامته شبر واحد.

ولسكان جبل بني يازغة عدد كثير من الماشية، لأن البلاد قليلة الأشجار، وصوف أغنامهم شديد النعومة، تصنع منه نساؤهم أقمشة كأنها من حرير، يتخذن منها لباساً لهن وأغطية للأسرة. ويباع الواحد من هذه الأغطية في فاس بثلاثة مثاقيل أو أربعة. ويستخرج هؤلاء الناس كذلك

زيتاً كثيراً من زيتون جبلهم، لكنهم خاضعون لملك فاس، ويدفع خراجهم الذي يؤدونه إلى عامل فاس القديم، وقد يصل هذا الخراج إلى ثمانية آلاف مثقال تقريباً.

أزْكّانْ

يجاور هذا الجبل جبل سليليو شرقاً، وجبل صفرو غرباً، ويمتد جنوباً إلى الجبال التي تحاذي نهر ملوية، وينتهي شمالاً في سهول إقليم فاس. يقارب طوله أربعين ميلاً، وعرضه خمسة عشر ميلاً. وهذا الجبل شاهق بارد جداً بحيث لا يمكن السكن إلا في المنحدر المواجه لفاس، المغروس كله بالزيتون وأشجار مثمرة أخرى. وتنبع فيه عيون عديدة تسيل في سهل أرضه صالحة لزراعة الشعير والكتّان والقنب الذي ينمو بكمية كبيرة في هذه البقعة. وقد غرست في هذا السهل، في الأزمنة الحديثة، الكثيرمن أشجار التوت لتربية دودة القز. ويسكن الناس في الشتاء أكواخاً في السهل. ويكون الماء في الصيف بارداً جداً لا يجرؤ أحد أن يترك يده فيه وقتاً للعد من واحد إلى عشرة. وقد رأيت رجلاً حلف أن يشرب كأساً من هذا الماء، فلما شربه أصابه وجع وظل مريضاً مدة ثلاثة أشهر.

مدينةُ صَفْرُو

مدينة صفرو صغيرة واقعة في سفح الأطلس على بعد نحو خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب من فاس، ويقع وبقربها ممر جبلي يفضي إلى نوميديا. وقد أسسها الأفارقة بين نهرين صغيرين حولهما أراض كثيرة مغروسة بالكروم وغيرها من الأشجار المثمرة. وليس هناك إلا غابات الزيتون، على مسافة خمسة أميال حول المدينة، لأن الأرض هزيلة في كل مكان. لا يزرع فيها غير الكتان والقنب والشعير. ان أهل صفرو أثرياء، لكنهم يرتدون لباساً رديئاً ملطخاً بالزيت دائماً، لأنهم يصنعون الزيت طوال السنة ويحملونه إلى فاس لبيعه. ولا شيء جميل في المدينة سوى جامع يخترقه

جدول ماء، وسقاية لطيفة قريبة من بابه. وتكاد تكون هذه المدينة خربة بسبب تعسف أميرها الذي هو أحد اخوة الملك الحالي.

مَزْدَغَة

مزدغة مدينة صغيرة في سفح الأطلس على بعد ثمانية أميال غربي صفرو، وهي محاطة بأسوار جميلة، إلا أنها لا تضم سوى ديار شنيعة في كل واحدة منها سقاية. وجميع سكانها تقريباً فخارون لأن لهم أرضاً صلصالية جيدة، يصنعون عدداً وافراً من الأواني الخزفية ويبيعونها في فاس، لأنهم لا يبعدون عنها بأكثر من اثني عشر ميلاً[160]. والبادية المحيطة بمزدغة صالحة للشعير والكتان والقنب، وتنتج كذلك الكثير من الزيتون وغيره من الفواكه. والأسود كثيرة في الأدغال المجاورة، وكذلك في الأدغال القريبة من المدينة السابقة، لكنها غير مخيفة تفر إذا اعترضها الإنسان بأي سلاح كان.

البْهَالِيلْ

هي مدينة صغيرة على منحدر الأطلس المواجه لفاس، على بعد نحو اثنين وسبعين ميلاً منها. ويوجد بالقرب منها ممر جبلي تشقه طريق نوميديا. وفي الجبل عدد من الجداول يخترق أحدها مدينة البهاليل. وتشبه المناظر المحيطة بها الأماكن التي تحدثنا عنها، غير أنه لا يوجد شيء آخر غير الغابة. والسكان حطابون، بعضهم يقطع الخشب وبعضهم يحمله إلى فاس، والأمراء يعاملونهم دائمًا معاملة سيئة ويثقلون كاهلهم بالضرائب، لأنهم ليسوا سوى أجلاف.

---

(160) بل المسافة بين مزدغة وفاس 22 ميلاً.

عَيْنُ الأصْنَام

كانت مدينة أسسها الأفارقة قديماً في سهل بين جبال عديدة على ممر الطريق المؤدية من صفرو إلى نوميديا، ويعني اسمها منبع الأوثان، يحكى أن الأفارقة عندما كانوا وثنيين، كان لهم قرب هذه المدينة معبد يجتمع فيه الرجال والنساء عند غروب الشمس في فصل معين من السنة، وبعد أن ينتهوا من تقديم القرابين كانوا يطفئون الأنوار ويستمتع كل واحد بالمرأة التي توجد صدفة على مقربة منه. وإذا أتى الصباح منعت كل امرأة قضت تلك الليلة في المعبد من أن تقترب من زوجها لمدة سنة، والأطفال الذين تلدهم أولئك النساء في تلك الفترة يربيهم كهان المعبد. وكان في هذا المعبد عين ما زالت موجودة لحد الآن. لكن المسلمين دمّروا المعبد والمدينة ولم يبق لهما أثر. وتكون العين بحيرة صغيرة يسيل ماؤها في سواق عديدة بحيث تجعل الأراضي في ضواحيها مستنقعات(161).

مَهْدِيَّة

هي مدينة مبنية على الأطلس وسط غابات وبجوار عيون حتى لكأنها في السهل. تبعد عن المدينة السابقة بنحو عشرة أميال، وقد أسسها داعية ولد في هذه الجبال أيام كانت قبائل زناتة تسيطر على مدينة فاس، لكن لما دخلت قبائل لمتونة هذه المنطقة بقيادة الملك يوسف (بن تاشفين) نهبت مهدية ودمرت، ولم يبق منها سوى جامع في غاية الجمال وما تبقى من السور، ذلك أن سكان هذا الجبل غلبوا على أمرهم وأصبحوا من رعايا ملك فاس، وذلك عام 515 للهجرة.

سَهْب المَرْجَة

يقارب عرض هذا السهل ثلاثين ميلاً وطوله أربعين ميلاً بين جبال الأطلس. وهذه الجبال مكسوة بغابات من أشجار ضخمة (الأرز)، يسكنها

---

(161) ما تزال عين الأصنام معروفة حتى الآن على بعد 20 كلم جنوبي صفرو.

الفحامون في أكواخ متباعد بعضها عن بعض، ولهم عدد من الأفران يمكنهم أن يستخرجوا منها مائة حمل من الفحم. ويقيم كثير من الناس في هذه الغابات لشراء الفحم منها وبيعه في فاس. وتوجد هناك أسود كثيرة تفترس بعض الفحامين في غالب الأحيان. ويحمل من الجبل إلى فاس قناطر في غاية الجمال وألواح متنوعة، لكن السهل جدب تماماً ومغطى بحجارة سوداء رقيقة تشبه حجر الأردواز، فلا ينبت فيه شيء.

أزَغارْ إيكْمَارَنْ

هذا سهل آخر محاط بجبال مكسوة بالغابات، يشبه مرجاً ينمو فيه العشب طوال السنة، ولهذا يقصده الكثير من الرعاة بأغنامهم في فصل الصيف، فيحيطون قطعانهم بسياجات عالية جداً من الأشواك، ويسهرون الليل كله في حراستها من الأسود.

جبل مائة بِير

هذا الجبل أعلى من الجبال الأخرى، وفي قمته أطلال عتيقة، بجوارها بئر عميقة جداً لا يستطيع أحد أن يرى قعرها، وذلك ما يؤدي بالمجانين الباحثين عن الكنوز أن ينزلوا إليها مراراً عديدة رجالاً مزودين بفوانيس. يقال ان لهذه البئر عدة طبقات، في الطابق الأسفل منها قاعة كبيرة منحوتة بالمعول، تحيط بها جدران فيها أربع فتحات منحنية تؤدي إلى أربع قاعات صغيرة فيها آبار ماء جار. ولا يرجع الكثير من الناس أحياء من هذا الاستكشاف إذ تهب أحياناً في الأعماق ريح رهيبة تطفىء الأنوار، فلا يستطيعون الاهتداء إلى طريق العودة إلى الخارج ويموتون جوعاً في قعر البير. وقد حكى لي أحد أعيان فاس، وكان معجباً بهذه الحماقة، أنه اتفق ذات يوم مع عشرة من أصحابه على القيام بمحاولة هذا الاستكشاف، ولما وصلوا إلى فوهة البئر اقترعوا على ثلاثة منهم سينزلون، وكان صاحبي من بينهم، فأنزلوا اذن بواسطة حبال حاملين بأيديهم فوانيس كما ذكرنا ذلك.

ولما وصل الرجال الثلاثة أمام الفتحات الأربع بالقاعة الكبرى، اتفقوا على أن يذهب كل واحد إلى جهة، لكن لما ذهب الأول، سار صاحبي والرجل الآخر معاً، ولم يقطعا مسافة ربع ميل حتى أحاطت بهما خفاشات عديدة تحوم حول الفانوسين وتصدمهما بأجنحتها حتى أطفأت أحدهما، وتابع الرجلان طريقهما إلى أن وصلا إلى بئر الماء الجاري، ووجدا قربه عظاماً بشرية قد ابيض لونها، وخمسة فوانيس أو ستة، بعضها قديم وبعضها جديد. ولما لم يبصرا في هذه الآبار شيئاً آخر غير الماء فانهما عادا أدراجهما. وما إن وصلا إلى منتصف الطريق حتى هبت ريح شديدة فجأة وأطفأت فانوسهما، فمشيا بعض الوقت دون أن يريا شيئاً وهما يتلمسان الطريق على غير هدى في الظلام، فلم يعثرا على طريق العودة. وأخيراً أنهكهما التعب واليأس فارتميا على الأرض يبكيان وينذران لله تعالى أنهما لن يعودا أبداً إلى هذا المكان ان خرجا منه حيين.

ولما رأى الذين كانوا ينتظرونهم في الخارج أن أحداً منهم لم يرجع وقد مضت ساعات عديدة، ظنوا أن كارثة نزلت بهم، فنزل خمسة منهم بفوانيس جيدة وقداحات واخترقوا الأروقة وهم يصرخون منادين أصحابهم. وأخيراً وجدوا الرجلين في الحالة التي وصفناها، ولم يتمكنوا من معرفة مصير الثالث، فقد ضل السبيل كما حدث لصاحبيه، ولم يدر إلى أين يتجه فسمع نباحاً يشبه صياح جراء الكلاب، فتوجه نحوها ورأى أربعة حيوانات صغيرة يبدو أنها ولدت منذ قليل. وبينما هو هناك جاءت الأم. وهي تشبه الذئبة لكنها أكبر منها. وهذا حيوان يلد في الكهوف أو الجحور ويسمى الضبع. جمد الشاب المسكين في مكانه خوفاً أن يلحقه سوء من ذلك الحيوان، لكنها أخذت تلعق صغارها ثم انصرفت يتبعها صغارها خطوة خطوة، ففعل مثلها مقتفياً أثرها إلى أن وصل إلى مخرج الدهليز عند قدم الجبل. وإذا سألني أحد كيف أمكن لهذا الرجل أن يبصر هناك؟ أجبته بأن الوقت المستمر الذي قضاه في الظلام ساعده على أن يسترجع بعض الرؤية، كما يحدث ذلك لمن يمضون بعض الوقت في الأماكن المظلمة.

والآن مع توالي السنين، ملئت هذه البئر ماء لأن الأرض حفرت كثيراً حتى سويت[162].

جبلُ ومَـمَرُّ الغِربان (خَنْكْ الْغُرْبان)

هذا الجبل[163] مجاور لسابقه، مكسو بغابة تعيش فيها أسود كثيرة. ليس فيه مدينة ولا قرية، ولا يسكنه أحد لشدة البرد فيه، وينبع فيه نهر صغير. صخور هذا الجبل عالية جداً، يعيش فيها عدد لا يحصى من الغربان، ومن ذلك اشتق اسمه. وتهب فيه أحياناً ريح شمالية تكدس أكوام الثلج، فيدفن فيها المسافرون الذاهبون من نوميديا إلى فاس، كما سبق أن ذكرت قصة في هذا الموضوع.

ويقصد هذا الجبل في الصيف أعراب يدعون بني حسين لبرودة مائه ولطافة ظله، بالرغم على تكاثر الأسود والفهود المرعبة فيه.

تَزَرْغَة

تزرغة بلدة صغيرة على شكل حصن، بناها الأفارقة على نهر صغير يمر في شعب عند قدم جبل الغربان. ولا تقل بشاعة سكان هذه البلدة عن بيوتها. يجهلون كل شيء عن الحضارة، وليس لهم لباس لائق ولا أية زينة، والأرض الزراعية ضيقة لا ينبت فيها إلا القليل من الشعير وبعض أشجار الخوخ. ويخضع السكان لأعراب دوى حسين.

أم جْنِيبَة

هي مدينة قديمة خربها العرب، تبعد عن المدينة السابقة بنحو اثني عشر ميلاً قرب ممر في الأطلس على منحدره الجنوبي. ويزعج الأعراب هذا

---

(162) ما زالت مائة بير معروفة حتى الآن بعيدة بنحو 10 كلم غربي خنك أبخنانس الذي تمر به الطريق الذاهبة من فاس إلى تفيلالت، وبعيدة بنحو 6 كلم جنوبي ضاية ايفراح.

(163) يظهر أن خنك الغربان هذا هو ما يسمى اليوم خنك أبخنانس على ارتفاع 1.700 ميتر.

الممر باستمرار، لأنه يوجد بالقرب من المدينة سهل كبير في أيدي الأعراب الذين لا يخشون الملك. ويظهر بجانب المدينة مرتفع يلزم كل من صعده ليقطعه مع قافلة أن يرقص، ذلك أن شيوخ المنطقة يزعمون أن من مر به ولم يرقص أصيب بالحمى الربعية. ورأيت بعيني كل الذين يمرون هنا يمرون وهم يرقصون خشية الحمى.

جبل بني مْرَاسَنْ

هذا الجبل شاهق بارد، لكن يسكنه قوم لا يأبهون بالبرد، يملكون عدداً وافراً من الخيل والحمير يتوالد عنها كثير من البغال التي تستخدم هنا دون سروج ولا بردعات كدواب للركوب، وإنما تجهز بشبه بريدعة خفيفة. وليس لأهل البلاد بيوت ذات جدران، فهم يعيشون في أكواخ من قصب، لأنهم يرحلون باستمرار لرعي خيولهم وبغالهم، ولا يؤدون أية ضريبة لملك فاس، لأن جبلهم منيع، ولكونهم أغنياء يدافعون عن أنفسهم.

جبل مَسْطَاسَة

يمتد هذا الجبل من الشرق إلى الغرب على مسافة تقرب من ثلاثين ميلاً، في عرض قد يبلغ عشرة أميال، ويتاخم غرباً سهل أدخسان المتاخم بدوره لتامسنا. وهو مثل الجبل السابق في البرودة وكثرة السكان وثرائهم ونبلهم وتوفرهم على عدد عظيم من الخيل والبغال. وينتمي كثير من أدباء فاس إلى هذه المنطقة، ويحسن الكثير من أهل هذا الجبل الكتابة بخط في غاية الاتقان، ولذلك ينسخون عدداً كثيراً من الكتب ويبيعون مخطوطاتهم في فاس. ولا يؤدون للملك أية ضريبة وإنما يقدمون له بعض الهدايا البسيطة.

جبال زيز

سميت هذه الجبال جبال زيز باسم نهر يوجد منبعه فيها. تبتدىء شرقاً من جبل مسطاسة، وتتاخم غرباً تادلا وجبال دادس، وتواجه جنوباً قسماً من نوميديا يدعى سجلماسة، كما تشرف شمالاً على سهول أدخسان وتيكريكرة؛ وتمتد طولاً قرابة مائة ميل، وعرضاً أربعين ميلاً. تشتمل جبال

زيز على خمسة عشر جبلاً، كلها باردة وعرة، تنبع منها أنهار كثيرة، ويسكنها قوم من قبيلة زناكة، مرعبون أقوياء، لا يبالون بالبرد والثلج. يرتدون رداء من صوف يجعلونه على جلدهم مباشرة، ويضعون فوقه معطفاً، كما يلفون سيقانهم بخرق مفتولة يستعملونها كنعال، ويبقى رأسهم عارياً في جميع الفصول.

يملك هؤلاء القوم عدداً وافراً من الخيل والبغال والحمير، لأن الغابات قليلة في جبالهم، وهم أكبر اللصوص وشر القتلة في العالم. عداوتهم للأعراب عميقة متأصلة، ينهبونهم ليلاً، وان لم يقدروا على شيء آخر أخذوا جمالهم ورموا بها من أعلى الصخور وهم ينظرون نكاية فيهم. ويرى في هذه البلاد شيء يكاد يكون من الخوارق، ألا وهو كثرة عدد الأفاعي التي هي في غاية الوداعة والالفة حتى إنها تزحف في البيوت تماماً كصغار الكلاب والقطط. وعندما يذهب أحدهم لتناول الطعام تتجمع حوله الثعابين الموجودة في البيت وتأكل أكلاً عادياً قطع الخبز وغيره من المأكولات التي تقدم لها، ولا تؤذي أحداً أبداً إذا لم يؤذها.

وسكان هذه البلاد رعاع أنذال، يعيشون في دور مبنية بأعمدة طويلة مطلية بالصلصال ومغطاة بسقف من قش، والذين يملكون منهم دواب أكثر من غيرهم يسكنون أكواخاً صغيرة مغطاة بالقصب. ويذهب هؤلاء الناس أحياناً إلى سجلماسة التي هي قسم من نوميديا كما قلنا، يحملون إليها صوفهم وسمنهم، لكنهم لا يذهبون إليها إلا عندما يكون الأعراب في الصحراء.

وبالرغم على أن الأعراب يهاجمونهم في غالب الأحيان بعدد كثير من الفرسان ويسلبونهم بضائعهم ويقتلونهم، فإن هؤلاء الجبليين لا يقلون عنهم إقداماً وشجاعة، وعندما يحاربون فإنهم لا يرضون أبداً بالاستسلام وهم أحياء، يحمل الواحد منهم ثلاثة رماح أو أربعة، ولا يخطىء هدفه اطلاقاً. يقتلون الفارس تارة والفرس أخرى، لأنهم يحاربون راجلين. وهم لا يغلبون إلا اذا واجهوا جيشاً جراراً من الفرسان. وقد يحملون سيوفاً

وخناجر. وقد اعتاد الجبليون في أيامنا هذه أن يطلبوا من الأعراب رخصة مرور، ويعطوا هم الأعراب رخصة مرور كذلك. وهكذا يمكنهم الاتجار في أمان، ويعطون رخص المرور كذلك لقوافل التجار الذين يؤدون لكل قبيلة من قبائل هذه الجبال حق مرور خاص، والا تعرضوا للنهب.

مدينة كَرْسَلْوِينْ

كرسلوين مدينة قديمة أسسها الأفارقة في سفح هذه الجبال على واد زيز، لها أسوار جميلة قوية من بناء ملوك بني مرين. وتبدو هذه المدينة عندما يراها المرء من بعيد شيئاً جميلاً جداً، لكنها بئيسة تماماً في الداخل، ليس بها غير أكواخ حقيرة وسكان قليلين، وذلك بسبب الأعراب. ولما سقطت دولة بني مرين انضوت هذه المدينة بمحض ارادتها تحت سلطة أعراب بني حسين الذين أساؤوا معاملة السكان. ولا يمكن استخراج أي دخل من هذه المدينة لأن جميع سكانها في فقر مدقع، وليس هناك إلا القليل من الأراضي الصالحة للزراعة. والحق أننا إذا استثنينا القسم الشمالي فإن جميع ضواحيها مجدبة حجرية، وتظهر على ضفاف النهر بعض الطاحونات وعدد عظيم من البساتين المزروعة بالكروم وأشجار الخوخ، وتجفف هذه الثمار لتستعمل طول السنة خاصة الخوخ، وتجعل هذه الفواكه المجففة مع أطعمة أخرى لتصنع منها وجبات يأكلونها.

والحيوانات قليلة جداً بحيث يعيش الناس في بؤس وشقاء. ولم يبن الزناتيون في الحقيقة هذه المدينة إلا لتكون حصناً، لا لشيء إلا للسيطرة على ممر نوميديا، إذ كانوا يخشون أن تتسرب قبيلة لمتونة منه إلى بلادهم. ومع ذلك جاء اللمتونيون من طريق آخر وخربوا المدينة وحطموها. ويوجد كذلك عدد كثير من الثعابين الأليفة المدجنة كالتي تحدثنا عنها من قبل[164].

---

(164) ما تزال أسوار كرسلوين ماثلة للعيان على الضفة اليمنى لواد زيز، إلا أنها فقدت اسمها وصارت تدعى الدوار، واختفت البساتين والطاحونات.

فهرس محتويات الجزء الأول
من كتاب «وصف إفريقيا»

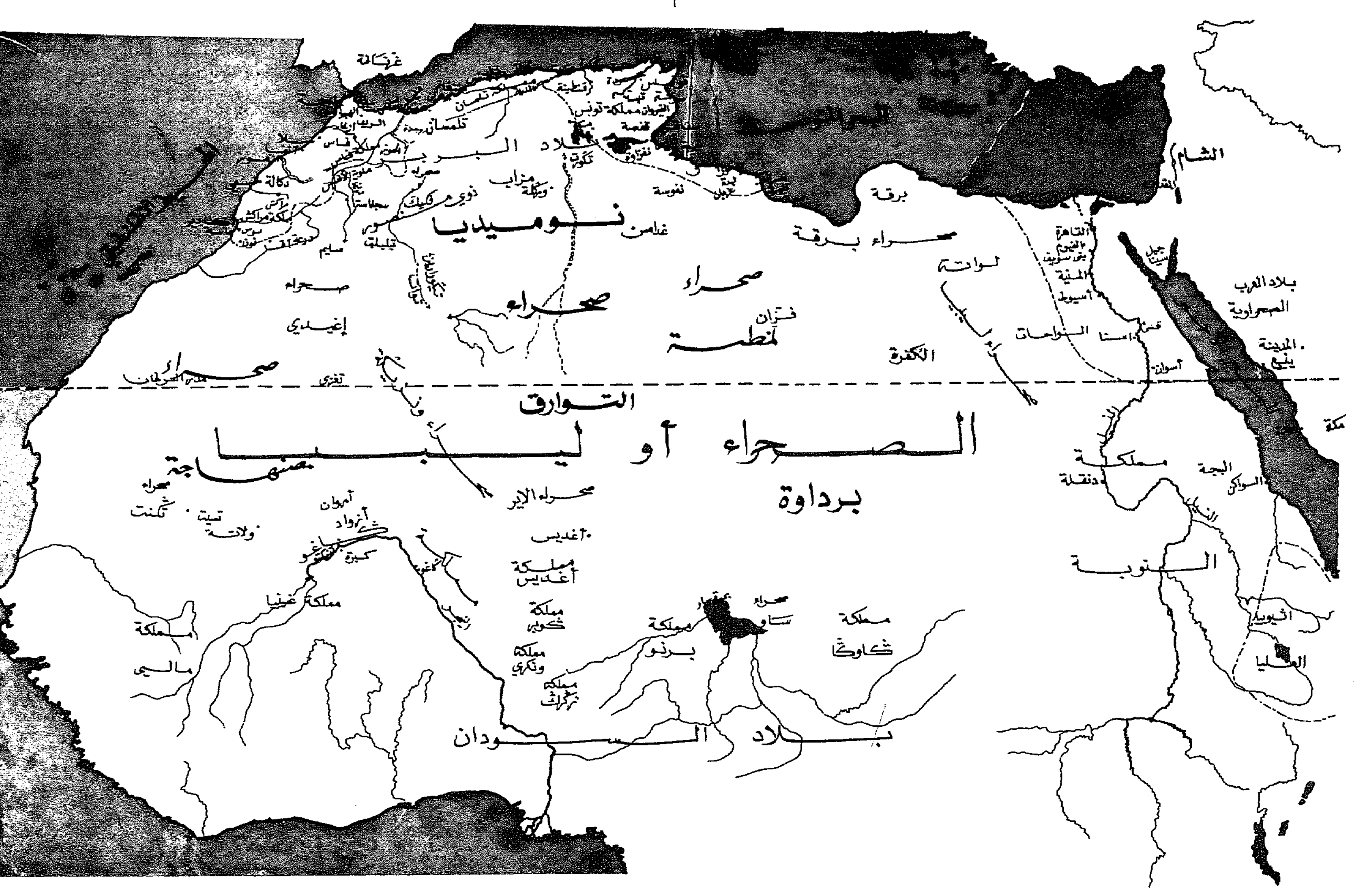
القسمُ الأول
وصفُ إفريقيا وما فيها من أشياء تستحقّ الذكر

القسمُ الثاني
مملكةُ مَرّاكُش

القسم الثالث
مملكةُ فَاس

* * *

* * *



الصحراء أو ليبيا
نوميديا
بلاد البربر
بلاد السودان
التوارق
برداوة
صحراء
صحراء
منطقة
فزان
الكفرة
صحراء برقة
برقة
لواتة
الشام
القاهرة
الفيوم
بني سويف
المنية
أسيوط
قنا
اسنا
الواحات
أسوان
بلاد العرب الصحراوية
المدينة
ينبع
مملكة دنقلة
البجة
سواكن
النوبة
أثيوبيا
العليا
صنهاجة
صحراء الإير
أغديس
مملكة أغديس
مملكة كوبر
مملكة ونكرى
مملكة زكزك
مملكة برنو
مملكة غنيا
مملكة مالي
تنبكت
ولاتة
تكنت
أزواد
أهوان
كبرة
صحراء
إغيدي
تغزي
غدامس
نفوسة
مزاب
ورقلة
تكورت
سجلماسة
تيليلت
تلمسان
فاس
تونس
قفصة
قسنطينة
غرناطة
مملكة مراكش
دكالة
درعة